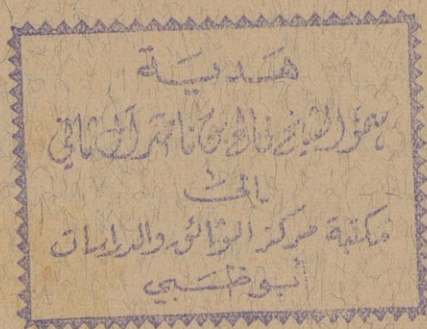




مَرْوَرُجُ الْاَلْهَبِ
وَمَعَادُنِ الْجَوْهَرِ

تصنيف الرحالة الكبير والمؤرخ الجليل أبي الحسن علي بن الحسين بن علي السعدي
المتوفى في عام ٣٤٦ من الهجرة

راجع أصوله ، ورقه ، وضبط مبهمه ، وعلق عليه

محمي الدين محمد بن الحسين

الجزء الأول

جميع حقوق الطبع محفوظة

يُطْلَبُ مِنَ الْمَكْتَبَةِ الْعَصْرِيَّةِ فِي بَغْدَادِ

لصاحبها محمود حامی

دارالرحمة

للطَّبَّاعِ وَالنَّسَّاجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشع منه جلود
الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى
به من يشاء ، ومن يضل الله فما له من هاد ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد
رسول الله إلى الناس كافة الذى قص الله تعالى عليه من أنباء الامم السالفة ما لم يكن
يعلمه هو ولا قومه ، وجعل ذلك موعظة للناس يتدبرها من كان له قلب أو ألقى
السمع وهو شهيد ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا
عبده ورسوله ، وصفوته من خلقه ، ومجتهباه من بين العالمين

أما بعد ، فهذا كتاب جمع فيه مؤلفه من علوم الأوائل ومعارفهم عيون المسائل
وأماها ، ولم يفصل القول فيه تفصيلا يطيل به على قارئه ، ولا أحاط بأطراف
ما تعرض له من المسائل ، مكثفيا بأن ينتقى من كل عقد دُرَّةً هى أتمن درره
وأغلاها عنده ، وأن يعترف من كل بحر قطرة هى أهنأ قطراته وأمرؤها ؛ وأن
يقتطف من كل روض زهرة هى أرج أزهيره وأنضرها ، وقد تعرض لاختلاف
العلماء فى أكثر ما بحث من مسائله ، وبين أقاويلهم ، وأشار إلى بعض حججهم ،
تاركا تفصيل ما أخذ فيه من القول إلى كتبه التى صنفها قبل هذا الكتاب ،
وقد أخذ علمه الذى أودعه كتابه هذا وكتبه السابقة عليه من مصدرين : أحدهما
جملة من كتب العلماء الذين سبقوه بالتدوين ، وقد أشار إلى أكثر هذه الكتب
فى مطلع هذا الكتاب ، وبين مقدار أهميتها فى نظره ، والمصدر الثانى - وهو فى
الأكثر عند ما يريد أن يحدثك عن عادات بعض البلدان أو حاصلاتها -

أحاديث الناس التي يتناقضونها كبرا عن كابر ، فهو يقول لك : « وقد رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بالواحات بباب الأخشيد محمد بن طفج ، وذلك سنة ثلاثين وثلثمائة وسألته عن كثير من أخبار بلدهم ، وما احتجت أن أعلمه من خواص أرضهم ، وكذلك كان فعلى مع غيره في سائر الأوقات ممن لم أصل إلى بلادهم ، وأخبرني هذا الرجل عما بأرضهم من الشب وأنواع الزاج ، وما يحمل من بلادهم ، وما بأرضهم من أنواع العيون الحامضة ، وغير ذلك من المياه المختلفة الطعوم » اه وانظر (ج ١ ص ٣٤١ و ٣٤٢ من هذه المطبوعة)

وقد أحصيت كتبه التي اختار منها لمعا أودعها في هذا الكتاب فوجدتها كثيرة العدد ، وأنا ذاكر لك منها جملة ، ومشير لك إلى موضع التنبيه عليها في الكتاب الذي بين يديك ، وكل هذه الكتب مفيد نافع جليل الموضوع ، ولكن أكثرها مع الأسف قد أصابته يد الضياع ،

(١) كتاب أخبار الزمان ، يشير إليه في نهاية كل موضوع يطرقه ، تقريبا ، وكذلك الكتاب الأوسط

(٢) كتاب المبادئ والتراكيب (انظر : ج ٢ ص ١١٧ من هذه المطبوعة)

(٣) « الرؤوس السبعة (انظر : ج ٢ ص ٨٢ و ١٢١)

(٤) « الزلف (انظر : ج ٢ ص ١١٧ و ١٢١)

(٥) « الصفوة في الامامة (انظر : ج ٢ ص ٥٠ و ١٧٣ ج ٣ ص ٢٨)

(٦) « الاستبصار (انظر : ج ٢ ص ٥٠ و ١٧٣ ج ٣ ص ٢٨)

(٧) « الزاهي (انظر : ج ٢ ص ١٧٣)

(٨) « المقالات في أصول الديانات (٢ : ٥٠ و ٧٣ و ٢٨ - ٣ : ٢٥)

(٩) « سر الحياة (٢ : ٦٩ و ٨٨)

(١٠) « الدعاوى (٢ : ٦٩)

(١١) « الاسترجاع (٢ : ٧٩)

(١٢) كتاب مزاهر الأخبار ، وظرائف الآثار (٢ : ٢٦٤ و ٣٠١)

(١٣) « الرؤيا والكمال (٢ : ٨٧)

(١٤) « طب النفوس (٢ : ٨٧)

(١٥) « حقائق الأذهان في أخبار آل محمد عليه الصلاة والسلام

(٢ : ٣٠١ - ٣ : ٢٤)

(١٦) كتاب القضايا والتجارب (٢ : ١٠٣)

(١٧) « الواجب في الفروض اللوازم (٣ : ٢٨)

ولست هذه كل كتبه التي أشار إليها ، وحكي أنه اقتطف منها في كتابه هذا لما تدل عليها وتشير للقارىء إليها ؛ بل هي أكثر مما تتسع له هذه العجالة اليسيرة التي أكتبها على عجل ، وأحب ألا أثقل فيها على نفسي وعلى القراء باحصاء ذخائر قد يكون في إحصائها من إيلاام النفس وتعذيب الروح على فقدائها وعبث المقادير بها أكبر مما في ذلك من التغنى بمجد الأسلاف والاشادة بما رقوا إليه من معارج البحث والتحقيق

وقد قمت لهذا الكتاب بعمل أرجو أن يكون مقبولا مرضياعنه ، وسيعرف كل قارىء قيمة هذا العمل إذا رجع إلى هذه المطبوعة وقارنها بما طبع قبل ذلك وأكل إليه وحده تقدير هذا المجهود المضنى . وعند الله سبحانه في ذلك الجزاء الأوفى
كتبه

محمد محي الدين

القاهرة { محرم الحرام افتتاح عام ١٣٥٧ هـ
مارس من عام ١٩٣٨ م

ترجمة المؤلف

(١) قال ابن شاكر في فوات الوفيات (ج ٢ ص ٥٧ طبع عام ١٢٨٣ من الهجرة) :

على بن الحسين بن علي ، أبو الحسين ^(١) ، المسعودي المؤرخ ، من ذرية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال الشيخ شمس الدين : عداة في البغداديين وأقام بمصر مدة ، وكان أخباريا علامة صاحب غرائب وملح ونوادر ، مات سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، وله من التصنيفات : كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك ، وكتاب ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور ، وكتاب الرسائل والاستدكار بما مر في سالف الأعصار ، وكتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم ، وكتاب التنبيه والأشراف ، وكتاب خزائن الملوك وسر العالمين ، وكتاب المقالات في أصول الديانات ، وكتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثنان ، وكتاب البيان في أسماء الأئمة ، وكتاب الخوارج . والله أعلم . اهـ بحروفه

(٢) وقال ابن النديم في الفهرست (ص ٢١٩ طبع مصر) :

المسعودي : هذا الرجل من أهل المغرب ، يعرف بأبي الحسن علي بن الحسين ابن علي المسعودي ، من ولد عبد الله بن مسعود ، مصنف لكتب التواريخ وأخبار الملوك ، وله من الكتب : كتاب يعرف بمروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك ، كتاب ذخائر العلوم وما كان في سائر الدهور ، كتاب الاستدكار لما مر في سالف الأعمار ، كتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم ، كتاب رسائل . اهـ

(٣) وقال جورجى زيدان في كتاب تاريخ اللغة العربية (ج ٢ ص ٣١٣)

(١) كذا ، والمحفوظ « أبو الحسن »

هو علي بن الحسين بن علي ، من ذرية عبد الله بن مسعود ، ولذلك قيل له المسعودي ، نشأ في بغداد وجاء مصر ، ورحل في طلب العلم إلى أقصى البلاد ؛ فطاف فارس وكرمان سنة ٣٠٩ حتى استقر في إصطخر ، وفي السنة التالية قصد الهند إلى ملتان والمنصورة ثم عطف إلى كنباية فصيمور فسرندب « سيلان » ومن هناك ركب البحر إلى بلاد الصين ، وطاف البحر الهندي إلى مداغسكار وعاد إلى عمان ، ورحل رحلة أخرى سنة ٣١٤ إلى ما وراء أذربيجان وجرجان ثم إلى الشام وفلسطين ، وفي سنة ٣٣٣ جاء أنطاكية والثغور الشامية إلى دمشق ، واستقر أخيرا بمصر ، ونزل القسطنطينية سنة ٣٤٥ ، وتوفي في السنة التالية ، ولم يفتر في أثناء أسفاره عن الاستقصاء والبحث واكتساب العلوم على اختلاف مواضيعها ؛ فجمع من الحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبقه إليه أحد ، وألف كثيرا من الكتب المفيدة في مواضيع شتى وأهمها في التاريخ ، وهالك أشهر مؤلفاته : (١) مروج الذهب ومعادن الجوهر : هو أشهر من أن يعرف لشيوعه ، وقد طبع مرارا في جزئين ، وصَفَ في الأول منهما الخليفة وقصص الأنبياء مختصرا ، ثم وصف البحار والأرضين وما فيهما من العجائب ، ويدخل في ذلك تواريخ الأمم القديمة من الفرس والسراريان واليونان والرومان والافرنج والعرب القدماء وأديانهم وعاداتهم ومذاهبهم وأوابدهم وأطوال الشهور والتقويم القديمة والبيوت المعظمة وغيرها ، ثم عطف على تاريخ الرسالة الإسلامية من ظهور النبي إلى مقتل عثمان ؛ وذكر في المجلد الثاني تاريخ الإسلام من خلافة علي إلى أيام المطيع لله العباسي « توفي سنة ٣٦٣ » (١)

ويظهر مما جاء في مقدمته أنه نقل هذا الكتاب عن عشرات من الكتب التاريخية وغيرها كانت موجودة في أيامه لم يصلنا منها إلا بضعة قليلة كتاريخ الطبري وفتوح البلدان للبلاذري ، وأما الباقي فقد ضاع ، وفيه عشرات من

(١) أي بعد وفاة المؤلف بسبعة عشر عاما تقريبا

كتب التاريخ والسياسة والاجتماع ، وفي خلال هذا الكتاب فوائد كثيرة لا تجدها في سواه ؛ ولذلك فقد عني المستشرق بارييه دى مينار بنقله إلى اللغة الفرنسية ، وطبع في باريس سنة ١٨٧٢ في ٩ مجلدات . وقد انتقد هذه الترجمة عبدالله المراسى في مجلة الضياء « سنة ٢ » ونقله إلى الانجليزية الأستاذ سبرنجر وطبع الجزء الأول من ترجمته في لندن سنة ١٨٤١

(ب) كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال والممالك الدائرة ؛ وهو كبير طويل مثل اسمه ، يدخل في ٣٠ مجلدا ، وقد أكثر المسعودى من الإشارة إليه في مروج الذهب — إذا اختصر الكلام في باب قال : « وقد فصلنا ذلك كتابنا أخبار الزمان » لكن هذا الكتاب ضائع الآن ، وليس منه إلا الجزء الأول في مكتبة فيينا

(ح) الكتاب الأوسط : هو وسط بين الكتابين المتقدمين ، وقد ضاع أيضا ، ولكن في مكتبة أكسفورد نسخة يظنون أنها هو ، ويظن بعض الباحثين أنه وقف على شيء منه في بعض مكاتب دمشق

(ع) كتاب التنبيه والاشراف : أودعه لعا من ذكر الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتراكيبها وأقسام الأزمنة وفصول السنة ومنازلها والرياح ومهابها والأرض وشكلها ومساحتها والنواحي والآفاق وتأثيرها على السكان وحدود الأقاليم السبعة والعروض والأطوال ومصاب الأنهار ، وذكر الأمم السبع القديمة ولغاتها ومساكنها ، ثم ملوك الفرس على طبقاتهم والروم وأخبارهم وجوامع تواريخ العالم والأنبياء ومعرفة السنين القمرية والشمسية وسيرة النبي وظهور الاسلام وسير الخلفاء وأعمالهم ومناقبتهم إلى سنة ٣٤٥ ، وفيه أشياء كثيرة لا توجد في غيره من كتب التاريخ ، وقد طبع في ليدن سنة ١٨٩٤ في جملة المكتبة الجغرافية في ٥٠٠ صفحة . اهـ بحروفه

فهرست الموضوعات

ص	الموضوع	ص	الموضوع
١	باب ذكر جوامع أغراض الكتاب	٣١	مسا كن حام بن نوح
١	يذكر المؤلف أن له كتابين اختصرهما	٣١	مسا كن سام بن نوح
	في هذا الكتاب	٣١	إرم بن سام
٣	الباعث للمؤلف على تأليف كتابه	٣١	ثمود بن سام
٤	ذكر جملة من العلماء الذين ألفوا	٣٣	طسم وجديس وعمليق
	في فن التاريخ واطلع المؤلف على كتبهم	٣٣	ماش بن إرم وأولاده
٦	ثناء المؤلف على ابن قتيبة والطبري	٣٣	فالغ بن شالح وأولاده
	ونقطويه	٣٣	إرفخشذ بن سام
٦	ثناءؤه على محمد بن يحيى الصولى صاحب	٣٣	شالغ بن إرفخشذ
	كتاب الاوراق	٣٣	عابر بن شالغ
٧	ثناءؤه على قدامة بن جعفر الكاتب	٣٣	فالغ بن عابر
	صاحب كتاب أخبار زهر الربيع	٣٣	رعو بن فالغ
	وكتاب الحراج	٣٣	ساروغ بن رعو
٧	نقد المؤلف لسنان بن ثابت بن قررة	٣٤	ناحور بن ساروغ
	الجرجاني	٣٤	تارح بن ناحور
٩	المؤلف يذكر ما أودعه كتابه من الفوائد	٣٥	مولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل
٩	المؤلف ينهى عن التصرف في	٣٥	أصحاب المؤتفكة
	الكتاب ويخوف من ذلك	٣٦	مولد إسحاق بن إبراهيم الخليل
١٠	ذكر ما اشتمل عليه الكتاب من الابواب	٣٦	الذبيح من أبناء إبراهيم الخليل
١٩	ذكر المبدأ وشأن الخليفة ودرء البرية	٣٦	أولاد إسحاق بن إبراهيم الخليل
٢٧	حواء تحمل بشيث	٣٧	يعقوب بن إسحق وأخوه العيص
٢٨	وصية آدم لشيث قبل وفاته	٣٧	وفاة يعقوب بن إسحاق وابنه
٢٨	حكم شيث بن آدم		يوسف
٢٩	أنوش بن شيث	٣٧	أيوب بن موص بن رزاح نبى
٢٩	خنوخ بن أنوش (وهو إدريس		الله
	النبى عليه الصلاة والسلام)	٢٨	موسى بن عمران بن قاهث نبى الله
٣٠	ملك	٣٨	شعيب بن نويت بن رعويل
٣٠	نوح بن ملك عليه السلام	٣٩	هارون أخو موسى بن عمران

الموضوع	ص	الموضوع	ص
عبد الله بن جحش الاسدي	٦٠	يوشع بن نون الكاهن أحد أسباط يوسف	٤٠
بحيرا الراهب	٦١	بلعم بن باعوراء	٤١
ذكر جبل من أخبار الهند وآرائها	٦٢	كالب بن يوقنا	٤١
وبدء ممالكها وملوكها		طالوت وجالوت	٤٣
حكمة الهنود ، ورأيهم في بدء العالم	٦٢	داود النبي	٤٤
وخالقه		نشأة سليمان بن داود	٤٥
البرهمن	٦٥	لقمان الحكيم	٤٦
الناهود بن البرهمن	٦٥	ملك سليمان	٤٦
صنع الترد وحكمته عندهم	٦٥	ملوك بني إسرائيل بعد سليمان	٤٦
دامان الملك بعد الناهود	٦٦	مولد عيسى ابن مريم عليه السلام	٥٠
ملك فور الذي حارب الاسكندر	٦٦	ذكر أهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم	٥٢
ملك دستلم الذي وضع له كتاب كلية ودمنة (وهو دبشليم)	٦٦	حنظلة بن صفوان	٥٢
ملك بلهيت ووضع الشطرنج	٦٦	ذو القرنين	٥٢
ملك كورس	٦٧	أهل الكهف	٥٢
اختلاف أهل الهند وتعدد ملوكهم	٦٧	جرجيس	٥٣
عادة أهل الهند في تملك ملوكهم	٦٨	حبیب النجار	٥٣
عادتهم في الاحتفال بموت الملك	٦٩	أصحاب الأخدود	٥٤
ذكر الارض والبحار ومبادئ الأنهار	٧١	خالد بن سنان العبسي	٥٤
والجبال والاقاليم السبعة وما والاها		وثاب السني أحد عبد القيس	٥٥
من الكواكب وترتيب الافلاك		أسعد أبو كرب الحميري	٥٥
وغير ذلك		قس بن ساعدة الايادي	٥٥
وصف الارض وتقسيمها ومركزها	٧١	زيد بن عمرو بن نفيل	٥٦
من الفلك ومن الشمس		أمية بن أبي الصلت	٥٧
الاقاليم السبعة	٧٢	ورقة بن نوفل	٥٩
رأى بطليموس في صفة الارض والافلاك	٧٣	عداس مولى عتبة بن أبي ربيعة	٦٠
رأى بطليموس في مساحة الارض	٧٥	أبو قيس صرمة بن أبي أنس	٦٠
القول بكروية البحار والدليل عليه	٧٦	أبو عامر الاوسي	٦٠
منزلة الارض من الكواكب	٧٧		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٧٧	هيا كل الصابئة وترتيبها على ترتيب الافلاك السبعة	١٠١	ترتيب البحار
٧٩	المراتب الدينية لرجال النصرانية	١٠٦	التنين وراء الناس فيه
٨٠	ذكر الاخبار عن انتقال البحار ،	١٠٧	الماء الملح أثقل من الماء العذب
٨٠	وجمل من أخبار الانهار الكبار	١٠٧	علامات لمعرفة وجود المياه في جوف الارض
٨٠	تحرك البحار وانتقالها ، وبيان السبب في تكونها	١٠٩	ذكر ملوك الصين والترك وتفرق ولد عابور ، وأخبار الصين ، ونحو ذلك
٨١	نهر النيل	١٠٩	القول في أنساب الصين
٨١	رد بعض أوهام للجاحظ الذي زعم أن نهر السند يستمد من النيل	١١٠	أول من ملك عليهم اسطرماس
٨٢	عود للكلام عن نيل مصر	١١٠	ملك عرون بن اسطرماس
٨٣	جيحون وهو نهر بلخ	١١٠	ملك عبرور بن عرون
٨٤	نهر جيحس وهو نهر بالهند	١١١	ملك عينيان بن عبرور
٨٥	الفرات	١١١	ملك حرامان بن عينيان
٨٦	دجلة	١١١	ملك ثومامان وما أحدثه في رعيته من الترتيبات
٨٧	بعض أنهار البصرة	١١٤	الصين شعوب وقبائل كالعرب
٨٨	ذكر جمل من الاخبار عن البحر الحبشى وما قيل في ذلك من مقداره وسعة خليجانه	١١٤	تدهور أحوال الصين
٩١	مغاصات الملؤلؤ	١١٥	عرف أهل الصين من قديم الزمان إحصاء السكان وعملاوبه
٩٢	مغاصات الدر والياقوت	١١٧	عدل ملوك الصين وكرمهم لمن يفد عليهم من رعايا الامم
٩٣	ذكر تنازع الناس في المد والجزر وعلة وجودهما في بعض البحار وعدمهما في بعضها الآخر	١١٩	بعض أخبار عن ملوك الصين
٩٧	ذكر بحر الروم ، ووصف ما قيل في طوله وابتدائه وانتهائه	١٢٣	ذكر جمل من الاخبار عن البحار وما فيها وما حولها من العجائب والامم ، ومراتب الملوك ، وأخبار الاندلس ، وبيان معادن الطيب وأصوله وعدد أنواعه
٩٩	ذكر بحر نيطش ، وبحر مانطش ، وخليج القسطنطينية	١٢٢	بحر الصين والهند وفارس واليمن
١٠٠	ذكر بحر الباب والابواب والجزر وجرجان وجمل من الاخبار على	١٢٤	مغاص الملؤلؤ ببحر فارس

ص	الموضوع	ص	الموضوع
١٢٥	وحدیث عن الغاصة وأعمالهم	١٥٥	الروس ، وتنوعهم
١٢٥	تفصیل أجزاء بحر الصين والهند	١٥٧	ذكر بعض المدن التي على ساحل البحر
	وما حوالیه من البلاد مع ذكر	١٥٨	ذكر بعض الجزائر
	أهلها وعاداتهم وما يوجد عندهم من	١٥٨	البازي الأبيض : وصفه ومكان
	الحاصلات		وجوده ، وصيده
١٢٨	بحر كلاهار وما عليه من الامم	١٥٩	القول بأن الهواء مسكون وبعض
١٢٩	بحر كردع وما عليه من الامم		حوادث دالة على ذلك
١٢٩	بحر الصنف وما عليه من الممالك	١٦٠	وصف الزاة
١٣٠	بحر صبحي وهو بحر الصين وكلمة	١٦١	أول من لعب بالشواهين
	في وصفه	١٦٣	مملكة حيزان
١٣١	بلاد السلي وجزائرها وكلمة عن	١٦٣	مملكة عميق
	مناخها وأهلها وصلتهم بالصين	١٦٣	مملكة درالكران
١٣٣	المسك وأنواعه	١٦٢	مملكة قیلان شاه
١٣٦	ملوك صقاية وإفريقية قبل الاسلام	١٦٤	مملكة اللان
١٣٧	ذكر من سار إلى الاندلس من بني	١٦٥	أمة كمشك
	أمية وكيف صار حالهم	١٦٦	إرم ذات العماد
١٣٨	وصف الحبشة والسودان	١٦٧	وصف نوع من القردة
١٤٠	مراتب الملوك الذين يلون الممالك التي	١٦٧	أمكنة القروود
	على البر الحبشي	١٦٩	أخبار العرايد والنسناس
١٤٥	وصف الحيوان الملعوف بالكركدن	١٧٠	عود إلى ذكر الامم المحيطة بالباب
١٤٧	ذكر بعض عادات أهل الهند		والابواب والصور وجبل الفتح
١٤٩	ذكر جبل الفتح وأخبار الامم		وبلاد الحزر واللان
١٤٩	وصف جبل الفتح ومدينة الباب	١٧٣	مملكة الصنبارية
	والابواب وكيفية بنائها وسبب	١٧٣	مملكة سكين
١٥١	مملكة طبرستان	١٧٣	مملكة قبله
١٥١	مملكة حيدان ، وهي من ممالك	١٧٤	مملكة الموقان
	الحزر	١٧٥	ذكر ملوك السريانيين وجمال من
١٥٢	عادة حرق الموتى		أخبارهم
١٥٣	برطاس ، وهي إحدى أمم الترك	١٧٦	نهر ميد
١٥٤	مدينة البلغر		

الموضوع ص

١٩٠ ملك منو جهر

١٩١ ملك سهم

١٩١ ملك فراسياب وحرابه مع الخارجين

عليه ومع من جاوره من الملوك

١٩٢ ملك كيخسرو وبنائه بلخ ، ومانال

بنى إسرائيل في عهده

١٩٣ بختنصر وبنو اسرائيل

١٩٣ زرادشت متبى المجوس

١٩٥ حاماس خليفة زرادشت

١٩٥ ملك بهمن بن اسفنديار

١٩٦ حمادى بنت بهمن

١٩٦ دارا بن بهمن

١٩٦ دارا بن دارا بن بهمن

١٩٨ ذكر ملوك الطوائف وهم بين الفرس

الاولى والثانية

٢٠٠ ذكر أنساب فارس واختلاف الناس

في نسب الفرس

٢٠٤ كان المتقدمون من الفرس يعظمون

الكعبة ويوزرونها ويطوفون بها

٢٠٦ ذكر الملوك الساسانية وهم الفرس

الثانية ، وأخبارهم

٢٠٦ أردشير بن بابك

٢١١ سابور بن أردشير

٢١٢ هرمز بن سابور

٢١٢ ظهور الزنادقة ، ومذهب مانى

٢١٣ بهرام بن بهرام

٢١٥ سابور ذوالاكتاف وحرابه مع الروم

٢٢٠ تفكير الرشيد في هدم إيوان كسرى

ومشاورته يحيى بن خالد البرمكى

ص الموضوع

١٧٦ وصف نوع عجيب من الشجر

١٧٧ تعذيب أهل الهند أنفسهم

١٧٨ مسير ملك الهند إلى بلاد سجستان

وحرابه مع السريانيين

١٧٩ ذكر بعض ملوك السريان

١٨٠ أول شرب الخمر

١٨١ ذكر ملوك الموصل ونيوى ولع من

أخبارهم

١٨١ موقع نينوى

١٨١ أول ملوكهم

١٨١ ملك سيمون

١٨١ ملك رمسيس

١٨٢ ذكر ملوك بابل ، وهم ملوك النبة

١٨٢ نمرود الجبار

١٨٢ بقية ملوك بابل وسنى ملكهم

١٨٤ بحث في الألوان وأنواعها

١٨٦ ذكر ملوك الفرس الأولى وجل من

أخبارهم

١٨٦ نسب كيومرث

١٨٦ كيومرث أول ملوك الأرض

١٨٨ ملك هوشنج

١٨٨ ملك طخمورث

١٨٨ إحداث مذهب الصابئة وعبادة

السكرالك

١٨٩ ملك جمشيد

١٨٩ إحداث النوروز

١٨٩ ملك بيوراسب (الضحاك)

١٨٩ ملك أفريدون

١٨٩ المهرجان

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٢٢١	ملك سابور بن سابور	٢٦٢	ذكر ملوك الروم وما قاله الناس في أنسابهم ، وعدد ملوكهم ، وتاريخ حكمهم ؛ ومدته
٢٢١	ملك يزدجرد	٢٦٢	الاختلاف في نسب الروم
٢٢١	ملك بهرام جور بن يزدجرد	٢٦٢	أول ملوك الروم ساطومان
٢٢٣	ملك يزدجرد بن بهرام جور	٢٦٣	ملك أغسطس بن قيصر
٢٢٣	ملك هرمز بن يزدجرد وأخيه فيروز	٢٦٤	ملك طياربوس
٢٢٣	ملك قباد بن فيروز وظهور مردق الزنديق	٢٦٤	ملك فلوريوس وأتباع المسيح عيسى ابن مريم
٢٢٤	ملك أنوشروان بن قباد، وحروبه، وتحصينه مملكته	٢٦٦	ملك نيرون
٢٣٠	ملك هرمز بن أنوشروان	٢٦٦	ملك طيطش وأسباسيانوس
٢٣٦	يوم ذي قاربين العرب والفرس	٢٦٧	أصحاب الكهف والرقم
٢٣٨	ملك قباد بن أبرويز المعروف بشيروه	٢٦٨	احصاء بعدة ملوك الروم
٢٣٩	إحصاء بعدة ملوك الفرس وزمنهم	٢٦٩	ذكر ملوك التنصرة ، وهم ملوك القسطنطينية ، ولع من أخبارهم
٢٤٢	ذكر ملوك اليونان ولع من أخبارهم وما قاله الناس في بدء أنسابهم	٢٧٠	سبب تنصر قسطنطين
٢٤٢	الاختلاف في بدء نسب اليونان	٢٧٢	الموسيقى وشرفها
٢٤٤	أول ملوك اليونان	٢٧٤	يقظة أهل الكهف
٢٤٥	نسب الاسكندر	٢٧٨	ذكر ملوك الروم بعد ظهور الاسلام
٢٤٥	اختلاف الناس في الاسكندر وفي ذي القرنين أهما واحد أم لا	٢٨٧	ذكر مصر وأخبارها ونيلها وعجائبها وأخبار ملوكها وما اتصل بذلك
٢٤٦	وقوف الحكماء على جدث الاسكندر عند موته	٢٨٧	وصف مصر
٢٤٩	ذكر جوامع من حروب الاسكندر بأرض الهند	٢٨٨	نيل مصر
٢٥٦	ذكر ملوك اليونان بعد الاسكندر	٢٩١	ليلة الغطاس وعادة أهل مصر فيها
٢٥٦	بطليموس	٢٩١	مقاييس النيل
٢٥٦	اللعب بالزاة والشواهين	٢٩٣	الفيوم
٢٥٧	ملك هيفلوس	٢٩٧	الأهرامات
٢٥٩	ملك قبطرة (كليوباترة)	٣٠٢	بعض عجائب مصر ونيلها
		٣٠٩	مبدأ النصرانية بمصر

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٣١٠	احصاء بملوك مصر ومدتهم	٣٤٨	ذكر الافرنجة والجلالة وملوكها
٣١١	تفسير كلمة فرعون	٣٤٩	ذكر النوردد وملوكها
٣١١	ذكر بعض عجائب وأخبار مصر	٣٥٢	ذكر عاد وملوكها
٣١٤	ذكر الاسكندرية وبنائها وملوكها	٣٥٥	ذكر ثمود وملوكها
	وعجائبها	٣٥٦	صالح نبى الله إلى ثمود
٣١٤	بناء الاسكندرية وكيفيته	٣٥٨	ذكر مكة وأخبارها وبناء البيت ،
	منارة الاسكندرية		وذكر من تداوله
٣٢٠	الطاووس	٣٥٩	زيارة ابراهيم خليل الله لمكة
٣٢٢	ذكر السودان وأنسابهم واختلاف	٣٥٩	تزوج إسماعيل من جرهم
	أجناسهم وأنواعهم وتباينهم في ديارهم ،	٣٥٩	زيارة إبراهيم لمكة ثانية
	وأخبار ملوكهم	٣٦٠	سبب تسمية إسماعيل
٣٢٢	الزرافة وأمكنة وجودها	٣٦٠	أبناء إسماعيل
٣٢٤	لوقليمن ملك الزنج	٣٦٠	بناء الكعبة
٣٢٤	صيد الفيلة	٣٦١	ولاية البيت من جرهم ومن أبناء
٣٢٥	لعب الشطرنج ومقامرة الهند به		إسماعيل
٣٢٥	الفيل ببلاد الهند	٣٦١	إساف ونائله صنان
٣٢٦	الزبرقان حيوان عجيب	٣٦٢	رواية أخرى في ولاية مكة
٣٢٨	عود إلى الفيلة ووصفها	٣٦٣	العالمق
٣٣٢	بعض عادات الزنج في لباسهم وحلّاهم	٣٦٣	طسم وجديس
٣٣٤	البجة وملوكهم	٣٦٣	أصحاب الرس
٣٣٤	الحبش	٣٦٤	دعوى الشعوبية والرد عليهم
٣٣٥	جزيرة سقوطرة	٣٦٦	خزاعة تلى أمر البيت
٣٣٨	الزمرد وأنواعه	٣٦٧	عمرو بن لحي أول من عبد الاصنام
٣٤١	قوص وقفت من بلاد مصر		بمكة
٣٤١	الواحات	٣٦٧	أنواع ولاية البيت ثلاثة
٣٤٢	أنواع الطعوم	٣٦٧	النساء
٣٤٦	ذكر الصقالبة ومساكنها ، وأخبار	٣٦٩	قريش البطاح
	ملوكها ، وأجناسها	٣٦٩	قريش الظواهر
٣٤٦	أجناس الصقالبة		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٣٦٩	الاحلاف	٣٧٢	بلاد فارس
٣٦٩	المطيون	٣٧٣	خوزستان
٣٦٩	الايلاف والتقریش	٣٧٣	أرض الجزيرة
٣٧٠	رحلتا قریش	٣٧٣	أرض الهند والصين وبلاد الروم
٣٧٠	ذكر جوامع الأخبار ووصف	٣٧٣	سؤال عمر بن الخطاب لكعب الاحبار
	الأرض والبلدان ، وحنين النفس		عن العراق وجواب كعب له
	إلى الاوطان	٣٧٤	المؤلف يصف موطنه إقليم بابل
٣٧٠	كتاب عمر بن الخطاب يستوصف	٣٧٥	الحنين إلى الاوطان
	البلاد	٣٧٥	منزلة علم الاخبار وكلمة عن فوائد
٣٧٠	الجواب على كتاب عمر بن الخطاب		الكتب
٣٧١	وصف بلاد الشام	٣٧٨	ذكر تنازع الناس في المعنى الذى من
٣٧١	وصف أرض مصر		أجله سمى اليمن يمنا والعراق عراقا
٣٧١	وصف بلاد اليمن		والشام شاما والحجاز حجازا
٣٧١	وصف بلاد الحجاز	٣٧٩	ذكر اليمن وأنسابها وما قاله الناس
٣٧١	وصف بلاد المغرب		في ذلك
٣٧٢	وصف بلاد العراق	٣٨٠	لغة إسماعيل بن ابراهيم الخليل
٣٧٢	وصف سكنى الجبال	٣٨١	جرهم هو قحطان عند المهيم بن عدى
٣٧٢	تأثير البيئة الطبيعية	٣٨٢	خاتمة الجزء الاول
٣٧٢	وصف بلاد خراسان		

تمت الفهرست ، والحمد لله تعالى أولا وآخرا ،
وصلاته وسلامه على رسوله محمد وآله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله أهل الحمد ، ومُسْتَوْجِبُ الثناء والمجد ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى آله الطاهرين ، وسلم تسليمًا إلى يوم الدين .

باب ذكر جوامع اغراض هذا الكتاب

أما بعد ، فإنا صَنَفْنَا كتابنا في أخبار الزمان ، وقدَّمْنَا القول فيه في هَيْئَةِ الأرض ، ومدنها ، وعجائبها ، وبحارها ، وأغوارها ، وجبالها ، وأنهارها ، وبدائع معادنها ، وأصناف مناهلها ، وأخبار غياضها ، وجزائر البحار ، والبحيرات الصغار ، وأخبار الأبنية العظيمة ، والمسكن المشرفة ، وذكر شأن المبدأ ، وأصل النسل ، وتباين الأوطان ، وما كان نهرا فصار بحرا ، وما كان بحرا فصار برّا ، وما كان برا فصار بحرا ، على مرور الأيام ، وكُرُور الدهور ، وعلة ذلك ، وسببه الفلكي والطبيعي ، وانقسام الأقاليم بخواص الكواكب ، ومعاطف الأوتاد ، ومقادير النواحي والآفاق ، وتباين الناس في التاريخ القديم ، واختلافهم في بدئه وأوليته ، من الهند وأصناف الملحين ، وما ورد في ذلك عن الشرعيين وما نطقت به الكتب وورد على الديانين .

ثم أتبعنا ذلك بأخبار الملوك الغابرة ، والأمم الدائرة ، والقرون الخالية ، والطوائف البائدة ، على مرّ سيرهم في تغير أوقاتهم وتضيف أعصارهم ، من الملوك والفراعة العادية والأكاسرة واليونانية ، وما ظهر من حكمهم ومقائل فلاسفتهم وأخبار ملوكهم ، وأخبار العناصر ، إلى ما في تضاعيف ذلك من أخبار الأنبياء والرسل والأتقياء ، إلى أن أفضى الله بكرامته وشرف برسالته محمداً نبيه صلى الله

المؤلف كتابان
اختصرهما في
هذا الكتاب

عليه وسلم ، فذكرنا مولده ، ومنشأه ، وبعثته ، وهجرته ، ومغازيه ، وسراياه ، إلى
أَوَّانِ وفاته ، واتصال الخلافة ، واتساق المملكة بزمان زمن ، ومقاتل من ظهر
من الطالبيين ، إلى الوقت الذي شرعنا فيه تصنيف كتابنا هذا من خلافة المتقي
للله أمير المؤمنين ، وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة .

ثم أتبعناه بكتابنا الأوسط في الأخبار على التاريخ وما اندرج في السنين
الماضية ، ومن لدن البدء إلى الوقت الذي عنده انتهى كتابنا الأعظم وما تلاه من
الكتاب الأوسط .

رأينا إيجاز ما بسطناه ، واختصار ما وسطناه ، في كتاب لطيف نُودَعه لَمَعَ
ما في ذَيْنِكَ الكتابين مما ضَمَّنَاهُمَا ، وغير ذلك من أنواع العلوم ، وأخبار
الأمم الماضية ، والأعصار الحالية ، مما لم يتقدم ذكره فيهما .

على أنا نعتذر من تقصير إن كان ، وَتَنَصَّلَ من إغفال أو عَرَضَ لما قد شَابَ
خَوَاطِرَنَا ، وَغَمَرَ قُلُوبَنَا ، من تَقَاذُفِ الأسفار ، وَقَطْعِ القِفَارِ ، تارة على متن
البحر ، وتارة على ظهر البر ، مُسْتَعْلِمِينَ بدائع الأمم بالمشاهدة ، عارفين خواصَّ
الأقاليم بالمعاينة ؛ كَقَطْعِنَا بِلَادَ السُّنْدِ وَالزَّبْجِ وَالصَّنْفِ وَالصِّينِ وَالرَّابِجِ ، وَتَقَحُّمِنَا
الشَّرْقَ والغرب ؛ فَتَارَةً بِأَقْصَى خُرَّاسَانَ ، وَتَارَةً بِوَسَائِطِ إِرْمِينِيَّةٍ وَأَذَرْبَيْجَانَ
والمهات والطاقان ، وَطَوْرًا بِالْعِرَاقِ ، وَطَوْرًا بِالشَّامِ ، فَسِيرَى فِي الْآفَاقِ ، سُرَى
الشَّمْسِ فِي الْإِشْرَاقِ ، كما قال بعضهم : —

تَيَمَّمَ أَقْطَارَ الْبِلَادِ فَتَارَةً
لَدَى شَرْقِهَا الْأَقْصَى وَطَوْرًا إِلَى الْغَرْبِ
سُرَى الشَّمْسِ لَا يَنْفَكُ تَقْدِفُهُ النَّوَى
إِلَى أَفْقٍ نَاءٍ يَقْصُرُ بِالرَّكْبِ

قال المصنف : ثم مفاوضتنا في أصناف الملوك على تغيار أخلاقهم ، وتباين
هممهم ، وتباعد ديارهم ، وأخذنا بمسلك مسلك من مواقفهم ، على أن العلم قد

بادت آثاره ، وطمس مناره ، وكثر فيه العناء ، وقلَّ الفهماء ، فلا تُعَيْن إلا
مُؤَهَا جاهلا ، ومتعاطيا ناقصا ، قد قنع بالظنون ، وعمى عن اليقين ، لم ير
الاشتغال بهذا الضرب من العلوم والتفرغ لهذا الفن من الآداب ، حتى صنفنا
X كتبنا من ضروب المقالات ، وأنواع الديانات ؛ ككتاب « الإبانة عن أصول
الديانة » وكتاب « المقادير في أصول الديانات » وكتاب « سر الحياة » وكتاب
« نظر الأدلة في أصول الملة » وما اشتمل عليه من أصول الفنون وقوانين
الأحكام : كتيقن القياس ، والاجتهاد في الأحكام ، ووقع الرأى والاستحسان ،
ومعرفة الناسخ من المنسوخ ، وكيفية الإجماع وماهيته ، ومعرفة الخاص والعام ،
والأوامر والنواهي ، والحظر والإباحة ، وما أتت به الأخبار من الاستفاضة
والآحاد ، وأفعال النبي صلى الله عليه وسلم ، وما ألحق بذلك من أصول الفتوى ،
ومناظرة أبناء الخصوم فيما نازعونا فيه ، وموافقتهم في شيء منه ، وكتاب
« الاستبصار » في الإمامة ووصف أقاويل الناس في ذلك من أصحاب النص
والأخبار ، وحجاج كل فريق منهم ، وكتاب « الصفوة في الإمامة » وما احتواه
ذلك ، مع سائر كتبنا في ضروب علم الظواهر والبواطن ، وألحقى الدائر ، وإيقاظنا
على ما يرتقيه المرتقون ، ويتوقعه المحدثون ، وما ذكره من نور يلمع في الأرض ،
وينبسط في الجذب والخصب ، وما في عقب الملاحم الكائنة ، الظاهر أنباؤها ،
المنجلى أوائلها ، إلى سائر كتبنا في السياسة كالسياحة المدينة وأجزاء المدينة ،
ومثلها الطبيعية ، وانقسام أجزاء تكوُّر المدينة ، ومثلها الطبيعية منه ، وانقسام
أجزاء الملة ، والإبانة عن المواد ، وكيفية تركيب العوالم ، والأجسام السبائية ، وما
هو محسوس وغير محسوس ، من الكثيف واللطيف ، وما قال أهل النحلة
في ذلك .

الباعث له
على التأليف

وكان ما دعاني إلى تأليف كتابي هذا في التاريخ وأخبار العالم وما مضى في
أكناف الزمان من أخبار الأنبياء والملوك وسيرها والأمم ومساكنها محبة

احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء ، ووفقاها الحكماء ، وأن يبقى العالم ذكراً محموداً ، وعلماً منظوماً عتيداً ، فإننا وجدنا مُصنِّفِي الكتب في ذلك مُجيداً ومُقَصِّراً ، ومنتهياً ومختصراً ، ووجدنا الأخبار زائدة مع زيادة الأيام ، حادثة مع حدوث الأزمان ، وربما غاب البارِع منها على الفطن الذكي ، ولكل واحد قِسْطٌ يُخَصُّه بمقدار عنايته ، ولكل إقليم عجائب يقتصر على علمها أهله ، وليس من لَزِمَ جهة وطنه وقنع بما نَمَى إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قَسَمَ عمره على قِطْعِ الأقطار ، ووزَّع أيامه بين تقاذف الأسفار ، واستخراج كل دقيق من معدنه ، وإثارة كل نفيس من مكمنه .

وقد أَلَفَ النَّاسُ كِتَاباً في التاريخ والأخبار مِمَّنْ سَافَ وخَلَفَ ، فأصاب البعض وأخطأ البعض ، وكل قد اجتهد بغاية إمكانه ، وأظهر مكنون جوهر فِطْنَتِهِ ؛ كَوَهَب بن مُنْبِه ، وأبي مخنف لوط يحيى العامري ، ومحمد بن إسحاق ، والواقدي ، وابن الكلبي ، وأبي عُبَيْدَةَ مَعْمَر بن المثنى ، وأبي العباس الهمداني ، والهِشَم بن عدي الطائي ، والشرقي بن القُطَامي ، وحماد الراوية ، والأصمعي ، وسَهْل بن هرون ، وعبد الله بن المقفع ، واليزيدي ، ومحمد بن عبد الله العُتبي ، والآمدي ، وأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري ، والنضر بن شميل ، وعبيد الله ابن عائشة ، وأبي عُبَيْدٍ القاسم بن سلام ، وعلي بن محمد المدائني ، ودماذ بن ربيع ابن سلمة ، ومحمد بن سلام الجُمَحي ، وأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وأبي زيد عمرو بن شيبه النُميري ، والزُرَّقي الأنصاري ، وأبي السائب الخزومي ، وعلي بن محمد ابن سليمان النوفلي ، والزيبر بن بكار ، والإنجيلي ، والرياشي ، وابن عائدة ، وعمار ابن وسيمة المصري ، وعيسى بن لهيعة المصري ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصري ، وأبي حسان الزياتي ، ومحمد بن عيسى الخوارزمي ، وأبي جعفر محمد بن أبي السري ، ومحمد بن الهيثم بن شبابة الخراساني صاحب كتاب الدولة ، وإسحق بن إبراهيم الموصلي صاحب كتاب الأغاني وغيره من الكتب ،

بعض من
ألف في التاريخ
قبل المؤلف

والخليل بن الهيثم الخرمي صاحب كتاب الحيل والمسكيد في الحروب وغيره ،
 ومحمد بن يزيد المبرد الأزدي ، ومحمد بن سليمان المنقري الجوهري ، ومحمد بن زكريا
 الغلاني المصري المصنف للكتاب المترجم بكتاب الأجواد وغيره ، وابن أبي الزيني
 مؤدب المكتفي بالله ، وأحمد بن محمد الخراعي المعروف بالحقاني الأنطاكي ، وعبد الله
 محمد بن محفوظ البلدي الأنصاري صاحب أبي يزيد عمارة بن زيد البيني ، ومحمد
 البرقي بن خالد الرقي الكاتب صاحب التبيان ، وولده أحمد بن محمد بن خالد البرقي ،
 وأحمد بن أبي طاهر صاحب الكتاب المعروف بأخبار بغداد وغيره ، وأبي الوشاء ،
 وعلي بن مجاهد صاحب الكتاب المعروف بأخبار الأمويين وغيره ، ومحمد بن
 صالح بن النطاح صاحب كتاب الدولة العباسية وغيره ، ويوسف بن إبراهيم صاحب
 أخبار إبراهيم بن المهدي وغيرها ، ومحمد بن الحرث الثعلبي صاحب الكتاب المعروف
 بأخبار الملوك المؤلف للفتح بن خاقان وغيره ، وأبي سعيد السكري صاحب كتاب
 آيات العرب ، وعبد الله بن عبد الله بن حسن بن دارية فإنه كان إماماً في التأليف ،
 متنوعاً في ملاحاة التصنيف ، أتبعه من يُعتمد ، وأخذ منه ووطئ على عقبه ،
 وقما أثره ، وإذا أردت أن تعلم صحة ذلك فانظر إلى كتابه الكبير في التاريخ فإنه
 أجمع هذه الكتب جداً ، وأبدعها نظماً ، وأكثرها علماً ، وأحوى لأخبار الأمم
 وملوكها وسيرها من الأعاجم وغيرها ، ومن كتبه النفيسة في المسالك والممالك وغير
 ذلك ، مما إذا طلبته وجدته ، وإذا تفقدته حمدته ، وكتاب التاريخ من المولد
 إلى الوفاة ، ومن كان بعد النبي صلى الله عليه وسلم من الخلفاء والملوك إلى خلافة
 المعتضد بالله وما كان من الأحداث والكوائن في أيامهم وأخبارهم ، تأليف محمد
 ابن علي ، وكتاب النسب لأحمد بن علي البلاذري ، وكتاباه أيضاً في البلدان
 وفتوحها صلحاً وعتوةً من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وما فتح في أيامه وعلى
 يد الخلفاء بعده ، وما كان من الأخبار في ذلك ، ووصف البلدان في الشرق
 والغرب والجنوب ، ولا نعلم في فتوح البلدان أحسن منه ، وكتاب داود بن الجراح

في التاريخ الجامع لكثير من أخبار الفرس وغيرها من الأمم ، وهو جد الوزير على ابن عيسى بن داود بن الجراح ، وكتاب التاريخ الجامع لفسون من الأخبار والكوائن في الأعصار قبل الإسلام وبعده ، تأليف أبي عبد الله محمد بن الحسن ابن سوار المعروف بابن أخت عيسى بن فرخان شاه ، بلغ في تصنيفه إلى سنة عشرين وثلاثمائة ، وتاريخ أبي عيسى بن المنجم على ما أنبأت به التوراة وغير ذلك من أخبار الأنبياء والملوك وكتاب التاريخ ، وأخبار الأمويين ومناقبهم ، وذكر فضائلهم ، وما بانوا به عن غيرهم ، وما أحدثوه من السير في أيامهم ، تأليف أبي عبد الرحمن خالد بن هشام الأموي ، وكتاب القاضي أبي بشر الدولابي في التاريخ ، والكتاب الشريف تأليف أبي بكر محمد بن خلف وكيع القاضي في التاريخ وغيره من الأخبار ، وكتاب السير والأخبار لمحمد بن خالد الهاشمي ، وكتاب السير والأخبار لإسحق ابن سليمان الهاشمي ، وكتاب سير الخلفاء لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي صاحب كتاب المنصوري في الطب وغيره ، فأما عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري فمن كثرت كتبه ، واتسع تصنيفه ، ككتابه المترجم بكتاب المعارف وغيره من مصنفاته ، وأما تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الزاهي على المؤلفات ، والزائد على الكتب المصنفات ، فقد جمع أنواع الأخبار ، وحوى فنون الآثار ، واشتمل على صنوف العلم ، وهو كتاب تكثر فائدته ، وتنفع عائدته ، وكيف لا يكون كذلك ؟ ! ومؤلفه فقيه عصره ، وناسك دهره . إليه انتهت علوم فقهاء الأمصار ، وحملة السنن والآثار ، وكذلك تاريخ أبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة الواسطي النحوي الملقب بنفطويه فحشو من ملاحاة كتب الخاصة ، ملوء من فوائد السادة ، وكان أحسن أهل عصره تأليفاً ، وأما محمد بن تصنيفاً ، وكذلك سلك محمد بن يحيى الصولي في كتابه المترجم بكتاب الأوراق في أخبار الخلفاء من بني العباس وبني أمية ، وشعرائهم ، ووزرائهم ، فانه ذكر غرائب لم تقع لغيره ، وأشياء تقردها ، لأنه شاهدها بنفسه ، وكان محظوظاً من العلم ، ممدوداً من المعرفة ،

ثناء المؤلف
على ابن قتيبة
والطبري
ونفطويه

ثناءه
على الصولي

مرزوقاً من التصنيف وحسن التأليف ، وكذلك كتاب الوزراء وأخبارهم لأبي الحسن
 على بن الحسن المعروف بابن الماشطة ، فانه بلغ في تصنيفه إلى آخر أيام الراضى بالله ،
 وكذلك أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب ، فانه كان حسن التأليف ، بارع
 التصنيف ، موجزاً للألفاظ ، معرباً للمعاني ، وإذا أردت علم ذلك فانظر في كتابه
 في الأخبار المعروفة بأخبار زهر الربيع ، وأشرف على كتابه المترجم بكتاب الخراج ؛
 فانك تشاهد منه حقيقة ما قد ذكرنا ، وصدق ما وصفنا ، وما صنفه أبو القاسم
 جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى الفقيه في كتابه في الأخبار الذى يعارض فيه
 كتاب الروضة ولقبه بالباهر ، وكتاب إبراهيم بن ماهويه الفارسى الذى عارض
 فيه المبرد في كتابه الملقب بالكمال ، وكتاب إبراهيم بن موسى الواسطى الكاتب
 في أخبار الوزراء الذى عارض فيه كتاب محمد بن داود الجراح فى الوزراء ،
 وكتاب على بن الفتح الكاتب المعروف بالمطوق فى أخبار عدة من وزراء المقتدر
 بالله ، وكتاب زهرة العيون وجماء القلوب تأليف المصرى ، وكتاب التاريخ
 تأليف عبد الرحمن بن عبد الرزاق المعروف بالجوزجاني السعدى ، وكتاب
 التاريخ وأخبار الموصل تأليف أبى ذكوة الموصلى ، وكتاب تاريخ أحمد بن
 أبى يعقوب المصرى فى أخبار العباسيين وغيرهم ، وكتاب التاريخ فى أخبار
 الخلفاء من بنى العباس وغيرهم لعبد الله بن الحسين بن معد الكاتب ، وكتاب
 محمد [بن مزيد] بن أبى الأزهر فى التاريخ وغيره ، وكتاب المترجم بكتاب
 الهرج والأحداث .

ثناؤه على
 قدامة بن جعفر

نقد المؤلف
 لثابت بن قرة

ورأيت سنان بن ثابت بن قرة الجرجاني — حين انتحل ما ليس من
 صناعته ، واستهج ما ليس من طريقته — قد ألف كتاباً جعله رسالة إلى بعض
 إخوانه من الكتاب ، واستفتحه بجوامع من الكلام فى أخلاق النفس وأقسامها
 من الناطقة والغضبية والشهوانية ، وذكر لهماً من السياسات المدنية مما ذكره
 أفلاطون فى كتابه فى السياسة المدنية ، وهو عشر مقالات ، ولهماً مما يجب على

الملوك والوزراء ، ثم خرج إلى أخبار يزعم أنها صحت عنده ولم يشاهدها ،
ووصل ذلك بأخبار المعتضد بالله ، وذكر صحبته به ، وأيامه السالفة ، ثم ترقى إلى
خليفة خليفة في التصنيف ؛ مضادة لرسم الأخبار والتواريخ ، وخروجا عن جملة
أهل التأليف ، وهو وإن أحسن فيه ، ولم يخرجه عن معانيه ، فانما عيبه أنه
خرج عن مركز صناعته ، وتكلف ما ليس من مهنته ، ولو أقبل على الذي
انفرد به من علم إقليدس والمعضمات والمجسطى والمدورات ، ولو استفتح
بسقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس ؛ فأخبر عن الأشياء الفلكية ، والآثار العلوية ،
والمزاجات الطبيعية ، والنسب والتأليفات ، والنتائج والمقدمات ، والصنائع
المركبات ، ومعرفة الطبيعيات : من الألهيات ، والجواهر والهيآت ، ومقادير
الأشكال ، وغير ذلك من أنواع الفلسفة — لكان قد سلم مما تكلفه ، وأتى
بما هو أليق بصنعتة ، ولكن العارف بقدره يعود ، والعالم بمواضع الخلة مفقود ،
وقد قال عبد الله بن المقفع : من وضع كتابا فقد استهدف ، فإن أجاد فقد
استشرف ، وإن أساء فقد استغذف

قال أبو الحسن علي بن الحسين بن [علي] المسعودي : ولم نذكر من كتب
التواريخ والأخبار والسير والآثار إلا ما اشتهر مصنفوها وعرف مؤلفوها ،
ولم نتعرض لذكر كتب تواريخ أصحاب الأحاديث في معرفة أسماء الرجال
وأعصارهم وطبقاتهم ، إذ كان ذلك أكثر من أن نأتى على ذكره في هذا
الكتاب ، إذ كنا قد أتينا على جميع تسمية أهل الأعصار من حملة الآثار ،
ونقلة السير والأخبار ، وطبقات أهل العلم من عصر الصحابة ، ثم من تلاميذ
من التابعين ، وأهل كل عصر على اختلاف أنواعهم ، وتنازعهم في آرائهم : من
فقهاء الأمصار وغيرهم من أهل الآراء والنحل والمذاهب والجدل ، إلى سنة اثنتين
وثلاثين وثلاثمائة ، في كتابنا المترجم بكتاب أخبار الزمان ، والكتاب الأوسط .

وقد سُمِّتَ كتابي هذا بكتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ؛ لنفاسة
 ماحواه ، وعظم خطر ما استولى عليه : من طوابع بوارع ماتضمنته كتبنا السالفة
 في معناه ، وغرر مؤلفاتنا في مغزاه ، وجعلته تحفة للأشراف من الملوك وأهل
 الدرايات ، لما قد ضمنته من جمل ما تدعو الحاجة إليه ، وتنازع النفوس إلى علمه
 من دراية ماسلف وغير في الزمان ، وجعلته مسهما على أغراض ماسلف من
 كتبنا ، ومشتملا على جوامع يحسن بالأديب العاقل معرفتها ، ولا يُعَذِّرُ في التغافل
 عنها ، ولم نترك نوعا من العلوم ، ولا فنا من الأخبار ، ولا طريقة من الآثار ،
 إلا أوردناه في هذا الكتاب مفصلا ، أو ذكرناه مجملا ، أو أشرنا إليه بضرب
 من الإشارات ، أو لوَحَّنا إليه بفحو من العبارات .

فمن حرف شيئا من معناه ، أو أزال ركنا من مبناه ، أو طمسَ واضحة
 من معامله ، أو لبسَ شاهدة من تراجمه ، أو غيَّره ، أو بدَّلَه ، أو أشأنه ^(١) ، أو
 اختصره ، أو نسبته إلى غيرنا ، أو أضافه إلى سوانا ، فوافاه من غضب الله
 ووقوع تقمه وفوادم بلاياه ما يَعْجِزُ عنه صَبْرُهُ ، ويَحَارُ له فكره ، وجعله الله
 مُثَلَّةً للعالمين ، وعبرة للمعتبرين ، وآية للمتوسِّمين ، وسلبه الله ما أعطاه ، وحال
 بينه وبين ماأنعم عليه من قوة ونعمة مبتدعُ السموات والأرض ، من أى الملل
 كان والآراء ؛ إنه على كل شيء قدير .

وقد جعلت هذا التخويف في أول كتابي هذا وآخره ليكون رادعا لمن ميله
 هوى ، أو غلبه شقاء ، فيراقب أمر ربه ، وليحاذر مُقْلَبَهُ ، فالمدّة يسيرة ،
 والمسافة قصيرة ، وإلى الله المصير .

وهذا حين نبدأ بجمل ما استودعناه هذا الكتاب من الأبواب ، وما حوى
 كل باب منها من أنواع الأخبار ، وبالله التوفيق .

(١) في الأصول كلها « أشحنه » وأشأنه : أفسده

ذكر ما اشتمل عليه هذا الكتاب من الأبواب

مباحث
الكتاب

قد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب ذكرنا لأغراضه ، فلنذكر الآن جملا من كمية أبوابه ، على حسب مراتبها فيه ، واستحقاقها منه ؛ لكي يقرب تناولها على مريدها .

فأول ذلك ذكر المبدأ وشأن الخليقة وذرة البرية ، من آدم إلى إبراهيم عليهما الصلاة والسلام .

ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ومن تلا عصره من الأنبياء والملوك من بني إسرائيل .

ذكر ملك أرخبعم بن سليمان بن داود ومن تلا عصره من ملوك بني إسرائيل وجمل من أخبار الأنبياء والملوك من بني إسرائيل .

ذكر أهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد صلى الله عليه وسلم .

ذكر جمل من أخبار الهند وأربابها ومدد ممالكها وسيرها وآرائها في عبادتها

ذكر الأرض والبحار ، ومبادئ الأنهار والجبال ، والأقاليم السبعة

وما والاها من الكواكب وغير ذلك .

ذكر جمل من الأخبار عن انتقال البحار وجمل من أخبار الأنهار الكبار .

ذكر الأخبار عن البحر الحبشي ، وما قيل في مقداره وتشعبه وخليجانه .

ذكر تنازع الناس في المدّ والبزُر ، وجوامع ما قيل في ذلك .

ذكر البحر الرومي ، ووصف ما قيل في طوله وعرضه وابتدائه وانتهائه .

ذكر بحر نيطش ، وبحر مانطش ، وخليج القسطنطينية .

ذكر بحر الباب والخزر وجرجان ، وجملة من الأخبار عن ترتيب جميع البحار

ذكر ملوك الصين والترك ، وتفرق ولد عابور ، وأخبار الصين وملوكهم ،

وجوامع من سيرهم وسياساتهم ، وغير ذلك .

ذكر جبل من الأخبار عن البحار ، وما فيها وما حولها من العجائب
والأمم ، ومراتب الملوك ، وغير ذلك .

ذكر جبل الفتح ، وأخبار الأمم من اللان والسير ، وأنواع من الترك
والبلغر وأخبار الباب والأبواب ، ومن حولهم من الملوك والأمم .
ذكر ملوك السريانيين .

ذكر ملوك الموصل وبنوى ، وهم الصوريون
ذكر ملوك قبائل من النبط وغيرهم ، وهم السكديون .
ذكر ملوك الفرس الأولى وسيرها ، وجوامع من أخبارها .
ذكر ملوك الطوائف الأشعانيين ، وهم بين الفرس الأولى والثانية .
ذكر أنساب فارس ، ومقاله الناس في ذلك .

ذكر ملوك الساسانية ، وهم الفرس الثانية ، وسيرهم ، وجوامع من أخبارهم .
ذكر ملوك اليونانيين وأخبارهم ، وما قال الناس في بدء أنسابهم .
ذكر جوامع من أخبار حرب الإسكندر بأرض الهند .
ذكر ملوك اليونانيين بعد الإسكندر .

ذكر الروم وما للناس في بدء أنسابهم ، وعدد ملوكهم ، وتاريخ سنيهم ،
وجوامع من سيرهم .

ذكر ملوك الروم المنتصرة وهم ملوك القسطنطينية ، ولعل مما كان في أعصارهم .
ذكر ملوك الروم عند ظهور الإسلام ، إلى أرمينوس ، وهو الملك في سنة
اثنين وثلاثين وثلثمائة .

ذكر مصر ونيها ، وأخبارها ، وبنائها ، وعجائبها ، وأخبار ملوكها .
ذكر أخبار الإسكندرية ، وبنائها ، وملوكها .

ذكر السودان وأنسابهم ، واختلاف أجناسهم وأنواعهم ، وتباينهم في ديارهم
وأخبار ملوكهم .

ذكر الصَّقالبة ، ومساكنهم ، وأخبار ملوكهم ، وتفرق أجناسهم .
ذكر الإفرنجية والجلالقة وملوكهما ، وجوامع من أخبارهما وسيرهما ،
وحرورهما مع أهل الأندلس .

ذكر التوكيرد وملوكها ، والأخبار عن مسالكها .
ذكر عاد وملوكها ، ولُمع من أخبارها ، وما قيل في طول أعمارهم .
ذكر ثمود وملوكها ، وصالح نبيا عليه السلام ، ولُمع من أخبارها .
ذكر مكة وأخبارها ، وبناء البيت ، ومن تداوله من جرهم وغيرهم ، وما
لحق بهذا الباب .

ذكر جوامع من الأخبار في وصف الأرض والبلدان ، وحنين النفوس
إلى الأوطان .

ذكر تنازع الناس في المعنى الذي من أجله سمي اليمن يمنا ، والشأم شأما ،
والعراق ، والحجاز .

ذكر اليمن وأنسابها ، وما قاله الناس في ذلك .

ذكر اليمن وملوكها من التبابعة وغيرها ، وسيرها ، ومقادير سنيها .

ذكر ملوك الحيرة من اليمن وغيرهم وأخبارهم .

ذكر ملوك الشأم من اليمن وغيرهم وأخبارهم .

ذكر البوادي من العرب ، وغيرها من الأمم ، وعلة سُكنائها البدو ،
وأكراد الجبال ، وأنسابهم ، وجَمَل من أخبارهم ، وغير ذلك مما اتصل
بهذا الباب .

ذكر ديانات العرب ، وآرائها في الجاهلية ، وتفرقها في البلاد ، وأخبار
أصحاب الفيل ، وأمر الأحابيش ، وغيرهم ، وعبد المطلب ، وغير ذلك مما يلحق
بهذا الباب .

ذكر ما ذهب إليه العرب في النفوس والهَام والصَّقر ، وأخبارها في ذلك .

ذكر أقاويل العرب في التغول والغيلان ، وما قال غيرهم من الناس في ذلك ، وغير ذلك مما لحق بهذا الباب واتصل بهذه المعاني .

ذكر أقاويل الناس في الهواتف والجان من العرب وغيرهم ممن أثبت ذلك ونفاه .

ذكر ما ذهب إليه العرب من القيافة والعيافة والزجر والسائح والبارح وغير ذلك .

ذكر الكهانة وصفتها ، وما قاله الناس في ذلك من أخبارها ، وحد الناطقة وغيرها من النفوس ، وما قيل فيما يراه النائم ، وما اتصل بهذا الباب .

ذكر جمل من أخبار الكهان وسيل العرم بأرض سبأ ومأرب ، وتفرق الأزد في البلدان وسكناهم في البلاد .

ذكر سنى العرب والعجم وشهورها وما اتفق منها وما اختلف .

ذكر شهور القبط والسريانيين ، والخلاف في أسمائها ، وجمل من التاريخ وغير ذلك مما اتصل بهذا المعنى .

ذكر شهور السريانيين ، ووصف موافقتها لشهور الروم ، وعدد أيام السنة ومعرفة الأنواء .

ذكر شهور الفرس وما اتصل بذلك .

ذكر أيام الفرس وما اتصل بذلك .

ذكر سنى العرب وشهورها وتسمية أيامها ولياليها .

ذكر قول العرب في ليالى الشهور القمرية وغير ذلك مما اتصل بهذا المعنى .

ذكر القول في تأثير النيرين في هذا العالم ، وجمل مما قيل في ذلك مما اتصل

بهذا الباب .

ذكر أنواع العالم ، وما خص به كل جزء منه ، من الشرق والغرب واليمين

والجنوبي ، وغير ذلك من سلطان الكواكب ، وغير ذلك من عجائب العالم .

ذكر البيوت المعظمة ، والهياكل المشرقة ، وبيوت النيران والأصنام ،
وعبادات الهند ، وذكر الكواكب وغير ذلك من عجائب العالم .

ذكر البيوت المعظمة عند اليونانيين ووصفها .

ذكر البيوت المعظمة عند الصقالبة ووصفها .

ذكر البيوت المعظمة عند أوائل الروم ووصفها .

ذكر بيوت معظمة وهياكل مشرفة للصابئة من الحرائين وغيرها وما فيها
من العجائب والأخبار وغيرها .

ذكر الأخبار عن بيوت النيران ، وكيفية بنائها ، وأخبار الجوس فيها ،
وما لحق ببنائها .

ذكر جامع تاريخ العالم من بدئه إلى مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وما اتصل
بهذا الباب من العلوم .

ذكر مولد النبي صلى الله عليه وسلم ونسبه وغير ذلك مما لحق بهذا الباب .

ذكر مبعثه عليه الصلاة والسلام وما قيل في ذلك إلى هجرته صلى الله عليه وسلم .

ذكر هجرته وجوامع مما كان في أيامه إلى وفاته صلى الله عليه وسلم .

ذكر الأخبار عن أمور وأحوال كانت من مولده إلى حين وفاته صلى الله عليه وسلم

ذكر ما بدىء به عليه الصلاة والسلام من الكلام مما لم يحفظ قبله عن أحد

من الأنام .

ذكر خلافة أبي بكر الصديق رضى الله عنه ونسبه ، ولع من أخباره وسيره .

ذكر خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ونسبه ، ولع من أخباره وسيره .

ذكر خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ونسبه ، ولع من أخباره وسيره .

ذكر خلافة علي بن أبي طالب رضى الله عنه ونسبه ، ولع من أخباره وسيره

ونسب إخوته وأخواته .

ذكر الأخبار عن يوم الجمل وبدئه ، وما كان فيه من الحروب ، وغير ذلك .

ذكر جوامع مما كان بين أهل العراق وأهل الشام بصفين

ذكر الحكمين و بدء التحكيم

ذكر حر به رضى الله عنه مع أهل النهروان ، وهم الشراة ، ومالحق بهذا الباب

ذكر مقتل على بن أبى طالب رضى الله عنه

ذكر لمع من كلامه وزهده ، ومالحق بهذا المعنى من أخباره

ذكر خلافة الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ولمع من أخباره وسيره

ذكر أيام معاوية بن أبى سفيان ، ولمع من أخباره وسيره ، ونوادر من بعض

أخباره .

ذكر جمل من أخلاق معاوية وسياساته ، وطرف من عيون أخباره .

ذكر الصحابة ومدحهم ، وعلى بن أبى طالب ، والعباس ، رضى الله عنهم وفضلهم

ذكر أيام يزيد بن معاوية بن أبى سفيان

ذكر مقتل الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ومن قتل من

أهل بيته وشيعته

ذكر أسماء ولد على بن أبى طالب رضى الله عنه

ذكر لمع من أخبار يزيد بن معاوية وسيره ، ونوادر من بعض أفعاله ، وما كان

منه فى الحرّة وغيرها

ذكر أيام معاوية بن يزيد ، ومروان بن الحكم ، والمختار بن عبد الله ، وعبد

الله بن الزبير ، ولمع من أخبارهم وسيرهم ، وبعض ما كان فى أيامهم

ذكر أيام عبد الملك بن مروان ، ولمع من أخباره وسيره ، والحجاج بن يوسف ،

وأفعاله ، ونوادر من بعض أخباره .

ذكر لمع من أخبار الحجاج بن يوسف وخطبه ، وما كان منه فى بعض أفعاله

ذكر أيام الوليد بن عبد الملك ، ولمع من أخباره وسيره ، وما كان من الحجاج

فى أيامه .

ذكر أيام سليمان بن عبد الملك ، ولع من أخباره وسيره .

ذكر خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم رضى الله عنه ولع
من أخباره وسيره وزهده .

ذكر أيام يزيد بن عبد الملك ، ولع من أخباره وسيره .

ذكر أيام هشام بن عبد الملك ، ولع من أخباره وسيره .

ذكر أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ولع من أخباره وسيره .

ذكر أيام يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ،
ولع من أخبارهما .

ذكر السبب في العصبية بين اليمانية والنزارية ، وما ولد ذلك على بنى أمية
من العصبية .

ذكر أيام مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وحروبه ومقتله .

ذكر مقدار المدة من الزمان وما ملكت فيه بنو أمية من الأعوام .

ذكر الدولة العباسية ولع من أخبار مروان ومقتله وجوامع من حروبه وسيره .

ذكر خلافة السفاح وجمل من أخباره وسيره ولع مما كان في أيامه .

ذكر خلافة المنصور وجمل من أخباره وسيره ولع مما كان في أيامه .

ذكر خلافة المهدي وجمل من أخباره وسيره ولع مما كان في أيامه .

ذكر خلافة الهادي وجمل من أخباره وسيره ولع مما كان في أيامه .

ذكر خلافة الرشيد وجمل من أخباره وسيره ولع مما كان في أيامه .

ذكر البرامكة وأخبارهم وما كان منهم في أيامهم .

ذكر خلافة الأمين وجمل من أخباره وسيره ولع مما كان في أيامه .

ذكر خلافة المأمون وجمل من أخباره وسيره ولع مما كان في أيامه .

ذكر خلافة المعتصم وجمل من أخباره وسيره ولع مما كان في أيامه .

ذكر خلافة الواثق وجمل من أخباره وسيره ولع مما كان في أيامه .

ذكر خلافة المتوكل وجمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه
ذكر خلافة المنتصر وجمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه
ذكر خلافة المستعين وجمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه
ذكر خلافة المعتز وجمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه
ذكر خلافة المهتدي وجمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه
ذكر خلافة المعتمد وجمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه
ذكر خلافة المعتضد وجمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه
ذكر خلافة المستنفي وجمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه
ذكر خلافة المقتدر وجمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه
ذكر خلافة القاهر وجمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه
ذكر خلافة الراضى وجمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه
ذكر خلافة المتقي لله وجمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه
ذكر خلافة المستنفي وجمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه
ذكر خلافة المطيع ولمع مما كان قد جرى في أيامه
ذكر جامع التاريخ الثانى : من الهجرة إلى هذا الوقت ، وهو جمادى
الأولى سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، وقد انتهينا فيه إلى الفراغ من هذا الكتاب .
ذكر من حج بالناس من أول الاسلام إلى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة ، وهو
آخر الكتاب .

ذكر جمل ألقابهم وما ورد عن ذوى الدراية في أعدادهم .

قال المسعودى : فهذه جوامع ما حوى هذا الكتاب من الأبواب ، على أنه
يأتى فى كل باب ما ذكرناه من أنواع العلوم وفنون الأخبار والآثار ما لم تأت
عليه تراجم الأبواب ، وهو مرتب على حسب ما قدمناه من أبوابه على تفصيل
(١ - ٢)

منا لتاريخ الخلفاء ومقادير أعمارهم بأبواب تفرد بها عن سيرهم وأخبارهم ، ثم
نعقب بعد ذلك بالغُرر من أخبارهم ، والعيون من سيرهم ، والجوامع مما كان في
أعصارهم ، وأخبار وزرائهم ، وما جرى من أنواع العلوم في مجالسهم ، مَلَوَّحِينَ
بذلك إلى ما سلف من تصنيفنا ، وتقدم من تأليفنا ، في هذه المعاني والفنون .
وعدد ما اجتمع من جميع ما اشتمل عليه هذا الكتاب من الأبواب مائة
واثنان وثلاثون باباً ، أولها ذكر جميع أغراض هذا الباب ، والثاني ذكر
ما اشتمل عليه هذا الكتاب من الأبواب ، وآخرها ذكر من حَجَّ بالناس من
أول الإسلام إلى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة ، وذكر جهل ألقابهم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وما توفيقى إلا بالله

ذكر المبدأ وشأن الخليفة

وَدَرْءُ الْبَرِّيَّةِ

اتفق أهل العلم جميعاً من أهل الإسلام أن الله عز وجل خلق الأشياء على غير مثال ، وابتدعها من غير أصل ، ثم روى عن ابن عباس وغيره « أن أول ما خلق الله عز وجل الماء ، وكان عرشه عليه ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دُخَانًا فارتفع الدخان فوق الماء فسمَّاهُ سماءً ، ثم أَيْسَرَ الماء فجعله أرضاً واحدة ، ثم فَتَقَّهَا فجعلها سَبْعَ أَرْضِينَ ، في يومين الأحد والاثنين ، وخلق الأرض على حُوتٍ ، والحوتُ هو الذى ذكره الله سبحانه فى القرآن فى قوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون) والحوتُ فى الماء ، والماء على الصِّفَا ، والصفا على ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة على الريح ، وهى الصخرة التى ذكرها الله تعالى فى القرآن حكاية عن قول لقمان لابنه : (يَا بُنَيَّ إِنَّمَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنْ اللَّهُ لَطِيفُ خَبِيرٍ) فاضطرب الحوت فترزلت الأرض ، فأرسل الله عليها الجبال ففُتَّتْ الأرض ، وذلك قوله تعالى : (وجعل فيها رَوَاسِيَّ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) وخلق الجبال فيها ، وخلق أَقْوَاتَ أهلها ، وسخرها وما ينبغى لها ، فى يومين فى يوم الثلاثاء والأربعاء ، وذلك قوله تعالى : (قل أنى لكم لتكفروا بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهى دخان

فقال لها والأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين (فكان ذلك الدخان من
نفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ، ثم فتقها فجعلها سبعا في يومين في يوم
الخميس والجمعة ، وإنما سمي الجمعة لأن الله جمع فيه خلق السموات والأرض ، ثم
قال : (وأوحى في كل سماء أمرها) يقول : خلق في كل سماء خلقها من الملائكة
والبهار وجبال البرد ، وأن سماء الدنيا من زمردة خضراء ، والسماء الثانية من
فضة بيضاء ، والسماء الثالثة من ياقوتة حمراء ، والسماء الرابعة من درة بيضاء ،
والسماء الخامسة من ذهب أحمر ، والسماء السادسة من ياقوتة صفراء ، والسماء
السابعة من نور ، قد طبقتها الله بملائكة قيام على رجل واحدة تعظيما لله لقربهم
منه ، قد خرقت أرجلهم الأرض السابعة واستقرت أقدامهم على مسيرة خمسمائة
عام تحت الأرض السابعة ، ورءوسهم تحت العرش من غير أن تبلغ العرش ، وهم
يقولون : لا إله إلا الله ذو العرش المجيد ، فهم على ذلك منذ خلقوا إلى أن تقوم
الساعة ، وتحت العرش بحر تنزل منه أرزاق الحيوان يوحى الله تعالى إليه فيمطر
ما شاء الله من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى موضع يقال له الأبرم ، فيوحى الله
إلى الريح فتحمله إلى السحاب فتغربه ، وتحت سماء الدنيا بحر من ماء يطفح فيه
من الدواب مثل ما في بحور الأرض مستمسك بالقنطرة ، وأن الله تعالى أسكن
ظهر الأرض — لما فرغ من خلقها — الجن ، قبل آدم ، فجعلهم من مكارج من
نار ، وإبليس فيهم ، فهامهم الله أن يسفكوا دم البهائم ، ويظهروا المعصية بينهم ؛
فسفكوا وعدا بعضهم على بعض ، فلما رآهم إبليس لا يقبلون عن ذلك سأل الله
تعالى أن يرفعه إلى السماء ، فصار مع الملائكة يعبد الله أشد عبادة ، وأرسل الله
إلى الجن — وهم حزب إبليس — قبيلة من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحار
وقتلوا من شاء الله منهم ، وجعل الله إبليس على سماء الدنيا خازنا ، فوقع في
صدره كبر »

ثم شاء الله عز وجل أن يخلق آدم فقال الله للملائكة : (إني جاعل في

الأرض خليفة) فقالوا : ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال : تكون له ذرية ،
ويفسدون في الأرض ، ويتحاسدون ، ويقتل بعضهم بعضا ، فقالوا : ربنا
(اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال
إني أعلم ما لا تعلمون)

ثم بعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها ، فقالت له الأرض : إني
أعوذ بالله منك أن تنقضي !! فرجع ولم يأخذ منها شيئا ، وقال : يارب ، إنها
عادت بك ، ثم بعث الله ميكائيل فقالت له مثل ذلك ، فرجع ولم يأخذ منها
شيئا ، فبعث الله ملك الموت فعادت بالله منه ، فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع
ولم أفذ الأمر ، فأخذ من تربة سوداء وحمراء وبيضاء فلذلك خرج بنو آدم
مختلفين في الألوان ، وسمى آدم ؛ لأنه أخذ من أديم الأرض ، وقيل غير ذلك ،
وكل الله ملك الموت بالموت ، وجعله الله تعالى ، وتركه حتى صار طينا لازبا
يلزق بعضه ببعض أربعين سنة ، ثم تركه حتى أتت وتغير أربعين سنة ، وذلك
قوله تعالى (من حميا مسنون) أى : متغير منتهن ، ثم صورته وتركه بلا روح
من صلصال كالفخار حتى أتى عليه مائة وعشرون سنة ، وقيل : أربعون سنة ،
وهو قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا)
فكانت الملائكة تمر به فيفرعون منه ، وكان أشدهم فرعا إبليس ، كان يمر به
فيضر به برجله فيظهر له صوت كظهوره من الفخار وتكون له صلصلة ، وذلك
قوله تعالى : (من صلصال كالفخار) وقد قيل : إن الصلصال غير ما ذكرناه ، وكان
إبليس يدخل من فيه ويخرج من دبره ، ويقول : لأمر ما خلقت ، فلما أراد
الله تعالى أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس
(أبى واستكبر) وقال : يارب (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) والنار
أشرف من الطين ، وأنا الذي كنت مستخلفا في الأرض ، وأنا الملبس بالريش
والموشح بالنور والمتوج بالكرامة ، وأنا الذي عبدتك في سمائك وأرضك ،

فقال الله تعالى : (اخرج منها فانك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) فسأل الله المهلة إلى يوم يبعثون ، فأنظره الله إلى الوقت المعلوم ، وذهب على إبليس المعنى الذى من أجله أمر لآدم بالسجود : فمن الناس من رأى أن آدم كان محراباً للمأمورين بالسجود والمقصود بذلك الخالق عز وجل وموافقة الأمر والطاعة له على سبيل البكوى والاختبار والمحنة الواقعة بالمكلفين ، ومنهم من رأى غير ذلك ، ثم نفخ الله تعالى فى آدم من روحه فكان كلما دخل فى بعضه الروح يذهب ليجلس فقال الله تعالى : (وكان الانسان عجولاً) ولما تتابع فيه الروح عطس ، فقال الله له : قل الحمد لله يرحمك الله يا آدم .

قال المسعودى : وما ذكرناه من الأخبار فى مبدأ الخليفة هو ما جاءت به الشريعة ، وتقله الخلف عن السلف ، والباقي عن الماضى ، فعبّرنا عنهم على حسب ما نقل إلينا من ألفاظهم ووجدناه فى كتبهم ، مع شهادة الدلائل بحدوث العالم واتصاحها بكونه ، ولم نتعرض لوصف من وافق ذلك وانقاد إليه من أهل الملل القائلين بالحدوث ، ولا الرد على من سواهم ممن خالف ذلك وقال بالقدم ؛ لذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا وتقدم من تصنيفنا ، وقد ذكرنا فى مواضع كثيرة من كتابنا هذا جملاً من علوم النظر والبراهين والجدل تتعلق بكثير من الآراء والنحل على طريق الخبر .

وروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام أنه قال : إن الله حين شاء تقدير الخليفة وذرة البرية وإبداع المبدعات نصب الخلق فى صور كالأهباء قبل دحو الأرض ورفع السماء ، وهو فى انفراد ملكوته وتوحد جبروته ، فأتاح نوراً من نوره فلمع ، ونزع قبساً من ضيائه فسطع ، ثم اجتمع النور فى وسط تلك الصور الخفية فوافق ذلك صورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال الله عز من قائل : أنت المختار المنتخب وعندك مستودع نورى وكنوز هدايتى ، من أجلك أسطح البطحاء ، وأموج الماء ، وأرفع السماء ، وأجعل الثواب والعقاب

والجنة والنار ، وأنصب أهل بيتك الهداية ، وأوتيهم من مكنون علمي ما لا يشك
عليهم دقيق ولا يعيهم خفي ، وأجعلهم حجتي على بريتي ، والمنهين على قدرتي
ووحدايتي ، ثم أخذ الله الشهادة عليهم بالربوبية والاخلاص بالوحدانية فقبل
أخذ ما أخذ جل شأنه ببصائر الخلق انتخب محمداً وآله ، وأراهم أن الهداية معه
والنور له والامامة في آله ؛ تقدما لسنة العدل ، وليكون الاعذار متقدما ، ثم أخفى
الله الخليفة في غيبه ، وغيبها في مكنون علمه ، ثم نصب العوالم ، وبسط الزمان ،
وموج الماء ، وأثار الزبد ، وأهاج الدخان ، فطفا عرشه على الماء ، فسطح الأرض
على ظهر الماء ، ثم استجابهما إلى الطاعة فأذعنتا بالاستجابة ، ثم أنشأ الله الملائكة
من أنوار أبدعها ، وأرواح اخترعها ، وقرن توحيد بنو محمد صلى الله عليه وسلم
فشهرت في السماء قبل بعثته في الأرض ، فلما خلق الله آدم أبان فضله للملائكة ،
وأراهم ما خصه به من سابق العلم حيث عرفه عند استنبائه إياه أسماء الأشياء ،
فجعل الله آدم محرابا وكعبة وبابا وقبلة أسجد إليها الأبرار والروحانيين الأنوار ، ثم
نبه آدم على مستودعه ، وكشف له عن خطر ما اتئمنه عليه ، بعد ما سمّاه إماما
عند الملائكة ، فكان حظ آدم من الخير ما أواه من مستودع نورنا ، ولم يزل
الله تعالى يخبأ النور تحت الزمان إلى أن وصل محمداً صلى الله عليه وسلم في ظاهر
الفترات ؛ فدعا الناس ظاهراً وباطناً ، وندبهم سرّاً وإعلاناً ، واستدعى عليه السلام
التنبيه على العهد الذي قدمه إلى الذرّ قبل النسل ، فمن وافقه واقتبس من مصباح
النور المقدم اهتدى إلى سيره ، واستبان واضح أمره ، ومن ألبسته الغفلة استحق
السخط ، ثم انتقل النور إلى غرائزنا ، ولمع في أئمتنا ؛ فنحن أنوار السماء وأنوار
الأرض ، فبنا النجاة ، ومنا مكنون العلم ، وإلينا مصير الأمور ، وبمهدينا تنقطع
الحجج ، خاتمة الأئمة ، ومنقذ الأمة ، وغاية النور ، ومصدر الأمور ؛ فنحن أفضل
الخلق ، وأشرف الموحدين ، وحجج رب العالمين ، فليهنأ بالنعمة من تمسك
بولايتنا ، وقبض عرؤتنا ، فهذا ما روى عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عن أبيه

محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ولم نتعرض لكثير من أسانيد هذه الأخبار وطرقها لأننا قد أتينا على جميع ذكرها واتصالها في النقل بمن ذكرناها عنه وعزوناها إليه فيما سلف من كتبنا خوف الاكثار والتطويل في هذا الكتاب .

وأما ما وجدت في التوراة فهو أن الله تعالى ابتداءً خلق في يوم الاثنين ، وكان انتهاء الفراغ يوم السبت ، فاتخذ اليهود لذلك يوم السبت عيداً ، وزعم أهل الإنجيل أن المسيح عليه السلام قام من قبره يوم الأحد فاتخذوا ذلك اليوم عيداً .

وأما ما ذهب إليه الجمهور من أهل الفقه والآثار فهو أن الابتداء كان يوم الأحد ، والفراغ يوم الجمعة ، وفيه نفخ في آدم الروح ، وهو اليوم السادس من نيسان ، ثم خلقت حواء من آدم ، وأسكننا الجنة ثلاث ساعات مَصَّتْ منه ، فكلنا ثلاث ساعات ، وهو ربع يوم بمائتي سنة وخمسين سنة من أعوام الدنيا ، وأهبط الله آدم بسرنديب ، وحواء بجدة ، وإبليس ببيسان ، والحية بأصهبان ، فهبط آدم بالهند على جزيرة سرنديب على جبل الراهون وعليه الورق الذي خصفه من ورق الجنة ، فبذرته الرياح فانتثر في بلاد الهند ، فيقال والله أعلم إن علة كون الطيب بأرض الهند من ذلك الورق ، وقيل غير ذلك ، ولذلك خصت أرض الهند بالعود والقرنفل والأفاويه والمسك وسائر الطيب ، وكذلك الجبل ؛ لمعت عليه اليواقيت وكان منه الماس ، وفي جزائر بحره السنباذج ، وفي قعره مغائص اللؤلؤ ، وإن آدم لما أهبط من الجنة أخرج منها معه صرة من الحنطة وثلاثين قضيباً من شجرات الجنة مودعة أصناف الثمار ، منها عشرة مما له قشر ، وهي : الجوز ، واللوز ، والجلوز ، وهو البندق ، والفستق ، والخشخاش ، والشاهبلوط ، والرايح ، والرمان ، والموز ، والبلوط ، ومنها عشرة ذات نوى ، وهي : الخوخ ، والشمش ، والأجاص ، والرطب ، والغيراء ، والنبق ، والزعرور ، والعناب ، والمقل ، والشاهلوج ، وهذا اسم فارسي وتفسيره ملك الإجاجص ، ومنها

قشرمالا له ولا يزال دون مطعمها^(١) والنوى داخلها ، وهى : التفاح ، والسفرجل ،
والعنب ، والكُمثرى ، والتين ، والتوت ، والأُترج ، والقثاء ، والخيار ، والخروب ،
ويقال : إن آدم لما هبط من الجنة هو وحواء هبطا متفارقين فتعارفا بالموضع الذى
يسمى عرفة ، وتعارفهما فيه سمى بهذه التسمية ، وقيل غير ذلك ، وإن آدم
عليه السلام تاق إلى حواء فغَشِيَهَا فاشتملت على ذكر وأُنثى فسمى الذكر قايِن
والأنثى لويذاء ، ثم عاود الغشيان فاشتملت حواء أيضا على ذكر وأُنثى فسمى
الذكر هايل والأُنثى أقليمياء ، وقد تنوزع فى اسم الولد الأول : فذهب الأكثر
من أهل الكتاب وغيرهم أن اسمه قايِن على ما ذكرنا ، ومنهم من رأى أن اسمه
قاييل ، وهو قول فريق من الناس ، والأغلب ما قدمناه^(٢) ، وقد ذكر على
ابن الجهم فى قصيدته فى بدء الخلق والذُرِّء ذلك فقال :

واقْتَنِيا الابن فسمى قايِنا وَعَايِنَا مِنْ نَشْئِهِ مَاعَايِنَا
فَشَبَّ هَايِلُ وَشَبَّ قَايِنُ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا تَبَايُنُ

وذكر أهل الكتاب أن آدم زَوَّجَ أخت هايل لقايِن ، وأخت قايِن
هايل ، وفرق فى النكاح بين البطنين ، وهذه سنة آدم عليه السلام احتياطًا
لأقصى ما يمكنه فى ذوى التحارم لموضع الاضطراب وعجز النسل عن التباين
والاغتراب ، وقد زعمت المجوس أن آدم لم يخالف فى النكاح بين البطون ولم
يَتَحَرَّ الخالفة ، ولهم فى هذا المعنى شعر يدعون فيه الفضل فى الصلاح بتزويج
الأخ من أخته والأم من ابنها ، وقد أتينا به فى الفن الرابع عشر من كتابنا

(١) نقل ذلك ابن جرير أيضا (ج ١ ص ٦٤) ولكنه قال : « وأما التى
لا قشور لها ولا نوى »

(٢) هذا الذى لم يرق صاحب الكتاب قد حكاه كثير من المؤرخين منهم
شيخهم ابن جرير الطبرى . والاختلاف فى هذه الأسماء على كل حال مما لا طائل
تحتة ولا يصح فيه شئ

الموسوم : « أخبار الزمان ، ومن أباده الحداث ، من الأمم الماضية ، والأجيال الخالية ، والممالك الدائرة » وإن هابيل وقاين قُرْبًا قُرْبَانًا فنحر هابيل أجود غنمه وأفضل طعامه فقر به ، ونحر قاين شرّ ماله وقربه ؛ فكان من أمرها ما قد حكاه الله تعالى في كتابه العزيز من قتل قاين هابيل ، ويقال : إنه اغتاله في برية قاع ، ويقال : إن ذلك كان ببلاد دمشق من أرض الشام وكان قتله شدخاً بجحر ، فيقال : إن الوحوش هنالك استوحشت من الانسان ، وذلك أنه بدأ فبلغ الغرض بالشر والقتل ، فلما قتله تمحير في تورينته ، وحمله يطوف به ، فبعث الله غراباً إلى غراب فقتله ثم دفنه ، فأسف قاين ثم قال ما حكاه القرآن عنه : (يا ويلتنا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى) فدفنه عند ذلك ، فلما علم آدم بذلك حزن وجزع وارتاع وهلع .

قال المسعودى : وقد استفاض في الناس شعر يعزونه إلى آدم قاله حين حزن على ولده وأسف على فقده ، وهو : —

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا	فَوَجَّهَ الْأَرْضَ مُغْبِرٌ قَبِيحٌ
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي لَوْنٍ وَطَعْمٍ	وَقَلَّ بَشَاشَةُ الْوَجْهِ الصَّبِيحُ (١)
وَبَدَّلَ أَهْلَهَا خَطَأً وَأَثَلًا	بَحْنَاتٍ مِنَ الْفَرْدَوْسِ فَيَح
وَجَاوَرْنَا عَدُوًّا لَيْسَ يَنْسَى	لَعِينٌ لَا يَمُوتُ فَتُسْتَرِيحُ
وَقَتَلَ قَايْنُ هَابِيلَ ظُلْمًا	فَوَأْسَفَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَلِيحُ
فَمَا لِي لَا أَجُودُ بِسَكْبٍ دَمْعٌ	وَهَابِيلُ تَضَمَّنَهُ الضَّرِيحُ
أَرَى طُولَ الْحَيَاةِ عَلَى غَمًّا	وَمَا أَنَا مِنْ حَيَاتِي مُسْتَرِيحُ

(١) من الناس من يروى هذا البيت بنصب بشاشة من غير تنوين ورفع الوجه الصبيح على أنه فاعل قل ، وذلك ليسلم الشعر من الاقواء وهو اختلاف حركة الروى ومنهم من يرفع بشاشة على الفاعلية ويضيفها إلى ما بعدها فيكون في البيت إقواء ، والخطب يسير ، فان هذا الشعر مصنوع قد تكلف صانعه فيه هذا اليدل فيما ظن على أنه متقدم العهد حتى ليرقى إلى آدم أبى البشر ، وهو مالا نكاد نصدقه أصلاً .

ووجدت في عدة من كتب التواريخ والسير والأنساب أن آدم لما نطق بهذا

الشعر أجابه إبليس من حيث يسمع صوته ولا يرى شخصه ، وهو يقول : —

تَنَحَّ عَنْ الْبِلَادِ وَسَاكِنِيهَا فَقَدْ فِي الْأَرْضِ ضَاقَ بِكَ الْفَسِيحُ
وَكَنتَ وَزَوْجُكَ الْحَوَاءَ فِيهَا أَدَمُ مِنْ أَذَى الدُّنْيَا مَرِيحُ
فَمَا زِلْتَ مَكِيدَتِي وَمَكْرِي إِلَى أَنْ فَاتَكَ الثَّمَنُ الرِّيحُ
فَلَوْلَا رَحْمَةُ الرَّحْمَنِ أَضَحَّتْ بِكَفِّكَ مِنْ جِنَانِ الْخُلْدِ رِيحُ

ووجدت أن آدم عليه السلام سمع صوتا ولا يرى شخصا وهو يقول بيتا آخر

مفرداً دون ما ذكرنا من هذا الشعر ، وهو هذا البيت : —

أَبَاهَا بَيْلَ قَدْ قَتَلَا جَمِيعًا وَصَارَ الْحَيُّ بِالْمَوْتِ الذَّبِيحُ

فلما سمع آدم ذلك ازداد حزناً وجزعاً على الماضي والباقي ، وعلم أن القاتل مقتول ، فأوحى الله إليه إني مخرج منك نوري الذي به السالك في القنوات الطاهرة والأرومات الشريفة ، وأباهي به الأنوار ، وأجعله خاتم الأنبياء ، وأجعله خيار الأئمة الخلفاء ، وأختم الزمان بمدتهم ، وأغص الأرض بدعوتهم ، وأنشرها بشيعتهم ، فشمر وتطهر ، وقدس ، وسبح ، واغش زوجتك على طهارة منها فان

حواء تحمل
بشيت

وديعتي تنتقل إلى الولد الكائن منك ، فواقع آدم حواء ، فحملت لوقتها ، وأشرق جبينها ، وتلألأ النور في مخايلها ، ولمع من محاجرها ، حتى إذا انتهى حملها وضعت نَسَمَةً كَأَسْرَمَا يَكُونُ مِنَ الذُّكْرَانِ ، وأتمهم وقاراً ، وأحسنهم صورة ، وأكلهم هيئة ، وأعد لهم خلقاً ، مجللاً بالنور والهيبة ، موشحاً بالجلالة والأبهة ؛ فانتقل النور من حواء إليه حتى لمع في أسارير جبينه ، وبَسَقَ فِي غُرَّةِ طَلْعَتِهِ ، فسماه آدم شيئاً ؛ وقيل : شيت هبة الله ، حتى إذا ترعرع ويفع وكهل واستبصر أوعز إليه آدم وصيته ، وعرفه محل ما استودعه ، وأعلمه أنه حجة الله بعده ، وخليفته

في الأرض ، والمؤدى حق الله إلى أوصيائه ، وأنه ثانی انتقال الذرة الطاهرة ،
والجُرثومة الزاهرة

وصية آدم
لشيث ثم وفاته

ثم إن آدم حين أدى الوصية إلى شيث احتقبها ، واحتفظ بمكنونها ، وأتت
وفاة آدم عليه السلام ، وقرب انتقاله ، فتوفى يوم الجمعة لست خلون من نيسان ،
في الساعة التي كان فيها خلقه ، وكان عمره عليه السلام تسعمائة سنة وثلاثين سنة ،
وكان قد وصى ابنه شيثاً عليه السلام على ولده ، ويقال : إن آدم مات عن
أربعين ألفاً من ولده وولد ولده .

وتنازع الناس في قبره : فمنهم من زعم أن قبره بنى في مسجد الخيف ،
ومنهم من رأى أنه في كهف جبل أبي قبيس ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم
بحقيقة الحال .

حكم شيث
ابن آدم

وإن شيثاً حكم في الناس ، واستشرع صف أبيه وما أنزل عليه في خاصته
من الأسفار والأشراع ، وإن شيثاً واقع امرأته فحملت بأنوش ، فانتقل النور
إليها ، حتى إذا وضعت لاه النور عليه ، فلما بلغ الوصاة أوعز إليه شيث في شأن
الوديعة ، وعرفه شأنها ، وأنها شرفهم وكرمهم ، وأوعز إليه أن يبنه ولده على
حقيقة هذه الشرف وكبر محله ، وأن يبنوها أولادهم عليه ، ويجعل ذلك فيهم وصية
منتقلة مادام النسل

فكانت الوصية جارية تنتقل من قرن إلى قرن ، إلى أن أدّى الله النور إلى
عبد المطلب وولده عبد الله أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا موضع
تنازع الناس فيه من أهل الملة ممن قال بالنص وغيرهم من أصحاب الاختيار ،
والقائلون بالنص هم الأباضية أهل الإمامة من شيعة علي بن أبي طالب رضى الله
عنه والظاهرين من ولده الذين زعموا أن الله لم يخلّ عصراً من الأعصار من قائم
بحق الله : إما أنبياء ، وإما أوصياء منصوص عن أسمائهم وأعيانهم من الله ورسوله ؛
وأصحاب الاختيار هم فقهاء الأمصار والمعتزلة وفرق من الخوارج والمرجئة وكثير

من أصحاب الحديث والعوام وفرق من الزيدية ، فزعم هؤلاء أن الله ورسوله فَوَضَّ إلى الأمة أن تختار رجلا منها فتنصبه لها إماما ، وأن بعض الأعصار قد يخلو من حجة الله ، وهو الامام المعصوم عند الشيعة ، وسند كرم فيما يرد من هذا الكتاب لمعاً من إيضاح ما وصفنا من أقاويل المتنازعين وتباين المختلفين

وإن أنوش قد لبث في الأرض يعمرها وقد قيل — والله أعلم — إن شيثا أصل النسل من آدم دون سائر ولدته ، وقيل غير ذلك ، وفي زمن أنوش قُتِلَ قاينُ بنُ آدم قاتلُ أخيه ، ولقنته خبر عجيب قد أوردناه في « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط ، وكانت وفاة أنوش ثلاث خلون من تشرين الأول ، فكانت مدته تسعمائة سنة وستين سنة ، وكان قد ولد له قينان ، ولاح النور في جبينه وأخذ عليه العهد ، فعمر البلاد حتى مات ، فكانت مدته تسعمائة سنة وعشرين سنة ، وقد قيل : إن موته كان في تموز بعدما ولد له مهلائيل ، فكانت مدة مهلائيل ثمانمائة سنة وقد ولد له لود والنور متوارث والعهد مأخوذ والحق قائم ويقال : إن كثيرا من الملاحى أحدثت في أيامه ، أحدها ولد قاين قاتل أخيه ، ولولد قاين مع ولد لود حروب وقصص قد أتينا على ذكرها في كتابنا « أخبار الزمان » ووقع التحارب بين ولد شيث وبين غيرهم من ولد قاين ، وأكثر هذا النوع بأرض قمار من أرض الهند ، وإلى بلدهم أضيف العود القمارى ، فكانت حياة لود سبعمائة سنة واثنين وثلاثين سنة وكانت وفاته في آذار

وقام بعده ولده خنوخ ، وهو إدريس النبى صلى الله عليه وسلم ، والصابئة تزعم أنه هو هرمس ، ومعنى هرمس عطارد ، وهو الذى أخبر الله عز وجل في كتابه أنه رفعه مكاناً علياً ، وهو أول من درَرَ الدروز ، وخاط بالابرة ، وأنزل عليه ثلاثون صحيفة ، وكان قد نزل قبل ذلك على آدم إحدى وعشرون صحيفة ، وأنزل على شيث تسع وعشرون صحيفة فيها تهليل وتسبيح

وقام بعده متوشلح بن خنوخ ، فعمر البلاد والنور في جبينه ، وولد له

أنوش
ابن شيث

خنوخ

أولاد ، وقد تكلم الناس في كثير من ولده ، وإن البعير والروس والصقالبه من ولده ، وكانت حياته تسعة سنة وستين سنة ، ومات في أيلول وقام بعده ملك ، وكانت في أيامه كوائن واختلاف ، وتوفي وكانت حياته سبعة سنة وتسعين سنة .

ملك

وقام بعده نوح بن ملك عليه السلام ، وقد كثر الفساد في الأرض ؛ فاشتدَّت دياجي الظلم ، فقام في الأرض داعيا إلى الله فأبوا إلا طغيانا وكفرا ، فدعا الله عليهم ، فأوحى الله إليه أن اصنع الفلك ، فلما فرغ من السفينة أتاه جبريل عليه السلام بتابوت آدم فيه رَمَتُهُ ، وكان ركوبهم في السفينة يوم الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من آذار ، فأقام نوح ومن معه في السفينة على ظهر الماء وقد غرق جميع الأرض خمسة أشهر ، ثم أمر الله تعالى الأرض أن تبتلع الماء ، والسماء أن تُقلع ، واستوت السفينة على الجودي ، والجودي : ببلاد ماسور جزيرة ابن عمر الموصل ، وبينه وبين دجلة ثمانية فراسخ ، وموضع خروج السفينة على رأس هذا الجبل إلى هذه الغاية

نوح

وذكر أن بعض الأرض لم يسرع إلى بلع الماء ، ومنها ما أسرع إلى بلعه عند ما أمرت ، فما أطاع كان مأوّه عذبا إذا احتقر ، وما تأخر عن القبول أعقبها الله بماء ملحٍ وملّاحات ورمال ، وما تخلف من الماء الذي امتنعت الأرض من بلعه انحدر إلى قعور مواضع من الأرض ، فمن ذلك البحار وهي بقية ماء غضب أهلِكَ به أمم ، وسند ذكر بعد هذا الموضع من كتابنا هذا أخبار البحار ووصفها ونزل نوح من السفينة ومعه أولاده الثلاثة ، وهم : سام ، وحام ، ويافث ، وكنّاته ^(١) الثلاث أزواج أولاده ، وأربعون رجلا ، وأربعون امرأة ، وصاروا

(١) الكنات : جمع كنة - بفتح الكاف وتشديد النون - وتجمع أيضا على كنان ، على غير قياس ، وقد ورد في بعض الأصول « كنانته » والكنة : امرأة الابن .

إلى سَفْحِ الجبل فَأَبْتَنُوا هُنَاكَ مَدِينَةً سَمَّوْهَا ثَمَانِينَ ، وهو اسمها إلى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وَدَبَرَ عَقِبُ هَؤُلَاءِ الثَّمَانِينَ نَفْسًا ، وجعل الله نسل الخليفة من نوح من الثلاثة من ولده ، وقد أخبر الله عز وجل بذلك بقوله : (وجعلنا ذريته هم الباقين) والله أعلم بهذا التأويل .

والمختلف عنه من ولده الذي قال له : (يا بني اركب معنا) هو يام . وقسم الأرضَ نوحٌ بين أولاده أقساما ، وخص كل واحد بموضع ، ودعا على ولده حام لأمر كان منه مع ما قد اشتهر ، فقال : ملعون حام ، عبد عنيد يكون لإخوته ، ثم قال : مبارك سام ، ويكثر الله يافت ، ويحلل يافت في مسكن سام .

ووجدت في التوراة أن نوحا عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة ، فجميع عمر نوح تسعمائة سنة وخمسون سنة .

فانطلق حام واتبعه ولده فزولوا مساكنهم في البر والبحر على حسب ما ذكره بعد هذا الموضع من هذا الكتاب ، وسندكر تفرق النسل في الأرض ومساكنهم فيها من ولد يافت وسام وحام .

فأما سام فسكن وسط الأرض من بلاد الحرم إلى حضرموت إلى عُمان مساكن سام إلى عالج ، فمن ولده إرم بن سام ، وإرفخشذ بن سام بن نوح .

ومن ولد إرم بن سام عاد بن عوص بن إرم بن سام ، وكانوا ينزلون الأحقاف من الرمل ، فَأَرْسِلَ إِلَيْهِمْ هُودٌ .

وثمود بن غاثر^(١) بن إرم بن سام ، وكانوا ينزلون الحجر بين الشام والحجاز ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ أَخَاهُمْ صَالِحًا وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَعَ صَالِحٍ مَا قَدْ اتَّضَحَ أَمْرُهُ وَاشْتَهَرَ خَبَرُهُ ، وسندكر بعد هذا الموضع من هذا الكتاب لمعا من أخباره وأخبار غيره من الأنبياء عليهم السلام .

وطسم وجديس ابنا لاوذ بن إرم ، وكانوا ينزلون اليمامة والبحرين ، وأخوها
عمليق بن لاوذ بن إرم ، نزل بعضهم الحرم وبعضهم الشام ، ومنهم العاليق ؛ تفرقوا
في البلاد ، وأخوهم أميم بن لاوذ نزل أرض فارس ، وسندكر في باب تنازع
الناس وأنساب الفرس من هذا الكتاب من الحق كيومرت بأميم ، وقيل :
إن أميا نزل أرض وبَّار وهي التي غلبت عليها الجن على ما زعم الأخباريون
من العرب .

طسم وجديس
وعمليق

ونزل بنو عميل بن عوص أخى عاد بن عوص مدينة الرسول عليه السلام .
وولد سام بن نوح ماش بن إرم بن سام ، نزل بابل ، فولد نمرود بن ماش ،
وهو الذى بنى الصرح ببابل ، وجسَّرسراً ببابل على شاطئ الفرات ، وملك
خمسائة سنة ، وهو ملك النبط ، وفي زمانه فرق الله الألسن : فجعل في ولد
سام تسعة عشر لساناً ، وفي ولد حام سبعة عشر لساناً ، وفي ولد يافث ستة
وثلاثين لساناً ، وتشعبت بعد ذلك اللغات وتفرَّعت الألسن ، وسندكر هذا
في موضعه الذى يوجد في كتابنا هذا ، وتفرق الناس في البلاد وما قالوا في ذلك
من الأشعار عند تفرقهم في البلاد بأرض العراق ، ويقال : إن فالغ هو الذى
قسم الأرض بين الأمم ، ولذلك سمي فالغ ، وهو فالخ : أى قاسم ، بن شالخ بين
إرفخشذ بن سام بن نوح

ماش بن ارم
وأولاده

فولد شالخ فالغ بن شالخ الذى قسم الأرض ، وهو جد إبراهيم عليه السلام ،
وعابر بن شالخ ، وابنه قحطان بن عابر ، وابنه يعرب بن قحطان ، وهو أول
من حيَّاه ولده تحية الملك « أَنْعِمْ صَبَاحاً » و « آيَّتِ اللَّعْنَ » وقيل : إن غيره
حيَّى بهذه التحية لملك من ملوك الحيرة ، وقحطان أبو اليمين كلها على حسب
ما يذكر إن شاء الله تعالى في باب تنازع الناس في أنساب اليمين من هذا
الكتاب ، وهو أول من تكلم بالعربية لأعرابه عن المعاني وإبانتها عنها ،
ويقطن بن عابر بن شالخ ، وهو جرهم ، وجرهم ابن عم يعرب ، وكانت جرهم

فالغ بن شالخ
وأولاده

من سكن الين وتكلم بالعربية ، ثم نزلوا بمكة فكانوا بها ، على حسب ماورده من أخبارهم ، وقطورا بنوعم لهم ، ثم أسكنها الله إسماعيل عليه السلام ، ونكح في جرهم فهم أحوال ولده .

وذكر أهل الكتاب أن ملك بن سام بن نوح حي ؛ لأن الله عز وجل أوحى إلى سام إن الذي و كَلَّمْتَهُ بجسد آدم بَقِيَّتُهُ إلى آخر الأبد ، وذلك أن سام بن نوح دفن تابوت آدم في وسط الأرض فوكل لمكا بقبره ، وكانت وفاة سام يوم الجمعة ، وذلك في أيلول ، وكان عمره إلى أن قبضه الله عز وجل ستمائة سنة

وكان القيم بعد سام في الأرض ولده إرخشذ ، وكان عمره إلى أن قبضه إرخشذ بن سام الله عز وجل أربعمائة سنة وخمسا وستين سنة ، وكانت وفاته في نيسان .

ولما قبض الله إرخشذ قام بعده ولده شالخ بن إرخشذ ، وكان عمره إلى أن قبضه الله عز وجل أربعمائة سنة وثلاثين سنة .

ولما قبض الله شالخ قام بعده ولده عابر ، فعمر البلاد ، وكانت في أيامه كوائن وتنازع في مواضع من الأرض ، وكان عمره إلى أن قبضه الله عز وجل إليه ثلثمائة وأربعين سنة .

ولما قبض الله عابر قام بعده فالغ على نهج من سلف من آبائه ، وكان عمره إلى أن قبضه الله عز وجل مائتي سنة وسبعاً وثلاثين سنة ، وقد قدمنا ذكره في هذا الكتاب فيما سلف وما كان بأرض بابل عند تبكّل الألسن .

ولما قبض الله فالغ قام بعده رعو بن فالغ ، وقيل : إن في زمنه كان مولد نمرود الجبار ، وكان عمره إلى أن قبضه الله مائتي سنة ، وكانت وفاته في نيسان .

ولما قبض الله رعو قام بعده ساروغ بن رعو ، وقيل : إنه في أيامه ظهرت عبادة الأصنام والصور ؛ لضروب من العلل أحدثت في الأرض ، وكان عمره إلى أن قبضه الله إليه مائتي سنة وثلاثين سنة .

ناحور بن
ساروغ

ولما قبض الله ساروغ قام بعده ناحور بن ساروغ مقتدياً بمن سلف من آباءه ، وحدث في أيامه رجفٌ وزلازل لم تعهد فيما سلف من الأيام قبله ، وأحدثت في أيامه ضروب من المِحَن والآلات ، وكانت في أيامه حروب وتحزيب الأحزاب من الهند وغيرها ، وكان عمره إلى أن قبضه الله إليه مائة سنة وستاً وأربعين سنة .

تارح بن
ناحور

ولما قبض الله ناحور قام بعده ولده تارح ، وهو آزر أبو إبراهيم الخليل ، وفي عصره كان نمرود بن كنعان ، وفي أيام نمرود حدثت في الأرض عبادة النيران والأنوار ، وجعل لها مراتب في العبادات ، وكان في الأرض رهج عظيم من حروب وإحداث حروب وممالك بالشرق والغرب ، وغير ذلك ، وظهر القول بأحكام النجوم وصور الأفلاك ، وعمت لها الآلات ، وقرب فهم ذلك إلى قلوب الناس ، فنظر أصحاب النجوم إلى طاع السنة التي ولد فيها إبراهيم عليه السلام وماذا يوجب فأخبر النمرود أن مولوداً يولد يُسَمَّى أحلامهم ، ويزيل عبادتهم ، فأمر النمرود بقتل الولدان ، وأخفى إبراهيم عليه السلام ، ومات آزر ، وهو تارح ، وكان عمره إلى أن قبضه الله عز وجل مائتين وستين سنة ، والله الموفق للصواب .

ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ومن تلا عصره

من الأنبياء والملوك من نبى إسرائيل وغيرهم

ولما نشأ إبراهيم عليه السلام ، وخرج من المغارة التي كان بها ، وتأمل آفاق الأرض والعالم ، وما فيه من دلائل الحدوث والتأثير ؛ نظر إلى الزهرة وإشراقها فقال : هذا ربى ، فلما رأى القمر أنور منها قال : هذا ربى ، فلما رأى الشمس أبهر مما رأى قال : هذا ربى هذا أكبر ، وقد تنازع الناس في قول إبراهيم « هذا ربى » فمنهم من رأى أن ذلك كان على طريق الاستدلال والاستخبار ، ومنهم من رأى أن ذلك منه كان قبل البلوغ وحال التشكيف ،

ومنهم من رأى غير ذلك ، فأتاه جبريل فعلمه دينه ، واصطفاه الله نبياً وخليلاً ، وكان قد أوتى رشده من قبل ، ومن أوتى رشده فقد عصم من الخطأ والزلل وعبادة غير الواحد الصمد ؛ فعاب إبراهيم عليه السلام على قومه ما رأى من عبادتهم واتخاذهم الجوفات آلهة لهم ، فلما كثر عليهم ذم إبراهيم لأهلهم ، واستفاض ذلك فيهم ؛ اتخذ له النمرود النار ، وألقاه فيها ، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وخذت النار على سائر بقاع الأرض في ذلك اليوم .

مولد إسماعيل
ابن إبراهيم

وولد لإبراهيم إسماعيل عليهما السلام ، وذلك بعد أن مضى من عمره ست وثمانون أو سبع وثمانون سنة ، وقيل : سبعون سنة ، من هاجر جارية كانت لِسَارَةَ ، وكانت سارة أول من آمن بإبراهيم عليه السلام ، وهى ابنة بتوايل ابن ناحور ، وهى ابنة عم إبراهيم ، وقد قيل غير هذا مما سنورده بعد هذا الموضع ، وآمن به لوط بن هاران بن تارح بن ناحور ، وهو ابن أخى إبراهيم عليه السلام .

أصحاب
المؤتفكة

وأرسل الله لوطاً إلى سدوم وقرها الخمس ، وهى : صبغة ، وعمرة ، وأدماء ، وصبوغ ، وبالغ ، وإن قوم لوط هم أصحاب المؤتفكة ، وهذا الاسم مشتق من الإفك ، وهو الكذب على رأى من ذهب إلى الاشتقاق ، وقد ذكرهم الله فى كتابه بقوله : (والمؤتفكة أهوى) وهذه بلاد بين تخوم الشام والحجاز مما يلي الأردن وبلاد فلسطين ، إلا أن ذلك فى حيز الشام ، وهى مَبَقَّة إلى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، خراباً لا أحد بها ، والحجارة المسومة موجودة فيها يراها الناس السفار سوداء ، فأقام فيهم لوط بضعاً وعشرين سنة يدعوهم إلى الله فلم يؤمنوا ، فأخذهم العذاب على حسب ما أخبر الله من شأنهم .

ولما ولد إسماعيل هاجر إلى مكة ، فأسكنهم بها ، وذلك قوله عز وجل يخبر عن إبراهيم : (رب إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم)

فأجاب الله دعوته ، وآنس وحشتهم ، بجرهمُ والعالميق ، وجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم .

وأهلك الله قوم لوط في عهد إبراهيم لما كان من فعلهم واتضح من خبرهم .
ثم أمر الله إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ، فبادر إلى طاعة ربه ، وتلّهُ
للجبين ، ففداه الله بذبحٍ عظيم ، ورفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيل .
ثم ولد لإبراهيم من سارة إسحاق عليه السلام ، وذلك بعد مضي عشرين
ومائة سنة من عمره .

مولد إسحاق

والذي من ولد
إبراهيم
وقد تنازع الناسُ في الذبيح : فمنهم من ذهب إلى أنه إسحاق ، ومنهم من
رأى أنه إسماعيل ؛ فإن كان الأمر وقع بالذبح بالحجاز فالذبيح إسماعيل ؛ لأن
إسحاق لم يدخل الحجاز ، وإن كان الأمر بالذبح وقع بالشام فالذبيح إسحاق ؛
لأن إسماعيل لم يدخل الشام بعد أن حمل منه .

وتوفيت سارة وتزوج إبراهيم بعد ذلك بقنطوراء فولد منها ستة ذكور ،
وهم : مرق ، ونفس ، ومدن ، ومدين ، وسنان ، وسرح ، وتوفى إبراهيم بالشام ،
وكان عمره إلى أن قبضه الله عز وجل مائة سنة وخمسا وتسعين سنة ، وأنزل الله
عليه عشراً من الصحف .

أولاد إسحاق
ابن إبراهيم
الخليل
وتزوج إسحاق بعد إبراهيم يوحاء ابنة بتوايل ، فولدت له العيص ويعقوب
في بطن واحد ، وكان الباديء منهما إلى الفصل عيص ، ثم يعقوب ، وكان
لإسحاق في وقت مولدهما ستون سنة ، وذهب بصر إسحاق ، فدعا ليعقوب
بالياسة على إخوته والنبوة في ولده ، ودعا لعيص بالملك في ولده ، وكان عمر
إسحاق إلى أن قبضه الله مائة وخمسا وثمانين سنة ، ودفن مع أبيه الخليل ،
ومواضع قبورهم مشهورة ، وذلك على ثمانية عشر ميلا من بيت المقدس في مسجدٍ
هناك يعرف بمسجد إبراهيم ومراعيه .

وقد كان إسحاق أمر ولده يعقوب بالمسير إلى أرض الشام وبشره بالنبوة ونبوة أولاده الاثني عشر، وهم: لاوى، ويهوذا، ويساخر، وزبولون، ويوسف، وبنيامين، ودان، ونفتالى، وكان، وإسحق، وشمعون، وروبييل، هؤلاء الأسباط، والنبوة والملاك فى عقب أربعة منهم: لاوى، ويهوذا، ويوسف، وبنيامين، وكثير جزع يعقوب من أخيه العيص فأمنه الله من ذلك، وكان ليعقوب خمسة آلاف وخمسمائة من الغنم، فأعطى يعقوب لأخيه العيص العشر من غنمه استكفاء للشر وخوفاً من سطوته، من بعد أن آمنه الله عز وجل من خوفه وأن لا سبيل له عليه، فعاقبه الله فى ولده لخالفته لوعده، فأوحى الله تعالى إليه: ألم تطمئن إلى قولى؟ فلا جعان ولد العيص يملكون ولدك خمسمائة وخمسين عاماً، وكانت المدة مدة أخرجت الروم بيت المقدس واستعبدت بنى إسرائيل إلى أن فتح عمر بن الخطاب رضى الله عنه بيت المقدس.

وكان أحب ولد يعقوب إليه يوسف، فحسده إخوته على ذلك، وكان من أمره مع إخوته ما قص الله عز وجل فى كتابه، وأخبر على لسان نبيه، واشتهر ذلك فى أمته.

وقبض الله عز وجل يعقوب ببلاد مصر، وهو ابن مائة وأربعين سنة، وفاته يعقوب وخمسة يوسف فدفنه ببلاد فلسطين عند تربة إبراهيم وإسحق، وقبض الله يوسف بمصر وله مائة وعشرون سنة، وجعل فى تابوت من الرخام، وسد بالرصاص، وطفى بالأطية الدافعة للهواء والماء، وطرح فى نيل مصر نحو مدينة منف، وهناك مسجده، وقيل: إن يوسف أوصى أن يحمل فيدفن عند قبر أبيه يعقوب فى مسجد إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكان فى عصره أيوب النبی صلی الله عليه وسلم، وهو أيوب بن موص بن رزاح بن رعوایل بن العيص بن إسحق ابن إبراهيم عليهما السلام، وذلك فى بلاد الشام من أرض حوران والبثنية من بلاد دمشق والجابية، وكان كثير المال والولد، فابتلاه الله فى نفسه وماله وولده،

يعقوب بن
إسحق وأخوه
العيص

وفاته يعقوب
ويوسف

أيوب النبی

فصبر ، ورد الله عليه ذلك ، وأقاله عشرته ، واقتصص ما اقتصص من أخباره في كتابه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، ومسجده والعين التي اغتسل منها في وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، مشهوران ببلاد نوى والجولان فيما بين دمشق وطبرية من بلاد الأردن ، وهذا المسجد والعين على ثلاثة أميال من مدينة نوى ، ونحو ذلك ، والحجر الذي كان يأوى إليه في حال بلائه هو وزوجته واسمها رَحْمَة في ذلك المسجد إلى هذا الوقت .

وذكر أهل التوراة والكتب الأولى أن موسى بن ميثاء بن يوسف بن يعقوب بنى قبل موسى بن عمران ، وأنه هو الذي طلب الخضر بن لمكان بن فالغ بن عابور بن شالخ بن إرفخشذ بن سام بن نوح ، وذكر بعض أهل الكتب أن الخضر هو خضرون بن عميائيل بن النصر بن العيص بن إسحق بن إبراهيم وأنه أرسل إلى قومه فاستجابوا له .

موسى بنى الله فكان موسى بن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بمصر في زمن فرعون الجبار ، وهو الوليد بن مصعب بن معاوية بن أبى نعيم بن الهلوس بن ليث ابن هران بن عمر بن عملاق ، وهو الرابع من فراعنة مصر ، وقد كان طال عمره وعظم جسمه ، وكان بنو إسرائيل قد استرقوا بعد مضى يوسف ، واشتد عليهم البلاء ، وأخبر أهل الكهانة والنجوم والسحر فرعون أن مولودا سيولد ويزيل ملكه ويحدث بلاد مصر أمورا عظيمة ، فجزع لذلك فرعون ، وأمر بدمج الأطفال ، وكان من أمر موسى ما أوحى الله عز وجل إلى أمه فى أمره أن أقدفيه فقذفته فى اليم ، إلى آخر ما اقتصص من خبره وأوضحه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم .

وكان فى ذلك الزمان شعيب صلى الله عليه وسلم ، وهو شعيب بن نويت ابن رعويل بن مر بن عنقاء بن مدين بن إبراهيم ، فكان لسانه عربيا وكان مبعوثا من أهل مدين ، فلما خرج موسى عليه السلام هاربا من فرعون مر

شعيب

بشعيب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان من أمره معه وتزويجه ابنته ما قد ذكره
الله عز وجل

فكلم الله موسى تكليماً ، وشدد عضدَهُ بأخيه هارون ، وبعثهما إلى فرعون ،
هرون أخو موسى
فخالفهما ، فأغرق الله عز وجل فرعون ، وأمره الله عز وجل بالخروج ببني إسرائيل
إلى التيه ، وكان عددهم ستمائة ألف بالغ دون من ليس ببالغ ، وكانت الألواح
التي أنزلها الله على موسى بن عمران على جبل طور سيناء من زمرد أخضر فيها
كتابة بالذهب ، فلما نزل من الجبل رأى قوماً من بني إسرائيل قد اعتكفوا
على عبادة عجل لهم ، فارتعد ، فسقطت الألواح من يده فتكسرت فجمعها وأودعها
تابوت السكينة مع غيرها وجعله في الهيكل ، وكان هارون كاهناً ، وهو قيم
الهيكل ، وأتم الله عز وجل نزول التوراة على موسى بن عمران وهو في التيه ،
وقبض الله هارون في التيه فدفن في جبل مران من نحو جبل الشراء مما يلي
الطور ، وقبره مشهور في مغارة عادية يسمع منها في بعض الليالي دوى عظيم يجزع
منه كل ذى روح ، وقيل : إنه غير مدفون ، بل هو موضوع في تلك المغارة ،
ولهذا الموضع خبر عجيب قد ذكرناه في كتابنا « أخبار الزمان عن الأمم الماضية
والممالك الدائرة » ومن وصل إلى هذا الموضع علم ما وصفنا ، وكان ذلك قبل وفاة
موسى بسبعة أشهر ، وقبض الله هرون وهو ابن مائة وثلاث وعشرين سنة ،
وقيل : إنه قبض وهو ابن مائة وعشرين ، وقيل : إن موسى قبض بعد وفاة
هرون بثلاث سنين ، وإنه خرج إلى الشام وكان له بها حروب من سرايا كانوا
يسرونها من البر إلى العماليق والعريانيين والمدنيين وغيرهم ممن كانوا بالشام وغيرهم
من الطوائف ، على حسب ما في التوراة ، وأنزل الله عز وجل على موسى عشر
صحف فاستم مائة صحيفة ، ثم أنزل الله عليه التوراة بالعبرية^(١) ، وفيها الأمر
والنهي والتحريم والتحليل والسنن والأحكام ، وذلك في خمسة أسفار ، والسفر
يريدون به الصحيفة ، وكان موسى قد ضرب التابوت الذي فيه السكينة من

(١) كذا ، والمعروف أنها بالعبرية

الذهب من ستمائة ألف مثقال وسبعمئة وخمسين مثقالا ، فصار الكاهن بعد يوشع بن نون هارون يوشع بن نون من سبط يوسف ، وقبض الله موسى وهو ابن عشرين الكاهن ومائة سنة ، ولم يحدث لموسى ولا هارون شيء من الشيب ، ولا حلا عن صفة الشباب

ولما قبض الله عز وجل موسى بن عمران سار يوشع بن نون ببني إسرائيل إلى بلاد الشام ، وقد كان غلب عليها الجبابرة من ملوك العماليق وغيرهم من ملوك الشام ، فأسرى إليهم يوشع بن نون سرايا ، وكانت له معهم وقائع ، فافتتح بلاد أريحاء من أرض الغور ، وهى أرض البحيرة المنتنة التى لا تقبل الغرقاء ولا يتكون فيها ذوروح من سمك ولا غيره ، وقد ذكرها صاحب المنطق وغيره من الفلاسفة ومن تقدم وتأخر من عصره ، وإليها ينتهى ماء بحيرة طبرية ، وهو الأردن ، وبدء ماء بحيرة طبرية من بحيرة كقولى وفرعون من أرض دمشق ، فاذا انتهى مصب نهر الأردن إلى البحيرة المنتنة خرقها وانتهى إلى وسطها متميزا عن مائها فيغوص فى وسطها ، وهو نهر عظيم ، فلا يدرى أين غاص من غير أن يزيد من البحيرة ولا ينقص منها ، وهذه البحيرة — أعنى المنتنة — أخبار عجيبة وقصة طويلة ، وقد أتينا على ذلك فى كتابنا « أخبار الزمان عن الأمم الماضية والملوك الدائرة » وذكرنا أخبار الأحجار التى تخرج منها على صورة البطيخ على شكلين ويعرف الواحد منها بالحجر اليهودى ، وذكرته الفلاسفة ، واستعملته فى الطب لمن به وجع الحصى فى المثانة ، وهو نوعان : ذكر ، وأنثى ، فالذكر للرجال والأنثى للنساء ومن هذه البحيرة يخرج القبار المعروف بالحمرة ، وليس فى الدنيا والله أعلم بحيرة لا يتكون فيها ذوروح من سمك وغيره إلا هذه البحيرة ، وبحيرة ركبتها ببلاد أذربيجان بين مدينة إرمينية ومنازة ، وهى المعروفة هناك بكنودان ، وقد ذكر الناس ممن تقدم عذر عدم تكون الحيوان فى البحيرة المنتنة ، ولم يتعرضوا لبحيرة كنودان ، وينبغى على قياس قولهم أن تكون عنيهما واحدة

وسار ملك الشام — وهو السميدع بن هو بر بن مالك — إلى يوشع بن نون ، فكانت بينهم حروب ، إلى أن قتله يوشع ، واحتوى على جميع ملكه ، وألحق به غيره من الجبابرة والعاليق ، وشن الغارات بأرض الشام ، وكانت مدة يوشع بن نون في بني إسرائيل بعد وفاة موسى بن عمران تسعا وعشرين سنة ، وهو يوشع بن نون بن إفرايم بن يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، وقيل : إن يوشع بن نون كان بدء محاربته لملك العماليق وهو السميدع ببلاد أيلة نحو مدين ، ففي ذلك يقول عوف بن سعيد الجرهمي : —

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْعَلَقَمِيَّ بْنَ هَوْبِرَ بِأَيْلَةَ أُمْسَى لَحْمُهُ فَدَ تَزَعَا
تَدَاعَتْ إِلَيْهِ مِنْ يَهُودَ جَحَافِلُ ثَلَاثُونَ أَلْفًا حَاسِرِينَ وَدُرَعَا
فَأَمْسَتْ عِدَادًا لِلْعَمَالِيقِ بَعْدَهُ عَلَى الْأَرْضِ مَشِيَامُصْعِدِينَ وَفُرَعَا
كَأَنَّ لَمْ يَكُونُوا بَيْنَ أَجْبَالِ مَكَّةِ وَلَمْ يَرَوْا قَبْلَ ذَلِكَ السَّمِيدَعَا

وكان بقرية من قرى البلقاء من بلاد الشام رجل يقال له بلعم بن باعوراء بلعم بن باعوراء ابن سنور بن وسيم بن ناب بن لوط بن هاران ، وكان مستجاب الدعوة ، فحمله قومه على الدعاء على يوشع بن نون ، فلم يأت له ذلك ، وعجز عنه ، فأشار على بعض ملوك العماليق أن يبرزوا الحسان من النساء نحو عسكر يوشع بن نون ففعلوا فقتلوا إلى النساء فوقع فيهم الطاعون ، فهلك منهم سبعون ألفا ، وقيل : إن يوشع ابن نون قبض وهو ابن مائة وعشرين سنة

وقام في بني إسرائيل بعد يوشع بن نون كالب بن يوقنا بن بارض بن كالب بن يوقنا يهوذا ، ويوشع وكالب الرجلان اللذان أنعم الله عليهما قال المسعودي : ووجدت في نسخة أن القائم في بني إسرائيل بعد وفاة يوشع بن نون وسان الكعري ، وأنه أقام فيهم ثمانين سنة ، وهلك ، وملك عمايل بن قائم من سبط يهوذا أربعين سنة ، وقيل : كوش جبار كان في آب من أرض البلقاء ، وإن بني إسرائيل كفرت بعد ذلك فهلك الله عليهم كنعان

عشر سنين ، وهلك ، فكان على بنى إسرائيل إعلان الاخبارى أربعين سنة ، ثم قام سمويه إلى أن وليهم طالوت ، وخرج عليهم جالوت الجبار ملك البربر من أرض فلسطين .

قال المسعودى : فأما على الرواية الأولى التى قدمنا ذكرها فالتأيم بعده فى بنى إسرائيل والمدير لهم فنحاص بن العازر بن هرون بن عمران ثلاثين سنة ، وكان عمداً إلى مصاحف موسى بن عمران عليه السلام فجعلها فى خابية نحاس ورصص رأسها ، وأتى بها صخرة بيت المقدس ، وذلك قبل بنائه ، وانفجرت ، فاذا مغارة فيها صخرة ثانية ، فوضع الخابية فيها ، وانضمت الصخرة على ذلك ككونها أولاً .

ولما هلك فنحاص بن العازر دبر أمرهم كوشان بن لاسم ملك الجزيرة ، فتعبد بنى إسرائيل ، وأخذهم البلاء ثمان سنين ، ثم دبرهم عثيثال بن قناز أخو كلاب من سبط يهوذا أربعين سنة ، ثم دبرهم عفلون ملك هاب بجهد شديد ثمان عشرة سنة ، ثم دبرهم أهوذ من ولد إفرام خمساً وعشرين سنة ، وخمس وثلاثين سنة خلت من أيامه تم للعالم أربعة آلاف سنة ، وقيل غير ذلك من التاريخ ، ثم دبرهم ساعان بن أهوذ خمساً وعشرين سنة ، ثم دبرهم يابين الكنعانى ملك الشام عشرين سنة ، ثم دبرهم امرأة يقال لها دبورا ، وقيل : إنها ابنته ، وضمت إليها رجلاً من سبط نفتالى يقال له بازاق ، أربعين سنة ، ثم تداولتهم رؤساء بنى إسرائيل وهم عريب وريب ورسونا ودارع وصلناع تسع سنين وثلاثة أشهر ، ثم دبرهم كدعون من آل ميثا أربعين سنة ، وقيل : ملوك مدين ، ثم ابنه أيلخ ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، ثم توبع من آل فراين ثلاثاً وعشرين سنة ، ثم سابه من آل ميثا اثنتين وعشرين سنة ، ثم ملوك عمان ثمانى عشرة سنة وثلاثة أشهر ، ثم يحتون من بيت لحم سبع سنين ، ثم قهرهم ملوك فلسطين أربعين سنة ، ثم على الكاهن بعد ذلك أربعين سنة ، وفى زمانه ظفر البابليون

طالوت
وجالوت

بنى إسرائيل وغنموا التابوت ، وكان بنو إسرائيل يستفتحون به فحملوه إلى بابل وأخرجوهم من ديارهم وأبناءهم ، وكان ما كان من أمر قوم حزقييل ، وهم الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ، وكان قد أصابهم الطاعون ، فبقى منهم ثلاثة أسباط ، فاحقت فرقة بالرمل ، وفرقة بشواحق الجبال ، وفرقة بحزيرة من جزائر البحر ، وكان لهم خبر طويل حتى رجعوا إلى ديارهم فقالوا لحزقييل : هل رأيت قوما أصابهم ما أصابنا ؟ قال : لا ، ولا سمعت بقوم فروا من الله فراركم ، فسلط الله عليهم الطاعون سبعة أيام ، فماتوا عن آخرهم ، ودبر بنو إسرائيل بعد غيلام الكاهن شموييل بن بروحان بن ناحورا ، ونبي فكث فيهم عشرين سنة ، ووضع الله عز وجل عنهم القتال ، وصالح أمرهم ، فخطبوا بعد ذلك فقالوا لشموييل : ابعث لنا ملكا يقاتل معنا في سبيل الله ، فأمر بتملك طالوت ، وهو ساود بن بشر بن اينال بن طرون بن بحرون ابن أفيح بن سميداح بن فالح بن بنيامين بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ، فملكه عليهم ، ولم يجمعهم قبل ذلك مثل طالوت ، وكان بين خروج موسى عليه السلام بنى إسرائيل من مصر إلى أن ملك على بنى إسرائيل طالوت خمسمائة سنة واثنان وسبعون وثلاثة أشهر ، وكان طالوت دباغا يعمل الأدم ، فأخبرهم بنبيهم شموييل أن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، فقالوا فيه ما أخبر الله عز وجل في كتابه : (أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم) وأخبرهم نبيهم أن (آية ملكه أن يأتكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة) وكان مدة ما مكث التابوت ببابل عشر سنين ، فسمعوا عند الفجر حفيف الملائكة تحمل التابوت ، واشتد سلطان جالوت ، وكثرت عساكره وقواده ، وبلغه انقياد بنى إسرائيل إلى طالوت ، فسار جالوت من فلسطين بأجناس من البربر ، وهو جالوت بن يايول بن ريال بن حطان

ابن فارس ، فنزل بساحة بني إسرائيل ، فأمر شمويل طالوت بالمسير ببني إسرائيل إلى حرب جالوت ، فابتلاهم الله عز وجل بنهر بين الأردن وفلسطين ، وسلط الله عليهم العطش ، وقد قصَّ الله ذلك في كتابه ، وأمر وا كيف يشربون من النهر ، فولعه أهل الريبة ولغ الكلاب ، فقتلهم طالوت عن آخرهم ، ثم فضل من خيارهم ثمانية وثلاثة عشر رجلاً فيهم داود عليه السلام ، ولحق داود بإخوته ، فتوافق الجيشان جميعاً ، وكانت الحروب بينهما سجالاً ، وندب طالوت الناس ، وجعل لمن يخرج إلى جالوت ثلث ملكه ويتزوج ابنته ، فبرز داود فقتله بحجر كان في مخلاته ، رماه بمقلع فخر جالوت ميتاً ، وقد أخبر الله عز وجل بذلك في كتابه بقوله : (وقتل داود جالوت) وقد ذكر أن الحجر الذي كان في مخلاة داود كان ثلاثة أحجار ، فاجتمعت وصار حجراً واحداً وهى التى قتل بها جالوت ، وإن القوم الذين ولغوا في الماء وخالفوا ما أمروا به كان القاتل لهم طالوت ، وقد أتينا على خبر الدرع التى كان أخبرهم نبيهم أنه لا يقتل جالوت إلا من صاحت عليه تلك الدرع إذا لبسها ، وأنها صاحت على داود ، وما كان من هذه الحروب وخبر الدهن الذى استدار على رأسه ، وخبر طالوت ، وأخبار البربر وبدء شأنهم ؛ فى كتابنا فى أخبار الزمان ، وسنورد بعد هذا جملاً من أخبار البربر وتفرقهم فى البلاد فى الموضع اللائق بها من هذا الكتاب .

داود النبي

ورفع الله ذكر داود ، وأخل ذكر طالوت ، وأبى طالوت أن يفي لداود بما تقدم من شرطه ، فلما رأى ميل الناس إليه زوجّه ابنته ، وسلم إليه ثلث الجباية ، وثلث الحكم ، وثلث الناس ، ثم حسده بعد ذلك فاغتاله ، فمنعه الله عز وجل من ذلك ، فأبى داود أن ينافسه فى ملكه ، ونما أمر داود فبات طالوت على سرير ملكه فمات من ليلته كذا ، وانتقدت بنو إسرائيل إلى داود عليه السلام ، وكانت مدة طالوت عشرين سنة ، وذكر أن الموضع الذى قتل فيه جالوت نيسان من أرض الغور من بلاد الأردن ، وألان الله عز وجل لداود الحديد ؛ فعمل منه

الدروع ، وسَخَّرَ له الجبال والطير يُسَبِّحُنَ معه ، وحارب داود أهل موات من أرض البلقاء ، وأنزل الله عز وجل عليه الزُّبُورَ بالعبرانية خمسين ومائة سورة ، وجعله ثلاثة أثلاث : فثلث ما يكون مع بُخْتِ نَصْرَ وما يكون من أمره في المستقبل ، وثلث ما يلقون من أهل أنوار ، وثلث موعظة وترغيب ومحبة وترهيب ، ليس فيه أمر ولا نهى ولا تحليل ولا تحريم ، واستقامت الأمور لداود ، ولحقت الخوارج من الأكراد بأطراف الأرض لهيئة داود ، وبني داود بيتا للعبادة بأورشليم ، وهى بيت المقدس ، وهو البيت الباقي لوقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، يدعى بمحراب داود عليه السلام ، وليس في بيت المقدس أعلى منه في هذا الوقت ، وقد يرى من أعلاه البحيرة المنتنة ونهر الأردن المقدم ذكره ، وكان من أمر داود مع الخصمين ما قص الله عز وجل في كتابه من خبره ، وقوله لأحدهما قبل استماعه من الآخر : (لقد ظلمك) وقد تنازع الناس في خطيئة داود : فمنهم من رأى ما وصفنا ونفى عن الأنبياء المعاصي وتعمد الفسق وأنهم معصومون فكانت الخطيئة ما ذكرنا ، وذلك قوله عز وجل : (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق) ومنهم من رأى أن ذلك كان قضية أروياء ابن حيان ومقتله على ما ذكرنا في كتاب المبتدأ والخبر وغيره ، وتاب الله عز وجل على داود بعد أربعين يوما كان فيها صائما باكيا ، وتزوج داود عليه السلام مائة امرأة .

ونشأ سليمان بن داود عليه السلام ، وبرع ، وداخل أباه في قضائه ، فاتاه الله فصل الخطاب والحكم ، على ما أخبر الله عز وجل عنهما بقوله : (وكلا آتينا حكما وعلما)

نشأة سليمان
ابن داود

ولما حضرت داود الوفاة أوصى إلى ولده سليمان ، وقبض فكان ملكه أربعين سنة على فلسطين والأردن ، وكان عسكره ستين ألفاً أصحاب سيوف جردا مردا أصحاب بأس ونجدة

لقمان الحكيم

وكان ببلاد مدين وأيلة في عصر داود عليه السلام ثَقْمَانُ الحكيم ، وهو لقمان بن عنقاء بن مربد بن صاوون ، وكان نوبيًّا مَوْلىً للقَيْن بن جسر ، ولد على عشر سنين من ملك داود عليه السلام ، وكان عبدا صالحا فَمَنَّ الله عز وجل عليه بالحكمة ، ولم يزل باقيا في الأرض مُظْهِرًا للحكمة والزهد في هذا العالم إلى أيام يونس بن مَتَّى حين أرسل إلى أرض نَيْنَوَى من بلاد الموصل

ملك سليمان

ولما قبض الله داود عليه السلام قام بعده ولده سليمان بالنبوة والحكم ، وعَمَرَ عدله رعيته ، واستقامت له الأمور ، واتقادت له الجيوش ، وابتدأ سليمان ببنيان بيت المقدس ، وهو المسجد الأقصى الذي بَارَكَ الله عز وجل حوله ، فلما استتم بناءه بنى لنفسه بيتًا ، وهو الموضع الذي يسمى في وقتنا هذا كنيسة القمامة ، وهى الكنيسة العظمى بيت المقدس عند النصارى ، ولهم كنائس غيرها معظمة ببيت المقدس ، منها كنيسة صَهْيُون ، وقد ذكرها داود عليه السلام ، والكنيسة المعروفة بالجسمانية ، ويرغمون أن فيها قبر داود عليه السلام ، وأعطى الله عز وجل سليمان عليه السلام من الملك ما لم يُعْطِهِ لأحد من خلقه ، وسَخَّرَ له الجن والإنس والطير والريح ، على حسب ما ذكر الله عز وجل في كتابه ، وكان ملك سليمان بن داود على بنى إسرائيل أربعين سنة ، وقَبِضَ وهو ابن اثنتين وخمسين سنة والله ولى التوفيق

ذكر مالك بن رجبم بن سليمان بن داود عليهما السلام

ومن تلاه من بنى إسرائيل ، وجمل من أخبار الأنبياء

ملوك

بنى إسرائيل
بعد سليمان

وملك على بنى إسرائيل بعد سليمان بن داود عليهما السلام مالك بن رجبم ابن سليمان ، واجتمعت عليه الأسباط ، ثم افترقوا عنه ، إلا سبط يهوذا وسبط بنيامين ، وكان ملكه إلى أن هلك سبع عشرة سنة وملك على العشرة أسباط نورهم ، وكانت له كوائن وحروب ، واتخذ له عجلا من الذهب والجوهر ، واعتكف

على عبادته فأهلكه الله عز وجل فكان ملكه عشرين سنة ، وملك بعده لودم ، فأظهر عبادة الأصنام والتماثيل ، وكان ملكه سنة ، ثم ملكت بعده امرأة يقال لها عيلان ، فبذلت السيف في ولد داود عليه السلام ، فلم ينج منهم إلا غلام ، فأنكرت بنو إسرائيل ذلك من فعلها فقتلوها ، وكان ملكها سبع سنين ، وقيل غير ذلك ؛ وملكوا عليهم الغلام الذي بقى من نسل داود ، فملك وله سبع سنين ، فأقام ملكاً أربعين سنة ، وقيل دون ذلك ، وملك بعده مليصا ، وكان ملكه اثنتين وخمسين سنة ، وكان في عصره شعيب النبي ، ولشعيب معه أخبار ، وكانت له حروب قد أثبتنا على ذكرها في كتاب « أخبار الزمان » وملك بعده نوحا بن عدل عشر سنين ، وقيل : ست عشرة سنة ، وملك بعده أجام ، فأظهر عبادة الأصنام ، فطغى وأظهر البغي ، فصار إليه بعض ملوك بابل ، وكان يقال له فلعيس ، وكان من عظماء ملوك بابل ، وكان للإسرائيليين معه حروب إلى أن أسره البابليُّ ، وخرَّب مدن الأسباط ومساكنهم ، وكان في أيامه تنازع بين اليهود في الديانة ؛ فبذ منهم الأسامرة وأنكروا نبوة داود عليه السلام ومن تلاه من الأنبياء ، وأبوا أن يكون بعد موسى نبي ، وجعلوا رؤساءهم من ولد هرون بن عمران ، والأسامرة في وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، ببلاد فلسطين والأردن ، وفي قرى متفرقة مثل القرية المعروفة بعارا ، وهي بين الرملة وطبرية ، وغيرها من القرى إلى مدينة نابلس ، وأكثرهم في هذه المدينة - أعنى نابلس - ولهم جبل يقال له طوريك ، وللأسامرة عليه صلوات في أوقاتها ، ولهم بوقات من فضة يُنفخ فيها عند أوقات الصلاة ، وهم الذين يقولون « لا مساس » ويزعمون أن نابلس هي بيت المقدس ، وهي مدينة يعقوب النبي عليه السلام ، وهناك مرعاه ، وهم صنفان متباينان كتبائينهم لسائر اليهود ، وأحد الصنفين يقال له الكوسان ، والآخر الدورسان ، أحد الصنفين يقول بقدوم العالم ومعانٍ غير ذلك

أعرضنا عن ذكرها مخافة التطويل ، وأن كتابنا هذا كتاب خبر لا كتاب آراء ونحل .

وكان ملك أجام إلى أن أسره الملك الثاني سبع عشرة سنة ، ولما أسر الملك أجام ولد له ولد يقال له حزقيل [بن] أجام ، فأظهر عبادة الرحمن ، وأمر بتكسير التماثيل والأصنام ، وفي ملكه سار سيجارك ملك بابل إلى بيت المقدس ، وكانت له حروب كثيرة مع بني إسرائيل ، وقتل من أصحابه خلق كثير من ، وسبي من الأسباط عدداً كثيراً ، وكان ملك حزقيل إلى أن هلك سبعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعد حزقيل ولد له يقال له ميشا ، فغمر شره سائر مملكته ، وهو الذى قتل شعيبا النبي ، فبعث الله قسطنطين ملك الروم فسار إليه في الجيوش ، فهزم جيشه وأسره ، فأقام في أرض الروم عشرين سنة ، وأوقع عما كان عليه ، وعاد إلى ملكه فكان ملكه إلى أن هلك خمسا وعشرين سنة ، وقيل : ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده ولد له يقال له أمون بن ميشا ، فأظهر الطغيان ، وكفر بالرحمن ، وعبد التماثيل والأصنام ، ولما اشتد بغيه سار إليه فرعون الأعرج من بلاد مصر في الجيوش ، فأمعن في القتل ، وأسره ، ومضى به إلى مصر ، فمات هناك ، وكان ملكه خمس سنين ، وقيل غير ذلك .

وملك بعده أخ له يقال له نوفين ، وهو أبو دانيال عليه السلام ، وفي عصر هذا الملك سار البخت نصر ، وهو مرزبان العراق والعرب من قبائل فارس ، وكان ببلخ ، وكانت قصبة الملك ، فأمعن البخت نصر في القتل لبني إسرائيل والأسر ، وحملهم إلى أرض العراق ، وأخذ التوراة وما كان في بيت المقدس من كتب الملوك وطرحه في بئر ، وعمد إلى تابوت السكينة فأودعه بعض المواضع من الأرض ، فيقال : إنه كان عدة من سبي من بني إسرائيل ثمانية عشر ألفا .

وفي هذا العصر كان أقدمنا النبي عليه السلام ، وسار بخت نصر إلى مصر

فقتل فرعون الأعرج ، وكان يومئذ ملك مصر ، وسار نحو المغرب فقتل ملوكا ،
وافتح مدائن .

وكان ملك فارس تزوج جارية من سبايا بني إسرائيل ، فأولدها ولداً ، فرد
بني إسرائيل إلى ديارهم ، وكان ذلك بعد سنين .

ولما رجعت بنو إسرائيل إلى بلادهم ملكت عليها زريابل بن سلسان ،
فابتنى مدينة بيت المقدس ، وعمرَ ما كان خرب ، وأخرجت بنو إسرائيل التوراة
من البئر ، واستقامت لهم الأمور ، فأقام هذا الملك على عمارة أرضهم ستاً وأربعين
سنة ، وشرع لهم الصلوات وغيرها من الشرائع مما كان تلف منهم في حال السبي ،
والأسامرة تزعم أن التوراة التي في يد اليهود ليست التوراة التي أورد موسى بن
عمران عليه السلام ، وأن تلك حرفت وبدلت وغيّرت ، وأن الجدد لها هذا
الملك ، لأنه جمعها ممن كان يحفظها من بني إسرائيل ، وأن التوراة الصحيحة هي
في أيدي الأسامرة دون غيرهم ، وكان ملك هذا الملك ستاً وأربعين سنة ، ووجدت
في نسخة أخرى أن المتزوج في بني إسرائيل هو بنخت نصر ، وهو الذي ردّهم
ومنّ عليهم ، وفيه نظر .

ودبر إسماعيل بن إبراهيم أمرَ البيت بعد إبراهيم عليه السلام ، ونبأه الله عز
وجل ، وأرسله إلى العماليق وقبائل المين ، فنهاهم عن عبادة الأوثان ، فأمن طائفة
منهم وكفر أكثرهم ، وولد إسماعيل اثني عشر ذكراً . وهم : فائث ، وقيدار ،
وأربل ، وميم ، ومسمع ، ودوما ، ودوام ، وميشا ، وحداد ، وحيم ، وقطورا ،
وماش ، وكانت وصية إبراهيم إلى ابنه إسماعيل عليه السلام ، ووصى إسماعيل إلى
أخيه إسحق عليهما السلام ، وقد قيل : إلى ولده قيدار بن إسماعيل ، وكان عمر
إسماعيل إلى أن قبضه الله إليه مائة سنة وسبعا وثلاثين سنة ، ودفن بالمسجد الحرام
في الموضع الذي كان فيه الحجر الأسود .

ودبر أمر البيت بعده فائث بن إسماعيل عليه السلام ، على منهج إسماعيل
وملته ، وقيل أيضا : إنه كان وصى أبيه إسماعيل عليه السلام .

وكان بين سليمان بن داود وبين المسيح عليهما السلام أنبياء وعباد وصالحون
منهم : أرمينيا ، ودانيال ، وعزير ، وقد تنازع الناس في نبوة أيوب ، وأشعيا ،
وحزقيال ، وإلياس ، واليسع ، ويونس ، وذى الكفل ، والخضر ، وروى عن
إسحق أنه أرمينيا ، وقيل : بل كان عبداً صالحاً ، وزكريا وهو من ولد داود من
سبط يهوذا ، وكانت أيساع بنت عمران أخت مريم بنت عمران أم المسيح عليهما
السلام ، وهو عمران بن ماثان بن يعاقم ؛ من ولد داود أيضا ، واسم أم أيساع
ومريم حنة ، ولدت لزكريا يحيى بن خالة المسيح عليهم السلام ، وكان زكريا
نجارا فأشاعت اليهود أنه ركب من مريم الفاحشة فقتلوه ، وكان لما أحس بهم
جأ إلى شجرة فدخل في جوفها فدلّهم عليه إبليس لعنه الله عز وجل ، فنشروا
الشجرة وهو فيها ، فقطعوه وقطعوها ، ولما ولدت أيساع ابنة عمران أخت مريم
أم المسيح يحيى بن زكريا عليهما السلام هربت به من بعض الملوك إلى مصر ، فلما
صار رجلا بعثه الله عز وجل إلى بنى إسرائيل ؛ فقام فيهم بأمر الله عز وجل ونهيه
فقتلوه ، وكثرت الأحداث في بنى إسرائيل ، فبعث الله عليهم ملكا من ناحية
المشرق يقال له حردوس ، فقتل منهم على دم يحيى بن زكريا ألوفاً من الناس وهو
يفور إلى أن هدا الدم بعد خطب طويل .

ولما بلغت مريم ابنة عمران سبع عشرة سنة بعث الله عز وجل إليها جبريل
فنفخ فيها الروح فحملت بالسيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، وولدت بقرية
يقال لها بيت لحم على أميال من بيت المقدس ، ولدت في يوم الأربعاء لأربع وعشرين
ليلة خلت من كانون الأول ، وكان من أمره ما ذكره الله عز وجل في كتابه ،
واتضح على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد زعمت النصارى أن أشيوع
الناصرى أقام على دين من سلف من قومه يقرأ التوراة والكتب السالفة في مدينة

مولد عيسى
ابن مريم
عليه السلام

طبرية من بلاد الأردن في كنيسة يقال لها المدراس ثلاثين سنة ، وقيل : تسعاً وعشرين سنة ، وأنه في بعض الأيام كان يقرأ في سفر أشعياء إذ نظر في السفر إلى كتاب من نور فيه أنت نبي ، وخالصتي ، اصطفتك لنفسى ، فأطبق السفر ودفعه إلى خادم الكنيسة ، وخرج وهو يقول : الآن تمت المشيئة لله في ابن البشر ، وقد قيل : إن المسيح عليه السلام كان بقرية يقال لها ناصرة من بلاد اللجون من أعمال الأردن ، وبذلك سميت النصرانية ، ورأيت في هذا القرن كنيسة تعظمها النصارى وفيها توايت من حجارة فيها عظام الموتى يسيل منها زيت ثخين كالرب تتبرك به النصارى ، وأن المسيح مر ببخيرة طبرية وعليها أناس من الصيادين والقصارين وقد ذكر أن ميروحنا وشمعون وبولس ولوقاهم الحواريون الأربع الذين تلقوا الإنجيل ، فألقوا خبر عيسى عليه السلام ، وما كان من أمره ، وخبر مولده ، وكيف عمّده يحيى بن زكريا ، وهو يحيى المعمدانى ، في بخيرة طبرية ، وقيل : في بحر الأردن الذى يخرج من بخيرة طبرية ويمجرى الى البحيرة المنتنة ، وما فعل من الأعاجيب ، وأتى من المعجزات ، وما قالت اليهود إلى أن رفعه الله عز وجل إليه ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وفي الإنجيل خطب طويل في أمر المسيح ومريم عليهما السلام ويوسف النجار ، أعرضنا عن ذلك لأن الله عز وجل لم يخبر بشئ من ذلك في كتابه ، ولا أخبر به محمد نبيه صلى الله عليه وسلم .

ذكر أهل الفترة من كان بين المسيح ومحمد

صلى الله عليهما وسلم

وكان بين المسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم جماعة من أهل التوحيد ، ممن يُقرُّ بالبعث ، وقد اختلف فيهم : فمن الناس من رأى أنهم أنبياء ، ومنهم من رأى غير ذلك

حنظلة بن صفوان

فمن ذكر أنه نبي حنظلة بن صفوان ، وكان من ولد إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليهما وسلم ، وأرسل إلى أصحاب الرّسّ ، وكانوا من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، وهم قبيلتان يقال لأحدهما آدمان ، وللأخرى يامن ، وقيل : رعويل ، وذلك باليمن ، فقام فيهم حنظلة بأمر الله عز وجل ، فأوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل من سبط يهوذا أن يأمر بخت نصر [بأن] يسير إليهم ، فسار إليهم ، فأقى عليهم ، وذلك قوله عز وجل : (فلما أحسوا بأسنا) إلى قوله (حصيداً حامدين) وقيل : إن القوم كانوا من حمير ، وقد ذكر ذلك بعض شعرائهم في مراثية له فقال :

بَكَتْ عَيْنِي لِأَهْلِ الرّسِّ رَعْوِيلَ وَقَدَمَانَ
وَأَسْلَمَ مِنْ أَبِي زَرْعٍ بَكَالَ الْحَيِّ قَحْطَانَ

ذو القرنين

وقد حكى عن وهب بن منبه أن ذا القرنين وهو الاسكندر ، كان بعد المسيح عليه السلام في الفترة ، وأنه كان حلم حلماً رأى فيه أنه دنا من الشمس حتى أخذ بقرنيها في شرقها وغربيها ، فقَصَّ رؤياه على قومه فسمّوه بذى القرنين وللناس في ذى القرنين تنازع كبير قد أتيننا على ذلك في كتاب « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط ، وسنذكر لمعاً من خبره عند ذكرنا للملك اليونانيين والروم .

أهل الكهف

وكذلك تنازع الناس في أصحاب الكهف في أي الأعصار كانوا ، فمنهم من زعم أنهم كانوا في زمن الفترة ، ومنهم من رأى غير ذلك ، وسنأتى بامع من خبرهم

في ذكر ملوك الروم في هذا الكتاب ، وإن كنا قد أتينا على ذلك في الكتاب الأوسط ، وفيما سلف قبله من كتاب « أخبار الزمان » .

جرجيس

وَمِنْ كَانَ فِي الْفَتْرَةِ بَعْدَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَرْجِيسُ ، وَقَدْ أَدْرَكَ بَعْضَ الْخَوَارِيزِينَ ، فَأَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى بَعْضِ مُلُوكِ الْمَوْصِلِ ، فَدَعَاهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَقَتَلَهُ ، فَأَحْيَاهُ اللَّهُ وَبَعَثَهُ إِلَيْهِ ثَانِيَةً ، فَقَتَلَهُ ، فَأَحْيَاهُ اللَّهُ ، فَأَمَرَ بِنَشْرِهِ ثَالِثَةً وَإِحْرَاقِهِ وَإِذْرَائِهِ فِي دَجَلَةٍ ، فَأَهْلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَلِكَ وَجَمِيعَ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ مِمَّنْ اتَّبَعَهُ ، عَلَى حَسَبِ مَا وَرَدَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِمَّنْ آمَنَ ، وَذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي كِتَابِ الْمُبْتَدَأِ وَالسَّيَرِ لَوْهَبِ بْنِ مِنْبِهِ وَغَيْرِهِ .

حبیب النجار

وَمِنْ كَانَ فِي الْفَتْرَةِ حَبِيبُ النِّجَارِ ، وَكَانَ يَسْكُنُ أَنْطَاكِيَّةَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ ، وَكَانَ بِهَا مَلِكٌ مُتَجَبِّرٌ يَعْبُدُ التَّمَاثِيلَ وَالصُّوَرِ ، فَسَارَ إِلَيْهِ اثْنَانِ مِنْ تَلَامِذَةِ الْمَسِيحِ ، فَدَعَاوَاهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَخَسِبَهُمَا وَضَرَبَهُمَا ، فَعَزَّزَ اللَّهُ ثَالِثًا ، وَقَدْ تَنَوَّعَ فِيهِ ، فَذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَى أَنَّهُ بَطْرُسُ ، وَهَذَا بِالرُّومِيَّةِ ، وَاسْمُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ شَمْعَانُ ، وَبِالسَّرْيَانِيَّةِ شَمْعُونُ ، وَهُوَ شَمْعُونُ الصَّفَاءُ ، وَذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَإِلَيْهِ ذَهَبَ سَائِرُ فِرْقِ النَّصْرَانِيَّةِ أَنَّ الثَّالِثَ الْمَعَزَّزَ بِهِ يُولَسُ ، وَأَنَّ الْاِثْنَيْنِ الْمُتَقَدِّمِينَ الَّذِينَ أَوْدَعَا الْحَبْسَ تَوْمًا وَبَطْرُسَ ، فَكَانَ لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ الْمَلِكِ خُطْبٌ عَظِيمٌ طَوِيلٌ ، فِيمَا أَظْهَرُوا مِنَ الْإِعْجَازِ وَالْأَعْجَابِ وَالْبَرَاهِينِ : مِنْ إِبْرَاءِ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ ، وَإِحْيَاءِ الْمَيِّتِ ، وَحِيلَةِ يُولَسَ عَلَيْهِ بِمَدَاخِلَتِهِ إِيَّاهُ وَتَلَطُّفِهِ لَهُ ، وَاسْتِنْقَازِ صَاحِبِيهِ مِنَ الْحَبْسِ ، فَجَاءَ حَبِيبُ النِّجَارِ فَصَدَّقَهُمْ ؛ لَمَّا رَأَى مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ فِي كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ : (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا) إِلَى قَوْلِهِ : (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى) وَقَتْلَ يُولَسَ وَبَطْرُسَ بِمَدِينَةِ رُومِيَّةِ ، وَصَلْبَا مَنْكَسِينَ ، وَكَانَ لَهَا فِيهَا خَبَرٌ طَوِيلٌ مَعَ الْمَلِكِ ، وَمَعَ سَلِيمَانَ السَّاحِرِ ، ثُمَّ جَعَلَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي خَزَانَةِ مِنَ الْبُلُورِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ ظُهُورِ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ وَحَرَمِهَا فِي كَنِيسَةٍ هُنَاكَ قَدْ ذَكَرْنَاهَا فِي الْكِتَابِ الْأَوْسَطِ عِنْدَ ذِكْرِنَا لِعَجَائِبِ رُومِيَّةِ ،

وأخبار تلاميذ المسيح عليه السلام ، وتفرقهم في البلاد ، وسنورد في هذا الكتاب لمعاً من أخبارهم إن شاء الله تعالى .

أصحاب
الأخدود

فأما أصحاب الأخدود فإنهم كانوا في الفترة في مدينة نجران باليمن ، في ملك ذى نُوَاسٍ ، وهو القاتل لذى سار ، وكان على دين اليهودية ، فبلغ ذا نواس أن قوماً بنَجْرَانَ على دين المسيح عليه السلام ، فسار إليهم بنفسه ، واحتفر لهم أخاديد في الأرض ، وملأها حجراً ، وأضرمها نارا ، ثم عرضهم على اليهودية فمن تبعه تركه ، ومن أبى قذفه في النار ، فَأَتَى بِامْرَأَةٍ مَعَهَا طِفْلُ ابْنِ سَبْعَةِ أَشْهُرٍ ، فَأَبَتْ أَنْ تَتَخَلَّى عَنْ دِينِهَا فَأَدْنَيْتْ مِنَ النَّارِ فَحِزَعَتْ ، فَأَنطَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الطِّفْلَ قَتالاً : يَا أُمَّهُ ، امْضِ عَلَى دِينِكَ فَلَا نَارَ بَعْدَ هَذِهِ ، فَأَلْقَاهَا فِي النَّارِ ، وَكَانُوا مُؤْمِنِينَ مُوَحِّدِينَ ، لَا عَلَى رَأْيِ النَّصْرَانِيَّةِ فِي هَذَا الْوَقْتِ ، فَضَى رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ دَمْعِيلَانُ إِلَى قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ يَسْتَنْجِدُهُ ، فَكُتِبَ إِلَى النَّجَاشِيِّ لِأَنَّهُ كَانَ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ دَاراً ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِ الْحَبْشَةِ وَعَبُورِهِمْ إِلَى أَرْضِ الْيَمَنِ وَتَغْلِبِهِمْ عَلَيْهَا إِلَى أَنْ كَانَ مِنْ أَمْرِ سَيْفِ بْنِ ذِي يَزْنَ وَاسْتِنْجَادِهِ الْمُلُوكَ إِلَى أَنْ أَنْجَدَهُ أَنْوَشْرَوَانُ مَا قَدْ أَتَيْنَا عَلَى ذِكْرِهِ فِي كِتَابِنَا فِي أَخْبَارِ الزَّمَانِ ، وَفِي الْكِتَابِ الْأَوْسَطِ ، وَسَنَذْكُرُ لَمَعاً مِنْ ذَلِكَ فِيمَا يَرِدُ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ عِنْدَ ذِكْرِنَا لِأَخْبَارِ الْأَذْوَءِ وَمُلُوكِ الْيَمَنِ ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ قِصَّةَ أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : (قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ) إِلَى قَوْلِهِ (وَمَا قَعَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) .

خالد بن
سنان العبسي

وممن كان في الفترة خالد بن سنان العبسي ، وهو خالد بن سنان بن عتب ابن عبس ، وقد ذكره النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « ذَلِكَ نَبِيُّ أَضَاعَهُ قَوْمُهُ » وَذَلِكَ أَنَّ نَاراً ظَهَرَتْ فِي الْعَرَبِ ، فَافْتَنُّوا بِهَا ، وَكَانَتْ تَنْتَقِلُ ، وَكَادَتْ الْعَرَبُ تَتَمَجَّسُّ وَتَغْلِبَ عَلَيْهَا الْجُوسِيَّةُ ، فَأَخَذَ خَالِدُ بْنُ سَنَانَ هِرَاوَةَ وَشَدَّ عَلَيْهَا وَهُوَ يَقُولُ : بَدَأَ كُلُّ ذِي دِينٍ يَرُدُّ إِلَى اللَّهِ الْأَعْلَى لِأَدْخُلَهَا وَهِيَ تَنْطَلِي وَلِأَخْرُجَنَّ مِنْهَا وَمَا بِي سَدَى ، فَأَطْفَأَهَا ، فَلَمَّا حَضَرَتْ خَالِدُ بْنُ سَنَانَ الْوَفَاةَ قَالَ لِأَخُوته : إِذَا أَنَا

دفنت فانه سيجى عانة من حمير وحش يقدمها غير أبت ، فتضرب قبري بحافرها
فاذا رأيتم ذلك فانبشوا عني فاني سأخرج إليكم ، فأخبركم بجميع ما هو كائن ، فلما
مات ودفنوه رأوا مقال فأرادوا أن يخرجوه ، فكره ذلك بعضهم ، وقالوا : نخاف
أن تنسبنا العرب إلى نبشنا عن ميت لنا ، وأتت ابنته إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم فسمعته يقرأ (قل هو الله أحد) فقالت : كان أبي يقول هذا ، وسنورد فيما
يرد من هذا الكتاب لمعا من أخباره مما تدعو الحاجة إلى ذكره إن شاء الله تعالى .

قال المسعودي : ومن كان في الفترة وثاب السني ، وكان من عبد القيس ،
ثم من سن ، وكان على دين المسيح عيسى بن مريم عليه السلام قبل مبعث
النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لا يموت أحد من ولد وثاب فيدفن إلا رأوا
واسطا على قبره

ومنهم أسعد أبو كرب الحميري ، وكان مؤمنا ، وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم أسعد أبو كرب
الحميري
وسلم قبل أن يبعث بسبعائة سنة ، قال : —

شَدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ بَارِي النَّسَمِ
فَلَوْ مَدَّ عُمُرِي إِلَى عُمُرِهِ لَكُنْتُ وَزِيرًا لَهُ وَابْنَ عَمِّ
وَأُزِمُّ طَاعَتَهُ كُلَّ مَنْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ أَوْ عَجَمٍ

وهو أول من كسا الكعبة الأنطاع والبرود ، فذلك يقول بعض حمير : —
وَكَسَوْتَ الْبَيْتَ الَّذِي عَظَّمَ اللَّهُ مَلَأَ مُقَصَّبًا وَبُرُودًا

ومنهم قس بن ساعدة بن إباد بن نزار بن معد ، وكان حكيم العرب ،
وقان مقرا بالبعث ، وهو الذي يقول : من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل
ما هو آت آت ، وقد ضرب العرب بحكمته وعقله الأمثال ، قال الأعشى : —

وَأَحْكَمُ مِنْ قُسٍّ وَأَجْرَى مِنَ الَّذِي

بَذَى الْعِي مِنْ خَفَّانٍ أَصْبَحَ خَادِرًا

وقدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد من إباد ، فسألهم عنه ، فقالوا : هلك
 فقال : رحمه الله ، كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جبل له أحمر وهو يقول :
 أيها الناس ، اجتمعوا واسمعوا وعُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل
 ما هو آت آت ، أما بعد فإن في السماء لخبرا ، وإن في الأرض لعبرا ، نجوم تمور
 وبحار تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، أقسم بالله قسما لا حاشا فيه ولا
 آثما ، إن الله لدينا هو أرضى من دين أتم عليه ، مالى أراهم يذهبون ولا يرجعون
 أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا ؟ سبيل مؤتلف ، وعمل مختلف ، وقال أبياتا
 لا أحفظها ، فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال : أنا أحفظها يا رسول الله ، فقال :
 هاتهما ، فقال :

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِيِّ
 لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدَا
 وَرَأَيْتُ قَوْمِي أَنْحَوْهَا
 لَمْ يَرْجِعْ الْبَاقِي وَلَا
 أَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَا
 ن مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
 لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
 تَمْضِي الْأَوَائِلُ وَالْأَوَاخِرُ
 يَبْقَى مِنَ الْبَاقِينَ غَابِرُ
 لَهَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله قسا ، إني لأرجو أن
 يبعثه الله أمة

قال المسعودى : ولقس أشعار كثيرة وحكم ، وأخبار مع قيصر في الطب
 والزجر والفأل وأنواع الحكم ، وقد ذكرنا ذلك في كتاب « أخبار الزمان »
 وفي الكتاب الأوسط

ومن كان في الفترة زيد بن عمرو بن نفيل أبو سعيد بن زيد أحد العشرة
 وهو ابن عم عمر بن الخطاب ، وكان زيد يرغب عن عبادة الأصنام ، وعابها ،
 فأولع به عمه الخطاب من سفهاء مكة ، وسلطهم عليه ، فأذوه ، فسكن كهفا بجرا ،

زيد بن عمرو
 ابن نفيل

وكان يدخل مكة سرّاً ، وصار إلى الشام يبحث عن الدين ، فسمه بعض ملوك
غسان بدمشق ، وقد أتينا عليه فيما ساف من كتبنا

أمية بن
أبي الصلت
الثقفي

ومنهم أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وكان شاعراً عاقلاً ، وكان يتجر إلى
الشام ، فلتقاه أهل الكنائس من اليهود والنصارى ، وقرأ الكتب ، وكان علم
أن نبيا يبعث من العرب ، وكان يقول أشعاراً على آراء أهل الديانة يصف فيها
السموات والأرض والشمس والقمر والملائكة ، وذكر الأنبياء والبعث والجنة
والنار ، ويعظم الله عز وجل ويوحده ، من ذلك قوله :

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ مَنْ لَمْ يَقْلُهَا فَنَفْسُهُ ظَلَمًا

ووصف أهل الجنة فقال :

قَلَّا لَغَوٍّ وَلَا تَأْتِيهِمْ فِيهَا وَمَا فَاهُوا بِهِ لَهُمْ مُقِيمٌ

ولما بلغه ظهور النبي صلى الله عليه وسلم اغتاض ، وتأسف ، وجاء المدينة
ليسلم فردّه الحسد ، فرجع إلى الطائف ، فبينما هو ذات يوم في فتية يشرب إذ وقع
غراب فنعب ثلاثة أصوات وطار ، فقال أمية : أتدرون ما قال ؟ قالوا : لا ، قال :
فانه يقول لكم إن أمية لا يشرب الكأس الثالثة حتى يموت ، فقال القوم :
لتكذبن قوله ، ثم قال : احسوا كأسكم ، فحسوها ، فلما انتهت النوبة إليه أغمى
عليه ، فسكت طويلاً ، ثم أفاق وهو يقول :

لَبَيْكُمَا لَبَيْكُمَا هَا أَنَا ذَا لَدَيْكُمَا

أنا من حفت به النعمة والحمد والشكر

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمًا

أو قال : أنا من حفت به النعمة ولم يجهد في الشكر ، ثم أنشأ يقول :

إِنَّ يَوْمَ الْحِسَابِ يَوْمٌ عَظِيمٌ شَابَ فِيهِ الصَّغِيرُ يَوْمًا طَوِيلًا

لَيْتَنِي كُنْتُ عِنْدَ مَا قَدْ بَدَأَ لِي فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ أَرْعَى الْوُعُولَا

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ حِينًا فَقَصَّارَى أَيَامِهِ أَنْ يَزُولَا

ثم شق شقة فكانت فيها نفسه .

قال المسعودى : وقد ذكر جماعة من أهل المعرفة بأيام الناس وأخبار من سلف كأبي دأب ، والهيثم بن عدى ، وأبي مخنف لوط بن يحيى ، ومحمد بن السائب الكلبي ؛ أن السبب في كتابة قريش واستفتاحها في أوائل كتبها « باسمك اللهم » هو أن أمية بن أبى الصلت التقى خرج إلى الشام في نفر من ثقيف وقريش في غير لهم ، فلما قفلوا راجعين نزلوا منزلا ، واجتمعوا لعشاءهم ؛ إذ أقبلت حية صغيرة حتى دنت منهم ، فحصبها بعضهم بشيء في وجهها ، فرجعت فشدوا على إبلهم وارتحلوا من منزلهم ، فلما برزوا عن المنزل أشرفت عليهم عجوز من كثيب رمل متوكئة على عصا لها ، فقالت : ما منعكم أن تطعموا رحيمة الجارية اليتيمة التي جاءتكم عشية ؟ قالوا : ومن أنت ؟ قالت : أم العوام ، أوتمت منذ أعوام ، أما ورب العباد ، لتفترقن في البلاد ، ثم ضربت بعصاها الأرض فأثارت بها الرمل ، وقالت : أطيلي إياهم ، وأنقرى ركبهم ، فوثبت الإبل فكان كل بعير منها على ذروة ما نملك منها شيئا ، حتى افترقت في البوادي ، فجمعناها من آخر النهار إلى غد ، ولم نكد ، فلما أنجناها عادت إلى مقاتلتها : ما منعكم أن تطعموا رحيمة الجارية اليتيمة ، ألا أطيلي إياهم ، وأنقرى ركبهم ، فخرجت الإبل ما نملك منها شيئا ، فجمعناها من آخر النهار إلى غد ، ولم نكد ، فلما أنجناها فعلت مثل فعلتها الأولى والثانية ، فتفرقت الإبل وأمسينا في ليلة مقمرة ، وقد يؤسنا من ظهورنا ، فقلنا لأمية بن أبى الصلت : أين ما كنت تخبرنا به عن نفسك ؟ فتوجه إلى ذلك الكثيب الذي تأتى منه العجوز ، حتى هبط منه من ناحية أخرى ، ثم صعد كشيئا آخر حتى هبط منه ، ثم رفعت له كنيسة فيها قناديل ، فإذا رجل وهو مضطجع معترض على بابها ، وإذا رجل جالس أبيض الرأس والحية ، قال أمية : فلما وقفت عليه رفع رأسه إلى وقال : إنك لمتبوع ، قلت : أجل ، قال : فمن أين يأتيك ؟ قلت : من أذى اليسرى ،

قال : فبأي الثياب يأمرك ؟ قلت : بالسواد ، قال : خطب الحوادث . ولم فعل وليكن يكلمك في أذنك اليمنى وأحب الثياب إليه البياض ، فما جاء بك ؟ وما حاجتك ؟ فحدثته حديث العجوز ، قال : صدقت ، وليست بصديقة ، هي امرأة يهودية هلك زوجها منذ أعوام ، وإنها لا تزال تصنع بكم ذلك حتى تهلككم إن استطاعت ، قال أمية : فما الحيلة ؟ قال : اجمعوا ظهوركم فإذا جاءتكم ففعلت ما كانت تفعل فقولوا لها : سبعا من فوق ، وسبعا من أسفل ، باسمك اللهم ؛ فإنها لا تضركم ، فرجع إلى أصحابه ، فأخبرهم بما قيل له ، فجاءتهم ففعلت كما كانت تفعل ، فقالوا : سبعا من فوق ، وسبعا من أسفل ، باسمك اللهم ، فلم تضرهم ، فلما رأت الإبل لم تتحرك قالت : عرفت صاحبكم لَيَبَيِّضَنَّ أعلاه ، ويسودن أسفله ، وسرنا ، فلما أدركنا الصبح نظرنا إلى أمية قد برص في عذاريه ورقبته وصدره ، واسودَّ في أسفله ، فلما قدموا مكة ذكروا هذا الحديث

وكان أمية أول من كتب « باسمك اللهم » إلى أن جاءكم الله عز وجل بالإسلام ، وكتب : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، وله أخبار غير هذه قد أتينا عليها وعلى ذكرها في « أخبار الزمان » وغيره فيما سلف من كتبنا

ومنهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وهو ابن عم ورقة بن نوفل خديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه وسلم لَحًّا ، وكان قد قرأ الكتاب ، وطلب العلم ، ورغب عن عبادة الأصنام ، وبَشَّرَ خديجة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه نبي هذه الأمة ، وأنه سَيُؤَذَى وَيَكْدَّب ، ولقي النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا بن أخي ، أثبت على ما أنت عليه ، فوالذي نفس ورقة بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولتؤذَيْنَ ولتكدبنَ ولتخرجنَ ولتقتالنَ ، ولكن إن أدركت ذلك لا نصرن الله نصراً يعلمه ، وقد اختلف فيه : فمنهم من زعم أنه مات نصرانيا ولم يدرك ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ولم يدركه أبوه ، ومنهم من رأى أنه مات مسلماً وأنه مدح النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

يَعْنُو وَيَصْفَحُ لَا يَجْزِي بِسَيِّئَةٍ وَيَكْظِمُ الْغَيْظَ عِنْدَ الشَّيْءِ وَالْغَضَبِ

عداس مولى
عتبة بن أبي
ربيعة

ومنها عداس مولى عتبة بن أبي ربيعة ، وكان من أهل نينوى ، ولقي
النبي صلى الله عليه وسلم بالطائف حين خرج يدعوهم إلى الله عز وجل ، وكان له
مع النبي صلى الله عليه وسلم خطب في الحديقة ، وقتل يوم بدر على النصرانية ،
وكان ممن يبشر بالنبي صلى الله عليه وسلم

أبو قيس
صرمة بن أبي
أنس

ومنها أبو قيس صرمة بن أبي أنس من الأنصار من بني النجار ، وكان
ترهب ، ولبس المسوح وهجر الأوثان ، ودخل بيتنا ، واتخذ مسجداً لا تدخله
طامث ولا جنب ، وقال : أعبد رب إبراهيم ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم
أسلم وحسن إسلامه ، وفيه نزلت آية السحور (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم
الخطيط الأبيض من الخطيط الأسود من الفجر) وهو القائل في رسول الله صلى الله
عليه وسلم : —

ثَوَى فِي قَرْيَشٍ بَضْعَ عَشْرَةَ حَجَّةً بِمَكَّةَ لَا يَلْقَى صَدِيقاً مُوَاتِيَا

أبو عامر
الأوسى

ومنها أبو عامر الأوسى ، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة ، وكان سيداً قد
ترهب في الجاهلية ، ولبس المسوح ؛ فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة
كان له معه خطب ، فخرج في خمسين غلاماً فأت على النصرانية بالشأم .

عبد الله
ابن جحش
الأسدي

ومنها عبد الله بن جحش الأسدي ، من بني أسد بن خزيمة ، وكانت
عنده أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، قبل أن يتزوجها رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وكان قد قرأ الكتب فمال إلى النصرانية ؛ فلما بعث رسول الله صلى
الله عليه وسلم هاجر إلى أرض الحبشة فيمن هاجر من المسلمين ومعه زوجته
أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، ثم إنه ارتد عن الإسلام وتنصر ، ومات
بأرض الحبشة ، وكان يقول للمسلمين : إنا فقحنا وصأصأتم ، يريد أبصرنا وأنتم
تلتمسون البصر ، وهذا مثل ضربه لهم ، وذلك أنه يقال للكلب إذا فتح عينيه
بعد ما يولد وهو جرو : قد فقح ، وإذا كان يريد أن يفتحهما ولم يفتحهما قيل :

صأصأ ، ولما مات عبد الله بن جحش تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان ؛ زوجها إياه النجاشي وأمهرها عنه أربعمائة دينار .

ومنهم بحيرا الراهب ، وكان مؤمناً على دين المسيح عيسى بن مريم عليه بحيرا الراهب السلام ، واسم بحيرا في النصارى جرجس ، وكان من عبد القيس ، ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمه إلى الشام في تجارة أبي طالب وهو ابن اثنتي عشرة سنة ومعهما أبو بكر وبلال مرّوا ببحيरा وهو في صومعته ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته ودلائله وما كان يجده في كتابه أن الغمام تظله حيث ما جلس ، فأنزلهم بحيرا ، وأكرمهم ، واصطنع لهم طعاما ، ونزل من صومعته حتى نظر إلى خاتم النبوة بين كتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضع يده على موضعه ، وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وأعلم أبا بكر وبلالا بقصته ، وما يدون من أمره ، وسأل أبا طالب أن يرجع به من وجهه ذلك ، وحذرهم عليه من أهل الكتاب ، وأخبر عمه أبا طالب بذلك ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، وأعلم قريشاً بما أظهر الله عز وجل من إظهار دلائل نبوته ، وما أخبر به ، وما كان منه في طريقه .

قال المسعودي : فهذه جمل مدة الخليفة إلى حيث انتهينا من هذا الموضع ، ولم تشبه بشيء غير ما جاءت به الشرائع ، ونطقت به الكتب ، وأوضحت عنه الرسل عليهم الصلاة والسلام .

ولنذكر الآن بدء ممالك الهند ، ولما من آramها ، وتبع ذلك بذكر سائر الممالك ؛ إذ كنا قدّمنا ذكر ملوك الاسرائيليين على حسب ما وجدنا في كتب الشرعيين ، والله أعلم .

ذكر جمل من اخبار الهند وآرائها

وبدء ممالكها وملوكها

ذكر جماعة من أهل العلم والنظر والبحث الذين وصلوا الغاية بتأمل شأن العالم وبدئه أن الهند كانت قديم الزمان الغرة التي فيها الصلاح والحكمة ، فإنه لما تجملت الأجيال ، وتجزت الأحزاب ، حاولت الهند أن تضم المملكة ، وتستولى على الحوزة ، وتكون الرياسة فيهم ، فقال كبارهم : نحن أهل البدء ، وفينا التناهي ، ولنا الغاية والصدر والانتها ، ومنا سرى الأب إلى الأرض ، فلا ندع أحداً شاققنا ولا عاندنا وأراد بنا الاغتصاص إلا أتيناه عليه وأبدناه أو يرجع إلى طاعتنا ، فأزمت على ذلك ، ونصبت لها ملكا ، وهو البرهمن الأكبر ، والملك الأعظم ، والإمام فيها المقدم ، ظهرت في أيامه الحكمة ، وتقدمت العلماء ، واستخرجوا الحديد من المعادن ، وضربت في أيامه السيوف والخناجر ، وكثير من أنواع المقاتل ، وشيد الهياكل ورصعها بالجواهر المشرقة المنيرة ، وصور فيها الأفلاك والبروج الاثنى عشر والكواكب ، وبين بالصورة كيفية العالم ، وأورد بالصورة أيضاً أفعال الكواكب في هذا العالم وأحداثها للأشخاص الحيوانية : من الناطقة وغيرها ، وبين حال المدير الذي هو الشمس ، وأثبت كتابه في براهين جميع ذلك وقرب إلى عقول العوام فهم ذلك ، وغرس في نفوس الخواص دراية ما هو أعلى من ذلك ، وأشار إلى المبدأ الأول المعطى سائر الموجودات وجودها الفائض عليها بجوده ، وانتقاد له الهند ، وأخصبت بلادها ، وأراهم وجه مصالح الدنيا ، وجمع الحكماء ، فأحدثوا في أيامه كتاب السند هند وتفسيره دهر الدهور ، ومنه فرعت الكتب ككتاب الأزجهر والمجسطى ، وفرع من الأزجهر الأركند ، ومن المجسطى كتاب بطليموس ، ثم عمل منهما بعد ذلك الزيجات ، وأحدثوا التسعة الأحرف المحيطة بالحساب الهندي ، وكان أول من تكلم في أوج الشمس وذكر أنه يقيم

في كل برج ثلاثة آلاف سنة ويقطع الفلك في ستة وثلاثين ألف سنة ، والأوج على رأى البرهن في وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، في برج الثور ، وأنه إذا انتقل إلى البروج الجنوبيّة انتقلت العمارة فصار العامر خراباً والخارب عامراً ، والشمال جنوباً والجنوب شمالاً ، ورتب في بيت الذهب حساب الدور الأول والتاريخ الأقدم الذي عليه عملت الهند في تواريخ البردة ، وظهورها في أرض الهند دون سائر الممالك ، ولهم في البردة خطب طويل أعرضنا عن ذكره ؛ إذ كان كتابنا كتاب خبر لا كتاب بحث ونظر ، وقد أتينا على جمل من ذلك في الكتاب الأوسط ، ومن الهند من يذكر أن ابتداء العالم في كل سبعين ألف سنة هازروان ، وأن العالم إذا قطع هذه المدة عاد الكون ؛ فظهر النسل ، ومرحت البهائم ، وتغلغل الماء ، ودبّ الحيوان ، وبقّل العشب ، وخرق النسيم الهواء ، فأما أكثر الهند فإنهم قالوا بمرور منصوبات على دوائر تتبدى القوى متلاشية الشخص ، موجودة القوة ، منتصبه الذات ، وحدوا لذلك أجلا ضربوه ، ووقتاً نصبوه ، وجعلوا الدائرة العظمى والحادثة الكبرى ، ووسموا ذلك بعمر العالم ، وجعلوا المسافة بين البدء والانتهاء مدة ست وثلاثين ألف سنة مكررة في اثني عشر ألف عام ، وهذا عندهم الهازروان الضابط تقوى هذه الأشياء والمدبر لها ، وأن الدوائر تقبض وتبسط جميع المعاني التي تستودعها ، وأن الأعمار تطول في أول الكر لا تقسح الدوائر ، وتمكن القوى من الحال ، وتقصر الأعمار في آخر الكر لضيق الدائرة ، وكثرة ما يعرض فيها من الأكدار الباترة للأعمار ، وذلك أن أقرب الأجسام وصفوها في أول الكر يظهر ويسرح ، وأن الصنف سابق الكدر ، والصافي يبادر العقل ، والأعمار تطول بحسب صفاء المزاج ، وتكامل القوى المدبرة لعناصر أخلاط الكائنات الفاسدات المستجبلات البائدات ، وأن آخر الكر الأعظم رغبة البدء الأكبر تظهر الصور منسوبة ، والنفوس ضعيفة ، والأمزجة مختلطة ، وتتناقض القوى ، وتبديد المواصل ، وترد المواد في الدوائر منعكسة مزدحمة ، فلا

تخطيء ذوى الأعصار تمام الأعمار ، وللهند فيما ذكرنا علل وبراهين فى المبادئ الأولى ، وفيما بسطناه من تفريقهم فى الدوائر الهازروانات ، ورموز وأسرار فى النفوس واتصالها بما علا من العوالم وكيفية بدءها من أعلى إلى أسفل ، وغير ذلك مما رتب لهم البرهمن فى بدء الزمان ، وكان ملك البرهمن إلى أن هلك ثلثمائة سنة وستين سنة ، وولده يعرفون بالبراهمة إلى وقتنا ، والهند تعظمهم ، وهم أعلى أجناسهم وأشرفهم ، ولا يغتدنون بشيء من الحيوان ، وفى رقاب الرجال والنساء منهم خيوط صفير يتقلدون بها كجمايل السيوف ؛ فرقا بينهم وبين غيرهم من أنواع الهند ، وقد كان اجتمع منهم فى قديم الزمان فى ملك البرهمن سبعة من حكمائهم المنظور إليهم فى بيت الذهب فقال بعضهم لبعض : اجلسوا حتى تتناظر ؛ فننظر ما قصة العالم وما سره ومن أين أقبلنا ؟ وإلى أين نمر ؟ وهل خروجنا من عدم إلى وجود حكمة أو ضد ذلك ؟ وهل خالقنا المخترع لنا والمنشئ لأجسامنا يجتاب بخلقنا منفعة أم هل يدفع بفنائنا عن هذه الدار عن نفسه مضرة أم هل يدخل عليه من الحاجة والنقص ما يدخل علينا ؟ أم هل هو غنى من كل وجه عن إبقائه إيانا وإعدامنا بعد وجودنا وآلامنا وملاذنا ؟ فقال الحكميم المنظور إليه منهم : أترى أحداً من الناس أدرك الأشياء الحاضرة والغائبة على حقيقة الإدراك فظفر بالبعية واستراح إلى الثقة ، قال الحكميم الثانى : لو تناهت حكمة البارئ عز وجل فى أحد العقول كان ذلك نقصاً من حكمته وكان الغرض غير مدرك وكان التقصير مانعاً من الإدراك ، قال الحكميم الثالث : الواجب علينا أن نبتدىء بمعرفة أنفسنا التى هى أقرب الأشياء منا ونحن أولى بها وهى أولى بنا من قبل أن نتفرغ إلى علم ما بعد منا ، قال الحكميم الرابع : لو شاء وقوع أمر وقع وقوعا احتاج فيه بنفسه ، قال الحكميم الخامس : من ههنا وجب الاتصال بالعلماء المدودين بالحكمة ، قال الحكميم السادس : الواجب على المرء المحب لسعادة نفسه أن لا يغفل عن ذلك ؛ لا سيما إذا كان المقام فى هذه الدنيا ممتنعاً ، والخروج منها واجباً ، قال الحكميم السابع :

أنا لا أدري ما تقولون ، غير أنى أخرجت إلى هذه الدنيا مضطرا ، وعشت فيها حائراً ، وأُخْرِجُ منها مكرها ، فاختلف الهند من سلف وخلف في آراء هؤلاء السبعة ، وكلُّ قد اقتدى بهم ، ويَمِّم مذهبهم ، ثم تفرعوا بعد ذلك في مذاهبهم ، وتنازعوا في آرائهم ، والذي وقع عليه الحصر من طوائفهم سبعون فرقة .

قال السعودى : وقد رأيت أبا القاسم الباغى ذكر فى كتاب « عيون المسائل والجوابات » وكذلك الحسن بن موسى النوبختى فى كتابه المترجم « بالآراء والديانات » مذاهب الهند وآراءهم ، والعلة التى من أجلها أحرقوا أنفسهم فى النيران وقطعوا أجسامهم بأنواع العذاب ، فما تعرضا لشيء مما ذكرنا ، ولا يَمِّمنا نحو ما وصفنا .

وقد تنوزع فى البرهمن : فمنهم من زعم أنه آدم عليه السلام ، وأنه رسول الله البرهمن عز وجل إلى الهند ، ومنهم من يقول : إنه كان ملكا على حسب ما ذكرنا ، وهذا أشهر .

ولما هلك البرهمن جزعت عليه الهند جزعا شديداً ، وفزعته إلى نصب ملك عليها من أكبر ولده ، فكان ولى عهده الموصى له من ولده ابنه الناهود ، فسار فيهم سيرة أبيه ، وأحسن النظر إليهم ، وزاد فى بناء الهياكل ، وقدم الحكماء ، وزاد فى مراتبهم ، وحشهم على تعليم الناس الحكمة ، وبعثهم على طلبها ، فكان ملكه إلى أن هلك مائة سنة .

وفى أيامه عمل النرد ، وأحدث اللعب بها ، وجعل ذلك مثالا للمكاسب ، وأنها لا تنال بالكسب ، ولا بالخيال ، فى هذه الدنيا ، وأن الرزق لا يتأتى فيها بالخذق ، وقد ذكر أن أردشير بن بابك أول من صنع النرد ، ولعب بها ، وأرى تقلب الدنيا بأهلها ، واختلاف أمورها ، وجعل بيومها اثنى عشر بيتاً بعدد الشهور ، وجعل كلابها ثلاثين بعدد أيام الشهر ، وجعل الفَصَّين مثلاً للقدر ، ومثله بأهل

الدنيا ، وأن الإنسان يلعب فيبلغ باسعاد القدر إياه بما في مراده باللعب بها ، ومراده أن الحازم الفطن لا يتأتى له ما تأتى لغيره ، إلا إذا أسعده القدر ، وأن الأرزاق والحظوظ في هذه الدنيا لا تنال إلا بالحدود .

ثم ملك دامان بعد الناهود ، فكان ملكه نحواً من خمسين ومائة سنة ، ولد دامان سيرٌ وأخبار وحروب مع ملوك فارس وملوك الصين قد أتينا على الغر منها فيما سلف من كتبنا .

دامان بعد
الناهود

ثم ملك فور ، وهو الذى واقعه الإسكندر ، فقتله الاسكندر مبارزةً ، وكان ملك فور إلى أن هلك أربعين ومائة سنة .

ملك فور

ثم ملك بعده دستلم ، وهو الواضع كتاب كلىة ودمنة الذى ينسب لابن المقفع وقد صنف سهل بن هرون الكاتب لأمير المؤمنين المأمون كتاباً ترجمه ثلثة وعشرة يعارض به كتاب كلىة ودمنة فى أبوابه وأمثاله ، يزيد عليه فى حسن نظمه ، وكان ملكه مائة وعشرين سنة ، وقيل غير ذلك .

ملك دستلم

ثم ملك بعده بلهيت ، وصنعت فى أيامه الشطرنج فقصى بلعبها على النرد ، وبين الظفر الذى يناله الحازم ، والبلية التى تلاحق الجاهل ، وحسب حسابهما ورتب لذلك كتاباً للهند يعرف بطرو حكماً يتداولونه بينهم ، ولعب بالشطرنج مع حكائمه ، وجعلها مصورة تماثيل مشكلة على صور الناطقين وغيرهم من الحيوان ، مما ليس بمناطق ، وجعلهم درجات فى مراتب ، ومثل الشاه بالمدير الرئيس ، وكذلك من يليه من القطاع ، وأقام ذلك مثلاً للأجساد العلوية التى هى الأجسام السماوية من السبعة والاثني عشر ، وأفرد كل قطعة منها بكوكب ، وجعلها ضابطة للمملكة ، وإذا كان عدو من أعدائه فوقعت منه حيلة فى الحروب نظروا من أين يؤتون ، فى عاجل وآجل ، والهند فى لعب الشطرنج سرُّ يسرونه فى تضاعيف حسابها ، ويتعلقون بذلك إلى ماعلا من الأفلاك ، وما إليه منتهى العلة الأولى ، وأعداد أضعاف الشطرنج ثمانية عشر ألف ألف ألف ألف ألف وسبعائة وأربعون

ملك بلهيت
وصنع
الشطرنج

ألف ألف ألف ألف وتسعة آلاف ألف ألف وخمسمائة ألف ألف ألف وأحد وخمسون ألف ألف وستائة وخمسة عشر ألفا ، ومراتب هذه الألوف الستة الأولى ، ثم الخمسة التي هي ألف ألف خمس مرات ، ثم الأربع ، ثم الثلاث ، ثم الاثنين ، ثم الواحدة لها عندهم معان ، يذكرونها في الدهور والأعصار ، وما تقتضيه سائر المؤثرات العلية في هذا العالم ؛ لارتباط نفوس الناطقين بها ، ولليونانيين والروم وغيرهم من الأمم في الشطرنج كلام ونوع من اللعب بها ، قد ذكر ذلك الشطرنجيون في كتبهم ، ممن تقدم منهم إلى الصولى والعدلى ، وإليهما كان انتهاء اللعب بالشطرنج في هذا العصر .

وكان ملك بلهيت ملك الهند إلى أن هلك ثمانين سنة ، وفي بعض النسخ أنه ملك ثلاثين ومائة سنة .

ثم ملك بعده كورس ، فأحدث للهند آراء في الديانات ، على حسب ما رأى ملك كورس من صلاح الوقت ، وما يحتمله من التكليف أهل العصر ، وخرج عن مذاهب من سلف ، وكان في مملكته وعصره سندباد دَوَّنَ له كتاب الوزراء السبعة والمعلم وامرأة الملك ، وهو الكتاب المترجم بالسندباد ، وعمل في خزنة هذا الملك الكتاب الأعظم في معرفة العلل والأدواء والعلاجات ، وشكلت الحشائش ، وصورت ، وكان مدة ملك الهند هذا إلى أن مات عشرين ومائة سنة .

ولما هلك هذا الملك اختلفت الهند في آرائها ، فتنحزبت الأحزاب ، واختلاف أهل الهند وتعدد ملوكهم وتجيلت الأجيال ، وانفرد كل رئيس بناحية ، فملك على أرض السند ملك ، وملك على أرض القنوج ملك ، وملك على أرض قشمير ملك ، وملك على مدينة المالمير - وهى الحوزة الكبرى - ملك يسمى بالبلهزا ، وهذا أول ملك سمي من ملوكهم بالبلهزا ، فصارت سمة لمن ادخر من الملوك لهذه الحوزة إلى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة .

وأرض الهند أرض واسعة في البر والبحر والجبال وملوكهم متصل بملك

الرائج ، وهى دار مملكة المهرج ملك الجزائر ، وهذه المملكة قدر بين مملكة الهند والصين ، وتضاف إلى الهند ، والهند متصلة مما يلي الجبال بأرض خراسان والسند إلى أرض التبت ، وبين هذه الممالك تباين وحروب ، ولغاتهم مختلفة ، وآراؤهم غير متفقة ، والأكثر منهم يقول بالتناسخ وتنقل الأرواح ، على حسب ما قدمناه آنفاً ، والهند فى عقولهم وسياساتهم وحكمهم وألوانهم وصفاتهم وصحة أمزجتهم وصفاء أذهانهم ودقة نظرهم بخلاف سائر السودان من الزنج والدام ، وسائر الأجناس ، وقد ذكر جالينوس فى الأسود عشر خصال اجتمعت فيه ولم توجد فى غيره : تغافل الشعر ، وخفة الحاجبين ، وانتشار المنخرين ، وغلظ الشفتين ، وتحميد الأسنان ، وتنن الجلد ، وسواد الخدق ، وتشقق اليدين والرجلين ، وطول الذكر ، وكثرة الطرب ، قال جالينوس : وإنما غلب على الأسود الطرب لفساد دماغه ، فضعف لذلك عقله ، وقد ذكر جالينوس فى طرب السودان وغلبة الفرح عليهم وما خص به الزنج دون سائر السودان فى الأكثر من الطرب أموراً قد ذكرناها فيما سلف من كتبنا .

ولقد كان طاوس اليماني صاحب عبد الله بن عباس لا يأكل من ذبيحة الزنجى ، ويقول : إنه عبد مشوه الخلقة .

وباغنا أن أبا العباس الراضى بن المقتدر بالله كان لا يتناول شيئاً من أسود ، ويقول : إنه عبد مشوه خلقه ، فلست أدرى أقلد طاوساً فى مذهبه أم لضرب من الآراء والنحل .

وقد صنف عمرو بن بحر الجاحظ كتاباً فى فخر السودان ومناظرتهم مع البيضان .

والهند لا تملكُ الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة ، ولا تكاد عادة أهل
الهند فى
ملوكهم تظهر اعوامهم إلا فى كل برهة من الزمان معلومة ، ويكون ظهورها فى أمور
تليك ملوكهم
الرعية لأن فى نظر العوام عندها إلى ملوكها خرقاً لهيبتها ، واستخفافاً بحقها ، والرياسات

عند هؤلاء لا تجوز إلا بالتخير ووضع الأشياء مواضعها من مراتب السياسة .

قال المسعودى : ورأيت في بلاد سرنديب - وهى جزيرة من جزائر البحر - أن الملك من ملوكهم إذا مات صير على عجلة قريبة من الأرض صغيرة البكرة معدة لهذا المعنى ، وشعره ينجر على الأرض ، وامرأة بيدها مكنسة تحشو التراب على رأسه ، وتنادى : أيها الناس ، هذا ملككم بالأمس قد صار فيكم حكمة ، وقد صار إلى ما ترون من ترك الدنيا ، وقبض روحه ملك الموت ، والحقى القديم الذى لا يموت ، فلا تغتروا بالحياة بعده ، وتقول كلاما هذا معناه من الترهيب والتزهيد في هذا العالم ، ويطاف به شوارع المدينة ، ثم يفصل أربع قطع ، وقد هبى له الصندل والكافور وسائر أنواع الطيب ، فيحرق بالنار ، ويذّر رماده في الرياح ، وكذا فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصهم ، اغرض يذكرونه ، ونهج يتييمونه في المستقبل من الزمان ، والملك مقصور في أهل بيت لا ينتقل عنهم إلى غيرهم ، وكذلك بيت الوزارة والقضاة وسائر أهل المراتب لا تغيير ولا تبدل ، والهند تمنع من شرب الشراب ، ويعنفون شاربه ، لا على طريق التدبىن ، ولكن تنزهاً أن يوردوا على عقولهم ما يغشيها ويزيلها عما وضعت له فيهم ، وإذا صح عندهم عن ملك من ملوكهم شربه استحق الخلع عن ملكه ، إذ كان لا يتأتى التدبير والسياسة مع الاختلاط ، وربما يستقون الجوارى فيطربن بحضرتهم فتطرب الرجال لطرب الجوارى ، وللهند سياسات كثيرة قد أثينا على ذكر كثير منها ومن أخبارهم وسيرهم في كتابنا « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط ، وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعاً ؛ وأعظم ملوك الهند في وقتنا هذا البلهزا صاحب مدينة المالمير ، وأكثر ملوك الهند تتوجه في صلواتها نحوه ، وتصلى لرسله إذا وردوا عليهم ، وتلى مملكة البلهزا ممالك كثيرة للهند ، منهم ملوك في الجبال لا بحر لهم مثل الراى صاحب القسمين وملك الطافى وغير ذلك من ملوكهم ، أعنى ملوك الهند ، ومنهم من بملكه بر وبحر ، فأما البلهزا فان بين ديار ملكه وبين

البحر مسيرة ثمانين فرسخا سنديّة ، والفرسخ ثمانية أميال ، وله جيوش وفيلة لا يدرى كثرتها ، وأكثر جيوشه رجالة ، لأن دار ملكه بين الجبال ، ويساويه من ملوك الهند ممن لا بحر له يزوره صاحب مدينة القنوج ، وهذا الاسم تفسيره الذى على الشمال والجنوب والصبا والدبور ؛ لأنه فى كل وجه من هذه الوجوه يلقى ملكا محاذيا له ، وسند كر جملا من أخبار ملوك السند والهند وغيرهم من ملوك الأرض فيما يرد من هذا الكتاب عند ذكرنا البحار وما فيها وما حولها من العجائب والأمم ومراتب الملوك وغير ذلك ، وإن كنا قد أسلفنا ذلك فيما تقدم من كتبنا ، والله أعلم .

ذكر الأرض والبحار ومبادئ الأنهار والجبال

والأقاليم السبعة وما والاها من الكواكب

وترتيب الأفلاك وغير ذلك

قسمت الحكماء الأرض إلى جهة المشرق والمغرب والشمال والجنوب ، وقسموا ذلك إلى قسمين : مسكون ، وغير مسكون ؛ وعامر ، وغير عامر ، وذكروا أن الأرض مستديرة ، ومركزها في وسط الفلك ، والهواء محيط بها من كل الجهات ، وأنها عند تلك البروج بمنزلة النقطة ، وأخذوا عمرانها من حدود الجزائر الخالدات في بحر أوقيانوس الغربي ، وهي ستة أجزاء عامرة إلى أقصى عمران الصين ، فوجدوا ذلك اثني عشر ، فعملوا أن الشمس إذا غابت في أقصى الصين كان طلوعها على الجزائر العامرة المذكورة التي في بحر أوقيانوس الغربي ، وإذا غابت في هذه الجزائر كان طلوعها في أقصى الصين ، وذلك نصف دائرة الأرض ، وهو طول العمران الذي ذكروا أنهم وقفوا عليه ، ومقداره من الأميال ثلاثة عشر ألف ميل وخمسمائة ميل من الأميال التي عملوا عليها في مساحة دور الأرض ، ثم نظروا إلى العروض فوجدوا العمران مما وضع خط الاستواء عليه من الأرض إلى ناحية الشمال تنتهي إلى جزيرة تولى التي في برطانية حيث يكون طول النهار الأطول عشرين ساعة وذكروا أن موضع خط الاستواء من الأرض يقطع فيما بين المشرق والمغرب في جزيرة الهند والحبش من ناحية الجنوب ؛ فعرض ما بين الشمال والجنوب في النصف مما بين الجزائر العامرة وأقصى عمران الصين وهو قبة الأرض المعروفة بما ذكرنا ، ويكون العرض من خط الاستواء إلى جزيرة تولى قريبا من ستين جزءاً ، وذلك سدس دائرة الأرض ، وإذا ضرب هذا السدس الذي هو مقدار العرض في النصف الذي هو مقدار الطول كان مقدار ما ظهر من العمران من ناحية الشمال مقدار نصف سدس دائرة القمر

وأما الأقاليم السبعة فأولها أرض بابل منه خراسان وفارس والأهواز والموصل وأرض الجبال ، له من البروج الحمل والقوس ، ومن الأنجم السبعة المشتري ، والاقليم الثانى الهند والسند والسودان ، له من البروج الجدى ، ومن الأنجم السبعة زحل ، والاقليم الثالث مكة والمدينة واليمن والطائف والحجاز وما بينها ، له من البروج العقرب ، ومن الأنجم السبعة الزهرة ، وهى سعد الفلك ، والاقليم الرابع مصر وإفريقية والبربر والأندلس وما بينها ، له من البروج الجوزاء ، ومن الأنجم السبعة عطارد ، والاقليم الخامس الشام والروم والجزيرة ، له من البروج الدلو ، ومن الأنجم السبعة القمر ، والاقليم السادس الترك والخزر والديلم والصقالبة ، له من البروج السرطان ، ومن الأنجم السبعة المريخ ، والاقليم السابع الديبل والصين ، له من البروج الميزان ، ومن الأنجم السبعة الشمس

ذكر جلس المنجم صاحب كتاب الزيج فى النجوم ، عن خالد بن عبدالله المروزى وغيره ، وقد كانوا رصّدوا الشمس لأمير المؤمنين المأمون فى برية سنجار من بلاد ديار ربيعة ، أن مقدار درجة واحدة من وجه الأرض ستة وخمسون ميلا ، فضرّبوا مقدار درجة واحدة فى ثلثمائة وستين فوجدوا دور منطقة كرة الأرض المحيطة بالبر والبحر عشرين ألف ميل ومائة وستين ميلا ، ثم ضربوا دور الأرض فى سبعة فاجتمع مائة ألف ميل وأحد وأربعون ألف ميل ومائة وعشرون ميلا ، فقسموا ذلك على اثنين وعشرين ، وخرج القسم الذى هو مقدار قطر الأرض ستة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر ميلا ونصف عشر بالتقريب ، ونصف قطر الأرض ثلاثة آلاف ميل ومائتا ميل وسبعة أميال وست عشرة دقيقة وثلثا ثانية ، يكون ربع ميل وربع عشر ميل ، والميل أربع آلاف ذراع بالأسود ، وهى الذراع التى وضعها أمير المؤمنين المأمون للثياب ومساحة البناء وقسمة المنازل ، والذراع مائة وعشرون إصبعا

قال المسعودى : وقد ذكر بطليموس فى الكتاب المعروف بجغرافيا صفة الأرض ومدنها وجبالها وما فيها من البحار والجزائر والأنهار والعيون ووصف المدن المسكونة والمواضع العامرة ، وأن عددها أربعة آلاف وخمسمائة وثلاثون مدينة فى عصره ، وسماها مدينة مدينة فى إقليم إقليم ، وذكر فى هذا الكتاب ألوان جبال الدنيا من الحمرة والصفرة والخضرة وغير ذلك من الألوان وأن عددها مائتا جبل ونيّف ، وذكر مقدارها وما فيها من المعادن والجواهر ، وذكر الفياسوف هذا أن عدد البحار المحيطة بالأرض خمسة أبحر ، وذكر ما فيها من الجزائر والعامر منها وغير العامر ، وما اشتهر من الجزائر دون ما لم يشتهر ، وذكر أن فى البحر الحبشى جزائر متصلة نحو من ألف جزيرة يقال لها الديمحات عامرة كلها ، وذكر بطليموس فى جغرافيا أن ابتداء بحر مصر من الروم إلى بحر الأصنام النحاس ، وأن جميع العيون الكبار التى تنبع من الأرض مائتا عين وثلثون عينا ، دون ما عداها من الصغار ، وأن عدد الأنهار الكبار الجارية فى الأقاليم سبعة على حسب ما قدمناه فى عدة الأقاليم ، وكل إقليم سعته تسعمائة فرسخ فى مثلها ، وفى البحار ما هو معمور بالحيوان ، ومنها ما ليس بمعمور ، وهو أوقيانوس البحر المحيط ، وسنأتى فيما يرد من هذا الكتاب على ذكر جهل فى تفصيل البحار ووصفها ، وهذه البحار كلها فى كتاب جغرافيا بأنواع من الأصباغ مختلفة المقادير فى الصورة ، منها ما هو على صورة الطيلسان ، ومنها ما هو على صورة الشابورة ، ومنها مصرانى الشكل ، ومنها مدور ، ومنها مثلث ، إلا أن أسماءها فى هذا الكتاب باليونانية متعذر فهمها ، وأن قطر الأرض ألفان ومائة فرسخ تقدير كل فرسخ ستة عشر ألف ذراع ، والذى محيطه بأسفل دائرة النجوم هو فلك القمر ، فانه ألف فرسخ وخمسة وعشرون ألفا وستمائة وستون فرسخا ، وأن قطر الأرض من حد رأس الحمل إلى الميزان أربعون ألف فرسخ بتقدير هذه الفراسخ ، وتقدير هذه الأفلاك تسعة فأولها وهو أصغرها وأقربها إلى الأرض للقمر ، والثانى لعطارد ، والثالث للزهرة ، والرابع

للشمس ، والخامس للمريخ ، والسادس للمشتري ، والسابع لزحل ، والثامن
 للكواكب الثابتة ، والتاسع للبروج ، وهيئة هذه الأفلاك هيئة الأكر بعضها
 فى جوف بعض ؛ ففلك البروج يسمى فلك الكل ، وبه يكون الليل والنهار ؛
 لأنه يدير الشمس والقمر وسائر الكواكب من المشرق إلى المغرب ، فى كل يوم
 وليلة دورة واحدة ، على قطبين ثابتين : أحدهما إلى الشمال وهو قطب بنات
 نعش ، والآخر إلى الجنوب وهو قطب سهيل ، وليس للبروج غير هذا الفلك
 وإنما هى مواضع لقبت بهذه الأسماء لتعرف مواضع الكواكب من الفلك
 الكل ؛ فيجب أن تكون الفروج تضيق من ناحية القطبين وتتسع وسط
 الكرة ، والخط القاطع للكرة نصفين واحد ، وإنما سمي دائرة معدل النهار لأن
 الشمس إذا صارت عليها استوى الليل والنهار فى جميع البلدان ، فما كان من الفلك
 آخذاً من الجنوب إلى الشمال يسمى العرض ، وما كان آخذاً من المشرق إلى
 المغرب يسمى الطول ، والأفلاك مستديرة محيطة بالعالم ، وهى تدور على مركز
 الأرض ، والأرض فى وسطها مثل النقطة فى وسط الدائرة ، وهى تسعة أفلاك ؛
 فأقربها من الأرض فلك القمر ، وفوقه فلك عطارد ، وفوق ذلك فلك الزهرة ،
 ثم فلك الشمس ، والشمس متنوسطة الأفلاك السبعة ، وفوقها فلك المريخ ، وفوقه
 فلك المشتري ، وفوق ذلك فلك زحل ، وفى كل فلك من هذه الأفلاك السبعة
 كوكب واحد فقط ، وفوق فلك زحل الفلك الثامن ، والفلك التاسع ، وهو
 أرفع وأعظم جسماً ، وهو الفلك الأعظم ، يحيط بالأفلاك التى دونه مما سمينا ،
 وبالطباع الأربع ، وبجميع الخليقة ، وليس فيه كوكب ، ودوره من المشرق إلى
 المغرب فى كل يوم دورة واحدة تامة ، ويدير بدورانه ماتحتته من الأفلاك المتقدم
 وصفها ، وأما الأفلاك السبعة التى قدمنا ذكرها فإنها تدور من المغرب إلى المشرق ،
 وللاوائل فيما ذكرنا حجج يطول الخطب فيها ، والكواكب المرئية التى نشاهدها
 وسائر الكواكب فى الفلك الثامن ، وهو يدور على قطبين غير قطبي الفلك

الأعظم المتقدم ذكره ، وزعموا أن الدليل على أن حركة فلك البروج غير حركة
الأفلاك هو أن البروج الاثنى عشر يتلو بعضها بعضا فى مسيرها ، ولا تنتقل عن
أماكنها ، ولا تتغير حركتها فى طوعها وغروبها ، وأن الكواكب السبعة لكل
واحد منها حركة خلاف حركة صاحبه ، ولها تفاوت فى حركتها ؛ فربما أسرع
الكوكب فى حركته ومسيره ، وربما أخذ فى الجنوب ، وربما أخذ فى الشمال ،
وخذ الفلك عندهم أنه نهاية لما تصير إليه الطبائع علوا وسفلا ، وحده من جهة
الطبائع أنه شكل مستدير ، وهو أوسع الأشكال بالأشكال كلها ، وأما مقادير
حركة هذه الكواكب فى أفلاكها فمقام القمر فى كل برج يومان ونصف ،
ويقطع الفلك فى شهر ، ومقام الشمس فى كل برج شهر ، ومقام عطارد فى كل
برج خمسة عشر يوما ، ومقام المريخ فى كل برج خمسة وأربعون يوما ، ومقام
المشتري فى كل برج سنة ، ومقام زحل فى كل برج ثلاثون شهرا

زعم بطليموس صاحب كتاب المجسطى أن استدارة الأرض كلها جبالها
وبحارها أربعة وعشرون ألف ميل ؛ وأن قطرها - وهو عرضها وعمقها - تسعة
آلاف وستمائة وستة وثلاثون ميلا ، وأنهم إنما استدركوا ذلك بأنهم أخذوا
ارتفاع القطب الشمالى فى مدينتين هما خط واحد من خط الاستواء ، مثل مدينة
تدمر التى فى البرية بين العراق والشام ، ومثل مدينة الرقة ؛ فوجدوا ارتفاع
القطب فى مدينة الرقة خمسة وثلاثين جزءا وثلاثا ؛ ووجدوا ارتفاع القطب فى
مدينة تدمر أربعة وثمانين جزءا وثلاث جزء ، ومسحوا ما بين الرقة وتدمر فوجدوه
سبعة وثلاثين ميلا ، فالظاهر من الفلك سبعة وستون ميلا من الأرض ،
والفلك ثلثمائة وستون جزءا ، لعل ذكروها يبعد علينا إيرادها فى هذا الموضع ؛
وهذه قسمة صحيحة عندهم ، لأنهم وجدوا الفلك قد اقتسمته البروج الاثنا عشر ،
وأن الشمس تقطع كل برج فى شهر ، وتقطع البروج كلها فى ثلثمائة وستين
يوما ، وأن الفلك مستدير يدور بمحورين وقطبين ، وأنهما بمنزلة محورى النجار

والخرائط الذى يخرط الأكرة والقصاع وغيرها من الآلات الخشب ، وأن من كان مسكنه وسط الأرضين وعند خط الاستواء استوت ساعات ليله ونهاره وسائر الدهور ، ورأى هذين المحورين أعنى القطب الشمالى والقطب الجنوبى ؛ فأما أهل البلد التى مالت إلى ناحية الشمال فأنهم يرون القطب الشمالى وبنات نعش ، ولا يرون القطب الجنوبى ولا الكواكب التى هى قريبة منه ، وكذلك لا يرى الكوكب المعروف بسهيل بناحية خراسان ، ويرى فى العراق فى السنة أياما ، ولا تقع عين جمل من الجمال عليه إلا هلك ، على حسب ما ذكرناه وما ذكر الناس من العلة فى ذلك فى موت هذا النوع من الحيوان ، وأما فى البلدان الجنوبية فانه يرى فى السنة كلها .

وقد تنازع طوائف الفلكيين وأصحاب النجوم فى هذين المحورين اللذين يعتمد عليهما الفلك : أساكنان هما أم متحركان ؟ فذهب الأكثر منهم إلى أنهما غير متحركين ، وقد أثبتنا على ما يلزم كل فريق منهم فى بيان هذين المحورين : أن من جنس الأفلاك هما أم من غير ذلك فيما سلف من كتبنا .

وقد تنوزع فى شكل البحار فذهب الأكثر من الفلاسفة المتقدمين من الهند وحكام اليونانيين - إلا من خالفهم وذهب إلى قول الشرعيين - أن البحر مستدير على مواضع من الأرض ، واستدلوا على صحة ذلك بدلائل كثيرة ، منها إذا لججت فيه غابت عنك الأرض والجبال شيئاً بعد شيء حتى يغيب ذلك كله ، ولا ترى شيئاً من شوامخ الجبال ، وإذا أقبلت أيضاً نحو الساحل ظهرت تلك الجبال شيئاً بعد شيء ، وظهرت الأشجار والأرض ،

وهذا جبل دباوند بين بلد الرى وطبرستان يرى من مائة فرسخ لعلوه وذهابه فى الجو ، ويرتفع فى أعاليه الدخان ، والتلوج مترادفة عليه خالية أعاليه منها ، ويخرج من أسفله نهر كثير الماء نهر أصفر كبيرتى ذهبى اللون ؛ مسافة الصعود عليه فى نحو ثلاثة أيام لبليائها ، وإن من علاه وصار فى قُلَّتِهِ وجد مساحة رأس القلة نحو ألف

ذراع في مثل ذلك ، وهي ترى في رأى العين من أسفل نحو القبة المنخرطة ، وإن في هذه المساحة في أعاليه رملا تغوص فيه الأقدام أحمر ، وإن هذه القبة لا ياحتقها شئ من الوحش ولا من الطير ؛ لشدة الرياح وسموها في الهواء ، وشدة البرد ، وإن في أعاليه نحو من ثلاثين تقبا يخرج منها الدخان الكبيرتى العظيم ، ويخرج مع ذلك دوى عظيم كأشد ما يكون من الرعد ، وذلك صوت تلهب النيران ، وربما يحمل من غرر بنفسه وصعد إلى أعاليه من أفواه هذه الثقوب كبرتيا أصفر كأنه الذهب يقع في أنواع الصنعة والكيمياء وغير ذلك من الوجوه وإن من علاه يرى ما حوله من الجبال الشاخحة كأنها رَوَابٍ وتَلَالُ لعلوها عليها وبين هذا الجبل و بحر طبرستان في المسافة نحو من عشرين فرسخا ، والمراكب إذا لججت في هذا البحر غاب عنها جبل دباوند فلم يره أحد ، فإذا صاروا في هذا البحر على نحو من مائة فرسخ ودنوا من جبال طبرستان رأوا اليسير من أعلى هذا الجبل ، فكلما قربوا من هذا الساحل ظهر لهم ، وهذا دليل على ما ذهبوا إليه من كبريَّة ماء البحر ، وأنه مستدير الشكل .

وكذلك من يكون في بحر الروم الذى هو بحر الشام يرى الجبل الأقرع وهو جبل لا يدرك علوه مظل على بلدة أنطاكية واللاذقية وطرابلس وجزيرة قبرس وغيرها من بلاد الروم ، فيغيب عن أبصار من في المراكب ولا يخفى عنهم فى المسير فى البحر فى المواضع التى يرى منها ، وسندكر فيما يرد من هذا الكتاب جبل دباوند وما قال القرس فى ذلك ، قال الضحاك ذو الأفواه ومر من أعاليه بالحديد : هذه النار التى فى أعلى هذا الجبل أطم عظيمة من أطام الأرض وعجائبها .

وقد تكلم الناس فى بعد الأرض ؛ فذكر الأكثر أن من مركز الأرض إلى ما ينتهى إليه الهواء والنار مائة ألف وثمانية عشر ألف ميل ، وأما القمر فان الأرض أعظم منه بتسع وثلاثين مرة ، والأرض أعظم من عطارد بثلاث وعشرين

ألف مرة ، والأرض أعظم من الزهرة بأربع وعشرين ألف مرة ، والشمس أعظم من الأرض بمائة وسبعين مرة وربع وثمان ، وأعظم من القمر بألف وستائة وأربع وأربعين مرة ، والأرض كلها نصف عشر ثمن من الشمس ، وقطر الأرض اثنان وأربعون ألف ميل ، والمريخ مثل الأرض وزيادة ثلاث وستين مرة ، وقطره ثمانية آلاف وسبعائة ميل ونصف ميل ، والمشتري مثل الأرض إحدى وثمانين مرة ونصف وربع ، وقطره ثلاثة وثلاثون ألف ميل وستة عشر ميلا ، وزحل أعظم من الأرض تسعا وتسعين مرة ونصفا ، وقطره اثنان وثلاثون ألف ميل وسبعائة وستة وثلاثون ميلا ، وأما أجرام الكواكب الثابتة التي في المشرق الأول وهي خمسة عشر كوكبا فكل كوكب منها أعظم من الأرض بأربع وتسعين مرة ونصف مرة ، وأما بعدها من الأرض فإن أقرب بعد القمر منها مائة ألف وثمانية وعشرون ألف ميل ، وأبعد بعده من الأرض مائة ألف وأربعة وعشرون ألف ميل ، وأبعد بعد عطارد من الأرض سبعمائة ألف ألف وسبعائة وثلاثة وثلاثون ألف ميل ، وأبعد بعد الزهرة من الأرض أربعة آلاف ومائة وتسعة عشر ألف ميل وستائة ميل ، وأبعد بعد الشمس من الأرض أربعة آلاف ألف ألف وثمانمائة ألف وعشرون ألفا ونصف ميل ، وأبعد بعد المريخ من الأرض ثلاثة وثلاثون ألف ميل وستائة ميل وشيء ، وأبعد بعد المشتري من الأرض أربعة وخمسون ألف ألف ومائة ألف وستون ألف ميل إلا شيئا ، وأبعد بعد زحل من الأرض سبعة وسبعون ألف ألف ميل إلا شيئا ، وبعد الكواكب الثابتة من الأرض نحو ذلك ، فيما ذكرنا من القسمة ، ولأخذ المقاييس استدرك القوم الساعات ، وبها استخراج الآلات والاسطرلابات ، وعليها صنفوا كتبهم كلها ، وهذا باب إن شرعنا في إيراد البعض منه كثير ، واتسع الكلام ، وإنما ذكرنا لمعاً من هذه الفنون لتدل على ما لم نورد .

وقد رتب الصابئة من الحرائين - وهم عوام اليونانيين ، وجشوية الفلاسفة

المتقدمين - في هياكلها مراتب على ترتيب هذه الأفلاك السبعة ، وأعلى كهانهم يسمى رأس كمروردين ، يعدُّهم النصارى برتبة الكهنة في كهانتها ، على ما تقدمت فيه الصابئة في مذهبها .

وسمى النصارى هذه المراتب العظاات : فأولها السلاط ، والثاني اعنسط ، والثالث يودنا ، والرابع شماس ، والخامس قسيس ، والسادس يودوط ، والسابع حور الغينطس ، وهو الذى يخلف الأسقف ، والثامن أسقف ، والتاسع مطران ، وتفسير مطران رئيس المدينة ، والذى فوق هؤلاء كلهم فى المرتبة البطرك ، وتفسيره أبو الآباء ممن تقدم ذكرهم من أصحاب المراتب وغيرهم من الأدنى وعوامهم ، هذا عند خواص النصارى ، فأما العوام منهم فيذكرون فى هذه المراتب غير ما ذكرنا ، وهو أن ملكا ظهر ، وأظهر أمورا يذكرونها لا حاجة بنا إلى وصفها ، وهذا ترتيب الملكية ، وهم عمد النصرانية وقطبها ، لأن المسارقة - وهم العباد والمقبون بالنسطورية واليعاقبة - عن هؤلاء تفرعوا ، ومنهم تبددوا ، وإنما أخذت النصارى جملا من هذه المراتب على ما ذكرنا من الصابئة ، وأما القسيس والشماس وغير ذلك فعن المانية ، إلا التصدوس والسماع ، وكان مانى حدث بعد مضى السيد عيسى بن مريم عليه السلام ، وكذلك ابن ديسان ومرقيون ، وإلى مانى أضيفت المانية ، وإلى مرقيون أضيفت المرقيونية ، وإلى ابن ديسان أضيفت الديصانية ، ثم تفرعت بعد ذلك المردقية وغيرها من سلك طريقة صاحب الالعين ، وقد أتينا فى كتابنا « أخبار الزمان » وفى الكتاب الأوسط على جمل من نوادر هذه المذاهب ، وما أوردوه من الخرافات المزخرفة ، والشبه الموضوعة ، وما ذكرناه من مذاهبهم فى كتابنا فى المقالات فى أصول الديانات ، وما ذكرناه من الآراء وهدم هذه المذاهب فى كتابنا المترجم بكتاب « الأمانة فى أصول الديانة » وإنما نذكر فى هذه الأبواب ما يتشعب الكلام إليه ، ويتغلغل هذا الوصف نحوه ، فنورد منه لمعا على طريق الخبر ، والحكاية للمذهب ، لا على طريق النظر والجدل ؛ لئلا يخلو كتابنا هذا مما تدعو الحاجة إليه وإلى ذكره ، والله أعلم .

ذكر الأخبار عن انتقال البحار

وجمل من أخبار الأنهار الكبار

ذكر صاحب المنطق أن البحار تنتقل على مرور السنين وطويل الدهر ، حتى تصير مواضع مختلفة ، وأن جملة البحار متحركة ، إلا أن تلك الحركة إذا أضيفت إلى جملة مياهها وسعة سطوحها و بعد قعورها صارت كأنها ساكنة ، وليست مواضع الأرض الرطبة أبداً رطبة ، ولا مواضع الأرض اليابسة أبداً يابسة لكنها تتغير وتستحيل ؛ لصب الأنهار إليها ، واقتطاعها عنها ، ولهذا العلة يستحيل موضع البحر وموضع البر ؛ فليس موضع البر أبداً براً ، ولا موضع البحر أبداً بحراً ، بل قد يكون براً حيث كان مرة بحراً ، ويكون بحراً حيث كان مرة براً ، وعلة ذلك الأنهار وبدؤها ؛ فان لمواضع الأنهار شباباً وهراً ، وحياة وموتاً ونشوراً ، كما يكون ذلك في الحيوان والنبات ، غير أن الشباب والكبر في الحيوان والنبات لا يكون جزأ بعد جزء ؛ لكنها تشب وتكبر أجزاؤها كلها معاً ، وكذلك تهرم وتموت في وقت واحد ، فأما الأرض فإنها تهرم وتكبر جزأ بعد جزء ، وذلك بدوران الشمس ، وأن مجراها كلها — أعنى البحار — واحد ، وذلك من البحر الأعظم ، وأن ذلك بحر عذب ليس هو بحر أقيانوس

وزعمت طائفة أن البحار في الأرضين كالعروق في البدن .

وقال آخرون : حق الماء أن يكون على سطح ، فلما اختلفت الأرض فكان منها العالى والهابط انحاز الماء إلى أعماق الأرض ، فاذا انحصرت المياه في أعماق الأرض وقعورها طلبت النفس حينئذ ؛ لغلظ الأرض وضغطتها إياها من أسفل ، فينشق من ذلك العيون والأنهار ، وربما تتولد في باطن الأرض من الهواء الكائن هناك ، وأن الماء ليس بأسطقس ، وإنما هو متولد من عفونات الأرض وبخارها

وقالوا في ذلك كلاماً كثيراً أعرضنا عن ذكره ، طلباً للإيجاز وميلاً للاختصار ، وبسطنا ذلك في غير كتاب من كتبنا .

وأما مبادئ الأنهار الكبيرة ، ومطارحها ، ومقادير جريانها ؛ فنهري مهيران السند وحيحس ، وهو نهري عظيم بأرض الهند ، ونهري سامط وهو نهري عظيم ، ونهري أطفاس الذي يصب إلى نهري نيطش ، وغيرها مما كبر من الأنهار قد تكلم الناس في مقدار جريانها على وجه الأرض .

فرايت في جغرافيا النيل مصوراً ظاهراً من تحت جبل القمر ، ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنتي عشرة عيناً ؛ فتصب تلك المياه إلى بحرين هناك كالبطائح ، ثم يجتمع الماء جاريهما فيمر برمال هناك وجبال ، ويخرق أرض السودان مما يلي بلاد الزنج فيتشعب منه خليج ينصب إلى بحر الزنج ، وهو بحر جزيرة قبلو ، وهي جزيرة عامرة فيها قوم من المسلمين ، إلا أنهم لغتهم زنجية : غلبوا على هذه الجزيرة وسبوا من كان فيها من الزنج ، كغلبة المسلمين على جزيرة إقريطش في البحر الرومي ، وذلك في مبدأ الدولة العباسية وتقضى الأموية ، ومنها إلى عمان في البحر نحو من خمسمائة فرسخ على ما يقول البحريون حزراً منهم لذلك على طريق التحصيل والمساحة ، وذكر جماعة من نواخذة هذا البحر من السيرافيين والعمانيين ومنهم أرباب المراكب أنهم يشاهدون في هذا البحر - في الوقت الذي يذكر فيه زيادة النيل بمصر أو قبل الأوان بمدة يسيرة - ماءً يخرق هذا البحر ويشقه من شدة جريانه ، يخرج من جبال الزنج ، عرضه أكثر من ميل ، عذبا حلوا ، يتكدر في إثارة الزيادة ، فيه السموسار ، وهو التمساح الكائن في نيل مصر ، ويسمى أيضاً الورل .

وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن نهري مهيران الذي هو نهري السند من النيل رد بعض ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، فلست أدري كيف وقع له هذا أو هام للجاحظ الدليل ، وذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب الأمصار ، وهو كتاب في نهاية

ذكر جمل من الأخبار عن البحر الحبشى

وما قيل فى ذلك من مقداره وسعة خليجانه

قد زاد بحر الهند ، وهو الحبشى ، حتى امتد طوله من المغرب إلى المشرق من أقصى الحبش إلى أقصى الهند والصين ، وصار ثمانية آلاف ميل ، وعرضه ألفان وتسعمائة ميل ، وعرضه فى مواضع آخر ألف وتسعمائة ميل ، وقد يتقارب فى قلة العرض فى موضع دون موضع ، ويكثر كذلك ، وقد قيل فى طوله وعرضه غير ما وصفنا من الكثرة ، وأعرضنا عن ذكره لعدم قيام الدلالة على صحته عند أهل هذه الصناعة ، وليس فى المعمور أعظم من هذا البحر ، وله خليج متصل بأرض الحبشة يمتد إلى ناحية بربرى من بلاد الزنج والحبشة ، ويسمى الخليج البربرى ، طوله خمسمائة ميل ، وعرض طرفيه مائة ميل ، وليست هذه بربرى التى ينسب إليها البرابرة الذين ببلاد المغرب من أرض إفريقية ؛ لأن هذا موضع آخر يدعى بهذا الاسم ، وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من بحر الزنج ، وفى هذه البحيرة مسلمون من الأكابر من الزنج ، والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربرى ، وهم يعرفونه ببحر بربرى ، وبلاد جفونى ، أكثر مسافة مما ذكرنا ، وموجه عظيم كالجبال الشواحق ، فانه موج أعمى ، يريدون بذلك أنه مرتفع كارتفاع الجبال ، وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية ، لا ينكسر موجه ، ولا يظهر من ذلك زبد ، كتكسر أمواج سائر البحار ، ويزعمون أنه موج مجنون ، وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد ، فاذا توسطوا هذا البحر ودخلوا بين ما ذكرنا من الأمواج ترفعهم وتخفضهم فيرتجزون ويقولون

بربرى وجفونى ومَوْجُكَ الْمَجْنُونُ

جنوني وبربري وموجها كما ترى

ويتهى هؤلاء في بحر الزنج إلى جزيرة قنبلو على ما ذكرنا ، وإلى بلاد سفالة الواق واق من أقاصي أرض الزنج ، والأسافل من نحوهم ، ويقطع هذا البحر السيرافيون ، وقد ركبت أنا هذا البحر من مدينة سنجار ، ومن بلاد عمان (وسنجار قصبة بلاد عمان) مع جماعة من نواخذة السيرافيين ، وهم أرباب المراكب ، مثل محمد بن الريدوم السيراقي ، وجوهر بن أحمد ، وهو المعروف بابن نسوة ، وفي هذا البحر تلف ومن كان معه في مركبه ، وآخر مرة ركبت فيه في سنة أربع وثلثمائة من جزيرة قنبلو إلى مدينة عمان ، وذلك في مركب أحمد وعبد الصمد أخوي عبد الرحيم بن جعفر السيراقي ، بمكان وفيه غرقا في مركبهما وجميع من كان معهما ، وكان ركوبني فيه أخيرا والأمير على عمان أحمد بن هلال ابن أخت القتال ، وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقزم واليمن ، وأصابني فيها من الأهوال مالا أحصيه كثرةً ، فلم أشاهد أهول من بحر السند الذي قدمنا ذكره ، وفيه السمك المعروف بأفال طول السمكة نحو من أربعمائة ذراع بالذراع العمريّة ، وهى ذراع ذلك البحر ، والأغلب من هذا السمك طوله مائة باع ، وربما يهز البحر فيظهر شيئاً من جناحه ، فيكون كالقلع العظيم ، وهو الشراع ، وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء في الجوّ أكثر من ممر السهم ، والمراكب تفزع منه في الليل والنهار ، وتضرب له بالبدابب والخشب لينفر من ذلك ، ويحشر بأجنحته وذنبه السمك إلى فمه ، وقد تقدفاه ، وذلك السمك يهوى إلى جوفه جرّمه ؛ فإذا بغت هذه السمكة بعث الله عليها سمكة نحو الذراع تدعى البسل فتلتصق بأصل أذنها فلا يكون لها منها خلاص ، فتطلب قعر البحر ، وتضرب بنفسها حتى تموت ، فتتطفو فوق الماء ، فتكون كالجبيل العظيم ، وربما تلتصق هذه السمكة المعروفة بالبسل بالمراكب فلا يدنو الأفال مع عظمه من المركب ، ويهرب إذا رأى السمكة الصغيرة ؛ إذ كانت آفة له وقاتلته .

الغثاءة ، لأن الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الأسفار ، ولا يعرف المسالك والأمصار ، وإنما كان حاطب ليل ، ينقل من كتب الوراقين ، أو لم يعلم أن نهر مهران السند يخرج من أعين مشهورة من أعلى بلاد السند من أرض القنوج إلى مملكة يوروه وأرض قشмир والقنندار والطافر حتى ينتهى إلى بلاد المولتان ، ومن هناك يسمى مهران ، وتفسير المولتان رجل من قریش من ولد سامة بن لؤى بن غالب ، والقوافل منه إلى خراسان متصلة ، وكذلك صاحب مملكة المنصورة رجل من قریش من ولد هبّار بن الأسود ، وهذا الملك فى هؤلاء وملك صاحب المولتان متوارثان قديما منذ صدر الاسلام ، حتى ينتهى نهر مهران إلى بلاد المنصورة ويصب نحو بلاد الديبل فى بحر الهند ، والتماسيح كثيرة فى أجواف هذا البحر ، وفى خليج ميديون من مملكة ياغر من أرض الهند وخليجان الرابع من بحر مملكة المهرج ، وكذلك فى خليجان الأعباب ، وفى عب التى تلى جزيرة سرنديب ، والأغلب على التماسيح كونها فى الماء العذب ، وما ذكرنا من خليجانات الهند فالأغلب من أمواها أن تكون عذبة لصب مياه الأمطار إليها .

عود للحديث عن نيل مصر
فانرجع الآن إلى الأخبار عن نيل مصر ، فنقول : إن الذى ذكرته الحكماء أنه يجرى على وجه الأرض تسعمائة فرسخ ، وقيل : ألف فرسخ ، فى عامر وغير عامر ، حتى يأتى أسوان من صعيد مصر ، وإلى هذا الموضع تصعد المراكب من فسطاط مصر ، وعلى أميال من أسوان جبال وأحجار يجرى النيل فى وسطها ، ولا سبيل إلى جريان السفن فيه هناك ، وهذه الجبال والمواقع فارقة بين مواضع سفن الحبشة فى النيل وبين سفن المسامين ، ويعرف هذا الموضع من النيل بالجنادل والصخور ، ثم يأتى النيل الفسطاط وقد قطع الصعيد ومر بجبل الطيلمون وحجر الأهواز من بلاد الفيوم ، وهو الموضع المعروف بالجزيرة التى اتخذها يوسف النبى صلى الله عليه وسلم وطنا ؛ فيقطعه ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب أخبار مصر والفيوم وضياعها وكيفية فعل يوسف عليه الصلاة والسلام فى ماها ، ثم

يمضى جاريا فتقسمه خلجانا إلى بلاد تنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية ، كل يصب إلى البحر الرومى ، وقد أحدث فيه بحيرات فى هذه المواضع ، وقد كان النيل انقطع عن بلاد الاسكندرية قبل هذه الزيادة التى زادها فى هذه السنة ، وهى سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، ونمى إلى وأنا بمدينة أنطاكية والثغر الشامى أن النيل زاد فى هذه السنة ثمانية عشر ذراعا فلست أدرى أفى هذه الزيادة دخل خليج الإسكندرية أم لا ، وقد كان الإسكندر بن الفيلقوس المقدونى بنى الإسكندرية على هذا الخليج من النيل ، وكان يتفجر إليه عظيم ماء النيل ، ويسقى الاسكندرية وبلاد مريوط ، وكان بدمريوط هذا فى نهاية العمارة والجبال المتصلة بأرض برقة من بلاد المغرب ، وكانت السفن تجرى فى النيل فتتصل بأسواق الإسكندرية ، وقد بلط أرض نيلها فى المدينة بالرخام والمرمر ، فانقطع الماء لعوارض سدت خلجانها ومنعت الماء من دخوله ، وقيل : لعل غير ذلك منعت من تنفسه وردت الماء إلى كنفه ، لا يحملها كتابنا هذا لاستعمالنا فيه الاختصار ، فصار شربهم من الآبار ، وصار النيل على نحو يوم منها ، وسند كر فيما يرد من هذا الكتاب فى باب ذكرنا لأخبار الإسكندرية جملا من أخبارها وأخبار بنائها ، وما ذكرنا من الماء الجارى إلى بحر الزنج فإنما هو آخذ من معالى مصب الزنج ، وفارق بين بلاد الزنج وبين أقاصى بلاد أحاس الأحابيش ، ولولا ذلك الخليج ومفاوز من رمال ودهاس لم يكن للحبشة مقام فى ديارهم من أنواع الزنج لكثرتها وبسطها .

وأما نهر بلخ الذى يسمى جيحون فإنه يخرج من أعين تجرى حتى تأتى بلاد خوارزم ، وقد اجتاز قبل ذلك ببلاد الربد وإسرائيل وغيرها من بلاد خراسان ، فإذا ورد إلى بلاد خوارزم تفرق فى مواضع هناك ، ويمضى باقيه فينصب فى البحيرة التى عليها القمرية المعروفة بالجرجانية أسفل خوارزم ، وليس فى ذلك الصقع أكبر من هذه البحيرة ، ويقال : إنه ليس فى العمران بحيرة أكبر منها ؛ لأن طولها

جيحون
نهر بلخ

مسيرة شهر في نحو ذلك من العرض ، تجري فيها السفن ، وإليها يصب نهر
فرغانة والشاش يمر ببلاد العادات وبمدينة حيسة ، وتجرى فيه السفن إلى هذه
البحيرة ، وعليها مدينة للترك يقال لها المدينة الجديدة ، وفيها المسلمون والأغلب
من الأتراك على هذا الموضع النزيه ، وهم بوادي الترك وحضرهم أيضاً ، وهذا
الجنس من الأتراك هم أصناف ثلاثة : الأسافل ، والأعلى ، والأواسط ، وهم أشد
الترك بأساً ، وأقصرهم ، وأصغرهم عينا ، وفي الترك أصغر من هؤلاء على ما ذكر
صاحب المنطق في كتاب الحيوان في المقالة الرابعة عشرة والثامنة عشرة حين ذكر
الطير المعروف بالغرانيق ، وسندكر ميلغا من أخبار أجناس الترك فيما يرد من
هذا الكتاب مجتمعاً ومفترقاً ، وبمدينة بلخ رباط يقال له الاحسان على نحو من
عشرين يوماً منها ، وهو في آخر أعمالها ، وبازائهم أنواع من الكفار من الترك
يقال لهم أوحارو بيت ، وعلى اليمين من هؤلاء جنس آخر يقال لهم العار كم ،
ويخرج من هنالك نهر عظيم يعرف بنهر أنقار ، زعم قوم من أهل الخبرة أنه
مبتدأ نهر جيحون ، وهو نهر بلخ ، ومقدار جريانه على وجه الأرض نحو من
خمس مائة فرسخ ، من مبدأ نهر الترك ، وهو الغار ، وقيل : أربع مائة فرسخ ،
وقد غلط قوم من مصنفى الكتب في هذا المعنى ، وزعموا أن جيحون ينصب
إلى نهر مهران السند ، ولم يذكر نهر رست الأسود ، ولا نهر رست الأبيض
الذى يكون عليه مملكة كيان ، وهم جنس من الترك وراء نهر بلخ ، وهو جيحون ،
وعلى هذين النهرين العذبة من الترك ، وهذين أخبار لم نخط بها لمسافتهما على
وجه الأرض فنذكر ذلك .

وكذلك حيحس نهر الهند ، فببدوه في جبل من أقاصى أرض الهند مما يلي
الصين من بحر بلاد الطغرغر من الترك ، ومقدار جريانه إلى أن ينصب في البحر
الحبشى مما يلي جبل الهند أربع مائة فرسخ .

نهر حيحس
بالهند

وأما الفرات فهدؤه من بلاد قاليقلا من تغور إرمينية من جبل هناك يدعى
إفردحس ، على نحو يوم من قاليقلا ، ومقدار جريانه من بلاد الروم إلى أن يأتي
بلاد ملطية^(١) ، وأخبرني بعض إخواننا من المسلمين ممن كان أسيرا في أرض
بلاد النصرانية أن الفرات إذا توسط أرض الروم تحلبت إليه مياه كثيرة منها
نهر يخرج مما يلي بحيرة الماذرمون ، وليس في أرض الروم بحيرة أكبر منها ، وهي
نحو من شهر ، وقيل : أكثر من ذلك طولا وعرضا ، تجري فيها السفن ،
وتنتهي إلى الفرات إلى جسر منبج ، وقد اجتازت تحت قلعة سُمَيْسَاط ، وهي
قلعة الطين ، ثم ينتهي إلى ما ليس ، وهي نصفان ، موضع حرب أهل العراق
وأهل الشام ، ثم ينتهي إلى الرقة وإلى الرحبة وهيت والأنبار ، ويأخذ منه
أنهار مثل نهر عيسى وغيره ، مما ينتهي إلى مدينة السلام ، فيصب في دجلة ،
وينتهي الفرات إلى بلاد سوار وقصر ابن هبيرة والكوفة والجامعين وأحمد آباد
والفرس والطفوف ، ثم تنتهي غايته إلى البطيحة التي بين البصرة وواسط ، فيكون
مقدار جريانه على وجه الأرض نحو من خمسمائة فرسخ ، وقد قيل أكثر من
ذلك ، وقد كان الفرات الأكثر من مائه ينتهي إلى بلاد الحيرة ونهر هاتين ، إلى
هذا الوقت فيصب في البحر الحبشي حيثئذ في الموضع المعروف بالحلف في هذا
الوقت ، وكانت تتقدم هناك سفن الصين والهند ترد إلى ملوك الحيرة ، وقد ذكر
ما قلنا عبد المسيح بن عمرو بن ثقيلة الغساني حين خاطب خالد بن الوليد في أيام
أبي بكر بن أبي قحافة رضى الله عنه حين قال له : ما تذكر ؟ قال : أذكر سفن
الصين وراء هذه الحصون ، فلما انقطع الماء عن ذلك الموضع انتقل البحر برّا ،
فصار من البحر في هذا الوقت على مسيرة أيام كثيرة ، ومن رأى النجف وأشرف
عليه تبين له ما وصفنا ، وكثر رمل دجلة العوراء فصار بينها وبين الدجلة في هذا
الوقت مسافة بعيدة ، وصارت تدعى ببطن حر حى ، وذلك من جهة
مدينة فارس من أعمال واسط إلى دنقلاء إلى نحو بلاد السوس ، وكذلك

ماحدث في الجانب الشرقى ببغداد من الموضع المعروف برقة الشماسية وما نقل الماء بتياره من الجانب الغربى من الضياع التى كانت بقطر بل ومدينة السلام ، كالقرية المعروفة باليسرى ، والموضع المعروف بالعمر ، وغير ذلك من ضياع قطر بل ، وقد كان لأهلها مطالبات مع أهل الجانب الشرقى من ملك رقة الشماسية فى أيام المقتدر ، بحضرة الوزير أبى الحسن على بن عيسى ، وما أجاب به أهل العلم فى ذلك ، وما ذكرناه مشهور بمدينة السلام ، فإذا كان الماء فى نحو من ثلاثين سنة قد ذهب بنحو من تسعمائة ميل ؛ فإنه يسير ميلاً فى قدره فى سنة ، فإذا سار إليهم أربعة آلاف ذراع من عرضه الأول خربت بذلك السير مواضع وعمرت مواضع وإذا وجد الماء سبيلاً منخفضاً وانصباباً وسع بالحركة وشدة الجرية لنفسه ، فاقترع المواضع من الأرض من أبعد غاياتها ، وكما وجد موضعاً متسعاً من الوهاد ملاءً فى طريقه من شدة جريته حتى يعمل بحيرات وبطائح ومستنقعات ، وتخرب بذلك بلاد ، وتعمر بذلك بلاد ، ولا يغيب فهم ما وصفنا عن مرام ذى فكر

دجلة

ولنبداً بذكر دجلة ومبدأ جريانها ومصبها ، فنقول : دجلة تخرج من بلاد آمد من ديار بكر من أعين بلاد خلاط من إرمينية ، ويصب إليها نهر سريط وسائر ما يخرج من بلاد أردن وميفارقين وغير ذلك من الأنهار كنهر دومنا والخابور الخارج من بلاد إرمينية ، ومصبه فى دجلة من بلاد ماسورين وسيلون من بلاد قردى وبارندى وهامدان من بلاد الموصل ، وهذه الديار ديار بنى حمدان ، وفى قردى وبارندى يقول الشاعر :

بقردى وبارندى مَصِيفٌ وَمَرَبَعٌ وَعَدْبٌ يَحَاكِي السَّلْسَلَى بَرُودٌ
وبغداد ما بغداد : أما ترابها خمى ، وأما حرها فشديد

وليس هذا الخابور خابور النهر الذى يخرج من مدينة رأس العين من أعينها ويصب فى الفرات أسفل مدينة قرقيسياء ، ثم تمر دجلة بمدينة بلاد الموصل ويصب إليها نهر الزاب ، وهو من بلاد إرمينية وهو زاب الأكر بعد الموصل ، وفوق حمدته ، ثم يصب

فيها زاب آخر فوق مدينة السحرة يأتي من بلاد إرمينية وأذربيجان ، ثم ينتهي إلى مدينة تَكْرِيت وَسُرَّ مَنْ رَأَى ومدينة السلام ، فيصب إليها الخندق والصراة ونهر عيسى ، وهى الأنهار التى ذكرنا أنها تأخذ من الفرات وتصب فى دجلة ، ثم تخرج دجلة عن مدينة السلام فينصب فيها أنهار كثيرة ، مثل النهر المعروف بدالى ونهر بين النهر وان مما يلى بلاد حرارنا والسبب ونيل النعانية ، فاذا خرجت دجلة من مدينة واسط تفرقت فى أنهار هناك آخر إلى بطيحة البصرة ، مثل بردود اليهودى ومسامى والمصب الذى ينتهى إلى القطر وفيه تجرى أكثر سفن البصرة وبغداد وواسط ، فمقدار مسافة جريان دجلة على وجه الأرض نحو من ثلثمائة فرسخ ، وقيل أربعمائة

وقد أعرضنا عن ذكر كثير من الأنهار إلا ما كبر واشتهر ؛ إذ كنا قد قد أتينا على ذكر ذلك على الاتساع فى الكتاب المترجم بأخبار الزمان ، وكذلك فى الكتاب الأوسط ، ونذكر فى هذا الكتاب لمعاً مما سمينا من الأنهار ومما لم نسمه

وللبصرة أنهار كبار : مثل نهر سيرين ، ونهر الرس ، ونهر ابن عمر ، وكذلك ببلاد الأهواز فيما بينها وبين بلاد البصرة ، أعرضنا عن ذكر ذلك ، إذ كنا قد قد تقصينا الأخبار عنها وأخبار منتهى بحر فارس إلى بلاد البصرة والأبلة وخبر الموضع المعروف بالحدارة — وهى دخلة من البحر إلى البر تقرب من نحو بلاد الأبلة ، ومن أجلها ملح الأكثر من بلاد البصرة — ولهذه الحدارة انحدرت الأخشاب فى فم البحر مما يلى الأبلة وعبادان ، عليها أناس يوقدون النار بالليل على خشبات ثلاث كالكرسى فى جوف الليل خوفاً على المراكب الواردة من عمان وسيراف وغيرهما أن تقع فى تلك الحدارة ، فلا يكون لها خلاص ، وقد ذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا ، وهذه الديار عجيبية فى مصبات مياهها واتصال البحر بها ، والله أعلم

ذكر جمل من الأخبار عن البحر الحبشى

وما قيل في ذلك من مقداره وسعة خليجانه

قد زاد بحر الهند ، وهو الحبشى ، حتى امتد طوله من المغرب إلى المشرق من أقصى الحبش إلى أقصى الهند والصين ، وصار ثمانية آلاف ميل ، وعرضه ألفان وتسعمائة ميل ، وعرضه في مواضع آخر ألف وتسعمائة ميل ، وقد يتقارب في قلة العرض في موضع دون موضع ، ويكثر كذلك ، وقد قيل في طوله وعرضه غير ما وصفنا من السكثرة ، وأعرضنا عن ذكره لعدم قيام الدلالة على صحته عند أهل هذه الصناعة ، وليس في العمور أعظم من هذا البحر ، وله خليج متصل بأرض الحبشة يمتد إلى ناحية بربرى من بلاد الزنج والحبشة ، ويسمى الخليج البربرى ، طوله خمسمائة ميل ، وعرض طرفيه مائة ميل ، وليست هذه بربرى التى ينسب إليها البرابرة الذين ببلاد المغرب من أرض إفريقية ؛ لأن هذا موضع آخر يدعى بهذا الاسم ، وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من بحر الزنج ، وفي هذه البحيرة مسلمون من الأكابر من الزنج ، والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربرى ، وهم يعرفونه ببحر بربرى ، وبلاد جفونى ، أكثر مسافة مما ذكرنا ، وموجه عظيم كالجبال الشواحق ، فانه موج أعشى ، يريدون بذلك أنه مرتفع كارتفاع الجبال ، وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية ، لا ينكسر موجه ، ولا يظهر من ذلك زبد ، كتكسر أمواج سائر البحار ، ويزعمون أنه موج مجنون ، وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد ، فاذا توسطوا هذا البحر ودخلوا بين ما ذكرنا من الأمواج ترفعهم وتخفضهم فيرتجزون ويقولون

بربرى وجفونى ومَوْجُكَ الْمَجْنُونُ

جنوفى وبربرى وموجها كما ترى

وينتهى هؤلاء فى بحر الزنج إلى جزيرة قنبلو على ما ذكرنا ، وإلى بلاد
سفالة الواق واق من أقاصى أرض الزنج ، والأسافل من نحوهم ، ويقطع هذا
البحر السيرافيون ، وقد ركبت أنا هذا البحر من مدينة سنجار ، ومن بلاد عمان
(وسنجار قصبة بلاد عمان) مع جماعة من نواخذة السيرافيين ، وهم أرباب
المراكب ، مثل محمد بن الريدوم السيرافى ، وجوهر بن أحمد ، وهو المعروف بابن
نسوة ، وفى هذا البحر تلف ومن كان معه فى مركبه ، وآخر مرة ركبت فيه فى
سنة أربع وثلثمائة من جزيرة قنبلو إلى مدينة عمان ، وذلك فى مركب أحمد
وعبد الصمد أخوى عبد الرحيم بن جعفر السيرافى ، بمكان وفيه غرقا فى مركبهما
وجميع من كان معهما ، وكان ركوبى فيه أخيرا والأمير على عمان أحمد بن هلال
ابن أخت القتال ، وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم
والمين ، وأصابنى فيها من الأهوال مالا أحصيه كثرةً ، فلم أشاهد أهول من بحر
السند الذى قدمنا ذكره ، وفيه السمك المعروف بأفال طول السمكة نحو من
أربعائة ذراع بالذراع العمرية ، وهى ذراع ذلك البحر ، والأغاب من هذا السمك
طوله مائة باع ، وربما يهز البحر فيظهر شيئاً من جناحه ، فيكون كالقلاع العظيم ،
وهو الشراع ، وربما يظهر رأسه وينفخ الصُّهْدَاء بالماء فيذهب الماء فى الجوّ أكثر
من ممر السهم ، والمراكب تفرع منه فى الليل والنهار ، وتضرب له بالبداب
والخشب لينفر من ذلك ، ويحشر بأجنحته وذنبه السمك إلى فمه ، وقد تقدفاه ،
وذلك السمك يهوى إلى جوفه جرّمه ؛ فإذا بغت هذه السمكة بعث الله عليها سمكة
نحو الذراع تدعى البسل فتلتصق بأصل أذنّها فلا يكون لها منها خلاص ، فتطلب
قعر البحر ، وتضرب بنفسها حتى تموت ، فتطفو فوق الماء ، فتكون كالجبل
العظيم ، وربما تلتصق هذه السمكة المعروفة بالبسل بالمراكب فلا يدنو الأفال مع
عظمه من المركب ، ويهرب إذا رأى السمكة الصغيرة ؛ إذ كانت آفة له وقتلته .

بالبحر الفارسی علیہ ما وصفنا من البحرین وفارس والبصرة و عمان إلى رأس
الجمجمة ، وما بین هذا الخلیج و خلیج القلزم أیلة والحجاز واليمن ، ویکون بین
الخلیجین من المسافة ألف وخمسمائة میل ، وهی داخله من البر فی البحر ،
و البحر یطیف بها من أكثر جهاتها علی ما وصفنا ، فهذا بحر الصين والهند وفارس
و عمان والبصرة والبحرین واليمن والحجاز والقلزم والزنج والسند ومن فی جزائره
ومن قد أحاط به من الأمم الكثیره التي لا یعلم وصفهم ولا عددهم إلا من خلقهم
سبحانه وتعالی ، ولكل قطعة منه اسم یفردها من غیرها ، والماء واحد متصل
غیر منفصل

وفی هذا البحر مغاصات الدر والیاقوت ، وفیه العقیق والبادیج ، وهو
نوع من البجادی ، وأنواع الیاقوت والماس والسنباذج ، وفیه معادن ذهب
وفضة نحو بلاد کله وسریرة ، وحوله معادن حدید مما یلی بلاد کرمان ، ونحاس
بأرض عمان ، وفیه أنواع الطیب والأفاویه والعنبر والساج والخشب المعروف
بالرداسجی والقنا والخیزران ، وسند کر بعد هذا الموضع تفصیل مواضع فیه
أدرکنها ؛ وكل ما ذکرنا من الجواهر والطیب والنبات فقیه وحوله ، وسائر
ما ذکرنا من هذا البحر یدعی بالبحر الحبشی ، وریاح ما وصفنا من قطعه التي
تدعی كل واحدة منها بحراً ، کقولنا : بحر فارس ، وبحر اليمن ، وبحر القلزم ،
وبحر الحبش ، وبحر الزنج ، وبحر النيل ، وبحر الهند ، وبحر کله ، وبحر الرانج ،
وبحر الصين ؛ فمختلفة ؛ فنها ما ریحہ من قعر البحر یظهر فیقله و یعظم موجه
کالقدر تقور مما یلحقها من مواد حرارة النار ، ومنها ما ریحہ والبة فیه من قعره
والنسيم ، ومنها ما یکون مهبه من النسيم دون ما یظهر من قعره ، وما وصفناه مما
یظهر من قعره من الریاح تنفسات من الأرض تظهر إلى قعره تظهر فی سخطه ،
والله عز وجل أعلم بکیفیه ذلك ، ولكل من یركب هذه البحار من الناس أریاح
یعرفونها فی أوقات تكون فیها مهائبا قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب ،

يتوارثون علم ذلك قولاً وعملاً ، ودلائل وعلامات يعلمون بها إِبَّانَ هَيْجَانِهِ
وأحوال ركوبه وثورانه ، والروم والمسافرون في البحر الرومي سنيليم كذلك ،
وكذلك من يركب بحر الخزر إلى بلاد جرجان وطبرستان والديلم ، وسنأتي بعد
هذا الموضع على جمل وفصول من علم معرفة هذه البحار وعجائب أوصافها وأخبارها
إن شاء الله تعالى .

ذكر تنازع الناس في المد والجزر

وجوامع مما قيل في ذلك

والمد : مضى الماء في فيحته وسيحته وسنن جريته ، والجزر : رجوع الماء على
ضد سنن مضيه وانكشاف ما مضى عليه في هيجه ، وذلك كبحر الحبش الذي
هو الصيني والهندي وبحر البصرة وفارس المتقدم ذكره قبل هذا الباب ، وذلك أن
البحار على ثلاثة أنواع : منها ما يتأتى فيه الجزر والمد ويظهر ظهوراً بيناً ، ومنها
مالا يتبين فيه الجزر والمد ويكون مستمماً ، ومنها مالا يجزر ولا يمد

فالبهار التي لا يكون فيها الجزر والمد امتنع منها الجزر والمد لعل ثلاث ،
وهي على ثلاثة أصناف : فأولها ما يقف الماء فيه زماناً فيغلظ وتقوى مأوخته ،
وتتكيف فيه الأرياح ؛ لأنه ربما صار الماء إلى بعض المواضع من بعض فيصير
كالبحيرة وينقص في الصيف ويزيد في الشتاء ويتبين فيه زيادة ما ينصب فيه
من الأنهار والعيون ، والصنف الثاني الذي يبعد عن مدار القمر ومسافاته بعداً
كثيراً ، فيمتنع منه المد والجزر ، والصنف الثالث المياه التي يكون الغالب على
أرضها التخلخل ، لأنه إذا كانت أرضها مخلخلة بعد الماء منها إلى غيرها من البحار
وتخلخل ، وأنشبت الرياح الكائنة في أرضها أولاً ، وغلبت الرياح عليها ، وأكثر
ما يكون هذا في ساحل البحار والجزائر .

وقد تنازع الناس في علة المد والجزر ، فمنهم من ذهب إلى أن ذلك من القمر لأنه مجانس للماء ، وهو يسخنه ، فينبسط ، وشبهوا ذلك بالنار إذا أسخنت مافي القدر وأغلته ، وإن الماء يكون فيها على قدر النصف أو الثلثين ، وكلما انبسط في القدر ارتفع وتدافع حتى يفور فيتضاعف عن كميته في الحس ، وينقص في الوزن ، لأن من شرط الحرارة أن تبسط الأجسام ، ومن شرط البرودة أن تضمها ، وذلك أن قعور البحار تحمى فتتولد في أرضها عذوبة وتستحيل وتحمى كما في البلايع والآبار ؛ فإذا حمى ذلك الماء انبسط وزاد ، وإذا زاد ارتفع ، فدفع كل جزء منه ؛ فطفأ على سطحه وبان عن قعره ، فاحتاج إلى أكثر من هديه ، وإن القمر إذا امتلأ حمى الجو حميا شديدا ، فظهرت زيادة الماء ، فسمى ذلك المد الشهري ، وإن هذا البحر تحت معدل النهار آخذاً من جهة المشرق إلى المغرب ودور الكواكب المتحيرة عليه مع الشامية من الكواكب السامية إذا كانت المتحيرة في القدر مثل الميل على تجاوزه وإذا زالت عنه كانت منه قريبة فاعلة فيه من أوله إلى آخره في كل يوم وليلة ، وهى مع ذلك في الموضع المقابل الحمى ، فقليل ما يعرض فيه من الزيادة ويكون في النهر الذى يعرف فيه المد من أطرافه وما يصب إليه من سائر المياه .

وقالت طائفة أخرى : لو كان الجزر والمد بمنزلة النار إذا أسخنت الماء الذى في القدر وبسطته فيطلب أوسع منها فيفيض حتى إذا خلا قعره من الماء طلب الماء بعد خروجه منها عمق الأرض لطفيه فيرجع اضطراباً بمنزلة رجوع ما يغلى من الماء في المرجل والقمقم إذا فاض وتتابع أجزاء النار عليه بالحمى ، لكان في الشمس أشد سخونة ، ولو كانت الشمس علة مده لكان يمد مع بدء طلوع الشمس ، ويجزر مع غيبتها ، فزعم هؤلاء أن علة الجزر والمد في الأبحر تتولد من الأبخرة التى تتولد من بطن الأرض ، فإنها لا تزال تتولد حتى تكشف وتكثر فتدفع حينئذ ماء هذا البحر لكشافها فلا تزال كذلك حتى تنقص موادها من أسفل ، فإذا

انقطعت موادها تراجع الماء حينئذ إلى قعر البحر ، وكان الجزر من أجل ذلك ، والمد ليلاً ونهاراً ، وشتاءً وصيفاً ، وفي غيبة القمر وفي طلوعه ، وكذلك في غيبة الشمس وطلوعها ، قالوا : وهذا يدرك بالحس ، لأنه ليس يستكمل الجزر آخره حتى يبدو أول المد ، ولا ينتقض آخر المد حتى يبتدىء أول الجزر ، لأنه لا يتغير توالد تلك البخارات ، حتى إذا خرجت تولد غيرها مكانها ، وذلك أن البحر إذا غارت مياهه ورجعت إلى قعره تولدت تلك الأبخرة لمكان ما يتصل منها من الأرض بمائه ، وكلما غارت تولدت ، وكلما فاض نقصت

وذهب آخرون من أهل الديانات أن كل ما لم يعرف له من الطبيعة مجرى ولا يوجد له فيها قياس فهو فعل الإله ، يدل على توحيد الله عز وجل وحكمته ، فليس للمد والجزر علة في الطبيعة البتة ، ولا قياس

وقال آخرون : ما هيجان البحر إلا كهيجان بعض الطبائع ، فانك ترى صاحب الدم وصاحب الصفراء وغيرهما يهتاج إلى طبيعته ، ثم يسكن قليلاً حتى يعود ،

وذهبت طائفة أخرى إلى إبطال سائر ما وصفنا من القول ، وزعموا أن الهواء المطل على البحر يستحيل دائماً ، فإذا استحال عظم ماء البحر وفاض عند ذلك ، وإذا فاض البحر فهو المد ، فعند ذلك يستحيل ماؤه ويتنفس فيستحيل هواء فيعود إلى ما كان عليه ، وهو الجزر ، وهو دائم مترادف متعاقب ، لأن الماء يستحيل هواء ، والهواء يستحيل ماء ، قالوا : وقد يجوز أن يكون ذلك عند امتلاء القمر أكثر ، لأن القمر إذا امتلأ استحال الهواء أكثر مما كان يستحيل ، وإنما القمر علة لكثرة المد ، لالمد نفسه ، لأنه قد يكون في محاقه ، والمد والجزر في بحر فارس يكونان على مطالع الفجر والأغاب من الأوقات

وقد ذهب كثير من نواخذة هذا البحر - وهم أرباب المراكب ، من السيرافيين والعانيين ممن يقطعون هذا البحر ويختلفون إلى عمارة من الأمم التي في

جزائره وحوله - إلى أن المد والجزر لا يكون في معظم هذا البحر إلا مرتين في السنة : مرة يمد في شهور الصيف شرقا بالشمال ستة أشهر ، فإذا كان ذلك طفا الماء في مشارق البحر والجسر بالصين وما وراء ذلك الصقع ، ومرة يمد في شهور الشتاء غربا بالجنوب ستة أشهر ، فإذا كان الصيف طفا الماء في مغارب البحر والجسر بالصين ، وقد يتحرك البحر بتحرك الرياح ، وإن الشمس إذا كانت في الجهة الجنوبية فكذلك تكون البحار في جهة الجنوب في الصيف لهبوب الشمال طامية عالية ، وتقل المياه في جهة البحار الشمالية ، وكذلك إذا كانت الشمس في الجنوب وسال الهواء من الجنوب في جهة الشمال سال معه ماء البحر من الجهة الجنوبية إلى الجهة الشمالية ، فقلت المياه في الجهة الجنوبية منه ، وينقل ماء البحر في هذين الميلىن - أعنى في جهتي الشمال والجنوب - فيسمى جزرا ومدا شتويا ، وذلك أن مد الجنوب جزر الشمال ، ومد الشمال جزر الجنوب ، فإن وافق القمر بعض الكواكب السيارة في أحد الميلىن زائدا قوى الحمى واشتد لذلك سيلان الهواء فاشتد لذلك انقلاب ماء البحر إلى الجهة المخالفة للجهة التي ليس فيها الشمس .

قال المسعودى : فهذا رأى يعقوب بن إسحق الكندى ، وأحمد بن الطيب السرخسى فيما حكاه عنه ، أن البحر يتحرك بالرياح ، ورأيت مثل ذلك ببلاد كنباية من أرض الهند ، وهى المدينة التى تضاف إليها النعال الكنبانية الصرارة ، وفيها تعمل ، وفيما يليها مثل مدينة سندارة وسرياره ، وكان دخولى إليها فى سنة ثلاث وثلاثمائة ، والملك بها وكان منهزما من قبل البلهزا صاحب البابكين ، وكان للبابكين هذا غاية المناظرة مع من يرد إلى بلاده من المسلمين وغيرهم من أهل الملل ، وهذه المدينة على خور من أخوار البحر ، وهو الخليج ، أعرض من النيل أو دجلة أو الفرات ، عليه المدن والضياع والعمائر والنخل والنارجيل والطواويس والبغاء ، وغير ذلك من أنواع طيور الهند ، بين تلك الجبال والمياه وبين مدينة كنباية

و بين البحر الذى يأخذ منه هذا الخليج يومان ، وأقل من ذلك ، فيجزر الماء عن هذا الخليج حتى يبدو الرمل الذى ينصب عنه الماء وقعر الخليج قد صار كالصحراء وقد أقبل المد من نهاية الجزر كالخيل فى الحلبة ، فر بما أحس الكلب بذلك فأقبل يُحَضِر ما استطاع خوفاً من الماء فيطلب البر الذى لا يصل إليه الماء ، فيأحقه الماء بسرعته فيغرقه ، وكذلك المدُّ يَرُدُّ بين البصرة والأهواز فى الموضع المعروف بالباسيان و بلاد الهند ، ويسمع هنالك أزيب له ضجيج ودوى و غليان عظيم يفزع منه أصحاب السفن ، وهذا الموضع يعرفه من يسلك هنالك إلى بلاد مورق من أرض فارس ، والله أعلم .

ذكر بحر الروم

ووصف ما قيل فى طوله وابتدائه وانتهائه

أما بحر الروم وطرسوس وأدرنة والمصيصة وأنطاكية واللاذقية وطرابلس وصيداء وصور وغير ذلك من ساحل الشام ومصر والإسكندرية وساحل المغرب فذكر جماعة من أصحاب الزيجات فى كتبهم ، منهم محمد بن جابر النسائى وغيره ، أن طوله خمسة آلاف ميل ، وعرضه مختلف : فنه ثمانمائة ميل ، ومنه سبعمائة ميل ، ومنه ستمائة ميل ، وأقل من ذلك ، على حسب مضائق البر للبحر والبحر للبر ، ومبدأ هذا البحر من خليج يخرج جارياً من بحر أقيانوس ، وأضيق موضع من هذا الخليج بين ساحل طنجة من بلاد الغرب وبين ساحل الأندلس ، وهذا الموضع المعروف بنيطاء ، وعرضه فيما بين الساحلين نحو من عشرة أميال ، وهذا الموضع هو المَهْبَرُ لمن أراد العبور من الغرب إلى الأندلس ومن الأندلس إلى الغرب ، وعلى الحد بين البحرين - أعنى بحر الروم و بحر أقيانوس - المنارة النحاس ، والحجارة التى بناها هرقل الجبار ، على أعلاها الكتابة والتماثيل مشيرة بأيديها أن لا طريق ورائى لجميع الداخلين إلى ذلك البحر بحر الررم ؛ إذ كان

بحر لا تجرى فيه جارية ، ولا عمارة فيه ، ولا حيوان ناطق يسكنه ، ولا يحاط بمقداره ، ولا تدري غايته ، ولا يعلم منتهاه ، وهو بحر الظلمات والأخضر المحيط وقد ذهب قوم أن هذا البحر أصل ماء البحار ، وله أخبار عجيبة قد أتينا على ذكرها في كتابنا « أخبار الزمان » في أخبار من غررَ وخاطر بنفسه في ركوبه ، ومن نجا منهم ، ومن تلف ، وما شاهدوا منه ، وما رأوا ؛ وبين هذه المنارة المنصوبة وبين موضع الأحجار مسافة في طول مصب هذا الخليج وجريانه ، وذلك إنما يجرى في بحر الروم والشام ومصر ، وهو متصل بمدينة نحو من خمسمائة ميل تسمى بالرومية درس ، وعلى هذا الخليج من جانب المغرب قرية يقال لها سَبْتَة ، وهي وطنجة من ساحل واحد ، ويقابل سبتة هذه من ناحية الأندلس الجبل المعروف بجبل طارق مولى موسى بن نصير ، ويعبرُ الناس من سبتة إلى ساحل الأندلس من غدوة إلى الظهر ، وفي هذا الخليج موج عظيم ، والماء من هناك يخرج من بحر أقيانوس ويصب إلى البحر الرومى ، وفي هذا الخليج مواضع تعلو أمواجها ويعلو الماء من غير ريح ، وهذا الخليج تسميه أهل المغرب وأهل الأندلس الرقاق ، إذ كان على هيئة ذلك ، وفي بحر الروم جزائر كثيرة منها جزيرة قبرس بين ساحل الشام والروم ، وجزيرة رودس في مقابلة الإسكندرية ، وجزيرة إقريطش ، وجزيرة صقلية ، وسندكر صقلية بعد هذا الموضع عند ذكرنا لجبل البركان الذى تظهر منه النار فيها أجسام وجثث عظام .

وقد ذكر يعقوب بن إسحق الكندى وتلميذه أحمد بن الطيب السرخسى في طول هذا البحر وعرضه غير ما ذكرنا .

وسندكر بعد هذا الموضع فيما يرد من هذا الكتاب هذه البحار على نظم من التأليف وترتيب من التصنيف ، إن شاء الله تعالى

ذكر بحر نيطش

وبحر مانطش ، وخليج القسطنطينية

فأما بحر نيطش فإنه يمد من بلاد ملتزقة إلى القسطنطينية بطول النهر العظيم المعروف ببطناس ، وقد قدمنا ذكره ، ومبدأ هذا النهر من الشمال ، وعليه كثير من ولد يافت ، وخروجه من بحيرة عظيمة في الشمال من أعين وجبال ، ويكون مقدار جريانه على وجه الأرض نحو ثمانمائة فرسخ عمائر متصلة بولد يافت ، ويسير بحر مانطش - فيما زعم قوم من أهل العناية بهذا الشأن - حتى يصب في بحر نيطش ، وهذا البحر عظيم فيه أنواع من الأحجار والحشائش والعقاقير ، قد ذكره جماعة ممن تقدم من الفلاسفة ، ومن الناس من يسمى بحر مانطش بحيرة ، ويجعل طوله ثمانمائة ميل ، وعرضه مائة ميل ، ومنه ينفجر خليج القسطنطينية الذي يصب إلى بحر الروم ، وطوله ثمانمائة ميل ، وعرضه نحو من خمسين ميلا ، وعليه القسطنطينية والعمائر من أوله إلى آخره ، والقسطنطينية في الجانب الغربي من هذا الخليج ، وهو متصل ببر رومية والأندلس وغيرها ، فيصب والله أعلم على قول المنجمين من أصحاب الزيجات وغيرهم ممن تقدم ؛ في بحر الباغر والروس ، وهو بحر نيطش ، وسيأتي ذكر هؤلاء الأمم فيما يرد من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى على حسب استحقاقهم في ذكرهم واتصال عمائرهم ، ومن يركب هذا البحر ومن لا يركبه ، والله أعلم .

ذكر بحر الباب والأبواب والخزر وجرجان

وجمل من الأخبار على ترتيب البحار

وأما بحر الأعاجم الذى عليه دُورُها ومسكنها فهو معمور بالناس من جميع جهاته ، وهو المعروف ببحر الباب والأبواب والخزر والجل وجرجان وطبرستان ، وعليه أنواع من الترك ، وينتهى فى إحدى جهاته نحو بلاد خوارزم ، وطوله ثمانمائة ميل ، وعرضه ستمائة ميل ، وهو مدور الشكل إلى الطول ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملاً من ذكر الأمم المحيطة بهذه البحار المعمورة ، وهذا البحر الذى هو بحر الأعاجم كثير التناين ، وكذلك بحر الروم ، فالتناين فيهما كثيرة ، وكثيراً ما تكون ما يلي بلاد طرابلس واللاذقية والجل الأقرع من أعمال أنطاكية ، وتحت هذا الجبل معظم ماء البحر وأكثره ، ويسمى عجز البحر وغايته إلى ساحل أنطاكية ورشيد والإسكندرية وحصن المنصب وساحل المصيصة ، وفيه مصب نهر جيحان وساحل أذنة ، وفيه مصب سيحان وساحل طرسوس ، وفيه مصب نهر بردان ، وهو نهر طرسوس ، ثم البلد الخالي من العمارات الخراب من الروم والمسلمين مما يلي مدينة مكنة إلى قریش وقراشيا ثم بلاد سلوقية ونهرها العظيم الذى يصب فى هذا البحر ثم حصون الروم إلى خليج القسطنطينية .

وقد أعرضنا عن ذكر أنهار كثيرة بأرض الروم وما يصب إلى هذا البحر كنهر البارد ونهر العسل وغيرهما من الأنهار .

والعمارة على هذا البحر من المضيق الذى قدمنا ذكره ، وهو الخليج الذى عليه طنجة ، متصلةً بساحل المغرب وبلاد أفريقيا والسوس ورشيد والسويس ودمياط وساحل الشام وساحل الثغور الشامية ثم ساحل الروم ماراً متصلاً إلى بلاد رومية إلى أن يتصل بساحل الأندلس ، إلى أن ينتهى إلى ساحل الخليج الضيق المقابل لطنجة على ما ذكرنا ؛ لانتقطع من هذا البر كله العائر التى وصفناها

من الإسلام والروم إلى الأنهار الجارية إلى البحر وخليج القسطنطينية ، وعرضه نحو من ميل ، وخلجانا آخر داخله في البر لا منفذ لها ، فجميع ما ذكرنا على شاطئ هذا البحر الرومي متصلو الديار غير منفصلين لا يقطعهم أو يمنعهم إلا ما ذكرنا من الأنهار وخليج القسطنطينية ، ومثال هذا البحر الرومي ، ومثال ما ذكرنا من العائر عليه ، إلى أن ينتهي إلى مدى الخليج الضيق الآخذ من إقيانوس الذي عليه أعلام النحاس ، ويلى الأعلام طنجة ، فساحل الأندلس شمال الكرنيب ، فمصيصة الخليج والكرنيب على ضفة البحر ، إلا أنه ليس بمدور الشكل ؛ لما ذكرنا من طوله ، وليس تعرف التنانين في البحر الحبشى ولا فى شىء من خلجانه من حيث وصفنا فى نهاياته ، وأكثرها يظهر مما يلى بحر إقيانوس .

التنين
وآراء الناس
فيه

وقد اختلف الناس فى التنين : فمنهم من رأى أنه ريح سوداء تكون فى قعر البحر فتظهر إلى النسيم ، وهو الخلو ، فتأحق السحب كالزوبعة ، فإذا ثارت من الأرض واستدارت وأثارت معها الغبار ثم استطالت فى الهواء ذاهبة الصعداء توهم الناس أنها حيات سود

ومنهم من رأى أنها دواب تتكون فى قعر البحر ، فتعظم وتؤذى دواب البحر ، فيبعث الله عليها السحاب والملائكة فيخرجونها من بينها ، وأنها على صورة الحية السوداء لها بريق وبصيص ، لا تمر بمدينة إلا أتت على ما لا يقدر عليه من بناء عظيم أو شجر أو جبل ، وربما تنفس فتحرق الشجر الكبير فيلقونها فى سدّ يأجوج ومأجوج ، ويمطر السحاب عليهم ، فيقتل ذلك التنين ؛ فمنه يتغذى يأجوج ومأجوج ، وهذا القول يعزى إلى ابن عباس .

وقد ذكر قوم فى التنين غير ما ذكرنا ، وكذلك حكى قوم من أهل السير وأصحاب القصص أموراً فيما ذكرنا أعرضنا عن ذكرها ، منها خبر عمران الذى صعد فى النيل ؛ فأدرك غايته ، وعبر البحر على ظهر دابة تعلق بشعرها ، وهى دابة

ينجر منها على الأرض شبر من قوائمها تُعَادَى قرن الشمس من مبدأ طلوعها إلى حال غروبها فَعَبْرٌ — على ما وصفنا من تعلقه بشعرها — البحر ، ودار بدورانها طلبا لعين الشمس ، حتى صار إلى ذلك الجانب ؛ فرأى النيل منحدرا من قصور الذهب من الجنة ، وأعطاه الملك العنقود العنب ، وأنه أتى الرجل الذي رآه في ذهابه ، ووصف له كيف يفعل في وصوله إلى مبدأ النيل ، فوجده ميتا ، وخبر إبليس معه والعنقود العنب ، وغير ذلك من خرافات حشوية عن أصحاب الحديث ، ومنها ما روى أن قبة من الذهب وأنواع الجوهر في وسط البحر الأخضر على أربعة أركان من الياقوت الأحمر يتحدر من كل ركن من هذه الأركان ماء عظيم من رشحه فيقسم إلى جهات أربع في ذلك البحر الأخضر غير مختلط له ، ولا تماس به ، ثم ينتهي إلى جهات من البر من سواحل ذلك البحر : أحدها النيل ، والثاني سِيحَان ، والثالث جِيحَان ، والرابع الفرات ، ومنها أن الملك الموكل بالبحار يضع عقبه في أقصى بحر الصين فيفور منه البحر ، فيكون منه المد ، ثم يرفع عقبه من البحر فيرجع الماء إلى مركزه ، ويطلب قعره ، فيكون الجزر ، ومثلوا ذلك بإناء فيه ماء في مقدار النصف منه ؛ فيضع الإنسان يده أو رجله فيملا الماء الإناء ، فإذا رفعها رجع الماء إلى حقه ، وانتهى إلى غايته ، ومنهم من رأى أن الملك يضع إبهامه من كفه اليمنى في البحر فيكون منه المد ، ثم يرفعها فيكون الجزر ، وما ذكرنا فغير ممتنع كونه ، ولا واجب ، وهو داخل في حيز الممكن والجائز ، لأن طريقه في النقل طريق الأفراد والآحاد ، ولم يرد مورد التواتر والاستفاضة كالأخبار الموجبة للعلم ، والعلل القاطعة للعذر في النقل ، فإن قارنها دلائل توجب صحتها وجب التسليم لها ، والالتقياد إلى ما أوجب الله عز وجل علينا من أخبار الشريعة والعمل بها ، لقوله عز وجل : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ، وإن لم يصح ما ذكرنا فقد وصفنا آتفا ما قال الناس في ذلك ، ليعلم من قرأ هذا الكتاب أنا قد اجتهدنا فيما أوردناه في هذا

الكتاب وغيره من كتبنا ، ولم يعزُب عنافهم ما قاله الناس فى سائر ما ذكرنا ،
وبالله التوفيق

فهذه جمل البحار ، وعند أكثر الناس أنها أربعة فى العمور من الأرض ،
ومنهم من يعدها خمسة ، ومنهم من يجعلها ستة ، ومنهم من يرى أنها سبعة
منفصلة غير متصلة ، وعلى أنها ستة فأولها البحر الحبشى ، ثم الرومى ، ثم نبطش ،
ثم مانطش ، ثم الخزرى ، ثم أقيانوس الذى لا يعلم أكثر نهاياته ، وهو الأخضر
المظلم المحيط ، وبحر نبطش متصل ببحر مانطش ، ومنه خليج القسطنطينية الذى
يصب إلى بحر الروم ويتصل به ، على حسب ما ذكرنا ، والرومى بدؤه من بحر
أقيانوس الأخضر ، فيجب على هذا القياس أن يكون ما وصفنا بحراً واحداً
لاتصال مياهها ، وليست هذه المياه ولا شئ منها والله أعلم متصلة بشئ من بحر
الحبش ، فبحر نبطش وبحر مانطش يجب أن يكونا أيضاً بحراً واحداً ، وإن
تضايق البحر فى بعض المواضع بينهما ، أو صار بين الماءين كالخليج ، وليست
تسمية ما اتسع منه وكثر ماؤه بما نطش ، وما ضاق منه وقل ماؤه بنبطش ؛
ينبغى أن تجمعهما فى اسم مانطش أو نبطش ؛ فاذا عبرنا بعد هذا الموضع فى
مبسوط هذا الكتاب فقلنا مانطش أو نبطش ، فأما نريد به هذا المعنى فيما اتسع
من البحر وضاق

قال المسعودى : وقد غلط قوم زعموا أن البحر الخزرى يتصل ببحر مانطش
ولم أرفعين دخل بلاد الخزر من اتصل إليها ببحر من هذه البحار أو بشئ من
مائها أو من خلجانها إلا من نهر الخزر ، وسند كذا عند ذكرنا لجبل الفتح
ومدينة الباب والأبواب ومملكة الخزر ، وكيف دخل الروس فى المراكب إلى
بحر الخزر ، وذلك بعد الثمائة ، ورأيت أكثر من تعرض لوصف البحار ممن
تقدم وتأخروا فى كتبهم أن خليج القسطنطينية الآخذ من نبطش يتصل
ببحر الخزر ، ولست أدري كيف ذلك ، ومن أين قالوه : أمن طريق الحدس

أم من طريق الاستدلال والقياس ؟ وقد ركبت فيه من أسكون ، وهو ساحل جرجان ، إلى بلاد طبرستان وغيرها ، ولم أترك من شاهدت في البحار ممن له أدب وفهم ومن لافهم عنده من أرباب المراكب إلا سألتهم عن ذلك ، وكل يخبر أن لا طريق له إليها إلا من بحر الخزر حيث دخلت منه مراكب الروس ، ونفر من أهل أذربيجان والباب والأبواب وبردعة والديلم والجبل وجرجان وطبرستان إليها لأنهم لم يعبدوا عدواً يطرأ عليهم ، ولا عرف ذلك فيما ساف ، وما ذكرنا فمشهور فيما سمينا من الأمصار والأمم والبلدان ، سالك مسلك الاستفاضة فيهم

ورأيت في بعض الكتب المضافة للكندى وتلميذه - وهو أحمد بن الطيب السرخسى ، صاحب المعتضد بالله - أن في طرف البحيرة من الشمال بحيرة عظيمة بعضها تحت قطر الشمال ، وأن بقرها مدينة ليس بعدها عمارة ، ويقال لها تولية ، ولقد رأيت لبنى المنجم في بعض رسائلهم ذكر هذه البحيرة ، وقد ذكر أحمد بن الطيب في رسالته في البحار والمياه والجبال عن الكندى أن بحر الروم طوله ستة آلاف ميل من بلاد صور وطرابلس وأنطاكية واللاذقية والمنقب وساحل المصيصة وطرشوس وقلمية إلى منارهر قل ، وأن أعرض موضع فيه أربعمائة ميل ، هذا قول الكندى وابن الطيب

وقد أتينا على قول الفريقين جميعاً وما بينهما من اختلاف في ذلك من أصحاب الزيجات وما وجدناه في كتبهم وسمعناه من أتباعهم ، ولم نذكر ما ذكره من البراهين المؤيدة لما وصفوا ؛ لا شترطنا في هذا الكتاب على أنفسنا الاختصار والايجاز وأما ما تنازع فيه المتقدمون من أوائل اليونانيين والحكماء المتقدمين في مبادئ كون البحار وعلاها فقد أتينا على مبسوطه في كتابنا « أخبار الزمان » في الفن الثاني من جملة الثلاثين فنا ، وقد ذكرنا قول كل فريق منهم وعزونا كل قول من ذلك إلى قائله ، ولم نخل هذا الكتاب من إيراد ما من قولهم

وذهبت طائفة منهم إلى أن البحر بقية من الرطوبة الأولى التي جفَّت أكثرها
جوهَر النار ، وما بقى منها استحال لاحتراقه

ومنهم من قال : إن الرطوبة الأولى المجتمعة لما احترقت بدوران الشمس
وانعصر الصفو منها استحال الباقي إلى ملوحة ومرارة

ومنهم من رأى أن البحار عَرَقُ تُعْرِقه الأرض لما ينالها من احتراق الشمس
لاتصال دورها

ومنهم من رأى أن البحر هو ما بقى مما صمَّتْهُ الأرض من الرطوبة الثانية
لغلظ جسمها ، كما يعرض في الماء العذب إذا مزج بالزيادة ؛ فانه إذا صفا من الزيادة
وجد مالحا بعد أن كان عذبا

وذهب آخرون أن الماء عذبه ومالحه كانا متمزجين ؛ فالشمس ترفع لطيفه
وعذبه تخفته

وبعضهم قال : ترفعه الشمس لتفتذي به ، وقال بعضهم : بل يعود بالاستحالة
ماء إذا صار بارتقاعه إلى الموضع الذي يحصره البرد فيه ، ويكتفه ، ومنهم من
ذكر أن الماء الذي هو أُسْطُثْس ما كان منه عن الهواء وما يعرض منه من البرد
يكون حلاوا ، وما كان منه في الأرض لما يناله من الاحتراق والحرارة يكون مرا
ومن أهل البحث من قال : إن جميع الماء الذي يفيض إلى البحر من جميع
ظهور الأرض و بطونها إذا صار إلى تلك الحفرة العظيمة فهو مضاض^(١) من مضاض ،
والأرض تقذف إليه ما فيها من الملوحة واللذان في الماء من أجزاء النار التي تخرج
إليه من بطون الأرض ومن أجزاء النيران المختلطة يرفعان لطائف الماء بارتقاعهما
وتبخرهما ، فإذا رفعا اللطائف صار منها ما يشبه المطر ، وكان ذلك دأبها وعادتها ،
ثم يعود ذلك الماء مالحا ، لأن الأرض إذن كانت تعطيه الملوحة ، ولذلك يكون
ماء البحر على كيل واحد ووزن واحد ؛ لأن البحر يرفع اللطيف فيصير طلا
وماء ، ثم تعود تلك الأندية سيولا ، وتطلب الحدور والقرار ، وتجري في أعماق

(١) المضاض - بزة غراب - الماء لا يطاق ملوحة .

الأرض حتى تصير إلى ذلك الهور ، فليس يضيع من ذلك الماء شيء ، ولا يبطل منه شيء ، والأعيان قائمة كمنجنون غرف من نهر وصب إلى حفرة تفيض إلى ذلك النهر ، وقد شبه ذلك قوم بأعضاء الحيوان إذا اغتذت وعملت الحرارة في غذائها فاجتذبت منه ماء عذبا إلى الأعضاء المغذية به ، وخلفت ماثقل منه ، وهو المالح والمر ، فمن ذلك البول والعرق ، وهذه فضول الأغذية فيها ، ولما كانت عن رطوبات عذبة أحالتها الحرارة إلى المرارة والملوحة ، وإن الحرارة لو زادت أكثر من مقدارها لصارت الفضول مرأ زائدا على ما يوجد من العرق والبول لوجود ما كل محترق مر ، هذا قول جماعة ممن تقدم ؛ وأما ما يوجد بالعيان وإيقاع الحنة عند المباشرة فإن كل الرطوبات ذوات الطعوم إذا صعدت بالقرع والأنابيق بقيت روائحها وطعومها فيما يرتفع منها كالخل والنبيد والورد والزعفران والقرنفل ، إلا المالحة فإنها تختلف طعومها وروائحها ، ولا سيما إن صعدت مرتين وأسخنت مرة بعد أخرى

وقد ذكر صاحب المنطق في هذا المعنى كلاما كثيرا : من ذلك أن الماء المالح أثقل من الماء العذب ، وجعلت الدلالة على ذلك أن الماء المالح كدر غليظ ، والماء العذب صاف رقيق ، وأنه إذا أخذ شيء من الشمع فعمل منه إناء ثم سد رأسه وصير في ماء مالح وجد ذلك الماء الذي وصل إلى الإناء عذبا في الطعم خفيفا في الوزن ، ووجد الماء المالح المحيط به على خلاف ذلك ، وكلما يجري فهو نهر ، وحيث ينبع فهو عين ، وحيث يكون معظم الماء فهو بحر

قال المسعودي : وقد تكلم الناس في المياه وأشباهها ، وأكثروا ، وقد ذكرنا في كتابنا « أخبار الزمان » في الفن الثاني من جملة الثلاثين فنا ما أورده من البراهين في مساحة البحار ومقاديرها ، والمنفعة في ملوحة مائها ، واتصال بعضها ببعض وانفصالها وعدم بيان الزيادة فيها والنقصان ، ولأية علة كان الجزر والمد في البحر الحبشى أظهر من دون سائر البحار ، ووجدت نواخذة بحر الصين

والهند والسند والزنج واليمن والقلم والحشة من السيرافيين والعانيين يخبرون عن البحر الحبشى فى أغلب الأمور على خلاف ما ذكرته الفلاسفة وغيرهم من حكينا عنهم المقادير والمساحة ، وإن ذلك لا غاية له ، وفى مواضع منه شاهدت أرباب المراكب فى البحر الرومى من الحربية والعمالة - وهم النواتى وأصحاب الرحل والرؤساء ومن يلى تدير المراكب والحرب فيهم ، مثل لاوى المكنى بأبى الحرب غلام زرافة صاحب طرابلس الشام من ساحل دمشق ، وذلك بعد الثمائة - يعظمون طول البحر الرومى وعرضه ، وكثرة خلجانه وتشعبه ، وعلى هذا وجدت عبد الله بن وزير صاحب مدينة جبلة من ساحل حمص ، ولم يبق فى هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - أنظر منه فى البحر الرومى ، ولا آنس منه ، وليس فيه بركته من أصحاب المراكب من الحربية والعمالة إلا هو منقاد إلى قوله ، ويقر له بالنصر والحق ، مع ما هو عليه من الديانة والجهاد القديم فيها ، وقد ذكرنا عجائب هذه البحار وما سمعناه ممن ذكرنا من أخبارها وآفاتهما ، وما شاهدوا فيها فيما سلف من كتبنا ، وسنورد بعد هذا الموضع جملا من أخبارها

وقد ذهب قوم ممن تكلم فى علامات المياه ومستقرها من الأرض إلى أنه يرى فى المواضع التى فيها الماء نبت القصب والخلفاء والسل من الحشيش ، فذلك دلالة على قرب الماء لمن أراد الحفر ، وأن ما عدا ذلك فعلى البعد ووجدت فى كتاب الفلاحة أن من أراد أن يعلم قرب الماء وبعده فليحفر فى الأرض ثلاثة أذرع أو أربعة ، ثم يأخذ قدراً من نحاس أو سحاية خرف ، فيدهنها بالشحم من داخلها مستويا ، ولتكن القدر واسعة الفم ، فإذا غابت الشمس فخذ صوفة بيضاء منقوشة مغسولة ، وخذ حجرا قدر بيضة ، فلف ذلك الصوف عليه مثل الكرة ، ثم أطل جانب الكرة بموم مذاب وألصقها فى أسفل ذلك القدر الذى قد دهنته بدهن أو بشحم ، ثم ألقها فى أسفل الحفيرة ؛ فإن

علامات لمعرفة وجود المياه

الصوف يصير معلقا ، والموم يمسكه ، ويصير إلى مكان الحجر معلقا ، ثم احث على الإناء التراب قدّر ذراعين أو ذراع ، ودعه ليلتك كلها ، فاذا كان الغد قبل طلوع الشمس فاكس التراب عنه ، وارفع الإناء ، فان رأيت الماء مُزَقًا بالإناء من داخل قطراً كثيراً بعضه قريب من بعض والصوفة ممتلئة فان في ذلك المسكان ماء ، وهو قريب ، وإن كان القطر مفترقا لا بالاجتماع ولا بالمتقارب والصوفة ماؤها وسط فان الماء ليس بالبعيد ولا بالتقريب ، وإن كان القطر ملتزقا متباعدة بعضه عن بعض والماء في الصوفة قليل فان الماء بعيد ، وإن لم ترَ على الإناء قطرا قليلا ولا كثيراً ولا على الصوفة ماء فانه ليس في ذلك الموضع ماء ، فلا تتعنَّ في حفره

ووجدت في بعض النسخ من كتب الفلاحة في هذا المعنى أن من أراد علم ذلك فلينظر إلى قري النمل ؛ فان وجد النمل غلاظاً سودا ثقيلة المشى فلينظر فعلى قدر ثقل مشيهن الماء قريب منهن ، وإن وجد النمل سريع المشى لا يكاد يلحق فالماء على أربعين ذراعا ، والماء الأول يكون عذبا طيبا ، والثاني ثقيلالحا ، فهذه جملة علامات لمن يريد استخراج الماء ، وقد أتينا على مبسوط ما ذكرنا في كتابنا « أخبار الزمان » وإنما نذكر في هذا الكتاب ما تدعو الحاجة إلى ذكره بالاشارة إليه دون بسطه وإيضاحه

وقد ذكرنا جملا من أخبار البحار وغيرها ، فننقل في أخبار ملوك الصين وغيرها وأهلها ، وغير ذلك مما لحق به إن شاء الله تعالى

ذكر ملوك الصين والترك وتفرق ولد عابور

وأخبار الصين

وغير ذلك مما لحق بهذا الباب

قد تنازع الناس في أنساب أهل الصين وبدئهم : فذكر كثير منهم أن
 ولد عابور بن بتويل بن يافث بن نوح لما قسم فالغ بن عابور وإرفخشد بن سام
 ابن نوح الأرض بين ولد نوح ساروا سيرة في الشرق ؛ فسار قوم منهم من
 ولد رعو على سمت الشمال ، وانتشروا في الأرض فصاروا عدة ممالك : منهم الديلم ،
 والجيل ، والطيلسان ، والترك ، وفرغان ؛ فأهل جبل الفتح أنواع اللسكريم واللان
 والخزر والأنجار والسرير وكشك ، وسائر تلك الأمم المنتشرة في ذلك الصقع
 والأرمين ، إلى بلاد طوا بريدة إلى بحر مانطش ونيطش وبحر الخزر والبلغر ومن
 اتصل بهم من الأمم ، وعبر ولد عابور نهر بلخ ، ويمم بلاد الصين الأكثر
 منهم ، وتفرقوا عدة ممالك في تلك البلاد ، وانتشروا في تلك الديار ؛ فمنهم الجليل ،
 وهم سكان جيلان والأشروسية والصقر ، وهم بين بخارى وسمرقند ، ثم الفراعنة
 والشاش وأسبجار وأهل بلاد العبرات ، فبنوا المدن والضياع ، وانفرد منهم أناس
 غير هؤلاء فسكنوا البوادي : فمنهم الترك الحرمح والطغرغر ومنهم أصحاب مدينة
 كوسان ، وهي مملكة بين خراسان وبلاد الصين ، وليس في أجناس الترك وأنواعهم
 في وقتنا هذا - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثمانئة - أشد منهم بأسا ، ولا أكثر منهم
 شوكة ، ولا أضبط ملكا ، وكلهم أزعاج ، ومذهبهم مذهب المانية ، وليس في
 الترك من يعتقد هذا المذهب غيرهم ومن الترك الكيمالية والبرسحانية واليدية
 والحقوية ، وأشدهم بأسا الحقوية ، وأحسنهم صورة ، وأطولهمقامة ، وأصحبهم
 وجوها ؛ الخوجية ، وهم أهل بلاد فرغانة والشاش مما يلي ذلك الصقع ، وفيهم
 كان الملك ، ومنهم خاقان الخواقين ، وكان يجمع ملكه سائر ممالك الترك

القول في
 أنساب الصين

وتنقاد إليه ملوكها ، ومن هؤلاء الخواقين كان فراسياب التركي الغالب على بلاد فارس ، ومنهم سانة ؛ ولخافان الترك في وقتنا هذا تنقاد ملوك الترك كلهم منذ خربت المدينة المعروفة بعان ، وهي في مفاوز سمرقند ، وقد ذكرنا انتقال الملك عن هذه المدينة ، والسبب في ذلك في كتابنا المترجم الكتاب الأوسط ، ولحق فريق من ولد عابور بتخوم الهند ، فأثرت فيهم تلك البقاع فصارت ألوانهم بخلاف ألوان الترك ، ولحقوا بألوان الهند ، ولهم حضرٌ وبوادٍ ، وسكن فريق منهم ببلاد التبت ، وملكوا عليهم ملكا ، وكان ينقاد إلى ذلك الخاقان على ماقد بينا ، وسمى أهل التبت ملكهم بخاقان تشيها بمن تقدم من الملوك

وسار الجمهور من ولد عابور على ساحل البحر حتى انتهوا إلى أقاصيه من بلاد الصين ؛ فنفروا في تلك البقاع والبلاد ، وقطنوا الديار ، وكوَّروا الكور ، ومَصَّروا المدن ، واتخذوا لمملكتهم مدينة عظيمة ، وسمَّوها انموا ، وبينها وبين ساحل البحر الحبشى - وهو بحر الصين - مسافة ثلاثة أشهر مدن وعمائر متصلة ، وكان أول ملك تملك عليهم في هذه الديار وهي انموا « اسطرماس » بن فاعور بن بريج بن عابور بن يافت بن نوح ، فكان ملكه ثلثمائة سنة ونيفا ، وفرق أهله في تلك الديار ، وشَقَّقَ الأنهار ، وقتل السباع ، وغرس الأشجار ، وأطعم الثمار ، وهلك

ملك
اسطرماس

فملك ولد يقال له « عرون » فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب الأحمر جزعا عليه ، وتعظيما له ، وأجلسه على سرير من الذهب الأحمر مرصع بالجواهر ، وجعل مجلسه دونه ، وأقبل يسجد لأبيه وهو في جوف تلك الصورة ، هو وأهل مملكته ، في طرفي النهار إجلالا له ، وعاش مائتي سنة وخمسين سنة ، وهلك

ملك عرون

فملك ولد له يقال له « عبرور » فجعل جسد أبيه عرون في تمثال من الذهب الأحمر ، وجعله دون مرتبة جده على سرير من الذهب ، ورصَّعه بأنواع الجواهر ، وكان يسجد له ، ويبدأ بالأول ثم بأبيه ، وأهل مملكته يسجدون له ،

ملك عبرور

وأحسن السياسة للرعية ، وسوّاهم في جميع أمورهم ، وشملهم بالعدل ؛ فكثر النسل ، وأخصبت الأرض ، فكان ملكه إلى أن هلك نحواً من مائتي سنة ثم ملك بعده ولده « عينيان » فجعل أباه في تمثال من الذهب الأحمر ، وجرى على ماسلف من أفعالهم في السجود والتعظيم ، وطال ملكه ، واتصلت بلاده ببلاد الترك من بنى عمه ، فعاش أربعاً وثمانين سنة ، واتخذ في أيامه كثير من المهين مما لطف في الدور من الصنائع

وملك بعده ولده « حرامان » فأحدث الفلك وحمل فيها الرجال ، وحمل لطائف بلاد الصين ، وصيّرها نحو بلاد السند والهند إلى إقليم بابل وإلى سائر الممالك مما قرب منها ، وأبعد في البحر ، وأهدى الهدايا العجيبة والرغائب النفيسة إلى الملوك ، وأمرهم أن يجلبوا إليه ما في كل بلد من الطرائف والتحف من المأكّل والمشارب والملابس وسائر الفرش ، وأن يعرفوا سياسة كل ملك وكل أمة وشريعتها ونهجها التي هي عليه ، وأن يرغبوا الناس فيما في بلدانهم من الجواهر والطيب والآلات ، فتفرقت المراكب في البلاد ، ووردوا الممالك لما أمروا به ، فلم يردوا على أهل مملكة إلا وأعجبوا بهم ، واستظرفوا ما أوردوه من أرضهم ، فبنت الملوك المطيفة بالبحار المراكب ، وجهزت نخوهم السفن ، وحملوا إليهم ما ليس عندهم ، وكتبوا ملكهم ، وكافؤه على ما كان من هداياه إليهم ، فعمرت بلاد الصين ، واستقامت له الأمور ؛ فكان عمره نحواً من مائتي سنة ، فهلك ، فجزع عليه أهل مملكته ، وأقاموا النياحة عليه شهراً

ثم فزعوا إلى الأكبر من أولاده فصيروه عليهم ملكاً ، فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب ، وسلك طريقته ومن كان قبله في فعلهم مقتدياً بمن مضى من آبائه ، وكان اسم هذا الملك « ثومامان » واستقامت له الأمور ، وأحدث من السنن الحمودة ما لم يحدثه أحد من ملوكهم ، وزعم أن الملك لا يثبت إلا بالعدل ؛ فان العدل ميزان الرب ، وأن من العدل الزيادة في الإحسان مع الزيادة في

العمل ، وحصن ، وشرف ، وتوج ، ورتب الناس في رتبهم على طرائقهم ، وخرج يرتاد موزعا لينبئ فيه هيكلا ؛ فوافى موزعا عامرا بالنبات حسن الاعتماد بالنهر تخترقه المياه ، فخط الهيكل هناك ، وجلبت له أنواع الأحجار المختلفة الألوان لتشييد الهيكل ، وجعل على علوه قبة ، وجعل لها مخرج للهواء متساوية ، ونصب فيها بيوتا لمن أراد التفرد بالعبادة ، فلما فرغ منها نصب في أعلاها تلك التماثيل التي فيها أجسام من سلف من آباءه وأمر بتعظيمها ، وجمع الخواص من أهل مملكته ، وأخبرهم أن من رأيه ضم الناس إلى ديانة يرجعون إليها لجمع الشمل وتساوى النظام ؛ فانه متى عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل ، ودخول الفساد والزلل ، فرتب لهم سياسة شرعية ، وفرائض عقلية ، وجعلها لهم رباطا ، ورتب لهم قصاصا في الأنفس والأعضاء ، ومستحلات منأكح يستباح بها النسوان ؛ ونصح بها الأنساب ، وجعلها مراتب ، فمنها لوازم موجبة يخرجون من تركها ، ومنها نوافل يتنفلون بها ، وأوجب عليهم صلوات لخالقهم تقربا لمعبودهم : منها إيماء لاركوع فيها ولا يسجد في أوقات من الليل والنهار معلومة ، ومنها بركوع وسجود في أوقات من السنين في شهور محدودة ، ورسم لهم أعيادا ، وجعل على الزناة منهم حدا ، وعلى من أراد من نسائهم البغاء جزية مفروضة ، وأن لا يستحسن النكاح في وقت من الأوقات ، وإن أقلعن عما كن عليه تكف الجزية عنهن ، وما يكون من أولادهن ذكورا يكون للملك عبيداً وجندا ، وما يكون من أولادهن إناثا فلا مهاتهن ويلحقن بصنعتهن ، وأمرهم بقرايين للهباء كل وذخر وأنجرة للسكواكب ، وجعل لكل كوكب منها وقتا ينتقرب إليه فيه بذخر معلوم من أنواع الطيب والعقاقير ، وأحكم لهم جميع الأمور ، واستقامت أيامه ، وكثر النسل ، فكانت حياته نحو من مائة وخمسين سنة ، وهلك ، فجزعوا عليه جزعا شديدا فجعلوه في تمثال من الذهب الأحمر ، ورضعوه بأنواع الجواهر ، وبنوا له هيكلا عظيما ، وجعلوا سقفه سبعة ألوان من الجواهر على أنواع الكواكب السبعة

من النيرين والخمسة بألوانها وأشكالها وجعلوا يوم وفاته صلوات وعيدا يجتمعون فيه عند ذلك الهيكل ، وصوروا صورته على أبواب المدينة وعلى الدنانير والفلوس وعلى الثياب ، وأكثر أموالهم الفلوس الصفر والنحاس ، فاستقرت هذه المدينة بدار ملك الصين ، وهى مدينة أنمو ، وبينها وبين البحر نحو من ثلاثة أشهر وأكثر من ذلك على حسب ما قدمنا أيضاً ، ولهم مدينة عظيمة بحرها يلى من أرضهم مغرب الشمس ، يقال لها مد ، وتلى بلاد التبت ، والحرب بين بلاد التبت وأهل المد سجال ، فلم تزل الملوك من طراً بعد هذا الملك أمورهم منتظمة ، وأحوالهم مستقيمة ، والخصب والعدل لهم شامل ، والجور فى بلادهم معدوم ، يقتدون بما نصبه لهم من الشرع من قدمنا ذكرهم ، وحروبهم على عدوهم قائمة ، وثغورهم مشحونة ، والرزق على الجنود دار ، والتجار يختلفون إليهم فى البر والبحر من كل بلد بأنواع الجهاز ، ودينهم دين من سلف ، وهى ملة تدعى السمنية ، عباداتهم نحو من عبادات قريش قبل مجىء الإسلام : يعبدون الصور ، ويتوجهون نحوها بالصلوات ، واللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق ، ويقيم التماثيل من الأصنام والصور مقام قبلة ، والجاهل منهم ومن لا علم له يشرك الأصنام بالهيئة الخالق ، ويعتقدهما جميعاً ، وأن عبادتهم الأصنام تقربهم إلى الله زلفى ، وأن منزلتهم فى العبادة تنقص عن عبادة البارئ جلالاته وعظمته وسلطانه ، وأن عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة إليه ، وهذا الدين كان بدء ظهوره فى خواصهم من الهند لجاورتهم إياهم ، وهو رأى الهند فى العالم والجاهل على حسب ما ذكرنا فى أهل الصين ، ولهم آراء ونحل حدثت عن مذاهب الثنوية وأهل الدهر ، فتغيرت أحوالهم ، وبجثوا ، وتناظروا ، إلا أنهم ينتقدون فى جميع أحكامهم إلى ما نصب لهم من الشرائع المتقدمة ، ومن حيث إن ملكهم متصل بملك الطغرغر ، على حسب ما تقدم ، صاروا على آرائهم من اعتقادهم مذاهب المانية والقول بالنور والظلمة ، وقد كانوا جاهلية سبيلهم فى الاعتقاد سبيل أنواع الترك إلى أن وقع لهم

شيطان من شياطين المانية ، فزخرف لهم كلاما يريهم فيه تضاد ما في هذا العالم وتباينه : من موت وحياة ، وصحة وسقم ، وضياء وظلام ، وغنى وفقير ، واجتماع وافتراق ، واتصال وانفصال ، وشروق وغروب ، ووجود وعدم ، وليل ونهار ، وغير ذلك من سائر المتضادات ، وذكر لهم أنواع الآلام المعترضة لأجناس الحيوان من الناطقين وغيرهم ، مما ليس بناطق من البهائم ، وما يعرض للأطفال والبله والجانين ، وأن الباري جل وعز غنى عن إيلاهم ، وأراهم أن هناك ضدأشديداً دخل على الخير الفاضل في فعله ، وهو الله عز وجل ، فاجتذب بما وصفنا وغيره من الشبهة عقولهم ، فدانوا بما وصفنا ، فان كان ملك الصين ينتمى لمذهب ذبح الحيوان كانت الحرب بينه وبين صاحب الترك أبرخان سجالا ، وإذا كان ملك الصين متنافى للمذهب كان الأمر بينهم بتنافى الملل مشاعا ، وملوك الصين ذوو آراء ونحل ، إلا أنهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن قضية العقل والحق في نصب القضاة والحكام ، وانقياد الخواص والعوام إلى ذلك .

وأهل الصين شعوب وقبائل ، كقبائل العرب وأفخاذها وتشعبها في أنسابها ، ولهم مراعاة لذلك ، وحفظ له ، وينسب الرجل إلى خمسين أباً إلى أن يتصل بعبور ، وأكثر من ذلك وأقل ، ولا يتزوج أهل كل فخذ إلا من فخذهم ، مثال ذلك أن يكون الرجل من مُضَر فلا يتزوج في ربيعة ، أو من ربيعة فلا يتزوج في مضر ، أو من كهْلان فلا يتزوج في حمير ، أو من حمير فلا يتزوج من كهْلان ، ويرغمون أن في ذلك صحة النسل وقوام البنية ، وأنه أصح للبقاء ، وأتم للعمر ، وأسباباً يذكرونها نحو ما ذكرنا .

فلم تزل أمور الصين مستقيمة في العدل على حسب ماجرى به الأمر فياسلف من ملوكهم إلى سنة أربع وستين ومائتين فانه حدث في الملك أمر زال به النظام ، وانتقضت به الأحكام والشرائع ، ومنع من الجهاد إلى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وهو أن نابغا نبغ فيهم من غير بيت الملك كان في بعض

مدائن الصين يقال له ياسر ، وكان شريراً يطالب الفتوة ، ويجتمع إليه أهل الدعارة
والشر ، فالحق الملك وأرباب التدبير غفلة عنه ؛ لخمول ذكره ، وكثر عتوه ،
وقويت شوكته ، وقطع أهل الشر المسافات نحوه ، وعظم جيشه ، فسار من
موضعه ، وشَنَّ الغارات على العمائر حتى نزل مدينة عاصور ، وهى مدينة عظيمة
على نهر عظيم أكبر من دجلة يصب إلى بحر الصين ، وبين هذه المدينة وبين
البحر مسيرة ستة أيام أوسبعة ، يدخل هذا النهر سفن التجار الواردة من بلاد
البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند وجزائر الرانج والصنف وغيرها من الممالك
بالأمتعة والجهاز ، وتقرب إلى مدينة خاتقو ، وفيها خلائق من الناس مسلمون
ونصارى ويهود ومجوس وغير ذلك من أهل الصين ، فقصدهم هذا العدو إلى هذه
المدينة فحاصرها ، وأتته جيوش الملك فهزمها ، واستباح ما فيها ، فكثرت جنوده
وافتح مدينة خاتقو عنوةً ، وقتل من أهلها خلقاً لا يحصون كثرةً ، وأحصى
من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس من قتل وغرق خوف السيف فكان
مائتى ألف ، وإنما أحصى ما ذكرناه من هذا العدد لأن ملوك الصين تحصى من
فى مملكتها من رعيتها ، وكذا من جاورها من الأمم ليصير ذمة لها فى دواوين
لها ، بكتاب قد وكلوا باحصاء ذلك لما يراعون من حياطة من شمله ملكهم ،
وقطع هذا العدو ما كان حول مدينة خاتقو من غابات شجر التوت إذ كان يحتفظ
به لما يكون من ورقه ، وما يطعم منه لدود القز الذى يغزل به الحرير ، فكان
ذهاب الشجر داعياً إلى انقطاع الحرير الصينى وجهازه إلى ديار الاسلام

وسار ياسر بجيوشه إلى بلد بلد فافتتحه ، وانضاف إليه أمم من الناس ممن يطلب
الشر والنهب وغيرهم ممن يخاف على نفسه ، وقصد نحو مدينة حزران ، وهى دار
الملك ، فتحصن بها فى مائتى ألف ممن بقى معه من خواصه ، والتقى هو وياسر ،
وكانت الحرب بينهم سجالات نحو من شهر ، وصبر الفريقان جميعاً ، ثم كانت
على الملك فولى منهزماً ، وأمعن الخارجى فى طلبه ، فانحاز الملك إلى مدينة فى

أطراف أرضه ، واستولى الخارجى على الحوزة ، واحتوى على ديار الملك وملك خزائن الملوك السالفة ، وما أعدوه للنواب وشن الغارات فى سائر العمارات ؛ وافتتح المدن ، وعلم أن لا قوام له بالملك إذ كان ليس من أهله ، فأمن فى خراب البلاد ، واستباحة الأموال ، وسفك الدماء ، وكاتب ملك الصين من المدينة التى انحاز إليها المتاخمة لبلاد التبت ، وهى مدينة مد المتقدم ذكرها ، ملك الترك ابن خاقان ، فاستنجد به ، وأعلمه ما نزل به ، وأعلمه ما يلزم الملوك من الواجبات إذا استنجدوا إخوانها من الملوك ، وأن ذلك من فرائض الملك وواجباته ، فأنجده ابن خاقان بولده له بنحو من أربعائة ألف فارس وراجل ، وقد استنفحل أمر ياسر ، فالتقى الفريقان جميعا ، فكانت الحرب بينهم سجالا نحو من سنة ، وتفقانى من الفريقين خلق كثير ، ففقد ياسر ، فقتل : إنه قتل ، وقيل : إنه أحرق ، وأسر ولده والخواص من أصحابه ، وسار ملك الصين إلى دار المملكة وعاد إلى ملكه ، والعامّة تسميه يعبور ، وتفسير ذلك ابن ماء السماء ، تعظياله ، وهو الاسم الأخص لملوك الصين ، والنبي يخاطبون به جميعا حبان ، ولا يخاطبون بـيعبور ، تغلب كل صاحب ناحية من عمله على ناحيته ، كتغلب ملوك الطوائف حين قتل الاسكندر بن فيلقوس المقدونى لدارا بن دارا ملك فارس ، وكنحو ما نحن بسبيله فى هذا الوقت - وهوسنة اثنتين وثلاثين وثلثائة - فرضى ملك الصين منهم بالطاعة له ، ومكاتبته بالملك ، ولم يتوجه منه المسير إلى سائر أعماله ، ولا محاربة من تغلب على بلاده ، وقنع بما وصفنا ، وامتنع من ذكرنا من حمل الأموال إليه ، فتاركهم مسالما لهم ، وعدا كل فريق منهم على ما يليه على حسب قوته وتمكنه ؛ فعدم انتظام الملك واستقامته على حسب ما سلف من ملوكهم

وقد كان لمن سلف من ملوكهم سير وسياسات الملك وانقياد للعسل على حسب ما توجبه قضية العقل .

وحكى أن رجلا من التجار من أهل مدينة سمرقند من بلاد خراسان خرج من بلاده ، ومعه متاع كثير ، حتى انتهى إلى العراق ، فحمل من جهازه ، وانحدر إلى البصرة ، وركب البحر حتى أتى إلى بلاد عمان ، وركب إلى بلاد كلة ، وهي النصف من طريق الصين أو نحو ذلك ، وإليها تنتهى مراكب الإسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين في مراكبهم ، وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك ، وذلك أن مراكب الصين كانت تأتى بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة ، فذلك كانت المراكب تختلف في المواضع التي ذكرنا إلى ماهناك ، ولما عدم العدل وفسدت النيات وكان من أمر الصين ما وصفنا التقى الفريقان جميعا في هذا النصف ، ثم ركب هذا التاجر من مدينة كلة في مراكب الصينيين إلى مدينة خاتقو ، وهي مرسى المراكب على حسب ما ذكرنا آنفا ، وبلغ ملك الصين خبر المراكب وما فيها من الجهاز والأمتعة ، فشرح خَصِيًّا من خواص خدمه ممن يثق به في أسبابه ، وذلك أن أهل الصين يستعملون الخصيان من الخدم في الخراج وغيره من العائلات والمهمات ، وفيهم من ينحصى ولده طالبا للرياسة واعتقاد النعمة ، فسار الخصى حتى أتى مدينة خاتقو ، فأحضر التجار ومعهم التاجر الخراساني ، فعرضوا عليه ما احتاج إليه من المتاع وما يصلح له ، فسأل الخراساني أن يحضر متاعه فأحضره ، وجرت بينهم محادثة ، ودار الأمر بينهم في التمثين للمتاع ، فأمر الخصى بسحب الخراساني وإكراهه ، وذلك أنه راده ثقة منه بعدل الملك ، ففضى الخراساني من فورهِ حتى أتى إلى مدينة أنموا ، وهي دار الملك ، فوقف موقف المتظلم إذا أتى من البلد التاسع : قد تَمَكَّصَ نوعا من الحرير الأحمر ، ووقف موضعا قد رسم للظلامة ، وقد رتب بمض الملوک ملوک النواحي للقبض على من يرد من المتظلمين ، ويقف ذلك الموقف ، فيحمل مسيرة شهر من أرضهم على البريد ، ففعل ذلك بالتاجر الخراساني ، ووقف بين يدي صاحب تلك الناحية

المرتب لما ذكرناه فأقبل عليه ، وقال : أيها الرجل ، لقد تعرضت لأمر عظيم ، وخطرت بنفسك ، انظر إن كنت صادقا فيما تخبر ، وإلا فانا تقتلك ونردك قتيلا من حيث جئت ، وكان هذا خطابه لمن تظلم ؛ فان رآه قد جزع وضرع في القول ضربه مائة خشبة وردده من حيث جاء ، وإن هو صبر على ما هو عليه حمل إلى حضرة الملك ، وأوقف بين يديه ، وسمع كلامه ، فصمم الخراساني في المطالبة والظلامة فرآه محقا غير ضرع ولا متاجلج ، فحمل إلى الملك ، فوقف بين يديه ، وقص حديثه على الملك ؛ فلما أن أدى الترجمان إليه ما قاله وفهم ظلامته أمر به إلى بعض المواضع ، وأحسن إليه ، وأحضر الوزير وصاحب الميمنة وصاحب القلب وصاحب الميسرة ، وهم أناس قد رتبوا لذلك عند الملمات وحين الحروب ، قد عرف كل واحد منهم مرتبته والمراد منه ، فأمرهم الملك أن يكتب كل واحد منهم إلى صاحبه بالناحية ، ولكل واحد منهم خليفة في كل ناحية ، فكتبوا إلى أصحابهم يخاطبوا أن يكتبوا إليهم بما كان من خبر التاجر والخادم ، وكتب الملك إلى خليفته بالناحية بمثل ذلك ، وقد كان خبر الخادم والتاجر اشتهر واستفاض ؛ فوردت الكتب على بغال البريد بتصحيح ما قاله التاجر ، وذلك أن ملوك الصين لها في سائر الطرق من أعمالها بغال للبريد مسرعة محذوة الآلات للأخبار والخرائط ، فبعث الملك فاستحضر الخادم ، فلما وقف بين يديه سلمه ما كان أنعم به عليه ، ثم قال له : عمدت إلى رجل تاجر : قد خرج من بلد شاسع ، وقطع مسالك ، واجتاز ملوكا في بر وبحر ، فلم يتعرض له ، يؤمل الوصول إلى ممالكتي ثقةً منه بعدلى ، ففعلت به ما فعلت ، وكان ينصرف عن ملكي ، ويقبح الأحداث عن سيرتي ، أما لولا قديم حرمتك بنا لقتلتك ، لكن أعاقبك بعقوبة إن عقلت فإنها أكبر من القتل ، وهو أن أوليك مقابر الموتى عن الملوك السالفة أن عجزت عن تدبير الأحياء والقيام بما إليه نذبت ، وأحسن إلى التاجر ، وحمله إلى خاتقو ، وقال له : إن سمحت نفسك أن تبيع منا ما اختير من متاعك بالثمن الجزيل ، وإلا فأنت المحكم في مالك ، أقم

إذا شئت وبع كيف شئت ، وانصرف راشداً حيث شئت ، وصرف الخادم
إلى مقابر الملوك

قال المسعودي : ومن طرائف أخبار ملوك الصين أن رجلاً من قریش من
ولد هَبَّار بن الأسود لما كان من أمر صاحب الزنج بالبصرة ما كان واشتهر
خرج هذا الرجل مدينة سیراف ، وكان من أرباب البصيرة وأرباب النعم بها ،
وذوى الأحوال الحسنة ، ثم ركب منها في بعض مراكب بلاد الهند ، ولم يزل
من مركب إلى مركب ، ومن بلد إلى بلد ، يخترق ممالك الهند ، إلى أن انتهى
إلى بلاد الصين إلى مدينة خانتقو ، ثم دعت همته إلى أن صار إلى ديار ملك
الصين ، وكان الملك يومئذ بمدينة حمدان ، وهى من كبار مدنها ، ومن عظيم
أمصارهم ؛ فأقام بباب الملك مدةً طويلة يرفع الرقاع ويذكر أنه من أهل بيت
نبوة العرب ، فأمر بعد هذه المدة الطويلة بانزاله في بعض المساكن وإزاحة العلة
بما يحتاج إليه من جميع أموره ، وكتب إلى الملك المقيم بخانتقو يأمره بالبحث
عنه ، ومسألة التجار عما يدعيه الرجل من قرابة نبي العرب صلى الله عليه وسلم ،
فكتب صاحب خانتقو بصحة نسبه ، فأذن له في الوصول إليه ، ووصله بمال
واسع ، وأعادته إلى العراق ، وكان شيخاً فهما ، فأخبر أنه لما وصل إليه ، ورأى
ما هو عليه من عبادة النيران والسجود للشمس والقمر من دون الله عز وجل ،
فقال له : لقد غلبت العرب على أجل الممالك ، وأنفسها ، وأوسعها ريعاً ، وأكثرها
أموالاً ، وأعتلها رجالاً ، وأهداها صوتاً ، ثم قال له : فما منزلة سائر الملوك عندكم ؟
فقال : مالى بهم علم ، فقال الترجمان : قل له : إنا نعد الملوك خمسة فأوسعهم
ملكاً الذى يملك العراق ؛ لأنه فى وسط الدنيا ، والملوك محدقة به ، ونجد اسم
ملكاً ، وبعده ملكنا هذا ، ونجده عندنا ملك الناس ، لأنه لا أحد من الملوك
أسوس منا ، ولا أضبط لملكه من ضبطنا لملكنا ، ولا رعية من الرعايا أطوع لملكها
من رعيتنا ، فنحن ملوك الناس ، ومن بعده ملك السباع ، وهو ملك الترك الذى

يلينا ، وهم سباع الانس ، ومن بعده ملك القبيلة ، وهو ملك الهند ، ونجده عندنا ملك الحكمة أيضا ؛ لأن أصلها منهم ؛ ومن بعده ملك الروم ، وهو عندنا ملك الرجال ؛ لأنه ليس في الأرض أتم خلقا من رجاله ، ولا أحسن وجوها منهم ، فهؤلاء أعيان الملوك ، والباقون دونهم ، ثم قال للترجمان : قل له : أتعرف صاحبك إن رأيته ؟ يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال القرشى : وكيف لى برؤيته وهو عند الله عز وجل ؟ فقال : لم أرد هذا ، وإنما أردت صورته ، فقلت : أجل ، فأمر بسفط فأخرج فوضع بين يديه ، فتناول منه درجا ، وقال للترجمان : أره صاحبه ، فرأيت فى الدرج صور الأنبياء ، فحركت شفتى بالصلاة عليهم ، ولم يكن عندهم أنا نعرفهم ، فقال للترجمان : سله عن تحريكه لشفتيه ، فسأنى ، فقلت : أصلى على الأنبياء ، فقال : ومن أين عرفهم ؟ فقلت : بما صور من أمورهم ، هذا نوح عليه السلام فى السفينة بمن معه لما أمر الله عز وجل الماء فعم الماء الأرض كلها بمن فيها وسلمه ومن معه ، فقال : أما نوح فصدمت فى تسميته ، وأما غرق الأرض كلها فلا نعرفه ، وإنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض ولم يصل إلى أرضنا ، إن كان خبركم صحيحا فعن هذه القطعة ، ونحن معاشر أهل الصين والهند والسند وغيرها من الطوائف والأمم لا نعرف ما ذكرتم ، ولا نقل إلينا أسلافنا ما وصفتم ، وما ذكرت من ركوب الماء الأرض كلها فن السكوائن العظام التى تقزع النفوس إلى حفظه وتداوله الأمم ناقلة له ، قال القرشى : فهبت الرد عليه وإقامة الحجة ، لعلمى بدفعه ذلك ، ثم قلت : وهذا موسى صلى الله عليه وسلم وبنو إسرائيل ، فقال : نعم على قلة البلد الذى كان به وفساد قومه عليه ، ثم قلت : هذا عيسى بن مريم عليه السلام على خماره والحواريون معه ، فقال : لقد كان قليل مدته ، إنما كان أمده يزيد على ثلاثين شهرا شيئا يسيرا ، وعدد من من ذكرنا من الأنبياء مما اقتضرت على ذكر بعضه ، ويزعم هذا القرشى - وهو المعروف بابن وهبان - أنه رأى فوق كل صورة كتابة طويلة قد زيد فيها ذكر

أسمائهم ، ومواضع بلدانهم ، ومقادير أعمارهم ، وأسباب نبواتهم وسيرهم ، قال :
ثم رأيت صورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جبل وأصحابه مُحَدِّقُونَ به
في أرجلهم نعال عربية من جلود الإبل ، وفي أوساطهم الحبال ، قد علقوا فيها
المساويك ، فبكيت ، فقال للترجمان : سلّه عن بكائه ، فقلت : هذا نبينا
وسيدنا وابن عمنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : صدقت ، لقد ملّك
قومه أجل الممالك ، إلا أنه لم يعاين من الملك شيئاً إنما عاينه من بعده ومن تولى
الأمر على أمته من خلفائه ، ورأيت صور أنبياء كثيرة منهم من قد أشار بيده
جامعاً بين سبائته وإبهامه كالخلقة ، كأنه يصف أن الخليفة في مقدار الخلقة ، ومنهم
من قد أشار بسبائته نحو السماء كالمرهب للخلقة بما فوق ، وغير ذلك ، ثم سألتني
عن الخلفاء وزريرهم وكثير من الشرائع ، فأجبته على قدر ما أعلم منها ، ثم قال :
كم عمر الدنيا عندكم ؟ فقلت : قد تنوزع في ذلك : فبعض يقول ستة آلاف ،
وبعض يقول دونها ، وبعض يقول أكثر منها ، فقال : ذلك عن نبيكم ؟ فقلت :
نعم ، فضحك ضحكاً كثيراً ووزيره أيضاً ، وهو واقف على إنكار ذلك ، وقال :
ما حسبت نبيكم قال هذا ، فزلت : فقلت : بلى هو قال ذلك ، فرأيت الانكار
في وجهه ، ثم قال للترجمان : قل له ميز كلامك ، فإن الملوك لا تكلم إلا عن
تحصيل ، أما زعمت أنكم تختلفون في ذلك ، فانكم إنما اختلفتم في قول نبيكم ،
وما قالت الأنبياء لا يجب أن يختلف فيه ، بل هو مسلم ، فاحذر هذا وشبهه أن
تحكيه ، وذكر أشياء كثيرة ذهبت عن أطول المدة ؛ ثم قال لي : لم عدلت عن
ملكك وهو أقرب إليك داراً ومنسباً ؟ قلت : بما حدث على البصرة ، ووقوعي
إلى سيراف ، ونزعت بي همتي إلى ملكك أيها الملك ؛ لما بلغني من استقامة
ملكك ، وحسن سيرتك ، وكثرة جنودك ، فأحببت الوقوع إلى هذه المملكة
ومشاهدتها ، وأنا راجع عنها إلى بلادي ، وملك ابن عمي ، ومخبر بما شاهدت
من جلالة هذا الملك ، وسعة هذه البلاد ، وشيمك أيها الملك الحمود ، وسأقول

بكل قول حسن ، وأثنى بكل جميل ، فَسَّرَهُ ذلك ، وأمرلى بجائزة سنوية ، وخلع شريفة ، وأمر بحمل على البريد إلى مدينة خاتقو ، وكتب إلى ملكها بإكرامى وقدومى على من فى ناحيته من الأمم ، وإقامة النزل إلى وقت خروجى عنه ، فكنت فى أخصب عيش وأنعمه ، إلى أن خرجت من بلاد الصين

قال المسعودى : وأخبرنى أبو زيد الحسن بن يزيد السيرافى بالبصرة ، وكان قد قطنها وانتقل عن سيراف ، وذلك فى سنة ثلاث وثلاثئة ، وأبو زيد هذا هو ابن عمر بن زيد بن محمد بن مزد بن ساسياد السيرافى ، وكان الحسن بن يزيد من أهل التحصيل والتميز ، أنه سأل ابن وهبان القرشى عن مدينة حمدان التى بها الملك وصفتها ، فذكر سعتها ، وكثرة أهلها ، وأنها مقسومة على قسمين يفصل بينهما شارع عظيم طويل عريض ؛ فالملك ووزيره وقاضى القضاة وجنوده وخصيانه وجميع أسبابه فى الشق الأيمن منه مما يلى المشرق لا يخالطهم أحد من العامة ، وليس فيه شىء من الأسواق ، بل أنهار فى سككهم مطردة ، وأشجار عليها منتظمة ، ومنازل فسيحة ، وفى الشق الأيسر مما يلى المغرب الرعية والتجارة والميرة والأسواق ، فاذاوضح النهار رأيت فيها قهّارمة الملك وغلمانا وغلمان ووزرائه ووكلائهم مابين راكب وراجل قد دخلوا إلى السوق الذى فيه العامة والتجار ، فأخذوا بضائعهم وحوائبهم ، ثم انصرفوا ، فلا يعود واحد منهم إلى هذا السوق إلا فى اليوم الثانى ، وأن هذه البلدان فيها كل نزهة وغيضة حسنة ، وأنهار مطردة ، إلا النخل فإنه معدوم عندهم ، وأهل الصين من أحذق خلق الله كَمَا بنقش وصنعة وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم ، والرجل منهم يصنع بيده مايقدر أن غيره يعجز عنه ، فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ماابتدع ، فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك إلى سنة ، فإن لم يخرج أحد فيه عيبا أجاز صانعه وأدخله فى جملة صناعه ، وإن أخرج أحد فيه عيبا اطرّحه ولم يجزه ، وأن رجلا منهم صَوَّرَ سنبلَة سقط عليها عصفور فى ثوب حرير ، فلم يشك الناظر

إلا أنها سنبله سقط عليها عصفور ، فبقى الثوب مدة ، وأنه اجتاز به أحذب ، فعاب العمل ، فأدخل إلى الملك ، وأحضر صاحب العمل ، فسأل الأحذب عن العيب ، فقال : المتعارف عند الناس جميعاً أنه لا يقع عصفور على سنبله إلا أمله ، وصور هذا المصور السنبله فنصبها قائمة لأميل فيها ، وأثبت العصفور فوقها منتصباً خطأ ، فصدق الأحذب ، ولم يُثبِّ صاحبها بشيء ، وقصدهم بهذا وشبهه الرياضة لمن يعمل هذه الأشياء ؛ ليضطرهم ذلك إلى شدة الاحتراز ، وإعمال الفكر فيما يصنعه كل واحد منهم بيده

ولأهل الصين أخبار عظيمة عجيبه ، ولبلادهم أخبار ظريفة سنوردها فيما يرد من هذا الكتاب جملاً وإن كنا قد أتينا على سائر الأخبار من ذلك في كتابنا « أخبار الزمان ، في الأمم الماضية والممالك الدائرة » وذكرنا في الكتاب الأوسط جملاً لم نتعرض لذكرها في كتاب « أخبار الزمان » وذكرنا في هذا الكتاب ما لم يتقدم ذكره في دينك الكتابين والله أعلم

ذكر جمل من الأخبار عن البحار

وما فيها وما حولها من العجائب والأمم
ومراتب الملوك وأخبار الأندلس وغير ذلك
ومعادن الطيب وأصوله وعدد أنواعه

قد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب جملاً من ترتيب البحار المتصلة والمنفصلة ؛ فلنذكر الآن في هذا الباب جملاً من أخبار ما اتصل بنا من البحر الحبشي والممالك والملوك ، وجملاً من ترتيبها ، وغير ذلك من أنواع العجائب فنقول : إن بحر الصين والهند وفارس واليمن متصلة مياهها غير منفصلة على ما ذكرنا ، إلا أن هيجانها وركودها مختلف ، لاختلاف مهابّ رياحها وآثار ثورانها وغير ذلك ، فبحر فارس تكثر أمواجه ، ويصعب ركوبه ، عند لين بحر الهند ، واستقامة ركوبه ، وقلة أمواجه ، ولين بحر فارس ، وتقل أمواجه ،

ويسهل ركوبه ، عند ارتجاج بحر الهند ، واضطراب أمواجه وظلمته ، وصعوبة مركبه ، فأول ما تبدىء صعوبة بحر فارس عند دخول الشمس السنبلة وقرب الاستواء الخريفي ، ولا يزال في كل يوم تكثر أمواجه إلى أن تصير الشمس إلى برج الحوت ، فأشد ذلك في آخر الخريف عند كون الشمس في القوس ، ثم يلين إلى أن تعود الشمس إلى السنبلة ، وآخر ما يكون ذلك في آخر الربيع عند كون الشمس في الجوزاء ، وبحر الهند لا يزال كذلك إلى أن تصير الشمس إلى السنبلة ، فيركب حينئذ ، وأهدأ ما يكون عند كون الشمس في القوس ، وبحر فارس يركب في سائر السنة من عمان إلى سيراف ، وهو ستون ومائة فرسخ ، ومن سيراف إلى البصرة ، وهو أربعون ومائة فرسخ ، ولا يتجاوز في ركوبه غير ما ذكرنا من هذين الموضعين ونحوهما ، وقد حكى أبو معشر المنجم في كتابه المترجم بالمدخل الكبير إلى علوم البحر ما ذكرنا من اضطراب هذه البحار وهدوئها عند كون الشمس فيما ذكرنا من البروج ، وليس يكاد يقطع من عمان نحو الهند في انتهائه إلا مركب معزز ، وحملته يسيرة ، سيما المراكب التي بعان ، فإنها إذا قطعت أرض الهند تحتاج إلى النباهة بذلك ببلاد الهند في هذا الوقت الذي تكون فيه السيارة ، وهو الشتاء ودوام الأمطار ، وكانون وشباط عندهم صيف ، وعندهم الشتاء كما يكون عندنا الحر في حزيران وتموز وآب ؛ فشتاؤنا صيفهم وصيفهم شتاؤنا^(١) ، وكذلك سائر مدن السند والهند وما اتصل بذلك إلى أقاصى هذا البحر ، ومن شتى في صيفنا بأرض الهند قيل : فلان شتى في أرض الهند : أى شتى هنالك ، وذلك لقرب الشمس وبعدها

والغوص على اللؤلؤ في بحر فارس ، وإنما يكون في أول نيسان إلى آخر أيلول ، وما عدا ذلك من شهور السنة فلا غوص فيه ، وقد أتينا فيما سلف من كتبنا على سائر مواضع الغوص في هذا البحر ، إذ كانت ما عداه من البحار

(١) لو قال « فشتاؤنا صيفهم وشتاؤهم صيفنا » لكان خيرا .

لا لؤلؤ فيه ، وهو خاص بالبحر الحبشى من بلاد حارك وقطن وعمان وسرنديب وغير ذلك من هذا البحر ، وقد ذكرنا كيفية تكون اللؤلؤ ، وتنازع الناس في تكونه ، ومن ذهب منهم إلى أن ذلك من المطر ، ومن ذهب منهم إلى أن ذلك من غير المطر ، وصفة صدف اللؤلؤ العتيق منه والحديث الذى يسمى بالحاور ، والمعروف بالبلبل ، واللحم فى الصدف والشحم ، وهو حيوان يفرغ ما فيه من اللؤلؤ والدر خوفاً من الغاصة ، كخوف المرأة على ولدها ، وقد أتينا على ذكر كيفية الغوص ، وأن الغاصة لا يكادون يتناولون شيئاً إلا السمك من اللحمان والتمر ، لا غيرها من الأقوات ، وما يلحتمهم ، وذكر شق أصول آذانهم لخروج النفس من هناك بدلاً عن المنخرين يجعل عليهما شئ من الدفل أو من القرن يضمهما كالمشقاص لا من الخشب ، وما يجعل فى آذانهم من القطن فيه شئ من الدهن ، فيعصر من ذلك الدهن اليسير فى الماء فى قعره ، فيضىء لهم بذلك فى البحر ضياء بينا ، وما يطلون به أقدامهم وشفاههم من السواد ، خوفاً من بلع دواب البحر إياهم ولنفورها من السواد ، وصياح الغاصة فى البحر كالكلاب ، وخرق الصوت الماء فيسمع بعضهم صياح بعض ، وللغواص واللؤلؤ وحيوانه أخبار عجبية ، وقد أتينا على جميع أوصاف ذلك وصفات اللؤلؤ وعلاماته وأثمانه ومقادير أوقاته فيما سلف من كتبنا ، فأول هذا البحر مما يلي البصرة والأبلة والبحرين من خشاب البصرة ، ثم بحر لاورى وعليه بلاد حمور وسريارة وثانيه وسندار وكسانه وغيرها من السند والهند ، ثم بحر مركيد ، ثم بحر كلاه مار ، وهو بحر كلة والجزائر ، ثم بحر كوريج ، ثم بحر الصنف ، وإليه يضاف العود الصنفى إلى بلاده ، ثم بحر الصين ، وهو بحر صيحو ليس بعده بحر ، فأول بحار فارس على ما ذكرنا خشاب البصرة ، والموضع المعروف بالكفلاء وهى علامات منصوبة من خشب فى البحر مغروسة علامات للمراكب إلى عمان مسافة ثلاثمائة فرسخ ، وعلى ذلك ساحل فارس وبلاد البحرين ، ومن عمان وقصبتها تسمى سنجار ، والفرس يسمونها مرون إلى

المسقط ، وهى قرية منها يستقى أرباب المراكب الماء من آبار هناك عذبة خمسون فرسخا ، ومن المسقط إلى رأس الجمجمة خمسون فرسخا ، وهذا آخر بحر فارس ، وطوله أربعمائة فرسخ ، هذا تحديد النوائى وأرباب المراكب ، ورأس الجمجمة جبل متصل ببلاد اليمن من أرض الشحر والأحقاف ، والرمل منه تحت البحر لا يدرى أين تنتهى غايته فى الماء ، فمن هنالك تنطلق المراكب إلى البحر الثانى وهو المعروف بلاورى ولا يدرى عمقه ولا يحصر طوله وعرضه عند البحرين ، وربما يقطع فى الشهرين والثلاثة وفى الشهر على قدر مهاب الريح والسلامة ، وليس فى هذه البحار - أعنى ما احتوى عليه البحر الحبشى - أكبر من هذا البحر بحر لاورى ، ولأشد ، وفى عرضه بحر الزنج وبلادهم ، وعنبر هذا البحر قليل ، وذلك أن العنبر أكثره يقع على بلاد الزنج وساحل الشحر من أرض العرب ، وأهل الشحر أناس من قضاة وغيرهم من العرب ، وهم مهرة ، ولغتهم بخلاف لغة العرب ، وذلك أنهم يجعلون الشين بدلا من الكاف ، مثال ذلك أن يقولوا : هل أشى فيما قلت كَشٍ ، وقلت لى أن تجعلى الذى معى فى الذى مَعَشٍ ، يريد هل لك فيما قلت لك ، وقلت لك أن تجعلى الذى معى فى الذى معك ، وغير ذلك من خطابهم ، ونوادركلامهم ، وهم ذوو فقر وفاقة ، ولهم نُجْبُ يركبونها بالليل تعرف بالنجب المهرية تشبه فى السرعة بالنجب البجاوية ، بل عند جماعة أنها أسرع منها ، يسرون عليها على ساحل بحرهم ، فإذا أحست هذه النجب بالعنبر قد قذفه البحر بركت عليه ، قد رِيضَتْ لذلك واعتادته ، فيتناولوه الراكب ، وأجود العنبر ما وقع فى هذه الناحية ، وإلى جزائر الرانج وساحله ، وهو المدور والأزرق البارز كبيض النعام أو دون ذلك ، ومنه ما يبلعه الحوت المعروف بالأفال المتقدم ذكره ، وذلك أن البحر إذا اشتد قذف من قعره العنبر كقطع الجبال ، وأصغر وأصغر ، على ما وصفنا ، فإذا ابتلع هذا الحوت العنبر قتله فيطفو فوق الماء ، ولذلك أناس يرصدونه فى القوارب من الزنج وغيرهم ، فيطرحون فيه الكلاليب والحبال ، فيشقون عن بطنه ويستخرجون

العنبر منه ، فما يخرج من بطنه يكون مسكا ، ويعرفه العطارون بالعراق وفارس والهند ، وما بقى على ظهر الحوت منه كان تقيا جيدا ، على حسب لبته فى بطن الحوت ، وبين البحر الثالث — وهو مركيد — والبحر الثانى — وهو لاورى — على ما ذكرنا جزائر كثيرة ، وهى قرى بين هذين البحرين ، ويقال : إنها نحو من ألفى جزيرة ، وفى قول الحق ألف وتسعمائة جزيرة كلها عامر بالناس ، وملكة هذه الجزائر كلها امرأة ، وبذلك جرت عادتهم فى قديم الزمان لا يملكهم رجل ، والعنبر يوجد فى هذه الجزائر أيضا ، يقذفه البحر ، ويوجد فى بحرها ، كأ كبر ما يكون من قطع الصخر ، وأخبرنى غير واحد من نواخذة السيرافين والعلمانيين بعمان وسيراف وغيرها من البحار ممن كان يختلف إلى هذه الجزائر أن العنبر ينبت فى قعر هذا البحر ، ويتكون كتكون أنواع الفطر : من الأبيض ، والأسود ، والكمأة ، والمعايد ، وبنات أوبر ، ونحوها ، فإذا هاج البحر واشتد قذف من قعره الصخور والأحجار وقطع العنبر ، وأهل هذه الجزائر متفقون ، وكلمتهم واحدة ، لا يحصرهم العد لكثرتهم ، ولا تحصى جيوش هذه المملكة عليهم ، وبين الجزيرة والجزيرة نحو الميل والفرسخ والفرسخين والثلاثة ، ونخلهم شجر النارجيل ، لا يتفقد من النخلة إلا التمر ، وقد زعم أناس ممن عنى بتوليدات الحيوان وتطعيم الأشجار أن النارجيل هو نخل المقل ، وإنما أثرت فيه تربة الهند حين غرس فيها فصار نارجيلا ، وإنما هو نخل المقل ، وقد ذكرنا فى كتابنا المترجم بالقضايا والتجارب ما تؤثره كل بقعة من بقاع الأرض وهوائها فى حيوانها من الناطقين وغيرهم ، وما تؤثر البقاع فى النامى من النبات ، وفيما ليس بنام ، كتأثير أرض الترك فى وجوههم وصغر أعينهم ، حتى أثر ذلك فى جاهلهم ، فقصرت قوائمها ، وغلظت رقابها ، وأبيض وبرها ، وأرض يأجوج ومأجوج فى صورهم ، وغير ذلك ، مما إذا تبينه ذوو المعرفة فى سكان الأرض من المشرق والمغرب وجدوه على ما ذكرناه ، وليس يوجد فى جزائر البحر أطف صنعة من

هذه الجزائر في سائر المهن والصنائع في الثياب والآلات وغير ذلك ، وبيوت أموال هذه الملكة الودع ، وذلك أن هذا الودع فيه نوع من الحيوان ، وإذا قل ما لها أمرت أهل هذه الجزائر أن يقطعوا من سعف نخل النارجيل بخصه ، ويطرحونه على وجه الماء ، فيتراكب عليه ذلك الحيوان ، فيجمع ويطرح على رمل الساحل ، فتحرق الشمس ما فيه من الحيوان ، ويبقى الودع خاليا مما كان فيه ، فتملأ من ذلك بيوت الأموال ، وهذه الجزائر تعرف جميعها بالديبحات ، ومنها يحمل أكثر الرانج ، وهو النارجيل ، وآخر هذه الجزائر جزيرة سرنديب ، ويلي جزيرة سرنديب جزائر أخر نحو من ألف فرسخ تعرف بالراملين معمورة وفيها ملوك وفيها معادن من ذهب كثيرة ، ويلها بلاد قيصور ، وإليها يضاف الكافور القيصوري ، والسنة التي تكون كثيرة الصواعق والبروق والجرف والقذف والزلازل يكثر فيها الكافور ، وإذا قل ذلك كان نقصانا في وجوده ، وأكثر ما ذكرنا من الجزائر غداؤهم النارجيل ، ويحمل من هذه الجزائر خشب البقم والخيزران والذهب ، وفيلتها كثيرة ، ومنها ما يأكل لحوم الناس ، وتتصل هذه الجزائر بالحابوس ، وهي أمم عجيبة الصور عراة يخرجون في القوارب عند اجتياز المراكب بهم ، معهم العنبر والنارجيل ، فيتعاوضون بالحرير وشيء من الثياب ، ولا يبيعون ذلك بالدرهم ولا بالدنانير ، وتليهم جزائر يقال لها أبرامان ، فيها أناس سود عجيبو الصورة والمنظر ، قدم الواحد منهم أكبر من الذراع ، لا مراكب لهم ، فإذا وقع الغريق إليهم مما قد انكسر في البحر أكلوه ، وكذلك فعلهم بالمراكب إذا وقعت إليهم ، وذكر لي جماعة من النواخذة أنهم ربما رأوا في هذا البحر سحابة أبيض قطعا صغارا يخرج منه لسان أبيض طويل حتى يتصل بماء البحر ، فإذا اتصل به علاه البحر ، وارتفعت منه زوابع عظيمة ، لا تمر زوابع منها بشيء إلا أتلفته ، ويمطرون عقيب ذلك مطرا سهكا فيه أنواع من قذى البحر وأما البحر الرابع فهو كلالهار ، على حسب ما ذكرنا ، وتفسير ذلك بحر كلة ،

وهو بحر قليل الماء ، وإذا قل ماء البحر كان أكثر آفات وأشد خبثا ، وهو كثير الجزائر والصراوى ، واحدها صرو ، وذلك أن أهل المراكب يسمون بحر الخليجين إذا كان طريقهم فيه الصرو ، وبهذا البحر أنواع من الجزائر والجمال عجيبة ، وإنما غرضنا التلويح بلمع من الأخبار عنها ، لا البسط وكذلك البحر الخامس المعروف بكردع ، فانه كثير الجبال والجزائر ، وفيه الكافور ، وهو قليل الماء ، كثير المطر ، لا يكاد يخلو منه ، وفيه أجناس من الأمم منهم جنس يقال له الفخت : شعورهم مقلقة ، وصورهم ومناظرهم عجيبة ، يتعرضون في قواربهم لطاف المراكب إذا اجتازت بهم ، ويرمون بنوع من السهام عجيبة قد سقيت السم ، وبين هذه الأمة وبين بلاد كلة جبال معادن الرصاص الأبيض وجبال من الفضة ، وفيها أيضا معادن من الذهب ، ورصاص لا يكاد يتميز منه ثم يليه بحر الصنف على ما رتبناه آتيا ، وفيه مملكة المهرج ملك الجزائر ، ومملكة لا يضبط كثرة ، ولا تحصي جنوده ، ولا يستطيع أحد من الناس في أسرع ما يكون من المراكب أن يمر بجزائره في سنين ، وقد حاز هذا الملك أنواع الأفاويه والطيب ، وليس لأحد من الملوك ماله ، ومما يحمل من بلاده ويجهز من أرضه الكافور والعود والقرنفل والصندل والجوز والبساسة والقاقلة والكبابة وغير ذلك مما لم نذكره ، وجزائره تتصل ببحر لا تدرك غايته ، ولا يعرف منتهاه مما يل بحر الصين ، وفي أطراف جزائره جبال فيها أمم كثيرة بيض ، آذانهم مخرمة ، ووجوههم كقطع التراس مطرقة ، يجزوف شعورهم كما يحجز الشعر من الزق مدرجا بدرج ، تظهر من جبالهم النار بالليل والنهار ، فهارها حمراء وبالليل تسود وتلحق بعنان السماء لعلوها وذهابها في الجو ، تقذف بأشد ما يكون من صوت الرعد والصواعق ، وربما يظهر منها صوت عجيب مفزع ينذر بموت ملكهم ، وربما يكون أخفض من ذلك فينذر بموت بعض رؤسائهم ، قد عرف ما ينذر من ذلك بطول العادات والتجارب على قديم الزمان ، وأن ذلك غير

مختلف ، وهذه أحد أطام الأرض الكبار ، وتليها الجزيرة التي يسمع منها على دوام الأوقات أصوات الطبول والسرنايات والعيدان وسائر أنواع الملاهي المطربة المستلذة ، ويسمع إيقاع الرقص والتصفيق ، ومن يسمع ذلك يميزه بين كل نوع من أصوات الملاهي وغيره ، والبحريون ممن اجتاز بتلك الديار يزعمون أن الدجال بتلك الجزيرة ، وفي مملكة المهرج جزيرة سريرة ، ومساقها في البحر نحو من أربعائة فرسخ ، عمائر متصلة ، وبه جزيرة الرانج والرامي وغير ذلك مما لا يؤتى على ذكره من جزائره وملكه ، وهو صاحب البحر السادس ، وهو بحر الصنف ثم البحر السابع وهو بحر الصين على مرتبناه آفا ، ويعرف ببحر صبحي ، وهو بحر خبيث كثير الموج والخب ، وتفسير الخب الشدة العظيمة في البحر ، وإما نخب عن عبارة أهل كل بحر وما يستعملونه في خطابهم ، وفيه جبال كثيرة لا بد المراكب من النفوذ بينها ، ثم إن ذلك البحر إذا عظم خبه وكثر موجه ظهرت أشخاص سود طول الواحد منهم نحو الخمسة أشبار أو الأربعة كأنهم أولاد الأحابش الصغار ، شكلا واحداً ، وقدوا واحداً ؛ فيصعدون على المراكب ، ويكثر منهم الصعود من غير صور ، فإذا شاهد الناس ذلك تيقنوا الشدة ، وظهورهم علامة للخب ، فيستعدون لذلك : فمعافى ، ومبتلى ، فإذا كان كذلك ربما شاهد المعافى منهم في أعلى الدقل - وتسميه أرباب المراكب في بحر الصين وغيره في البحر الحبشي الدولي ، ويسميه الرجال في البحر الرومي الصاري - شيئاً على صورة الطائر يتوقد نوراً لا يستطيع الناظر منهم على ملء بصره منه ، ولا إدراكه كيف هو ، فإذا استقل على أعلى الدقل يرون البحر يهدأ ، والأمواج تصغر ، والخب يسكن ، ثم إن ذلك النور يفقد ، فلا يرى كيف أقبل ، ولا كيف ذهب ، فذلك علامة الخلاص ، ودليل النجاة ، وما ذكر فلا تنكر فيه عند أهل البصرة وسيراف و عمان وغيرهم ممن قطع هذا البحر ، وما ذكرناه عنهم فممكن غير ممتنع ولا واجب ؛ إذ كان جائزاً في مقدور الباري جل وعز خلاص عباده من الهلاك

واستنقاذهم من البلاء ، وفي هذا البحر نوع من السراطين يخرج من البحر كالذراع والشبر وأصغر من ذلك وأكبر ، فإذا بان عن الماء بسرعة حركة وصار على البر صار حجارة وزالت عنه الحيوانية ، وتدخل تلك الحجارة في أكحال العين وأدويتها ، وأمره مستفيض أيضا ، ولبحر الصين أيضا - وهو السابع المعروف بصبحي - أخبار عجيبة ، وقد أتينا على جمل من أخباره وأخبار ما اتصل به من البحار فيما سمينا من كتبنا وأسلمنا من تصنيفنا في هذا المعنى ، ونحن ذاكرون فيما يرد من هذا الكتاب من أخبار الملوك جوامع وجملا من ذلك

وليس بعد بلاد الصين مما يلي البحر ممالك تعرف ولا توصف ، إلا بلاد السلي وجزائرها ، ولم يصل إليها من الغرباء أحد من العراق ولا غيره ، فخرج منها ؛ لصحة هوائها ، ورقة مائها ، وجودة تربتها ، وكثرة خيرها ، وصفاء جواهرها ، إلا النادر من الناس ، وأهلها مهادنون لأهل الصين وملوكها ، والهدايا بينهم لا تكاد تنقطع ، وقد قيل : إنهم تشعبوا من ولد عابور ، وسكنوا هناك ، على حسب ما ذكرنا من سكنى أهل الصين في بلادهم ، وللصين أنهار كبار مثل الدجلة والفرات تجري من بلاد الترك والتبت والصغد ، وهى بين بخارى وسمرقند ، وهناك جبال النوشادر ، فإذا كان في الصيف رؤيت في الليل نيران قد ارتفعت من تلك الجبال من نحو مائة فرسخ بالنهار يظهر منها الدخان عليه شعاع الشمس وضوء النهار ، ومن هناك يحمل النوشادر فإذا كان في أول الشتاء من أراد من بلاد خراسان أن يسلك إلى بلاد الصين صار إلى ما هناك ، وهناك واد بين تلك الجبال طوله أربعين ميلا أو خمسون ، فيأتي إلى أناس هناك على فم الوادى فيرغبهم في الأجرة النفيسة فيحملون مامعه على أكتافهم ، وبأيديهم العصي يضربون جنبه خوفا أن يلج أو يقف فيموت من كرب الوادى وهوله ، حتى يخرجوا إلى ذلك الرأس من الوادى ، وهناك غابات ومستنقعات للماء ، فيطرحون

أنفسهم في ذلك الماء ، لما قدنا لهم من شدة الكرب وحر النوشادر ، ولا يسلك ذلك الطريق شيء من البهائم ؛ لأن النوشادر يلهب نارا في الصيف ، فلا يسلك ذلك الوادى داع ولا محجب ، فاذا كان الشتاء وكثرت الثلوج والأنداء وقع في ذلك الموضع فأطفأ حر النوشادر وهيبه ، فسلك الناس حينئذ ذلك الوادى ، والبهائم لا صبر لها على ما ذكرناه من حره ، وكذلك من ورد من بلاد الصين فعل به كذلك من الضرب ما فعل بالماضى ، والمسافة من بلاد خراسان على الموضع الذى ذكرناه إلى بلاد الصين نحو من أربعين يوما عامر وغير عامر ودهاس ورمسل ، وفي غير هذه الطريق مما يسلكه البهائم نحو من أربعة أشهر ، إلا أن ذلك في خفارات أنواع من الترك ، وقد رأيت بمدينة بلخ شيخا جميلا ذا رأى وفهم وقد دخل الصين مرارا كثيرة ولم يركب البحر قط ، ورأيت عدة من الناس ممن سلك على جبال النوشادر إلى أرض التبت والصين ببلاد خراسان والسند مما يلي بلاد المنصورة والمولتان ، والقوافل متصلة من السند إلى خراسان ، وكذلك إلى الهند إلى أن تتصل هذه الديار ببلاد رابستان ، وهى بلاد واسعة تعرف بمملكة فيروز ابن كبك ، وفيها قلاع عجبية ممتعة ، ولغات مختلفة ، وأمم كثيرة ، وقد تنازع الناس في أنسابهم : فمنهم من ألحقهم بولد يافت بن نوح ، ومنهم من ألحقهم بالفرس الأولى في نسل طويل ، وبلاد التبت مملكة متميزة من بلاد الصين ، والغالب عليهم حمير ، وفيهم بعض التبابعة على حسب ما ذكرنا من أخبار ملوك الصين فيما يرد من هذا الكتاب ، وذلك موجود في أخبار التبابعة ، ولهم حصص وبدو ، وبواديهم ترك لا تدرك كثرة ، ولا يقاومهم أحد من بوادى الأتراك ، وهم معظمون في سائر أجناس الترك ؛ لأن المالك كان منهم في قديم الزمان ، وعند سائر أجناس الترك أن الملك سيعود إليهم ويرجع فيهم ، وبلاد التبت خواص عجبية في هوائها وسهالها ومائها وجبلها ، ولا يزال الانسان أبدا بها ضاحكا فرحا مسرورا ، لا تعرض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار ، ولا تحصى عجائب ثمارها وزهرها

ومروجها وهوائها وأنهارها ، وهى بلاد تقوى فيها طبيعة الدم على الحيوان الناطق وغيره ، ولا يكاد يرى فى هذا البلد شيخ حزين ولا عجوز ، بل الطرب فى الشيوخ والكهول والشباب والأحداث عام ، وفى أهلها رقة طبع ، وبشاشة وأريحية تبعث على كثرة استعمال الملاهى وأنواع إيقاع الرقص ، حتى إن الميت إذا مات لا يكاد يداخل أهله عليه كثير من الحزن مما يلقى غيرهم من سائر الناس عند فقد محبوب أو فوت مطلوب ، ولهم تحن كثير من بعضهم على بعض ، والتتيم فيهم عام ، وكذلك يظهر فى سائر بلادهم ، وهذه البلاد تسمى بمن ثبت فيها ورتب من رجال حمير فقتيل ثبت^(١) ثبوتهم فيها ، وقيل : لمعان غير ذلك ، والأشهر ما وصفنا ، وقد افتخر دعبل بن على الخزاعى بذلك فى قصيدته التى يناقض فيها الكميت ويفخر بقحطان على نزار ، فقال : —

وَهُمْ كَتَبُوا الْكِتَابَ بِيَابِ مَرَوْ * وَبَابِ الصِّينِ كَأَنَّا الْكَاتِبِينَ

وهم سموا السهام بسمرقند * وهم غرسوا هناك التبتينا
وسندكر فى باب أخبار ملوك اليمن طرفا من أخبار ملوكهم ، ومن طاف منهم البلاد ، وبلاد التبت متاخمة لبلاد الصين ، وأرضها من إحدى جهاته ، ولأرض الهند وخراسان ولفاوز الترك ، ولهم مدن وعماير كثيرة ذوات منعة وقوة ، وقد كانوا فى قديم الزمان يسمون ملوكهم تَبَعًا لاتباع اسم تبع ملك اليمن ، ثم إن الدهر ضرب ضرباته ، فتغيرت لغاتهم عن الحميرية ، وحالت إلى لغة تلك البلاد ممن جاورهم من الأمم فسموا ملوكهم بخاقان ، وفى بلادهم الأرض التى بها طباء المسك التبتى الذى يفضل على الصينى بجهتين : إحداهما أن طباء التبت ترعى سنبل الطيب وأنواع الأقاوية وطباء الصين ترعى الحشيش دون ما ذكرنا من أنواع حشائش الطيب التى ترعاه التبتية ، والجهة الأخرى أن أهل التبت لا يتعرضون إلى إخراج المسك من نواخه ويتركونه على ما هو به وأهل الصين يخرجونه من النوافج ويلحقه الغش بالدم وغيره من أنواع الغش ، وإن الصينى أيضا يقطع به ما وصفنا من مسافة

(١) اسم البلاد تبت — بالتاء المشناة — ولكن هذا الاشتقاق يجعلها بالتاء المثناة

البحار وكثرة الأنداء واختلاف الأهوية . وإن عدم من أهل الصين الغش في مسكهم ، وأودع براني الزجاج وأحكم ، وأورد إلى بلاد الإسلام من عمان وفارس والعراق وغيرها من الأمصار ؛ كان كالتبتي ، وأجود المسك وأطيبه ما خرج من الظباء بعد بلوغه النهاية في النضج ، وذلك أنه لا فرق بين غزلاننا هذه وبين غزلان المسك في الصورة والشكل واللون والقرن ، وإنما تتبين تلك بأنياب لها كأنياب القيلة ، لكل ظبي نابان خارجان من الفكين قائمان منتصبان نحو الشبر وأقل وأكثر ، فتنصب لها في بلاد التبت والصين الجبال والأشراك والشباك فيصطادونها ، وربما رموها بالسهم فيصرعونها فيقطعون عنها نوافجها . والدم في سررها حار لم ينضج وطرى لم يدرك ، فيكون لريحتها سهوكة ، فيبقى زمانا حتى تزول منه تلك الرائحة الكريهة ، ويستحيل بمواد من الهواء فيصير مسكا ، وسبيل ذلك سبيل الثمار إذا أئينت عن الأشجار وقطعت قبل استحكام نضجها في شجرها واستحكام موادها فيه ، وخير المسك ما نضج في وعائه ، وأدرك في سره ، واستحکم في حيوانه ، وتام مواده في ذلك أن الطبيعة تدفع مواد الدم إلى السر ، فاذا استحکم كون الدم فيه ونضج آذاه ذلك وحكه ، فيفرغ حينئذ إلى أحد الصخور والأحجار الحارة من حر الشمس فيحتك بها مستلذا بذلك ، فينفجر حينئذ ويسيل على تلك الأحجار كأنفجار الخراج والدمل ، ونضج ما فيه عند ترادف المواد عليه ، فيجد لخروجه لذة ، فاذا فرغ ما في نافجته اندمل حينئذ ، ثم اندفعت إليه مواد من الدم ، ويجتمع ثانية ككونه بدءا ، فتخرج رجال التبت يقصدون مراعيها بين تلك الأحجار والجبال ، فيجدون الدم قد جف على تلك الصخور والأحجار ، وقد أحكمته المواد ، وأنضجته الطبيعة في حيوانه ؛ وجففته الشمس ، وأثر فيه الهواء ، فيأخذونه ، فذلك أفضل المسك ، فيودعونه نوافج معهم قد أخذوها من غزلان قد اصطادوها مستعدة معهم ، فذلك الذي تستعمله ملوكهم ، ويتهادونه بينهم ، ويحمله التجار في النادر من بلادهم ،

والثبت ذو مدن كثيرة ، فيضاف مسك كل ناحية إليها ، رقد انتقادت إلى ملكه
ملوك الصين والترك والهند والزنج وسائر ملوك العالم ، وإن منزلته فيها كمنزلة القمر
في الكواكب ، لأن إقليمه أشرف الأقاليم ، ولأنه أكثر الملوك مالا ، وأحسنهم
طبعاً ، وأكثرهم سياسة ، وأثبتهم قدما ، وهذا وصف ملوك هذا الإقليم فيامضى
إلى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، وكانوا يلقبون هذا الملك شاه
وتفسيره ملك الملوك ، ومنزلته في العالم منزلة القلب من جسد الانسان ، والواسطة
من القلادة ، ثم يتلوه ملك الهند ، وهو ملك الحكمة ، وملك القبيلة ؛ لأن عند
ملوك الأكابر أن الحكمة من الهند بدوها ، ثم يتلوه في المرتبة ملك الصين ،
وهو ملك الرعاية والسياسة وإتقان الصنعة ، وليس في ملوك العالم أكثر رعاية
وتفقدا من ملك الصين لرعيته من جنده وعوامه ، وهو ذو بأس شديد ، وقوة
ومنعة ، له الجنود المستعدة ، والكرع والسلاح ، ويرزق جنده كفعل ملوك بابل ؛
ثم يتلو ملك الصين ملك من ملوك الترك صاحب مدينة كوسان ، وهو ملك
الطغرغر من الترك ، ويدعى ملك السباع وملك الخيل ؛ إذ ليس في ملوك العالم
أشد بأسا من رجاله ، ولا أشد استسادا منه على سفك الدماء ، ولا أكثر حيلة
منه ، ومملكته فرز بين بلاد الصين ومفاوز خراسان ، ويدعى بالاسم الأعم
أبرجان ، ولترك ملوك كثيرة ، وأجناس مختلفة ، ولا تنقاد إلى ملكه ، إلا أنه
ليس فيها من يداني ملكه ، ثم ملك الروم ، ويدعى ملك الرجال ، وليس في
ملوك العالم أصبح وجوها من رجاله ، ثم إن ملوك العالم تتفاوت مراتبها ولا
تتساوى ، وقد قال ذو عناية بأخبار العالم وملوكهم في شعره يصف جملا من
مراتب ملوك العالم وممالكهم وأسمائهم

الدار داران :	إيوان وغمدان
والأرض فارس ، والإقليم بابل ، وال	والمالك ملكان : ساسان وقحطان
والجانبان العليان اللذان حسنا	إسلام مكة ، والدنيا خراسان
	منها بخارى وبكخ الشاهد أران

والبيلقان وطبرستان مآدرها ، والصين سروانها ، والجيل جيلان
قد رتب الناس فيها في مراتبهم فمر زبان ، وبطريق ، وطرخان
للفرس كسرى ، وللروم القياصر ، والأتراك خاقان

وصاحب صقلية وإفريقية من بلاد المغرب قبل ظهور الاسلام كان يدعى
جرجير ، وصاحب الأندلس كان يدعى لزريق ، هذا كان اسم ملوك الأندلس ،
وقد قيل : إنهم كانوا من الأسنان ، وهم أمة من ولد يافث بن نوح ، واتصلت
هنالك ، والأشهر عند من سكن الأندلس من المسلمين أن لزريق كان من ملوك
الأندلس الجالقة ، وهم نوع من الإفرنجية ، وأخو لزريق الذي كان بالأندلس قتله
طارق مولى موسى بن نصير حين افتتح بلاد الأندلس ودخل إلى مدينة طليطلة ،
وكانت قسبة الأندلس ، ودار مملكتهم ، ويشقها نهر عظيم يدعى ناحية يخرج من
بلاد الجالقة والوسكيد ، وهى أمة عظيمة لهم ملوك ، وهم حرب لأهل الأندلس
كالجالقة والإفرنجية ، ويصب هذا النهر فى البحر الرومى ، وهو موصوف بأنه من
أنهار العالم ، وعليه على بعد من طليطلة قنطرة عظيمة تدعى قنطرة السيف بنها
الملوك السافقة ، وهى من البنيان المذكور الموصوف أعجب من قنطرة سنجة من
الغفر الخرزى مما يلى سميساط من بلاد سرحة ، ومدينة طليطلة ذات منعة ، وعليها
أسوار منيعة ، وأهلها بعد أن فتحت وصارت لبنى أمية قد كانوا عَصَوَ على الأمويين
فأقامت مدة سنين ممتعة ، لا سبيل للأمويين إليها ؛ فلما كان بعد الخمس عشرة
وثلاثمائة فتحها عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن
عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وعبد الرحمن
هذا هو صاحب الأندلس فى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ؛ وقد كان
غير كثيرا من بنيان هذه المدينة حين افتتحها ، وصارت دار مملكة الأندلس قرطبة
إلى هذا الوقت ، ومن قرطبة إلى مدينة طليطلة نحو من سبع مراحل ، ومن قرطبة
إلى البحر مسيرة نحو من ثلاثة أيام ، ولهم على بحر تونس من الساحل مدينة يقال

لها إشبيلية ، و بلاد الأندلس مسيرة عمارها ومدنها نحو من شهرين ، ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة ، وتدعى بنو أمية الخلائف ، ولا يخاطبون بالخلفاء ، لأن الخلافة لا يستحقها عندهم إلا من كان مالكا للحرمين ، غير أنه يخاطب بأمير المؤمنين

وقد كان عبد الرحمن بن معاوية أو هشام بن عبد الملك بن مروان سار إلى الأندلس في سنة تسع وثلاثين ومائة فلما كان ثلاثين سنة وأربعة أشهر ، ثم هلك فلما كان ابنه هشام بن عبد الرحمن سبع سنين ، ثم ملكها ابنه الحكم بن هشام نحو من عشرين سنة ، وولده ولاتها إلى اليوم على ما ذكرنا أن صاحبها عبد الرحمن بن محمد ، وولى عبد الرحمن في هذا الوقت فتاه الحكم وكان أحسن الناس سيرة ، وأجملهم عدلا ، وقد كان عبد الرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت المقدم ذكره غزا سنة سبع وعشرين وثلثمائة في أزيد من مائة ألف فارس من الناس ، فنزل على دار مملكة الجلائقة ، وهي مدينة يقال لها سمورة ، عليها سبعة أسوار من عجيب البنيان قد أحكمتها الملوك السالفة ، بين الأسوار فصالان وخنادق ومياه واسعة ، فافتتح منها سورين ، ثم إن أهلها ثاروا على المسلمين ، فقتلوا منهم — ممن أدرك الإحصاء ومن عرف — أربعين ألفا ، وقيل : خمسين ألفا ، وكانت للجلائقة والوسكيد على المسلمين ، وآخر ما كان بأيدي المسلمين من مدن الأندلس وتغورها مما يلي الإفرنجية مدينة أربونة ، خرجت عن أيدي المسلمين من مدائن الأندلس وتغورها سنة ثلاثين وثلثمائة مع غيرها مما كان في أيديهم من المدن والحصون ، وبقى ثغر المسلمين في هذا الوقت — وهو سنة ست وثلاثين وثلثمائة — من شرق الأندلس طرطوشة ، وعلى ساحل بحر الروم مما يلي طرطوشة آخذا في الشمال أفراعة على نهر عظيم ، ثم لا ردة ، ثم بلغني عن هذه الثغور أنها تلاقى الإفرنجية ، وهي أضيق مواضع الأندلس ، وقد كان قبل الثلثمائة ورد إلى الأندلس مراكب في البحر فيها ألوف من الناس أغارت على سواحلهم ، زعم أهل الأندلس

أنهم ناس من المجوس تطراً إليهم في هذا البحر في كل مائتين من السنين ، وأن وصولهم إلى بلادهم من خليج يعترض من بحر أوقيانوس ، وليس بالخليج الذي عليه المنارة النحاس ، وأرى والله أعلم أن هذا الخليج متصل ببحر مانطش ونيطش ، وأن هذه الأمة هم الروس الذين قدمنا ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب ؛ إذ كان لا يقطع هذه البحار المتصلة ببحر أوقيانوس غيرهم ، وقد أصيب في البحر الرومي فيما بين جزيرة أقریطش ألواح المراكب الساج المنقبة الخيطة بليف النار جيل من مراكب قد عطبت تقاذفت بها الأمواج في مياه البحار ، وهذا لا يكون إلا في البحر الحبشي ؛ لأن مراكب البحر الرومي والغربي كلها بالمسامير ، ومراكب الحبش لا يثبت فيها الحديد ؛ لأن ماء البحر يذيب الحديد فتدق المسامير في الألواح وتضعف ، فاتخذ أهلها الخيطة بالليف بدلا منها ، وطُلِيتْ بالشحوم والنورة ، فهذا يدل — والله أعلم — على اتصال البحار وأن البحر مما يلي الصين وبلاد السلي يدور على بلاد الترك ، ويفضى إلى بحار المغرب من بعض خلجان أوقيانوس المحيط

وقد كان وجد بساحل بلاد الشام عنبر قذف به البحر ، وهذا من المستنكر في البحر الرومي الذي لم يعهد فيه في قديم الزمان مثل ذلك ، ويمكن أن يكون سبيل وقوع العنبر إلى هذا البحر سبيل ما ذكرناه من ألواح مراكب البحر الصيني ، والله أعلم بكيفية ذلك وعلمه

ولبحر المغرب وما قرب منه من عمائر السودان وأقصى أرض المغرب أخبار عجيبة .

وقد ذكر ذوو العناية بأخبار العالم أن أرض الحبشة وسائر السودان كلها مسيرة سبع سنين ، وأن أرض مصر جزء واحد من ستين جزءا من أرض السودان ، وأن أرض السودان جزء واحد من الأرض كلها ، وأن الأرض كلها مسيرة خمسمائة سنة : ثلث عمران مسكون مأهول ، وثلث برارى غير مسكون ، وثلث بحار ،

وتتصل أقاصى السودان العراة بآخر بلاد ولد إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام من أرض المغرب ، وهي بلاد تنيس وتاهرت وبلاد فاس ، ثم السوس الأدنى وبينه وبين بلاد القيروان نحو ألفي ميل وثلاثمائة ميل ، وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى من المسافة نحو من عشرين يوما عمائر متصلة إلى أن تتصل بوادى الرمل والقصر الأسود ، ثم يتصل ذلك بمفاوز الرمل التى فيها المدينة المعروفة بمدينة النحاس وقباب الرصاص التى سار إليها موسى بن نصير فى أيام عبد الملك بن مروان ورأى فيها ما رأى من العجائب ، وقد ذكر ذلك فى كتاب يتداوله الناس ، وقد قيل : إن ذلك فى مفاوز تتصل ببلاد الأندلس ، وهي الأرض الكبيرة ، وقد كان ميمون ابن عبد الرحمن بن رستم الفارسى — وهو أباضى المذهب ، وهو الذى أنشأ فى ذلك البلد مذهب الخوارج ، وقد قيل : إنهم من بقايا الأسنان — عمر تلك الديار ، وكانت له حروب مع الطالبين ، وقد ذكرنا فيما يرد من هذا الكتاب تنازع الناس فى الأسنان ، ومن قال إنهم من الفرس نازلة من بلاد أصبهان

وفى هذا الصقع من بلاد المغرب خلق من الصفرية الخوارج لهم مدن ممدودة مثل مدينة بدعية ، وفيها معدن كبير من الفضة ، وهو مما يلى الجنوب ويتصل ببلاد الحبشة ، والحرب بينهم سجال ، وقد ذكرنا فى كتابنا « أخبار الزمان » خبر المغرب ومدنه ، ومن سكنها من الخوارج الأباضية والصفرية ، ومن سكن المغرب من المعتزلة ، وما بينهم وبين الخوارج من الحروب ، وذكرنا خبر الأغلب التميمى وتولية المنصور له على المغرب ، ومقامه ببلاد أفريقية وغيرها من أرض المغرب ، وما كان من أمره فى أيام الرشيد ، وتداول ولده ببلاد أفريقية وغيرها إلى أن انتهى الأمر إلى أبى منصور زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن محمد بن الأغلب بن سالم بن سودة فأخرجه عنها أبو عبد الله المحتسب الصوفى الداعية لصاحب المهديّة حين ظهر من كتامة وغيرها

المعتزلة
سكنوا
المغرب

الفاطمية

من أجيال البربر ، وذلك في سنة سبع وتسعين ومائتين في أيام المقتدر ، ومسيره إلى الرافقة والركة ، وكان هذا المحتسب من مدينة رامهرمز من كور الأهواز ونعود إلى ذكر مراتب الملوك ونسّق ما بقي من الممالك على البحر الحبشي الذي شرعنا في وصف من عليه ، فنقول :

ملك الزنج وقليمان ، ملك اللان كركبداخ ، ملك الخيرة من بني نصير النعمانية والماذرة ، ملك جبال طبرستان كان يدعى فارس ، والجبل معروف به وبولده في هذا الوقت ، ملك الهند الباهرا ، ملك القنوج من ملوك السند فرورة وهو اسم بلد باسم ملوكهم ، وقد صارت اليوم في حيز الاسلام وهي من أعمال المولتان ، ومن هذه المدينة يخرج أحد الأنهار التي إذا اجتمعت كان نهر « مهران السند » الذي زعم الجاحظ أنه من النيل ، وزعم غيره أنه من جيحون خراسان ، وفرورة هذا الذي هو ملك القنوج هو ضد الباهرا ملك القندهار من ملوك السند وجبالها ، ويدعى ججج ، وهذا اسمه الأعم ، ومن بلاده يخرج النهر المعروف « بزايد » وهو أحد الأنهار الخمسة التي منها مهران السند والقندهار ببلاد الدهبوط ، ونهر من الخمسة يخرج من بلاد السند وجبالها يعرف « بنهاطل » ويختار ببلاد الدهبوط ، وهي بلاد القندهار ، والنهر الرابع يخرج من بلاد كابل وجبالها وهي تخوم الهند مما يلي بلاد بسيط وعرس ونفس والرخج وبلاد الدوار مما يلي بلاد سبستان ، ونهر من الخمسة يخرج من بلاد قشمير ، وملك قشمير يعرف بالرائي هذا الاسم الأعم لسائر ملوكهم ، وقشمير هذه من ممالك الهند وجبالها مملكة عظيمة حصينة يحتوى ملكها من مدن وضياع على نحو من ستين ألفا إلى سبعين ألفا ، لاسبيل لأحد من الناس على بلده إلا من وجه واحد ، ويغلق على جميع ما ذكرناه من ملكه باب واحد ؛ لأن ذلك في جبال شوامخ منيعة لاسبيل للرجال أن يتسلقوا عليها ، ولا للوحش أن يلحق بعلوها ، ولا يالحقها إلا الطير ، وما لاجل فيه فأودية وعرة وأشجار وغياض وأنهار ذات منعة من شدة

الانصباب والجريان ، وما ذكرنا من منعة ذلك البلد فمشهور في أرض خراسان وغيرها من البلاد ، وذلك أحد عجائب الدنيا ، فأما ملك فرورة - وهو ملك القنوج - فإن مسافة مملكته تكون نحواً من عشرين ومائة فرسخ في مثلها فراسخ سنديّة الفرسخ ثمانية أميال بهذا الميل ، وهو الملك الذي قدمنا في ذكره فيما سلف أن له من الجيوش أربعة على مهاب الرياح الأربع ، كل جيش منها سبعمائة ألف ، وقيل : تسعمائة ألف ، وقيل : تسعة آلاف ألف ، فيحارب بجيش الشمال صاحب المولتان ومن معه في تلك الثغور من المسلمين ، ويحارب بجيش الجنوب البهرا ملك المانكير ، وبالجيوش الباقية من يلقاه في كل وجه من الملوك ، ويقال : إن ملكه يحيط في مقدار ما ذكرناه من المسافة من المدن والقرى والضياع مما يدركه الإحصاء والعدد بألف ألف وثمانمائة ألف قرية بين أنهار وشجر وجبال وصروج ، وهو قليل الفيلة من بين الملوك ، ورسمه ألفا فيل حربية تقاتل ، وذلك أن الفيل إذا كان فارها ممارساً شجاعاً وكان رآكبه فارساً في خرطومه القرطل - وهو نوع من السيوف - وخرطومه مغشى بالزرد والحديد ، وعليه تحافيف قد أحاطت سائر جسده من الفرق والحديد ، وكان حوله خمسمائة رجل يمنعونه ويحرسونه من ورأه ؛ حارب ستة آلاف فارس ، وقام بها ، وأدناها إذا كان معه خمسمائة رجل ، كرفي خمسة آلاف فارس ودخل وخرج وصال عليها كالرجل على الفرس ، وهذا رسم فيلته في سائر حروبها ؛ فأما صاحب المولتان فقد قلنا : إنه من ولد سامة بن لؤي بن غالب ، وهو ذو جيوش ومنعة ، وهو ثغر من ثغور المسلمين الكبار ، وحول ثغر المسلمين المولتان من ضياعه وقراه عشرون ومائة ألف قرية مما يقع عليه الإحصاء والعد ، وفيه على ما ذكرنا الضم المعروف بالمولتان ، يقصده السند والهند من أقاصي بلادهم بالنذور والأموال والجواهر والعود وأنواع الطيب ، ويحج إليه الألوف من الناس ، وأكثر أموال صاحب المولتان مما يحمل إلى هذا الضم من العود القماري الخالص الذي يبلغ ثمن الأوقية منه مائة دينار ، وإذا ختم

بالخاتم أثر فيه كما يؤثر في الشمع ، وغير ذلك من العجائب التي تحمل إليه ، وإذا
نزلت الملوك من الكفار على المولتان وعجز المسلمون عن حربهم هددوهم بكسر
هذا الصنم وتعويره ، فترحل الجيوش عنهم عند ذلك ، وكان دخولى إلى بلاد
المولتان بعد الثلاثمائة ، والملك بها أبو الدلائث المنبه بن أسد القرشى ، وكذلك
كان دخولى إلى بلاد المنصورة في هذا الوقت ، والملك عليها أبو المنذر عمر بن
عبد الله ، ورأيت بها وزيره زيادا وابنيه محمدا وعليا ، ورأيت بها رجلا سيداً
من العرب وملكا من ملوكهم وهو المعروف بحمزة ، وبها خلق من ولد على بن
أبي طالب رضى الله عنه ، ثم من ولد عمر بن على ولد محمد بن على ، وبين ملوك
المنصورة وبين أبي الشوارب القاضى قرابة ووصلة نسب ، وذلك أن ملوك المنصورة
الذين الملك فيهم في وقتنا هذا من ولد هبَّار بن الأسود ويعرفون ببنى عمر بن
عبد العزيز القرشى ، وليس هو عمر بن عبد العزيز الأموى ، فاذا اجتاز جميع
ما ذكرنا من الأنهار ببلاد مرج بيت الذهب - وهو المولتان - فاجتمع بعد
المولتان بثلاثة أيام فيما بين المولتان والمنصورة في الموضع المعروف بدوسات ، ثم
انتهى جميع ذلك إلى مدينة الروذمن غربها ، وهى من أعمال المنصورة ؛ سُمي ما هنالك
مهران ، ثم ينقسم قسمين وينصب كل من القسمين من هذا الماء العظيم المعروف
بمهران السند في مدينة شاكركرة من أعمال المنصورة في البحر الهندي ، وذلك على مقدار
يومين من مدينة الديبل ، والمسافة من المولتان إلى المنصورة خمسة وسبعون فرسحا
سندية على ما ذكرنا ، والفرسخ ثمانية أميال ، وجميع ما للمنصورة من الضياع والقرى
مما يضاف إليها ثلثمائة ألف قرية ذات زروع وأشجار وعماير متصلة ، وفيها حروب
كثيرة من جنس يقال لهم السند ، وهم نوع من السند وغيرهم من الأحابش ، ثم
ثغر السند ، وكذلك المولتان من ثغور السند وما أضيف إليها من العماير والمدن ،
وسميت المنصورة باسم منصور بن جمهور عامل بنى أمية ، وملك المنصورة فيسلة
حربية ، وهى ثمانون فيسلا رسم كل فيل أن يكون حوله على ما ذكرنا خمسمائة

راجل ، وأنه يحارب ألؤفا من الخيل على ما ذكرنا ، ورأيت له فيلين عظيمين
كانا موصوفين عند ملوك السندوالهند لما كانا عليه من البأس والنجدة والاقدام
على قتل الجيوش ، كان اسم أحدهما « منعرفلس » والآخر « حيدرة » ولمعرفلس
هذا أخبار عجيبة ، وأفعال حسنة ، وهى مشهورة فى تلك البلاد وغيرها : منها
أنه مات بعض سواسه ، فمكت أياما لا يطعم ولا يشرب ، يبدى الحنين ، ويظهر
الأنين ، كالرجل الحزين ، ودموعه تجرى من عينيه لا تنقطع ، ومنها أنه خرج
ذات يوم من حائرة ، وهى دار القبيلة ، وحيدرة وراءه وباقي الثمانين تبع لها ،
فانتهى منعرفلس فى سيره إلى شارع قليل العرض من شوارع المنصورة ، ففاجأ
فى مسيره امرأة على حين غفلة ، فلما بصرت به دهشت واستلقت على قفاها من
الجزع ، وانكشفت عنها أطرافها فى وسط الطريق ، فلما رأى ذلك منعرفلس
وقف بعرض الشارع مستقبلا بجانبه الأيمن من وراءه من القبيلة مانعا لهم من
النفوذ من أجل المرأة ، وأقبل يشير إليها بخروطه بالقيام ، ويجمع عليها أثوابها ،
ويستر منها ما بدا ، إلى أن انتقلت المرأة وترحزحت عن الطريق ، بعد أن عاد
إليها روحها ، فاستقام الفيل فى طريقه ، واتبعه القبيلة ، وللقبيلة أخبار عجيبة الخريبة
منها والعامة ؛ لأن منها ما لا يحارب فيجر العجل وتحمل عليه الأثقال ويستعمل
فى دياس الأرز وغيره من الأقوات كدوس البقر فى البيدر ، وسنذكر فيما يرد
من هذا الكتاب أخبار الزنج والقبيلة ، وكونها فى بلادها ، وليس فى سائر الممالك
أكثر منها فى بلاد الزنج ، وهى وحشية هنالك ، فهذه جمل من أخبار ملوك السند
والهند ، ولغة السند خلاف لغة الهند ، والسند مما يلي الاسلام ، ثم الهند ، ولغة
أهل المانكير - وهى دار مملكة البلهر - أكثرها مضافة إلى الصقع ، وهى كبيرة
ولغة ساحله مثل صيمور وسوماره ومايه وغير ذلك من مدن الساحل مثل لاروى
وبلدهم مضافة إلى البحر الذى هم عليه ، وهو لاروى ، وقد تقدم ذكره فيما سلف
من هذا الكتاب ، وبهذا الساحل أنهار عظيمة تجرى من الجنوب بالصد من

أنهار العالم ، وليس في أنهار العالم ما يجري من الجنوب إلى الشمال إلا نيل مصر ومهران السند ويسير من الأنهار ، وما عدا ذلك من أنهار العالم يجري من الشمال إلى الجنوب ، وقد ذكرنا وجه العلة في ذلك وما قاله الناس في هذا المعنى في كتابنا « أخبار الزمان » وقد ذكرنا ما انخفض من الأنهار وما ارتفع ، وليس في ملوك السند والهند من يعز المسلمين في ملكه إلا البلهرا ، فالاسلام في ملكه عزيز مصون ، ولهم مساجد مبنية ، وجوامع معمورة بالصلوات للمسلمين ، ويملك الملك منهم الأربعين سنة والخمسين سنة فصاعدا ، وأهل مملكته يزعمون أنه إنما طالت أعمار ملوكهم لسنة العدل وإكرام المسلمين ، وهو ملك يرزق الجنود من بيت ماله كفعل المسلمين بجنودهم ، وله دراهم ظايرية وزن الدرهم منها وزن درهم ونصف ، سكتته بدء تاريخ ملكهم ، وفيلته الحربية لا تحصى كثرة ، وتدعى بلاده أيضا بلاد السكندر ، ويحاربهم ملك الخزر من إحدى جهات مملكته ، وهو ملك كثير الخيول والإبل والجنود ، ويزعم أنه ليس في ملوك العالم أجل منه إلا صاحب إقليم بابل ، وهو الإقليم الرابع ، وذلك أن هذا الملك ذو نخوة وصولة على سائر الملوك ، وهو مع ذلك مبغض للمسلمين ، وهو كثير الفيلة ، وملكه على لسان من الأرض ، وفي أرضه معادن الذهب والفضة ، ومبايعتهم بهما ؛ ثم يلي هذا الملك ملك الطافي مواع من حوله من الملوك ، وهو مكرم للمسلمين ، وليست جيوشه كجيوش من ذكرنا من الملوك ، وليس في نساء الهند أحسن من نسائهم ، ولا أكثر منهم جمالا وبياضا ، وهن موصوفات الخلوات ، مذكورات في كتب الباء ، وأهل البحر يتنافسون في شراءهن يعرفن بالطافيات ، ثم يلي هذا الملك مملكة رهمي ، وهذه سمة ملوكهم ، وهو الأعم من أسمائهم ، ويقَاتِلهم ملك الخزر ، وملكه متاخم لملكهم ، ورهمي يحارب البلهرا أيضا من إحدى جهات مملكته ، وهو أكثر جيوشا وفيلة وخيولا من البلهرا ومن ملك الخزر ومن ملك الطافي ، وإذا خرج في حروبه فرسمه أن

يكون في خمسين ألف فيل ، ولا يكون حربه إلا في الشتاء لقلة صبر الفيلة على العطش وقلة لبثها ، والمكثرون من الناس يغلو بالقول في كثرة جنوده ، فيزعمون أن عدد القصارين والغسالين في عسكره من عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألفا ، وحرب من ذكرنا من الملوك كرايس ، كلُّ كردوس عشرون ألفا أربعة أوجه كل وجه من الكردوس خمسة آلاف ، ومملكة رهمي تعاملهم بالودع ، وهو مال البلد ، وفي بلده العود والذهب والفضة والثياب التي ليست لغيره رقة ودقة ، ومن بلده يحمل الشعر المعروف بالصمر الذي تتخذ منه المذاب بنصب العاج والفضة يقوم بها الخدم على رءوس الملوك في مجالسها ، وفي بلده الحيوان المعروف بالنسيان العلم ، وهو الذي تسميه العوام الكركدن ، وله في مقدم جبهته قرن واحد ، وهو دون الفيل في الخلقة وأكبر من الجاموس ، إلى السواد ما هو ، يجتر كما تجتر البقر وغيرها مما يجتر من الحيوان ، والفيلة تهرب منه ، وليس في أنواع الحيوان — والله أعلم — أشد منه ، وذلك أن أكثر عظامه أصم ، ولا مفصل في قوائمها ، ولا يبرك في نيام إنما يكون بين الشجر والأجام يستند إليها عند نومه ، والهند تأكل لحمه ، وكذلك من في بلادهم من المسلمين ؛ لأنه نوع من البقر ، والجواميس بأرض السند والهند كثيرة ، وهذا النوع من النسيان يكون في أكثر غابات الهند ، إلا أنه في مملكة رهمي أكثر ، وقرونه أصفى وأحسن ، وذلك أن قرنه أبيض ، وفي وسطه صورة سوداء في ذلك البياض : إما صورة إنسان أو صورة طوس بتخطيطه وشكله أو صورة سمكة أو صورته في نفسه أو صورة نوع من الحيوان مما يوجد في تلك الديار ؛ فينشر هذا القرن وتتخذ منه المناطق والسيور على صورة الخلية من الذهب والفضة فتلبسها ملوك الصين وخواصها تتنافس في لبسها وتبالغ في أثمنها فتبلغ المنطقة ألفي دينار إلى أربعة آلاف ، فيها معاليق الذهب ، وذلك في نهاية الحسن والاتقان ، وربما تقمع بأنواع من الجواهر على قضبان الذهب ، ووجوه تلك الصور مكتوبة بسواد في بياض ، وربما يوجد في

وصف
الكركدن

قرونة بياض في سواد ، وليس في كل بلد يوجد في قرون النسيان ما ذكرنا من الصور ، وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن الكركدن يحمل في بطن أمه سبع سنين ، وأنه يخرج رأسه من بطن أمه فيرعى ثم يدخل رأسه في بطنها ، وهذا القول أورده في كتاب «الحيوان»^(١) على طريق الحكاية والتعجب ، فبعثني هذا الوصف على مسألة من سلك تلك الديار من أهل سيراف و عمان ومن رأيت بأرض الهند من التجار ، فكل يتعجب من قوله إذا أخبرته بما عندي من هذا وسألته عنه ، ويخبرونني أن حملة وفصاله كالبقرة والجواميس ، ولست أدري كيف وقعت هذه الحكاية للجاحظ : أمن كتاب نقلها أو مخبر أخبره بها ، ولرهمي في ملكه بر وبحر ، ويلى ملكه ملك آخر يقال له ملك الكاسين ، وأهل مملكته بيض مخرومو الأذان ، لهم فيلة وإبل وخيول ، وحسن وجمال للرجال والنساء ، ثم بعد هؤلاء ملك الأفرنج ، وله بر وبحر ، وهو على لسان من البر في البحر يقع له عنبر كثير ، وفي بلده قفلل يسير ، وهو ذو فيلة كثيرة ، وهو ذو بأس بين الملوك وزهو وفخر ، وفخره أكثر من بأسه ، ثم يلى هذا الملك ملك الموجه أهله بيض ذوو حسن وجمال غير مخرمي الأذان ، لهم خيل كثيرة ، وعدد منيعة ، والمسك في بلادهم كثير على ما قدمنا من غزلانهم ووصف طبائهم فيما سلف من هذا الكتاب ، وهذه الأمة تشبه بأهل الصين في لباسهم ، وجبالهم^(٢) منيعة شواهد بيض لا يعلم بأرض السند والهند ولا فيما ذكرنا من هذه الممالك جبال أطول منها ولا أمتع ، ومسكنهم موصوف مضاف إلى بلادهم يتعارفه البحر يون ممن غنى بحمل ذلك وتجهيزه ، وهو المسك المعروف بالموجهي ، ثم يلى ملك الموجه مملكة المابد ، ولهم مدن كثيرة وعماير واسعة وجنود عظيمة ، وملوكهم تستعمل الخصيان في عمالات بلادهم من المعادن وجبايات الأموال والولايات وغيرها كفعل ملوك الصين على حسب ما وصفنا من أخبارهم ، والمابد مجاورون لمملكة الصين ،

(١) في جميع الأصول « حياة الحيوان »

(٢) في الأصول « وبلادهم » والسياق يوجب ما ذكرنا

والرسل تختلف بينهم بالهدايا ، و بينهم جبال منيعة وعقبات صعبة ، والمابدناس
عطاء البطش والقوة ، وإذا دخل رسل ملك المابد مملكة الصين وكل ملك
الصين بهم ولم يتركهم ينتشرون في بلادهم خوفا أن يلقوا على طرقهم وعورات
بلادهم ؛ لكبر المابد في نفوسهم .

ولمن ذكرنا من الهند والصين في بلادهم ولغيرهم من الأمم أخلاق وشيم في بعض عادات
الهند المآكل والمشرب والمناكح والملابس والعلاج والأدوية والسكى بالنار وغيره ،
وقد ذكر عن جماعة من ملوكهم أنهم لا يرون حبس الريج في أجوافهم لأنه داء
يؤذى ولا يحتشمون في إظهارها في سائر أحوالهم ، وكذلك فعل حكمائهم ورأيهم
أن حبسها داء يؤذى وأن إرسالها شفاء ينجي ، وأن في ذلك العلاج الأكبر ،
وأن فيه راحة لصاحب القولنج والمحصور ، وأن فيه داء للسقيم المطحول ، ولا
يحتشمون من الضرطة ، ولا يحصرون الفسوة ، ولا يرون ذلك عيبا ، وللهند التقدم
في صناعة الطب ، ولهم فيه اللطافة والحدق ، وذكر هذا الخبر عن الهند أن
السعال عندهم أقبح من الضراط ، وأن الجشاء في وزن الفساء ، وأن صوت
الضرطة دباغها والمذهب عنها ريحها ، واستشهد هذا الخبر على صحة ما حكاه عن
الهند باستفاضة القول في ذلك في كثير من الناس عنهم ، حتى ذكر ذلك عنهم
في السير والأخبار والنوادر والأشعار ؛ فمن ذلك ما ذكر في الأرجوزة المعروفة
بذات الحيل ، وهي :

قد قال ذو العلم الفصيح الهندي	مقالة يفلح فيها عندي
لا تحبس الضرطة إما حضرت	وخلفها وافتح لها ما استفتحت
فإن أدوا الداء في إمساكها	والروح والراحة في إخراجها
والقبح في السعال والمخاط	والشؤم في السعال لا الضراط
أما الجشاء ففساء صاعد	ونتنه على الفساء زائد

وأن الريج واحدة في الجوف ، وإنما تختلف أسماؤها باختلاف مخارجها ؛

فما يذهب الصعداء يسمى جشاء ، وما يذهب سفلا يسمى فساء ، ولا فرق بين الرّيحين إلا باختلاف الخرجين ، كما يقال الصفعة والطمّة ، إلا أن اللطمة في الوجه والصفعة في مؤخر الرأس واللقا ، والمعنى واحد ، وإنما اختلفت أسماؤها لاختلاف الموضعين وتباين المسكانين ، وأن الحيوان الناطق إنما كثرت علله وترادفت أدواؤه واتصلت أمراضه كالقولنج وأوجاع المعدة وغيرها من العوارض بحبس الداء في جوفه وتركه إظهاره في حال هيجانه وتفرغ الطبيعة لدفعه وإخراجه ، وأن سائر الحيوان غير الناطق إنما بعد عما ذكرنا من الآفات والمعتضات من العاهات لسرعة خروج ما يعرض ويثور من الأدوية في أجوافها وعدم احتباسها في وعائها ، وأن الفلاسفة والمتقدمين والحكماء اليونانيين كديموقراطيس وفيثاغورس وسقراط وروحانس وغيرهم من حكماء الأمم لم يكونوا يرون حبس شيء من ذلك ، لعلمهم بما يتولد من آفاته ، ويؤول إليه من متعقباته ، وأن ذلك يجده في نفسه كل ذى حس ، وأن ذلك يعلم بالطبيعة ، ويدرك بضرورة العقل ، وإنما استتبع ذلك أناس من أصحاب الشرائع لما وردت به الشرائع ومنعت منه الملل ولم يجر ذلك في عاداتهم .

قال المسعودى : وقد أتينا على أخبارهم وما أحكمنا من ذكر شيمهم وعجائب سيرهم ومتصرفاتهم في كتابنا « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط ، وكذلك أتينا على ذكر أخبار المهرج ملك الجزائر والطيب والأفاويه مع ملك قمار ، وما جرى لملك قمار مع المهرج ، وأخبار ملوك الصين وملك سرنديب مع ملك مندرى ، وهى بلاد مقابلة لجزيرة سرنديب كمقابلة بلاد قمار لجزائر المهرج من الرانج وغيرها ، وكل ملك تملك بلاد مندرى يسمى القابدى ، وسنأتى بجمال من أخبار ملوك الشرق والغرب واليمن والحيرة فيما يرد من هذا الكتاب من أخبار ملوك اليمن والفرس واليونانيين والمغرب وأنواع الأحابش والسودان وملوك الصين ولد يافت وغير ذلك من أخبار العالم وعجائب الأمم

ذكر جبل الفتح وأخبار الأمم

من اللان والسرير والخزر وأنواع من الترك وغيرهم

وأخبار الباب والأبواب ومن حولهم من الأمم

أما جبل الفتح فهو جبل عظيم ، وصتعه صقع جليل ، قد اشتمل على كثير من الممالك والأمم ، وفي هذا الجبل اثنتان وسبعون أمة كل أمة لها ملك ولسان بخلاف لغة غيرها ، وهذا الجبل ذو شعاب وأودية ، ومدينة الباب والأبواب والسور على شعب من شعابه بناها كسرى أنوشروان وجعلها بينه وبين الخزر ، وجعل هذا السور من جوف البحر على مقدار ميل منه مادا إلى البحر ، ثم على جبل الفتح مادا في أعاليه ومنخفضاته وشعابه نحواً من أربعين فرسخاً ، إلى أن ينتهى ذلك إلى قاعة يقال لها طبرستان ، وجعل على كل ثلاثة أميال من هذا السور أو أقل أو أكثر على حسب الطريق الذى جعل الباب من أجله باباً من حديد ، وأسكن من داخله على كل باب أمة تراعى ذلك الباب وما يليه من السور ، كل ذلك ليدفع أذى الأمم المتصلة بذلك الجبل من الخزر واللان والسرير وغيرهم من أنواع الكفار ، وجبل الفتح يكون فى المسافة علواً وطولاً وعرضاً نحواً من شهرين ، بل وأكثر ، وحوله أمم لا يحصيهم إلا الخالق عز وجل ، أحده شعابه يلى بحر الخزر مما يلى الباب والأبواب على ما ذكرنا ، ومن شعابه ما يلى بحر مانطش المقدم ذكره فيما سلف من هذا الكتاب الذى ينتهى إليه خليج القسطنطينية ، وعلى هذا البحر طرابزنده ، وهى مدينة على شاطئ هذا البحر لها أسواق فى السنة يأتى إليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهم وبلاد كسكر ، ولما بنى أنوشروان هذه المدينة المعروفة بالباب والأبواب والسور فى البر والبحر والجبل أسكن هناك أمماً من الناس وملوكاً ، وجعل لهم مراتب رتبهم عليها ، ووسم كل أمة منهم بسمه معلومة ، وحد لها حدا معلوماً ،

على حسب فعل أزدشير بن بابك حين رتب ملوك خراسان ؛ فمن رتب أنوشروان من الملوك في بعض هذه البقاع والمواضع مما يلي الاسلام من بلاد بردعة ملك يقال له شروان ، ومملكته مضافة إلى اسمه فيقال لها شروان شاه ، وكل ملك يلي هذا الصقع يقال له شروان ، وتكون مملكته في هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة - نحو شهر ؛ لأنه كان تغلب على مواضع لم يكن رسمها له أنوشروان فانضافت إلى ملكه ، والملك في هذا الوقت المؤرخ والله أعلم مسلم يقال له محمد بن يزيد ، وهو من ولد بهرام جور ، لاخلف في نسبه ، وكذلك ملك السري من ولد بهرام جور ، وكذلك صاحب خراسان في هذا الوقت المؤرخ من ولد إسماعيل بن أحمد ، وإسماعيل من ولد بهرام جور ، لاخلاف فيما ذكرنا من شهرة أنساب من ذكرنا ، وقد تملك محمد هذا وهو شروان على مدينة الباب والأبواب وذلك بعد موت صهر له يقال له عبد الملك بن هشام ، وكان رجلا من الأنصار ، وكان قيدي بامرة الباب والأبواب ، وقد كانوا قطنوا تلك الديار منذ دخلها مسلمة بن عبد الملك وغيره من أمراء الاسلام في صدر الزمان ، وتلى مملكة شروان مملكة أخرى من جبل الفتح يقال لها الاران ، وملكها يدعى الاران شاه ، وقد غلب على هذه المملكة في هذا الوقت شروان أيضا ، وعلى مملكة أخرى يقال لها مملكة الموقانية ، والمعول في مملكته على مملكة الاسكز ، وهي أمة لا تحصى كثرة ساكنة في أعلى هذا الجبل ، ومنهم كفار لا ينقادون إلى ملك شروان يقال لهم الدودانية جاهلية لا يرجعون إلى قبلة ، ولهم أخبار ظريفة في المناكح والمعاملات ، وهذا الجبل ذو أودية وشعاب وفجاج ، فيه أمم لا يعرف بعضهم بعضا لخشونة هذا الجبل وامتناعه وذهابه في الجو وكثرة غياضه وأشجاره وتسلسل المياه من أعلاه وعظم صخوره وأحجاره ، وغلب هذا الرجل المعروف بشروان على ممالك كثيرة من هذا الجبل كان رسمها كسرى أنوشروان لغيره ممن رتب هناك ، فأضافها محمد بن يزيد إلى ملكه ، منها خراسان شاه وزادان شاه ،

وسند كر بعد هذا الموضع تغلبه على مملكة شروان ، وقد كان قبل ذلك على الاران هو وأبوه من قبل ثم على سائر الممالك
وتلى مملكة شروان في جبل الفتح مملكة طبرستان ، ومملكها في هذا الوقت مسلم ، وهو ابن أخت عبد الملك الذي كان أمير الباب ، وهى أول الأمم المتصلة بالباب والأبواب

وببادى أهل الباب والأبواب مملكة يقال لها حيدان ، وهذه الأمة داخلة في جملة ملوك الخزر ، وقد كانت دار مملكتهما مدينة على ثمانية أيام من مدينة الباب يقال لها سمندر ، وهى اليوم يسكنها خلق من الخزر ، وذلك أنها افتتحت في بدء الزمان افتتحها سليمان بن ربيعة الباهلى رضى الله تعالى عنه ، فانتقل الملك عنها إلى مدينة آمل ، وبينها وبين الأولى سبعة أيام ، وآمل التى يسكنها ملك الخزر في هذا الوقت ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يرد من أعلى بلاد الترك : يتشعب منه شعبة نحو بلاد الباغر وتصب في بحر مانطش ، وهذه المدينة جانبان ، وفي وسط النهر جزيرة فيها دار الملك وقصر الملك في وسط هذه الجزيرة ، وبها جسر إلى أحد الجانبين من سفن ، وفي هذه المدينة خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية فأما اليهود فالملك وحاشيته والخزر من جنسه ، وكان تهود ملك الخزر في خلافة هرون الرشيد ، وقد انضاف إليه خلق من اليهود وَرَدُوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم ، وذلك أن ملك الروم تفل من كان في ملكه من اليهود إلى دين النصرانية وأكرههم ، وهو أرميوس ملك الروم في وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، وسند كر فيما يرد من هذا الكتاب كيفية أخبار ملوك الروم ، وأعدادهم ، وأخبار هذا الملك ومن قد شاركه في ملكه في هذا الوقت المؤرخ ، فتهارب خلق من اليهود من أرض الروم إلى أرضه على ما وصفنا ، وكان لليهود مع ملك الخزر خبر ليس هذا موضع ذكره ، وقد ذكرناه فيما سلف من كتبنا ، وأما من في بلاده من الجاهلية فأجناس :

عادة حرق
الموتى

منهم الصقالبة ، والروس ، وهم فى أحد جانبي هذه المدينة ، ويحرقون موتاهم ودواب ميتهم وآلاته والحلى ، وإذا مات الرجل أحرقت معه امرأته وهى فى الحياة ، وإن ماتت المرأة لم يحرق الرجل ، وإن مات أعزب زوج بعد وفاته ، والنساء يرغبن فى تحريق أنفسهن لدخولهن عند أنفسهن الجنة ، وهذا فعل من أفعال الهند على حسب ما ذكرنا آنفا ، إلا أن الهند ليس من شأنها أن تحرق المرأة مع زوجها إلا أن ترى ذلك المرأة ، والغالب فى هذا البلد المسلمون ؛ لأنهم جند الملك ، وهم يعرفون فى هذا البلد بالارشيية ، وهم ناقلة من نحو بلاد خوارزم ، وكان فى قديم الزمان بعد ظهور الإسلام وقع فى بلادهم جذب ووباء ، فانتقلوا إلى ملك الخزر ، وهم ذوو بأس وشدة ، وعليهم يعول ملك الخزر فى حروبه ، وأقاموا فى بلده على شروط بينهم : أحدها إظهار الدين والمساجد والأذان ، وثانيها أن تكون وزارة الملك فيهم ، والوزير فى وقتنا هذا منهم هو أحمد بن كويه ، وثالثها أنه متى كان ملك الخزر حرب مع المسلمين وقفوا فى عسكره منفردين عن غيرهم لا يحاربون أهل ملتهم ، ويحاربون معه سائر الناس من الكفار ، ويركب منهم مع الملك فى هذا الوقت شخوص منهم سبعة آلاف ناشب بالجواشن والدروع والخوذ ومنهم راحمة أيضا على حسب ما فى المسلمين من آلات السلاح ، ولهم قضاة مسلمون ، ورسم دارمملكة الخزر أن يكون فيها قضاة سبعة : اثنان منهم للمسلمين ، واثنان للخزر يحكمون بحكم التوراة ، واثنان لمن بها من النصرانية يحكمون بحكم النصرانية ، وواحد منهم للصقالبة والروس وسائر الجاهلية يحكم بأحكام الجاهلية ، وهى قضايا عقلية ، فاذا ورد عليهم ما لا علم لهم به من النوازل العظام اجتمعوا إلى قضاة المسلمين فتحاكموا إليهم وانقادوا إلى ما توجبه شريعة الاسلام ، وليس فى ملوك الشرق فى هذا الصقع من له جند من برور غير ملك الخزر ، وكل مسلم من تلك الديار يعرف بأسماء هؤلاء القوم الارشيية والروس والصقالبة الذين ذكرنا أنهم جاهلية من جند الملك وعبيده ، وفى بلاده خلق من المسلمين تجار وصناع غير

اللارشية في طرف بلده ؛ لعدله وأمنه ، ولهم مسجد جامع ، والمنارة تشرف على قصر الملك ، ولهم مساجد أخر فيها المكاتب لتعليم الصبيان القرآن ، فاذا اتفق المسلمون ومن بها من النصارى لم يكن للملك بهم طاقة

قال المسعودى : وليس إخبارنا عن ملك الخزر نريد به خاقان ، وذلك أن الخزر ملكا يقال له خاقان رسمه أن يكون في يدي ملك آخر هو وغيره ، فخاقان في جوف قصر لا يعرف الركوب ولا الظهور للخاصة ولا للعامة ولا الخروج من مسكنه ، معه حرمه ، لا يأمر ولا ينهى ، ولا يدبر من أمر المملكة شيئا ، ولا تستقيم مملكة الخزر لملكهم إلا بخاقان يكون عنده في دار مملكته ، ومعه في حيزه ، فاذا أجذبت أرض الخزر ، أو نابت بلدهم نائبة ، أو توجهت عليهم حرب اغيبرهم من الأمم ، أو فاجأهم أمر من الأمور ؛ ففرت الخاصة والعامة إلى ملك الخزر ، فقتلوا له : قد تطيرنا بهذا الخاقان وأيامه ، وقد تشاءمنا به ، فاقتله أو سلمه إلينا نقتله ؛ فربما سلمه إليهم فقتلوه ، وربما تولى هو قتله ، وربما رقى له فدافع عنه لأن قتله بلا جرم استحقه ولا ذنب أتاه ، هذا رسم الخزر في هذا الوقت ، فلست أدري : أفي قديم الزمان كان ذلك أم حدث ، وإنما ينسب خاقان هذا لأهل بيت وأعيانهم أرى أن الملك كان فيهم قديما ، والله أعلم

وللخزر زوارق يركب فيها الركاب التجار في نهر فوق المدينة يصب إلى نهرها من أعاليها يقال له برطاس عليه أمم من الترك حاضرة داخلية في جملة ممالك الخزر ، وعمايرهم متصلة بين ملك الخزر والباغر ، يرد هذا النهر من حد بلاد الباغر ، والسفن تختلف فيه من الباغر والخزر

وبرطاس أمة من الترك على ما ذكرنا على هذا النهر المعروف بهم ، ومن بلادهم تحمل جلود الثعالب السود والحمر التي تعرف بالبرطاسية ، يبلغ الجلد منها مائة دينار ، وأكثر ذلك من السود ، والحمر أخفض ثمنها ، وتلبس السود منها ملوك العرب والعجم ، وتتنافس في لبسه ، وهو أغلى عندهم من السمور والعبك

وما شا كل ذلك ، وتتخذ الملوك منه القلانس والخفاف ، ويتعذر في الملوك من ليس له خفان ودوَّاج مبطن من هذه الثعالب البرطاسية السود

وفي أعلى نهر الخزر مصب متصل بخليج من بحر إقريطش وهو بحر « الروس » لا يسلكه غيرهم ، وهو على ساحل من سواحلهم ، وهى أمة عظيمة جاهلية لا تنقاد إلى ملك ولا شريعة ، وفيهم تجار يختلفون إلى مدينة بحر الباهر ، والروس في أرضهم معدن الفضة كثير نحو معدن الفضة الذى يجبل مهبير من أرض خراسان

ومدينة الباهر على ساحل بحر مانطش وأرى أنهم في الإقليم السابع ، وهم نوع من الترك ، والقوافل متصلة بهم من بلاد خوارزم من أرض خراسان ، ومن خوارزم إليهم ، إلا أن ذلك بين بوادى غيرهم من الترك ، والقوافل مخفرة منهم ، وملك الباهر في وقتنا هذا - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - مسلم ، أسلم في أيام المقتدر ، وذلك بعد العشر والثلثمائة ، وذلك لرؤيا رآها ، وقد كان له ولد حج ، وورد مدينة السلام ، وحمل معه المقتدر لواء وبنوًا ، ولهم جامع ، وهذا الملك غزا بلاد القسطنطينية في نحو ألف فارس فصاعدا فشَنَّ الغارات حولها إلى بلاد رومية والأندلس وأرض أرجان والجلالقة والافرنجة ، ومنهم إلى القسطنطينية في خليج آخر من البحر الرومى لامنفذ له إلى غيره ، وانتهوا إلى بلاد حرفيدبه ، وأتاهم في البحر جماعة من الباهر ينجدونهم ، وأخبروهم أن ملكهم بالقرب ، وهذا يدل على ما وصفنا أن الباهر متصل سراياها إلى ساحل بحر الروم ، وكان نفر منهم ركبوا في مراكب الترسوسيين فأتوا بهم إلى بلاد ترسوس ، والباهر أمة عظيمة منيعة شديدة البأس ينقاد إليها من جاورها من الأمم ، والفارس ممن قد أسلم مع ذلك يقاتل المائة من الفرسان والمائتين من الكفار ، ولا يمنع أهل القسطنطينية منهم في هذا الوقت إلا سورها ، وكذلك من في هذا الصقع لا يعتصم منهم إلا بالحصون والجدران ، والليل في بلاد الباهر في نهاية من القصر

فى بعض السنة ، ومنهم من زعم أن أحدهم لا يستطيع أن يفرغ من طبخ قدره حتى يأتى الصباح ، وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا علة ذلك الوجه من الفلك ، وعلة الموضع الذى يكون الليل فيه ستة أشهر لا نهار فيه ، والنهار ستة أشهر متصلة لآليل فيه ، وذلك نحو الجدى ، وقد ذكر أصحاب الزيجات فى النجوم علة ذلك من الوجه الفلكى

والروس أمم كثيرة وأنواع شتى ، ومنهم من يقال لهم المودعانة ، وهم الأكثرون ، يختلفون بالتجارة إلى بلاد الأندلس ورومية وقسطنطينية والخزر وقد كان بعد الثلاثمائة ورد عليهم نحو من خمسمائة مركب فى كل مركب مائة نفس فدخلوا خليج نيطش المتصل بنهر الخزر ، وهناك رجال ملك الخزر مرتين بالعدد القوية يصدون من يرد من ذلك البحر ، ومن يرد من ذلك الوجه من البر الذى سفنه فى نهر الخزر تتصل بنهر نيطش ، وذلك أن بوادى الغزاة ترد إلى ذلك أكثر ، وتشقى هنالك ، فر بما يجمد هذا الماء المتصل من نهر الخزر إلى خليج نيطش ، فتعبر الغزاة عليه بخيولها ، وهوماء عظيم ينخسف من تحتهم لشدة استحجاره فتغير على بلاد الخزر ، وربما يخرج إليهم ملك الخزر إذا عجز من هنالك من رجاله المرتبين عن دفعهم ومنعهم العبور على ذلك الجمد ، وأما فى الصيف فلا سبيل للترك إلى العبور ، فلما وردت مراكب الروس إلى رجال الخزر المرتبين على فم الخليج راسلوا ملك الخزر على أن يحتازوا البلاد وينحدروا فى نهره فيدخلوا بحر الخزر الذى هو بحر جرجان وطبرستان وغيرها من بلاد الأعاجم على ما ذكرنا ، ويجعلوا لملك الخزر النصف مما يغنمون ممن هناك من الأمم على ذلك البحر ، فأباحهم ذلك ، فدخلوا الخليج واتصلوا بمصب النهر فيه ، وساروا مصعدين فى تلك الشعبة من الماء حتى وصلوا إلى نهر الخزر ، وانحدروا فيه إلى مدينة آمل ، وهو نهر عظيم وماء كثير ، فانتشرت مراكب الروس فى هذا البحر ، وطرحت سراياها إلى الجبل والديلم وبلاد طبرستان

وآبسون ، وهى بلاد ساحل جرجان وبلاد النفاطة ، ونحو بلاد أذربيجان ، وذلك أن من مدينة أردشير من بلاد أذربيجان إلى هذا البحر نحو من ثلاثة أيام ، فسفكت الروس الدماء ، واستباححت النسوان والولدان ، وغنمت الأموال ، وشنت الغارات ، وأخربت ، وأحرقت ، فَضَجَّ من حول هذا البحر من الأمم ؛ لأنهم لم يكونوا يعهدون فى قديم الزمان عدوا يطرقهم فيه ، وإنما يختلف فيه مراكب التجار والصيد ، وكان لهم حروب كثيرة مع الجليل والديلم وساحل جرجان ، وتفرَّ أهل مودعة وأران والسفلان وأذربيجان مع قائد لابن أبى الساج فانتهاوا إلى ساحل نفاطة من مملكة شروان المعروفة بياكوى ، وكانت الروس تأوى عند رجوعها من غاراتها إلى جزائر بقرب النفاطة على أميال منها ، وكان ملك شروان يومئذ على بن الهيثم ، فاستعدَّ الناس ، وركبوا فى القوارب ومراكب التجار ، وساروا نحو تلك الجزائر ، فالت عليهم الروس ؛ فقتل من المسلمين وغرق ألف ، وأقام الروس شهورا كثيرة فى البحر على ما وصفنا لا سبيل لأحد من جاور هذا البحر من الأمم إليهم ، والناس مهتابون لهم ، حذرُون منهم لأنهم بحر غامر لمن حوله من الأمم ، فلما غنموا وسئموا ما هم فيه ساروا إلى فم نهر الخزر ومصبه ، فراسلوا ملك الخزر وحملوا إليه الأموال والغنائم ، وملك الخزر بلا مراكب ، وليس لهم بها عادة ، ولولا ذلك لكان على المسلمين منهم أمة عظيمة ، وعلمت الأريسية ومن فى بلاد الخزر من المسلمين ، فقالوا لملك الخزر : خَلْنَا وهؤلاء القوم فقد أغاروا على بلاد المسلمين ، وسفكوا الدماء ، وسبوا النساء والتدَّرأرى ، فلم يمكن الملك منعهم ، وبعث إلى الروس فأعلمهم بما قد عزم عليه المسلمون من حربهم ، وعسكروا ، وخرجوا يطلبونهم منحدرين مع الماء ، فلما وقعت العين على العين خرجت الروس عن مراكبها ، وصافوا المسلمين ، وكان مع المسلمين خلق من النصارى من المقيمين بمدينة آمل ، وكان المسلمون فى نحو خمسة عشر ألفا بالخييل والعدد ، فأقام الحرب بينهم ثلاثة أيام ، ونصر الله المسلمين

عليهم ، وأخذهم السيف : فمن قتييل وغريق ، ونجا منهم نحو خمسة آلاف ،
وركبوا في المراكب إلى ذلك الجانب مما يلي بلاد برطاس ، وتركوا مراكبهم ،
وتعلقوا بالبر ؛ ففهم من قتله أهل برطاس ، ومنهم من وقع إلى بلاد البلغر
المسلمين فقتلوه ، وكان من وقع عليه الإحصاء ممن قتله المسلمون على شاطئ
نهر الخزر نحواً من ثلاثين ألفاً ، ولم يكن للروس من تلك السنة عودة إلى
ما ذكرنا

قال المسعودى : وإنما ذكرنا هذه القصة دفعا لقول من زعم أن بحر الخزر
متصل ببحر مانطش وخليج القسطنطينية ، ولو كان لهذا البحر اتصال بخليج
القسطنطينية من جهة بحر مانطش أو نيطش لكانت الروس قد خرجت فيه ؛
إذ كان ذلك بحرهما على ما ذكرنا ، ولا خلاف بين من ذكرنا ممن جاور هذا
البحر من الأمم في أن بحر الأعاجم لا خليج له متصل بغيره من البحار ؛ لأنه
بحر صغير يحاط بعلمه ، وما ذكرنا من مراكب الروس مستفاض في تلك البلاد
عند سائر الأمم ، والسنة معروفة ، وكانت بعد الثلاثمائة ، وقد غاب عنى
تاريخها ، ولعل من ذكر أن بحر الخزر متصل بخليج القسطنطينية يريد أن
بحر الخزر هو بحر مانطش ونيطش الذى هو بحر البلغر والروس ، والله أعلم
بكيفية ذلك .

وساحل طبرستان على هذا البحر ، وهنالك مدينة يقال لها الهمرجى مرسى
للساحل ، وبينها وبين مدينة آمل ساعة من النهار ، وعلى ساحل جرجان ،
مما يلي هذا البحر ، مدينة يقال لها آبسكون ، على نحو من ثلاثة أيام من جرجان ،
وعلى هذا البحر الجليل والديلم ، وتختلف المراكب بالتجارات فيه إلى مدينة آمل
فيدخل في نهر الخزر إليها ، وتختلف المراكب فيه بالتجارات مع المواضع التى
سمينا من ساحله إلى باكوى ، وهى معدن النفط الأبيض وغيره ، وليس فى الدنيا
والله أعلم نفط أبيض إلا فى هذا الموضع ، وهى على ساحل مملكة شروان ، وفى

هذه النفاطة أظمة ، وهى عين من عيون الباب ، لا تمتد على سائر الأوقات ،
تتضرم الصعداء .

ويقابل هذا الساحل فى البحر جزائر : منها جزيرة على نحو ثلاثة أيام من
الساحل فيها أظمة عظيمة تزفر فى أوقات من فصول السنة فيظهر منها نار تذهب
فى الهواء كأشمنخ ما يكون من الجبال العالية تضىء الأكثر من هذا البحر ،
ويرى ذلك من نحو مائة فرسخ من البر ، وهذه الأظمة تشبه أظمة جبل
البركان من بلاد صقلية من أرض الإفرنجية ومن بلاد إفريقية من أرض المغرب ،
وليس فى أطام الأرض أشد صوتا ولا أسود دخانا ولا أكثر تلهبا من الأظمة
التي فى أعمال المهرج ، وبعدها أظمة وادى برهوت ، وهى نحو بلاد سبأ
وحضرموت من بلاد الشحر ، وذلك من بلاد اليمن وبلاد عمان ، وصوتها يسمع
كالرعد من أميال كثيرة ، ثم ينعكس سفلايهوى إلى قعرها وحولها ، والجر الذى
يظهر منها حجارة وقد احمرت مما قد أحالها من سواد حرارة النار ، وقد أتينا على
علة تكون عيون النيران فى الأرض ، وما سبب موادها ، فى كتابنا
« أخبار الزمان »

وفى هذا البحر جزائر آخر مقابلة لساحل جرجان يصاد منها نوع من البزاة
البيض أسرع إجابة ، وأقلها معاشرة ، إلا أن فى هذا النوع من البزاة شيئا من
الضعف ؛ لأن الصائد يصطادها من هذه الجزائر فيغذيها بالسّمك ، فاذا اختلف
عليها الغذاء عرض لها الضعف ، وقد قال الجمهور من أهل المعرفة بالضواري وأنواع
الجوارح من الفرس والترک والروم والهند والعرب : إن البازى إذا كان إلى البياض
فى اللون فانه أسرع البزاة ، وأحسنها ، وأنبهها أجساما ، وأجروها قلوبا ، وأسهلها
رياضة ، فإنها أقوى جميع البزاة على السمو فى الجو ، وأذهبها الصعداء ، وبعدها
غاية فى الهواء ، لأن فيها من حرف الحرارة وجراءة القلب ما ليس فى غيرها من
جميع أنواع البزاة ، وإن اختلف ألوانها لاختلاف مواضعها ، وإن من أجل ذلك

خلصت البيض لكثرة الثلج فى أرمينية وأرض الخزر وجرجان وما والاها من بلاد الترك

وقد حكى عن حكيم من خواقين الترك - وهم الملوك المتقادة إلى ملكهم جميع ملوك الترك - أنه قال : إن بزاة أرضنا إذا أسقطت أنفـس فراخها من الوعاء إلى الفضاء سَمَتَ فى الجو إلى الهواء البارد الكثيف فأنزلت دواب تسكن هناك فتغذيها فى أوكارها من تلك الدواب أطراها .
وقد قال جالينوس : إن الهواء فيه نشأ وساكن .

وعن بليناس أنه قال : واجب إذا كان لهذين الأسطقسين - يعنى الأرض والماء - خلق وساكن أن يكون للأسطقسين - يعنى الهواء والنار - خلق وساكن ووجدت فى بعض أخبار هرون الرشيد أن الرشيد خرج ذات يوم إلى الصيد ببلاد الموصل وعلى يده باز أبيض فاضطرب على يده ، فأرسله ، فلم يزل يخلق حتى غاب فى الهواء ، ثم طلع بعد الإياس منه وقد علق شيئاً فهوى به يشبه الحية والسمة ، وله ريش كأجنحة السمك فأمر الرشيد فوضع فى طست ، فلما عاد من قنصه أحضر العلماء فسألهم : هل تعلمون للهواء ساكن ؟ فقال مقاتل : يا أمير المؤمنين ، روينا عن جدك عبد الله بن عباس أن الهواء معمور بأمم مختلفة الخلق سكان أقربها منا دواب بيض فى الهواء تفرخ فيه يرفعها الهواء الغليظ ويربها حتى تنشأ فى هيئة الحيات والسمك لها أجنحة ليست بذات ريش تأخذها بزاة بيض تكون بأرمينية ، فأخرج الطست إليهم ، فأراهم الدابة ، وأجاز مقاتلا يومئذ

وقد أخبرنى غير واحد من أهل التحصيل بمصر وغيرها من البلاد أنهم شاهدوا فى الجو حيَّاتٍ تسعى كأسرع ما يكون من البرق ، وأنها ربما تقع على الحيوان فتقتله ، وربما يسمع لطيرانها فى الليل وحركتها فى الهواء صوت

كنشر ثوب جديد ، وربما يقول من لا علم له وغيره من النسوان : هذا صوت
ساحرة تطير ذات أجنحة من قصب

وللناس كلام كثير فيما ذكر ، واستدلواهم على هذا إنما هو بما يحدث فى
أسطقص الماء من الحيوان وأنه يجب على هذه القصة أن يحدث ذلك بين
الأسطقصين الآخرين وهما الأرض والماء

وصف البزاة

قال المسعودى : وقد وصفت الحكماء والملوك البزاة ، وأغربت فى الوصف ،
وأطبت فى المدح ، فقال خاقان ملك الترك : البازى شجاع مريد ، وقال كسرى
أنوشروان : البازى رقيق يحسن الإشارة لايؤخر الفرص إذا أمكنت ، وقال
قيصر : البازى ملك كريم إن احتاج أخذ وإن استغنى ترك ، وقالت الفلاسفة :
حسبك من البازى نزعه فى المطالب والرزق فى السمو إذا طالت قوادمه وبعد
ما بين منكبيه فذلك أبعد لغايته وأحب لسرعته ، ألا ترى إلى الفهود لاتزداد
فى غايتها إلا بعدا وسرعة وقوة على التكرار ، وذلك لطول قوائمها مع كثافة
أجسامها ، وإنما قصرت غاية البازى لقصر جناحيه ورقة جسمه ، فإذ طالت به
الغاية أخره ذلك حتى تشتد نفسه ، ولا توتى الجوارح إلا من قصر القوادم ،
ألا ترى الدراج والسمان والحجل وأشباهاها حين قصرت قوادمها قصرت غايتها ،
وقال أرسىخاس : البازى طير عارى الحجاب ، وما يفوته فى كسوره يزيد فى
أخمسه ورجليه ، وهو أضعف الطير جسما ، وأقواها قلبا ، وأشجعها ، وذلك لفضله
على سائر الطير فى الجزء الذى فيه من الحرارة التى ليست فى شىء منها ، ووجدنا
صدورها منسوجة بالعصب لالحم عليها ، وقال جالينوس مؤيدا لما ذهب إليه
أرسىخاس : إن البازى لا يتخذ وكرا إلا فى شجرة لعماء مشتبكة بالشوك مختلفة
الحجون بين شجر عسى طلبا للكن ودفعاً لآلم الحر والبرد ، فإذا أراد أن
يفرخ بنى لنفسه بيتا ، وسقفه تسقيقا لا يصل إليه منه مطر ولا تلج إشفاقا على نفسه
وفراخه من البرد

وذكر الأدهم بن محرز أن أول من لعب بالصقور الحرث بن معاوية بن
 ثور بن كندی، وهو ابن كندة، وأنه وقف يوما يقانص وقد نصب حباله
 للعصافير فانقضَّ أكدر على عصفور منها قد علق، فعلقه الأكدر — وهو
 الصقر — ومن أسمائه أيضا الأجذل، فحمل العصفور وقد علق، فعجل الملك فأتى
 به وهو يأكل العصفور، فرمى به في كسر البيت، فراه قد دجن ولم يبرح مكانه
 ولم ينفر، وإذا رمى إليه طعاما أكله، وإذا رأى لهما نهض إلى يد صاحبه ثم
 دعى فأجاب فطعم على اليد، وكانوا يتباهون بحمله؛ إذ رأى يوما حمامة فطار إليها
 من يد حامله فعلقها، فأمر الملك باتخاذها والتصيد بها، فبينما الملك يسير يوما إذ
 تفحت أرنب فطار الصقر إليها فأخذها، فطلب بها الطير فقتلها، واتخذها العرب
 بعده، ثم استفاضت في أيدي الناس

أول من لعب بالشواهين
 فأما الشواهين فإن أرسينخاس الحكيم ذكر في كتاب كان وجهه به إلى
 المهدي حمل إليه من أرض الروم أهدها إليه الملك أن ملكا من ملوك الروم يقال
 له سنان نظر يوما إلى شاهين يهوي منحدرا على طير الماء فيضربه، ثم يسمو مرتفعا
 في الهواء، حتى فعل ذلك مرارا، فقال: هذا طير ضار وله قوة انحدر على الطير
 في الماء، إنه لضار، وتدلنا سرعة انحداره وارتفاعه في جو السماء على أنه طير أبيض
 ألوف، فلما رأى إلى حسن تكراره أعجبه، فكان أول من اتخذ الشواهين
 وقد ذكر سعيد بن عفر عن هشام بن خديج قال: خرج قسطنطين ملك
 عمورية متصيدا بالبازة، حتى انتهى إلى خليج نبطش الجاري إلى بحر الروم،
 فعبر إلى مرج بين الخليج والبحر فسيح مديد، فنظر إلى شاهين يتكفأ على
 طير الماء فأعجبه مارأى من سرعته وضارته ولم يدر الحيلة في صيده، فأمر أن
 يصطاد له فصرَّاه، وكان قسطنطين أول من لعب بالشواهين، ونظر ذلك المرج
 طويل البساط مفروشا بألوان الزهر، فقال: هذا موضع حصين من نهر وبحر وسعة
 وامتداد يصلح أن يكون فيه مدينة، فبنى فيه مدينة القسطينية، وسند ذكر

فيما يرد من هذا الكتاب عند ذكرنا ملوك الروم قسطنطين بن هلافي هذا ،
وما كان من خبره ، وهو المظهر لدين النصرانية ، فهذا وجه ما ذكر من السبب
الداعي لبناء القسطنطينية

وقد ذكر ابن عمر عن أبي زيد الفهري أنه كان من رتبة ملوك الأندلس
الأزارقة أنه إذا ركب الملك منهم صارت الشواهين في الهواء مظلة لعسكره ،
مخيمة على مركبه ، تنحدر عليه مرة وترتفع أخرى ، معلة لذلك ، فلا تزال على ما
وصفنا في حال مسيره حتى ينزل فتقع حوله ، إلى أن ركب يوما ملك منهم
وصارت الشواهين معه على ما وصفنا ، فاستثارت طائرا فانقض عليه شاهين فأخذه ،
فأعجب بذلك الملك ، وضرّاها على الصيد ، فكان أول من تصيد بها بالمغرب
ويلاذ الأندلس .

قال المسعودي : وكذلك ذكر جماعة من أهل العلم بهذا الشأن أنه كان أول
من لعب بالعقبان أهل المغرب ، فلما نظر الروم إلى شدة شرها وإفراط سلاحها
قال حكماءهم : هذه التي لا يقوم خيرها بشرها

وذكر أن قيصر أهدى إلى كسرى عقابا وكتب إليه يعلمه أنها تعمل أكثر
من عمل الصقر الذي أحبه صيده ، فأمر بها كسرى فأرسلت على ظبي عرض
فدقته فأعجبه ما رأى منها ، فأنصرف مسرورا ، فجوّعها ليصيد بها ، فوثبت على
صبي له فقتلته ، فقال كسرى : وتَرَنّا قيصر في أولادنا بغير جيش ، ثم إن كسرى
أهدى إلى قيصر نمرا ، وكتب إنه يقتل الظباء وأمثالها من الوحش ، وكتب
ما صنعت العقاب ، فأعجب قيصر حسن النمر ، وطابق صفته بوصف من الفهد ،
وغفل عنه ، فافترس بعض فتيانه ، فقال : صادنا كسرى ، فان كنا قد صدناه
فلا بأس

هذا ، وقد تغفل بنا الكلام عند ذكرنا لبحر جرجان وجزأره إلى الكلام
في أنواع الجوارح وأشكالها عند ذكرنا ملوك اليونانيين ، فلنرجع الآن إلى ذكر

الباب والأبواب ومن يلي السور من الأمم وجبل الفتح ، وقد قلنا : إن شر الملوك
 ممن جاورها من الأمم مملكة حيزان ، وملكهم رجل مسلم يزعم أنه من العرب
 من قحطان ، ويعرف بسلفان في هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ،
 وليس في مملكته مسلم غيره وولده وأهله ، وأرى أن هذه السمة يسمى بها كل
 ملك لهذا الصقع ، وبين مملكة حيزان وبين الباب والأبواب أناس من المسلمين
 عرب لا يحسنون شيئاً من اللغات غير العربية في آجام هناك وغياض وأودية وأنهار
 كبار من قرى قد سكنوها ، قطنوا ذلك الصقع منذ الوقت الذي افتتحت فيه
 تلك الديار من طراً من وادي العرب إليها ؛ فهم مجاورون لمملكة حيزان ، إلا أنهم
 ممتنعون بتلك الأشجار والأنهار ، وهم على نحو ثلاثة أميال من مدينة الباب
 والأبواب ، وأهل الباب يحذرونهم ، وأهل مملكة حيزان مما يلي جبل الفتح
 والسور لهم ملك يقال له مدرمان مسلم ، ويعرف بلده بالكرك ، وهم أصحاب الأعمدة
 وكل ملك يلي هذه المملكة يدعى مدرمان

ثم يلي مملكة مدرمان مملكة يقال لها عميق ، وأهلها أناس نصارى لا ينقادون
 إلى ملك ولهم رؤساء وهم مهادنون لمملكة اللان

ثم يليهم مما يلي السور والجبل مملكة يقال لها درلكران ، وتفسير ذلك عمل
 الزرد ، لأن أكثرهم يعمل الزرد واليكنب واللجم والسيوف وغير ذلك من أنواع
 الحديد ، وهم ذوو ديانات مختلفة : مسامون ، ويهود ، ونصاري ، وبلدهم بلدخشن
 قد امتنعوا لخشونته على من جاورهم من الأمم

ثم يلي هؤلاء مملكة السريرو ملكها يدعى قيلان شاه ، يدين بدين النصرانية ،
 وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب أنه من ولد بهرام جور ، وسمى صاحب
 السريرو لأن يزدجرد — وهو الآخر من ملوك ساسان — حين ولى منهزماً قدم
 سريرو الذهب وخزائنه وأمواله مع رجل من ولد بهرام ليسير بها إلى هذه المملكة
 فيحرزها هناك إلى وقت موافاته ، ومضى يزدجرد إلى خراسان فقتل هناك ،

وذلك في خلافة عمر رضى الله عنه على ما ذكرنا في هذا الكتاب وغيره من كتبنا ؛ فقطن ذلك الرجل في هذه المملكة ، واستولى عليها ، وصار الملك في عقبه ، فسمى صاحب السرير ، ودار مملكته تعرف بحرج ، وله اثنا عشر ألف قرية يستعبد منهم من شاء ، وله بلد خشن منيع لخشونته ، وهو شعب من جبل الفتح ، وهو يغير على الخزر مستظفرا عليهم لأنهم في سهل وهو في جبل

مملكة اللان

ثم تلى هذه المملكة مملكة اللان ، وملكها يقال له كركنداح ، هذا الاسم الأعم لسائر ملوكهم ، وكذلك قيلان شاه ، فهو الاسم الأعم لسائر ملوك السرير ، ودار مملكة ملك اللان يقال لها معص ، وتفسير ذلك المائة ، وله قصور ومنتزهات في غير هذه المدينة ينتقل في السكنى إليها ، وبينه وبين صاحب السرير مصاهرة في هذا الوقت ، وقد تزوج كل واحد منهما بأخت الآخر ، وقد كانت ملوك اللان بعد ظهور الاسلام في الدولة العباسية اعتقدوا دين النصرانية ، وكانوا قبل ذلك جاهلية ، فلما كان بعد العشرين والثلاثمائة رجعوا عما كانوا عليه من النصرانية ، وطردها من كان قبلهم من الأساقفة والقسيسين ، وقد كان أنفذهم إليهم ملك الروم ، وبين ملك اللان وجبل الفتح قلعة وقنطرة على واد عظيم يقال لهذه القلعة قلعة باب اللان ، بنى هذه القلعة ملك في قديم الزمان من الفرس الأوائل يقال له اسفنديار بن كشتاسب بن بهراسب ، ورتب في هذه القلعة رجالا يمنعون اللان عن الوصول إلى جبل الفتح ، ولا طريق لهم إلا على هذه القنطرة من تحت هذه القلعة ، والقلعة على صخرة صماء لا سبيل إلى فتحها والوصول إليها إلا بإذن من فيها ، ولهذه القلعة المبنية على أعلى هذه الصخرة عين من الماء عذبة تظهر في وسطها من أعلى هذه الصخرة ، وهذه القلعة إحدى قلاع العالم الموصوفة بالمنعة ، وقد ذكرتها الفرس في أشعارها ، وما كان لاسفنديار بن كشتاسب في بنائها ، ولا سفنديار في الشرق حروب كثيرة مع أصناف من الأمم ، وهو السائر إلى بلاد الترك ؛ فخر مدينة الصعر ، وكانت من المنعة بالموضع العظيم الذي لا يرام ، وبها ضرب الفرس

الأمثال ، وما كان من أفعال إسفنديار وما وصفنا فذكر في الكتاب المعروف بكتاب السيـكس ، نقله ابن المقفع إلى لسان العرب ، وقد كان مسالمة بن عبد الملك بن مروان حين وصل إلى هذا الصقع ووطىء أهله أسكن في هذه القلعة أناسا من العرب إلى هذه الغاية يحرسون هذا الموضع ، وربما يحمل إليهم الرزق وأقوات من البر من ثغر تقيس ، وبين تقيس وهذه القلعة مسيرة خمسة أيام كبار ، ولو كان رجل واحد في هذه القلعة لمنع سائر الملوك الكبار أن يجتازوا بهذا الموضع ؛ لتعلقها بالجو وإشرافها على الطريق والقنطرة والوادي ، وصاحب اللان يركب في ثلاثين ألف فارس ، وهو ذو منعة وبأس شديد وذو سياسة بين الملوك ، ومملكته عمائر ها متصلة غير منفصلة ، إذا تصايحت الديوك تجاوبت في سائر مملكته لاشتباك العائر واتصالها

ثم يلي مملكة اللان أمة يقال لها كمشك ، وهم بين جبل الفتح وبحر الروم ، أمة كمشك وهى أمة مطيعة منقادة إلى دين الجوسية ، وليس فيمن ذكرنا من الأمم في هذا الصقع أنقى أبشارا ، ولا أصفى ألوانا ، ولا أصبح نساء ، ولا أقوم قدودا ، ولا أدق أخصارا ، ولا أظهر أكفالا وأردافا ، ولا أحسن شكلا ؛ من هذه الأمة ، ونسأؤهم موصوفات بلذة الخلوات ، ولباسهم البياض والديباج الرومى والسقلاطونى وغير ذلك من أنواع الديباج المذهب ، وبياضهم أنواع من الثياب يصنع من القنب ، فيها نوع يقال له الطلى أرق من الديبقي وأبقى على السكد ، يبلغ الثوب عشرة دنائير ، يحمل إلى ما بينهم من الإسلام ، وقد تحمل هذه الثياب ممن جاورهم من الأمم إلا أن الموصوف منها ما يحمل من قبل هؤلاء ، واللان مستظهرة على هذه الأمة ، لا تنتصف هذه الأمة من اللان ، إلا أنها تمتنع من اللان بقلع لها على ساحل البحر ، وقد تنوزع في البحر الذى هم عليه : فمن الناس من يرى أنه بحر الروم ، ومنهم من يرى أنه بحر نيطش ، إلا أنهم يقربون في البحر من بلاد طاربندة ، والتجارة تتصل بهم منها في المراكب ، وتتجهز من قبلهم أيضا ، والعلة

في ضعفهم عن اللان تركهم أن يُمَلَّكوا عليهم ماسكا يجمع كلمتهم ، ولواجتمعت
كلمتهم لم يطقهم اللان ولا غيرها من الأمم ، وتفسير هذا الاسم وهو فارسي إلى
العربية الصَّافُ ، وذلك أن الفرس إذا كان الإنسان تأمها صافا قالوا : كمشك
وتلى هذه الأمة التي على هذا البحر أمة أخرى يقال لبلادهم السبع بلدان ،
وهي أمة كثيرة ممتنعة بعيدة الدار لا أعلم ملتها ، ولا نمتي إلى خبرها في دينها

إرم ذات العماد
وتليها أمة عظيمة بينها وبين بلاد كمشك نهر عظيم كالفرات يصب إلى بحر
الروم ، وقيل : إلى بحرمانطش ، ويقال لدار مملكة هذه الأمة إرم ذات العماد ،
وهم ذوو خلق عجيب ، وآراؤها جاهلية ، ولهذا البلد على هذا البحر خبر ظريف ،
وذلك أن سمكة عظيمة تأتيهم في كل سنة فيتناولون منها ، ثم توجد نحوهم من
الشق الآخر فيتناولون منها ، وقد عاد اللحم على الموضع الذي أخذ منه أولا ، وخبر
هذه الأمة مستفيض في تلك الديار من الكفار

ويلي هذه الأمة أمة بين جبال أربعة كل جبل منها ممتنع ذاهب في الهواء ،
وبين هذه الجبال الأربعة من المسافة نحو من مائة ميل صحراء ، في وسط تلك
الصحراء دارة مقورة كأنها قد خطت ببيكار ، وشكل دائرتها خسفة مجوفة في
حجر صلد منخفض كما تدور الدائرة ، استدارة تلك الخسفة نحو خمسين ميلا قطع
قديم يهوى سفلا كحائط مبنى من سفلى إلى علو يكون قعره على نحو مميلي طريق
لاسبيل إلى الوصول إلى مستوى تلك الدائرة ، ويرى فيها بالليل نيران كثيرة في
مواضع مختلفة ، وبالنهار يرى قرى وعمائر وأنهار تجري من تلك القرى وناس
وبهائم ، إلا أنهم يرون لطاف الأجسام بعد فعل الموضع ، لا يدري من أي
الأمم هم ، ولا سبيل لهم إلى الصعود من جهة من الجهات ، ولا سبيل لمن فوق
إلى النزول إليهم بوجه من الوجوه ، ووراء تلك الجبال الأربعة على ساحل البحر
خسفة أخرى قريبة القعر فيها آجام وغياض فيها نوع من القروء منتصبه القامات
مستديرة الوجوه الأغلب عليها صور الناس وأشكالهم ، إلا أنهم ذوو شعر ،

وربما وقع في النادر القرد منهم إذا احتيل في اصطیاده فيكون في نهاية الفهم والدراية ، إلا أنه لالسان له فيعبر بالنطق ؛ ويفهم كل ما يخاطب به بالإشارة ، وربما حمل الواحد منهم إلى ملوك الأمم من هناك فتعلمه القيام على رءوسها بالمذاب على موائدها ، ويلقى الملك له من طعامه : فإن أكله أكل الملك منه ، وإن اجتنبه علم أنه مسموم فحذر منه ، وكذلك الأكثر من ملوك السند والهند في القردة ، وقد ذكرنا في هذا الكتاب خبر وفد الصين حين وفدوا على المهدي ، وما ذكروا له من القرد في منافع ملوكهم به عند الطعام ، وذكرنا خبر القروء باليمن ، واللوح الحديد الذي كتبه سليمان بن داود عهدا للقروء بالسير ، وما كان من أمرهم مع عامل معاوية ، وما كتب به في أمرهم ، ووصف القرد العظيم الذي كان في رقبتة اللوح الحديد ، وليس في قروء العالم أفطن من هذا النوع ، ولا أخبت ، وذلك أب القردة تكون في بقاع الأرض الحارة : فمنها بأرض النوبة وأعلى بلاد الأحابش مما يلي أعلى مصب النيل القروء المعروفة بالنوبية ، وهي صغيرة القد صغيرة الوجوه ذات سواد غير حالك كأنه نوبي ، وهو الذي يكون مع القرايين ، ويصعد على رمح فيصير على أعلاه ، ومنها ما يكون في ناحية الشام في آجام وغياض نحو أرض الصقالبة وغيرها ممن هناك من الأمم كنحو ما وصفنا من هذا النوع من القروء وقرب شكله من صورة الإنسان ، ومنها الخلجانات بلاد الواصح وبحر الصين في مملكة المهر اج ملك الجزائر ، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب أن ملكه يوازي ملك الصين ، وهو بين مملكة البلهرا وملك الصين ، وهذه القروء مشهورة في الصقع معروفة بالكثرة في هذه الخلجانات ، وهي ذات صور تامة ، وقد كان حمل إلى المتندر منها ، وجاءت في سلاسل عظام ، وكان في القروء ذوو لحى وسبال كبار ، مع أنواع من الهدايا من عجائب البحر ، حمل ذلك أحمد بن أبي هلال أمير عمان يومئذ ، وهذه القروء أمرها مشتهر عند البحرين من أهل سيراف وعمان ممن يختلف إلى

وصف نوع
من القردة

أمكنة القروء

بلاد كلة والرائج ، وكيف تأتي بالحيلة لصيد التماسيح من جوف الماء ، على أن الجاحظ قد ذكر أن التماسيح لا تكون إلا بنيل مصر ونهر مهران السند ، وقد أخبرنا فيما سلف من هذا الكتاب عن إبطال ذلك وأخبرنا عن مواضع التماسيح ، فأما اليمن فلا تناكر بين من دخله في أن القروء منه في مواضع كثيرة لا يحصرها عدد لكثرتها في وادي نخلة ، وهي بين بلاد الجند وبلاد زيد التي أميرها في هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - إبراهيم بن زياد صاحب الحرمل ، وبين هذا الوادي وبين زيد يوم ، وبين الجند يوم أو أكثر من ذلك ، وهذا الوادي كثير العائر ، ومصاب المياه إليه كثيرة ، وشجر الموز فيه كثير ، والقروء فيه كثيرة ، وهو بين جبلين ، والقروء قطيعان كل قطيع منهما يسوقه هدر ، والهدر : الذكر العظيم كالفحل العظيم المقدم فيها ، وقد تلد القردة في بطن واحد عدة من القروء نحو العشرة والاثني عشر ، كما تلد الخنزيرة خناييص كثيرة ، وتحمل القردة البعض من أولادها كحمل المرأة ولدها ، ويحمل الذكر باقين ، ولهن مجالس يجتمع فيها خلق منهن فيسمع لهن حديث ومخاطبات وهممة ، والانات متحيزات عن الذكر ، فإذا سمع السامع محادثتهن وهو لا يرى أشخاصهن بين تلك الجبال وأشجار الموز ، وذلك بالليل ، لم يشك أنهم أناس لكثرتهم بالليل والنهار ، وليس في جميع البقاع التي تكون فيها القروء أحسن ولا أخبت ولا أسرع قبولا للتعليم من قردة اليمن ، وأهل اليمن يسمون القروء الرياح ، ولهم جُمٌّ للذكور والانات قد سُرحَت سود كأسود ما يكون من الشعر ، وإذا طلبوا يجلسون مراتب دون مرتبة الرئيس ، ويتشبهون في سائر أعمالهم بالناس ، ومن القردة باليمن ببلاد مأرب من بلاد صنعاء وقاعة كهلان ما يكون في برار وجبال هنالك كأنها السحب في تلك البراري والجبال لكثرتها ، وكهلان هذه قلعة من مخاليف اليمن فيها أسعد بن يعفر ملك اليمن في هذا الوقت مُحْتَجِبٌ عن الناس إلا خواصه ، وهو بقية من ملوك حمير ، وحوله من الجنود من الخيل

والرجال نحو خمسين ألفا مرتزقة يقبضون الرزق في كل شهر ، ويدعى وقت القبض البركة ، فيجتمعون هنالك ويتحذرون وينحذرون من تلك المخاليف ، والمخاليف : القلاع ، وقد كانت لهذا الرجل حروب باليمن مع القرامطة وصاحب المذبحرة وهو على بن الفضل ، وذلك بعد السبعين والمائتين ، وقد كان لهلى باليمن شأن عظيم حين قتل ، وتوطأت اليمن بهذا الرجل ، وباليمن للقروء مواضع كثيرة ، وكذلك في سائر بقاع الأرض أعرضنا عن ذكرها إذ كنا قد أتينا على علة تكونها في بعض البقاع دون بعض من الأرض وأخبار النسناس في كتابنا « أخبار الزمان » وكذلك الأخبار عن العرابد ، وهو نوع كالحيات يكون ببلاد حجر اليمامة فيما زعموا واحدها عربد ، وقد كان المتوكل في بدء خلافته سأل جبير ابن إسحق أن يتأق له في حمل أشخاص من النسناس والعربد ، فلم يسلم منهم إلى سر من رأى إلا اثنان من النسناس ، ولم تنأ له الحيلة في حمل العربد من اليمامة ، وذلك أن العربد هذا إذا خرج عن اليمامة وصار إلى موضع منها معروف المسافة عدم من الوعاء الذي حمل فيه ، وأهل اليمامة ينتفعون به لمنع الحيات والعقارب وسائر الهوام ، كمفعة أهل سجستان بالقنفاذ ، ولذلك كان في عهد سجستان القديم لا يقتل قنفذ ببلدهم ؛ لأنه بلد كثير الرمال بناه ذو القرنين في مطافه ، وحوله جبال كثيرة من الرمل قد سكرت بالخشب والقصب ، والبلد كثير الأفاعى والحيات جدا ، فلولاً كثرة القنفاذ لتلف من هنالك من الناس ، وكذلك أهل مصر في صعيدها وغيره لهم دويبة يقال لها العرائس أكبر من الجرذ وأصغر من ابن عرس حمراء بيضاء البطن لولا هذه الدويبة لغلب على أهل مصر الثعابين ، وهى نوع من الحيات عظيمة فينطوى الثعبان على الدويبة ويلتف بها فترخى عليه الريح فيقطع الثعبان من ريحها ، هذه خاصية هذه الدابة ، وفي الشرق أنواع من الخواص في بره وبحره وحيوانه ونباته وجماده ، وكذلك في الغرب واليمن وهو الجنوب والحرمي وهو الشمال ، وقد ذكرنا

أخبار العرابد
والنسناس

طبع كل واحد من هذه الأربع ففي ذكرها في هذا الباب خروج عن الغرض الذي يمتنا نحوه

فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه آنفا من الأمم المحيطة بالباب والأبواب والسور وجبل الفتح وبلاد الخزر واللان ، فنقول : إنه يلي بلاد الخزر فيما بينهم وبين المغرب أمم ترك ترجع إلى أب واحد وبدء أنسابهم ، حضر وبدو ، وذوو منعة وبأس شديد ، لكل أمة منها ملك ، مسافة مملكته أيام ، متصلة بممالكهم بعضها ببحر نيطش ، وتتصل عماراتها بمدينة رومية ، وبما يلي بلاد الأندلس ، مستظهرة على سائر ما هنالك من الأمم ، وبينهم وبين ملك الخزر مهادنة ، وكذلك مع صاحب اللان ، وديارهم تتصل ببلاد الخزر ، فالجيل الواحد منهم يقال له يحيى ، ثم تليها أمة ثانية يقال لها جعد ، ثم تليها أمة يقال لها بجنك ، وهى أشد هذه الأمم الأربعة بأسا ، ثم تليها أمة ثانية يقال لها البوكرده ، وملوكهم بدو ، وكان لهم حروب مع الروم بعد العشرين والثلاثمائة أو فيها ، وقد كان للروم في تخوم أرضهم فيما يلي من ذكرنا من هذه الأجناس الأربعة مدينة عظيمة يونانية يقال لها وليدر ، فيها خلق من الناس ومنعة بين الجبال والبحر ، فكل من فيها مانع لمن ذكرنا من الأمم ، ولم يكن لهؤلاء الترك سبيل إلى أرض الروم لمنع الجبال والشجر إياهم ، ومن في هذه المدينة ، وكان بين هؤلاء الأجناس حروب بخلاف وقع بينهم على رأس رجل مسلم تاجر من أرض أردبيل : كان نازلا على أرض بعضهم فاستضافه ناس من الجبل الآخر ، فاختلفت الحكمة ، وأغار من في وليدر من الروم على ديارهم وهم عنها خلوف ، فسبوا كثيرا من الذرية ، وساقوا كثيرا من الأموال ، ونمى ذلك إليهم وهم مشاغيل في حربهم ، فاجتمعت كلمتهم ، وتواهبوا ما كان بينهم من الدماء ، وعمد القوم جميعا نحو مدينة وليدر ، فساروا إليها في نحو ستين ألف فارس ، وذلك على غير احتفال منهم ولا تجمع ، ولو كان ذلك لكانوا في نحو مائة ألف فارس ، فلما نمى خبرهم إلى أرميوس ملك الروم في هذا

الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - سير إليهم اثني عشر ألف فارس من المتنصرة على الخيول بالرمح في زى العرب ، وأضاف إليهم خمسين ألفاً من الروم ، فوصلوا إلى مدينة وليدر في ثمانية أيام ، وعسكروا وراءها ، ونازلوا القوم ، وقد كانت الترك قتلت من أهل وليدر خلقاً من الناس ، وامتنع أهلها بسورهم إلى أن أتاها هذا المدد ، ولما صح عند الملوك الأربعة من سار إليهم من المتنصرة والروم بعثوا إلى بلادهم فجمعوا من كان قبليهم من تجار المسلمين ممن يطرأ إلى بلادهم من نحو بلاد الخزر والباب والالان وغيرهم ، وفي هؤلاء الأجناس الأربعة من قد أسلم ، وهم غير مخالطين لهم إلا عند حروب الكفار ، فلما تصاف القوم وبرزت المتنصرة أمام الروم خرج إليهم من كان قبل الترك من التجار المسلمين فدعواهم إلى ملة الإسلام وأنهم إن دخلوا في أمان الترك أخرجهم من بلادهم إلى أرض الإسلام ، فأبوا ذلك ، وتواقف الفريقان في ذلك الوقت ، فكانت المتنصرة والروم على الترك ؛ لأنهم كانوا في الكثرة أضعاف الترك ، وباتوا على مصافهم ، وتشاور ملوك الترك الأربعة فقال لهم ملك بجناك : قلدوني التدبير في غداة غد ، فأنعموا له بذلك ، فلما أصبح جعل في جناح الميمنة كراديس كثيرة كل كرويس منها ألف ، وكذلك في جناح الميسرة ، فلما تصاف القوم خرجت الكراديس من ناحية الميمنة فرشقت في قلب الروم فصارت إلى موضع من خرج من جناح الميمنة ، واتصل الرمي ، واتصلت الكراديس كالرحا ، والقلب والميمنة والميسرة للترك ثابتة ، والكراديس تعمل عليها في ألف ألف ، وذلك أن من خرج من كراديس الترك من جناح ميمنتهم كان يتبدى فيرمي في جناح ميسرة الروم ويمر بميمنتهم فيرمى وينتهي إلى القلب ، وما يخرج من كراديسهم من جناح الميسرة يرمى في جناح ميمنة الروم ، وينتهي إلى الميسرة فيرمى ، وينتهي إلى القلب فيرمى ، فيكون ملتقى الكراديس في القلب دائراً على ما وصفنا ، فلما نظرت المتنصرة والروم إلى ما لحقهم من تشويش صفوفهم وتواتر الرمي عليهم حملوا على القوم مشوشين في

مصافهم فصادفوا صفوف الترك ثابتة فأخرجت لهم الكراديس ، فرشقهم الترك كلها رشقا واحدا ، فكان ذلك الرشق سبب هزيمة الروم ، وعقبهم الترك بعد الرشق بالحملة على صفوفهم غير متشوفين ما كانوا عليه من التعبية ، وركضت الكراديس من اليمين والشمال ، وأخذ القوم السيف ، واسود الأفق ، وكثر صياح الخيل ، فقتل من الروم والمتصرة نحو من ستين ألفا حتى كان يصعد إلى سور المدينة على جثثهم ، فافتتحت المدينة ، وأقام السيف يعمل فيها أياما ، وسبى أهلها ، وخرج عنها الترك بعد ثلاث يؤمون القسطنطينية ، ثم توسطوا الهائر والمروج والضياع قتلا وأسرا وسبيا ، حتى نزلوا على سور القسطنطينية ، فأقاموا عليها نحو من أربعين يوما يبيعون المرأة والصبي منهم بالخرقة والثوب من الديباج والحرير ، وبذلوا السيف فلم يبقوا على أحد منهم ، وربما قتلوا النساء والولدان ، وشنوا الغارات في تلك الديار ، فاتصلت غاراتهم بأرض الصقالبة ورومية ، ثم اتصلت غاراتهم إلى نحو بلاد الأندلس والإفرنجة والجلالقة ، فغارات من ذكرنا من الترك متصلة إلى أرض القسطنطينية ، وما ذكرنا من الممالك إلى هذه الغاية

فلنرجع الآن إلى ذكر جبل الفتح والسور والباب والأبواب إذ كنا قد ذكرنا جملا من أخبار الأمم القاطنة في هذا الصقع ، فمن ذلك أن أمة تلى بلاد اللان يقال لها الانجاز منقادة إلى دين النصرانية ، ولها ملك في هذا الوقت يقال له الطبيعي ، ومملكة هذا الطبيعي موضع يعرف بمسجد ذي القرنين ، وكانت الانجاز والخزيرية تؤدي الجزية إلى صاحب ثغر تفليس منذ فتحت تفليس وسكنها المسلمون في أيام المتوكل ، فانه كان بها رجل يقال له إسحق بن إسماعيل ، وكان مستظفرا بمن معه من المسلمين على من حوله من الأمم ، وهم منقادون إلى طاعته وأداء الجزية إليه ، وعلا أمر من هناك من الأمم حتى بعث المتوكل بعثا فنزل على نهر تفليس ، وأقام عليها محاربا حتى افتتحها بالسيف وقتل إسحق بن إسماعيل ؛ لأن إسحق بن إسماعيل كان متعلبا على الناحية ، وكان له أخبار يطول ذكرها

وهي مشهورة في أهل ذلك الصقع وغيرهم ممن غنى بأخبار العالم ، وأراه رجلا من قريش من بنى أمية أو مولى لاحقا ، فانخرقت هيبة المسلمين من ثغر تقيس من ذلك الوقت إلى هذه الغاية ، فامتنع من جاورهم من الممالك من الازعان لهم بالطاعة ، واقتطعوا الأكثر من ضياع تقيس ، واقتطع الوصول من بلاد الإسلام إلى ثغر تقيس بين هؤلاء الأمم من الكفار ؛ إذ كانت محيطة بذلك الثغر ، وأهلها ذوو قوة وبأس شديد ، وإن كان ما ذكرنا من الممالك محيطة بهم ، ثم تلى مملكة خزران مملكة يقال لها الصمصحية ، نصارى وفيهم جاهلية لملك لهم ثم تلى مملكة هؤلاء الصمصحية بين ثغر تقيس وقاعة باب اللان المتقدم ذكرها مملكة يقال لها الصنبارية ، وملكهم يقال له كرسكوس ، هذا الاسم الأعم لسائر ملوكهم ، وينقادون إلى دين النصرانية ، وهؤلاء الصنبارية يزعمون أنهم من العرب من نزار بن معد بن مضر ، وأنهم فخذ من عقيل ، سكنوا هنالك في قديم الزمان ، وهم هناك مستظهرون على كثير من الأمم ، ورأيت ببلاد مأرب من أرض اليمن أناسا من عقيل مخالفة لمذحج ، لافرق بينهم وبين أحلافهم ؛ لاستقامة كلمتهم ، فيهم حيل كثيرة ومنعة ، وليس في اليمن كلها أحيل من نزار ابن معد غير هذا الفخذ من عقيل ، إلا ما ذكر من ولد أثمار بن نزار بن معد ، ودخولهم في اليمن حسب ما ورد به الخبر ، وهو ما كان من خبر جرير بن عبد الله البجلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وما كان من خبر بجيلة ، والصنبارية يزعمون أنهم افترقوا في قديم الزمان ، وهم من سمي من عقيل ببلاد مأرب في خبر طويل

ثم تلى مملكة الصنبارية مملكة سكين ، وهم نصارى وفيهم خلق من مملكة سكين المسلمين من التجار وغير ذلك ، ويقال لملكهم في هذا الوقت المؤرخ به كتابنا آزر بن نبيه بن مهاجر

ثم تليهم مملكة قبله وما حوت المدينة منها مسلمون وما حولها من العمائر مملكة قبله

مملكة
الصنبارية

والضياع نصارى ، ويقال لملكهم فى هذا الوقت المؤرخ به كتابنا هذا عنبسة الأعور ، وهو مأوى اللصوص والصعاليك والدُّعَّار

مملكة الموقان

ثم تلى هذه المملكة مملكة الموقان ، وهى التى قدمنا ذكرها ، وأنها متقلبة عليها ، وأنها مضافة إلى مملكة شروان شاه ، وليس هذا البلد المعروف بالموقانية هو الذى على ساحل بحر الخزر ، وقد كان محمد بن يزيد المعروف بشروان شاه فى هذا الوقت ملك الأران هو ومن سلف من آباءه ، وكان ملك شروان شاه على ابن الهيثم ، فلما هلك على تغلب محمد بن شروان شاه على حسب ما ذكرنا أيضا بعد أن قتل عمومة له واحتوى على ما ذكرنا من الممالك ، وله قلعة لا يذكر فى قلاع العالم أحسن منها فى جبل الفتح ، يقال : إنها فى الموضع المعروف بالسقط من المدينة وأما الحجارة والحيطان التى بناها ببلاد شروان المعروفة بسور الطين وسور الحجارة المعروف بالبرمكى وما يتصل ببلاد بردعة فقد أعرضنا عن ذكرها إذ كنا قد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا

وأما نهر الكر فيبتدىء من بلاد خزران من مملكة جرجير ، ويمر ببلاد الخان حتى يأتى ثغر تقليس ، ويشق فى وسطه ، ويجرى فى بلاد السلورية حتى ينتهى على ثمانية أميال من بردعة ، ويجرى إلى وداح ثم يصب فيه من ماء الصنارة نهر الرس ، ويظهر من أقاصى بلاد الروم من نحو مدينة طرار بنده حتى يجرى إلى السكر ، وقد صار فيه نهر الرس ، فيصب فى بحر الخزر ، ويجرى الرس بين بلاد الدبر — وهى بلاد بابك الحرمى — من أرض أذربيجان وجبل أبى موسى من بلاد الأران ، ويمر ببلاد ورتان ، وينتهى إلى حيث وصفنا ، وقد أتينا على وصف هذه الأنهار أيضا ، ونهر أسيدرود وجريانه فى أرض الديلم نحو قلعة سلام وهو ابن سوار بعض ملوك الديلم ، ومرور هذا النهر من الديلم إلى الجبل ، ويصب فيه نهر آخر فى بلاد الديلم يقال له شاهان رود ، فينتهى مصب الجميع إلى بحر الجبل ، وهو بحر الديلم والخزر وغيرهم على ما ذكرنا ، وعلى هذا النهر كثير من

دور الأعاجم ، ومن هناك من ملوكهم في هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين
وثلاثمائة — منهم أحوم داوان صاحب مدينة الري وطبرستان وغيرها من الجبل
فلندكر الآن ملوك السريان ، وهم أول من يعد في كتب الزيجات والنجوم
والتواريخ القديمة من ملوك العالم ، ثم ملوك الموصل وبنينوى ، ثم ملوك بابل وهم الذين
عمروا الأرض ، وشقوا الأنهار ، وغرسوا الأشجار ، وطعموا الثمار ، ومهدوا الوعر ،
وسهلوا الطريق ، ثم تتبع ذلك بالفرس الأولى ، وهم المعروفون بالحدان إلى أفريدون ،
ثم الاسكان إلى دارا بن دارا وهم السكون ، ثم ملوك الطوائف ، ثم الفرس الثانية ،
ثم اليونانيين ، ثم الروم ، ونذكر من يتلوهم من ملوك العرب والأمم والسودان
ومصر والإسكندرية وغير ذلك من بقاع الأرض ، إن شاء الله تعالى

ذكر ملوك السريانيين ولمع من أخبارهم

ذكر أهل العناية بأخبار ملوك العالم أن أول الملوك ملوك السريانيين بعد
الطوفان ، وقد تنوزع فيهم وفي النبط : فمن الناس من رأى أن السريانيين هم
النبط ، ومنهم من رأى أنهم إخوة لولد ماس بن نبيط ، ومنهم من رأى غير ذلك ،
وكان أول من ملك منهم رجل يقال له « سوسان » وكان أول من وضع التاج
على رأسه ، واتقادت له ملوك الأرض ، وكان ملكه ست عشرة سنة باغيا في
الأرض ، مفسدا للبلاد ، سفا كالدماء

ثم ملك ولد له يقال له « يزندس » وكان ملكه إلى أن هلك عشرين سنة
ثم ملك « سماسير » بن أول ، سبع سنين

ثم ملك بعده « أهريمور » عشر سنين ، فخط الخطط ، وكوّر الكوّر ،
وجد في أمره ، وإتقان ملكه ، وعمارة أرضه ، فلما استقامت له الأحوال وانتظم
له الملك بلغ بعض ملوك الهند ماعليه ملوك السريانيين من القوة وشدة العجالة ،
وأهم يحاولون الممالك ، وقد كان هذا الملك من ملوك الهند غالبا على ماحوله من

ممالك الهند ، وانقادت إلى سلطانه ، ودخلت في أحكامه ، وقيل : إن ملكه كان مما يلي السند والهند ، فسار نحو بلاد بسطوعرين ونعير وبلاد الداور على النهر المعروف بنهر ميد ، وهو نهر سجستان ينتهى جريانه على أربع فراسخ منها ، وهذا النهر عليه أهل سجستان وضياعهم ونخلهم وجبالهم ومنزهاتهم ، وهذا النهر يعرف بنهر بسط ، وتجرى فيه السفن من هناك إلى سجستان فيها الأقوات وغير ذلك ، ومن بسط إلى سجستان نحو من مائة فرسخ ، وبلاد سجستان هى بلاد الرياح والرمال ، وهو البلد الموصوف بأن الرياح به تدير الأرحية وتسقى الماء من الآبار وتسقى الجنان ، وليس فى الدنيا بلد — والله أعلم — أكثر منه استعمالا للرياح .

نهر ميد

وقد تنوزع فى مبدأ هذا النهر المعروف بنهر ميد : فمن الناس من رأى أن مبدأه من مبدأ نهر الكنك ، وهو نهر الهند ، ويمر بكثير من جبال السند ، وهو نهر حاد الانصباب والجريان ، عليه يعذب أكثر الهند أنفسها بالحديد وتفرقها زهدا فى هذا العالم ورغبة فى النقلة عنه ، وذلك أنهم يقصدون موضعا فى أعلى هذا النهر المعروف بالكنك ، وهناك جبال عالية ، وأشجار عادية ، ورجال جلوس وحدائد وسيوف منصوبة على ذلك الشجر ، وقطع من الخشب ، فتأتيهم الهند من الممالك النائية والبلدان القاصية ، فيسمعون كلام أولئك الرجال المرتبين على هذا النهر وما يقولون فى ترهيدهم فى هذا العالم والترغيب فيما سواه ، فيطرحون أنفسهم من أعلى تلك الجبال العالية على تلك الأشجار العادية والسيوف والحدائد المنصوبة ، فيتقطعون قطعا ، ويصيرون إلى هذا النهر أجزاء ، وما ذكرنا فموصوف عنهم وما يفعلون على هذا النهر كذلك

وصف

نوع عجيب من الشجر

وهناك شجر من إحدى عجائب العالم ونوادره والغرائب مما به فيظهر من الأرض أغصان مشتبكة من أحسن ما يكون من الشجر والورق ، فتستقيم فى الجوكأ بعد ما يكون من طوال النخل ، ثم ينحنى جميع ذلك منعكسا فيعود فى

الأرض مندسا ويهوى في قعرها سفلا على المقدار الذى ارتفع به فى الهواء ، حتى يغيب عن الأبصار ، ثم تظهر أغصان بادئة على حسب ماوصفنا فى الأول فتذهب الصعداء ، ثم تنقطر منعكسة ، ولا فرق بين المقدار الذى يذهب منها فى الهواء ويتسع فى الفضاء وبين ما يغيب منها تحت الأرض ويتوارى تحت الثرى ، فلو لا أن الهند قد وكلت بقطعه من يراعيه فى أمره لأمر يذكرونه وخطر فى المستقبل يصفونه لطبق على تلك البلاد ولغشى تلك الأرض ، ولهذا النوع من الشجر أخبار يطول ذكرها يعرفها من طرأ إلى تلك البلاد ورآها أو نعى إليه خبرها والهند تعذب أنفسها على ماوصفنا بأنواع العذاب من دون الأمم ، وقد تيقنت أن ما ينالها من النعيم فى المستقبل مؤجلا لا يكون بغير ما أسأفته من تعذيب أنفسها فى هذه الدار معجلا ، ومنهم من يصير إلى باب الملك يستأذن فى إحراقه نفسه ، فيدور فى الأسواق وقد أجمت له النار العظيمة عليها من قد وكل بإيقادها ، ثم يسير فى الأسواق وقدامه الطبول والصنوج ، وعلى يديه أنواع من خرق الحرير قد مزقها على نفسه ، وحوله أهله وقربته ، وعلى رأسه إكليل من الريحان ، وقد قشر جلده عن رأسه ، وعلابها الجمر وعليها الكبريت والسندروس ، فيسير وهامته وروائح دماغه تفوح وهو يمضغ ورق التنبول وحب القوفل ، والتنبول فى بلادهم ورق ينبت كأصغر ما يكون من ورق الأترج يمضغ هذا الورق بالنورة المبلولة مع القوفل ، وهو الذى غلب على أهل مكة وغيرهم من بقية أهل الحجاز واليمن فى هذا الوقت مضغه بدلا من الطيب ، ويكون عند الصنادلة للوزم وغير ذلك ، ففهم من يسميه القوفل ، وهذا إذا مضغ على ما ذكرنا بالورق والنورة شد اللثة ، وقوى عمود الأسنان ، وطيب النكهة ، وأزال الرطوبة المؤذية ، وشهى الطعام ، وبعث على الباه ، وحرر الأسنان حتى تكون كأحمر ما يكون من حب الرمان ، وأحدث فى النفس طربا وأريحية ، وقوى البدن ، وأثار من النكهة روائح طيبة ، والهند خواصها وعوامها تستقبح من أسنانه بيض وتجنب من لا يمضغ ماوصفنا ،

فإذا طاف هذا المعبذ لنفسه بالنار في الأسواق انتهى إلى تلك النار وهو غير مكترث ولا متغير في مشيته ولا متهيّب في خطوته ، ففهم من إذا أشرف على النار وقد صارت جمرًا كالتل العظيم يتناول خنجرًا - ويدعى الحرمى عندهم - فيضعه في لبتة ، ولقد حضرت ببلاد صيمور من بلاد الهند من اللارمن مملكة البلهرا ، وذلك في سنة أربع وثمانئة ، والملك يومئذ على صيمور المعروف بحاج ، وبها يومئذ من المسلمين نحو من عشرة آلاف قاطنين بياسرة وسيرافيين وبصريين وبغداديين وغيرهم من سائر الأمصار ممن قد تأهل وقطن في تلك البلاد ، وفيهم خلق من وجوه التجار مثل موسى وإسحق الصيداورى ، وعلى الهيرمة يومئذ أبوسعيد معروف بن زكريا ، وتفسير الهيرمة يراد به رأسه المسلمين يتولاه رجل منهم عظيم من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفة إليه ، ومعنى قولنا البياسرة يراد به من ولدوا من المسلمين بأرض الهند يدعون بهذا الاسم ، واحد يسر ، وجمعهم بياسرة ، فرأيت بعض فتيانهم وقد طاف على ما وصفنا في أسواقهم ، فلما دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقه ، ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده فجذب منها قطعة وهو يتكلم فقطعها بالخنجر ، فدفعها إلى بعض إخوانه تهاونا بالموت ولذة بالنقلة ، ثم هوى بنفسه في النار ، وإذا مات الملك من ملوكهم وقتل نفسه حرق خلق من الناس أنفسهم لموته ، يدعون هؤلاء البلاخرية ، واحد هم بلاخرى ، وتفسير ذلك المصادق لمن يموت فيموت بموته ويحيا بحياته

وللهند أخبار عجيبة تجزع من سماعها النفس : من أنواع الآلام والمقاتل التي تألم عند ذكرها الأبدان ، ويصفر من ذكرها الانسان ، وقد أتينا على كثير من عجائب أخبارهم في كتابنا « أخبار الزمان »

فلنرجع الآن إلى خبر ملك الهند ومسيره إلى بلاد سجستان ، وقصده مملكة السريانيين ، ونعدل عما احتدنا من أخبار الهند فنقول : كان هذا الملك من ملوك الهند يقال له زنبيل ، وكل ملك يلي هذا البلد من أرض الهند يسمى بهذا

الاسم زنبيل إلى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وكان بين الهند وبين الملوك السريانيين حروب عظام نحو من سنة ، فقتل ملك السريانيين ، واحتوى ملك الهند على الصقع ، وملك جميع ما فيه ، فسار إليه بعض ملوك العرب فأتى عليه ، وملك العراق ، ورد ملك السريانيين ، فملكوا عليهم رجلا منهم يقال له « سيرا » وكان ولد المقتول ، فكان ملكه إلى أن هلك ثمان سنين

ثم ملك بعده « أهريمون » وكان ملكه اثنتي عشرة سنة
 ثم ملك بعده ابن يقال له « هوريا » فزاد في العمارة ، وأحسن في الرعاية ،
 وغرس الأشجار ، وكان ملكه إلى أن هلك اثنتين وعشرين سنة
 ثم ملك بعده « مارث » واستولى على الملك ، وكان ملكه مدة خمس عشرة
 سنة ، وقيل : ثلاثا وعشرين سنة

ثم ملك بعده « أزور » و « خلنجاس » ويقال : إنهما كانا أخوين ، فأحسننا
 السيرة ، وتعاظدا على الملك ، ويقال : إن أحد هذين الملكين كان جالسا ذات
 يوم إذ نظر في أعلى قصره إلى طائر قد أفرخ هناك ، وإذا هو يضرب بجناحه
 ويصيح ، فتأمل الملك ذلك فنظر إلى حية تنساب إلى الوكر صاعدة لأكل
 فراخ الطائر ، فدعا الملك بقوس فرمى الحية فصرعها ، وسلمت فراخ الطائر ،
 فجاء الطائر بعد هنيئة يصفق بجناحه في منقاره حبة وفي مخاليبه حبتان ، وجاء إلى
 الملك وألقى ما كان في منقاره ومخاليبه ، والمملك يرمقه ، فوقع الحب بين يدي الملك ،
 فتأمله ، وقال : ما ألقى هذا الطائر ما ألقى إلا أنه أراد بلا شك مكافأتنا على فعلنا به ،
 فأخذ الحب وجعل يتأمله فلم يعرف مثله في إقليمه ، فقال جليس من جلسائه حكيم
 وقد نظر إلى حيرة الملك في الحب : أيها الملك ، ينبغي أن يودع النبات أرحام الأرض
 فإنها تخرج كنه ما فيه ، فتقف على الغاية منه ، وأداء ما في مخزونه ومكنونه ،
 فدعا بالأكرّة وأمرهم بزرع الحب ومراعاته ، وما يلدون منه ، فزرع ، فنبت
 وأقبل يلتف بالشجر ثم حصرم وأعنب ، وهم يرمقونه ، والمملك يراعيه ، إلى أن

أهريمون

هوريا

مارث

أزور
 وخلنجاس

اتهى فى البلوغ وهم لا يقدمون على ذوقه خوفاً أن يكون متلفاً ؛ فأمر الملك بعصر مائه ، وأن يودع فى أوانى وأفراد حب منه وتركه على حالته فلما صار فى الآنية عصيراً هدر وقذف بالزبد وفاحت له روائح عبقة ، فقال الملك : على بشيخ ، فأنى به ، فلدد له من ذلك فى إناء ، فراه لونا عجيبا ، ومنظرا كاملا ، ولونا ياقوتيا أحمر ، وشعاعا نيرا ، ثم سقوا الشيخ فما شرب ثلاثا حتى مال ، وأرخى من مآزره الفضول ، وحرك رأسه ، ووقع برجليه على الأرض ، فطرب ، ورفع عقيرته يتغنى ، فقال الملك : هذا شراب يذهب بالعقل ، وأخاف أن يكون قاتلا ، ألا ترى إلى الشيخ كيف عاد فى حال الصبا وسلطان الدم وقوة الشباب ؟ ثم أمر الملك به فزيد ، فسكر الشيخ ، فنام ، فقال الملك : هلك ، ثم إن الشيخ أفاق وطلب الزيادة من الشراب ، وقال : لقد شربته فكشف غى الغموم ، وأزال عن ساحتى الأحزان والهموم ، وما أراد الطائر إلا مكافأتكم بهذا الشراب الشريف ، فقال الملك : هذا أشرف شراب أهل الأرض ، وذلك أنه رأى شيخا قد حسن ، وقوى حيله ، وانبسط فى نفسه ، وطرب فى حال طبيعة الحزن وسلطان البلغم ، وجاد هضمه ، وجاءه النوم ، وصفا لونه ، واعتبرته أريحية ، فأمر الملك أن يمنع العامة من ذلك ، وقال : هذا شراب الملوك ، وأنا السبب فيه ، فان كان فلا يشربه غيرى ، فاستعمله الملك بقية أيامه ، ثم نما فى أيدي الناس واستعملوه ، وقد قيل : إن نوحا أول من زرعها ، وقد ذكر الخبر حين سرقها إبليس منه حين خرج من السفينة واستوى على الجودى فى كتاب المبدأ وغيره من الكتب

أول شرب
الخمر

ذكر ملوك الموصل ونينوى ، ولمع من أخبارهم

نينوى : هى مقابلة الموصل ، وبينهما دجلة ، وهى بين قردى ومازندى من كور الموصل ، ونينوى فى وقتنا هذا — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة — مدينة خراب فيها قرى ومزارع لأهلها ، وإلى أهلها أرسل يونس بن متى ، وآثار الصور فيها من أصنام فى حجارة مكتوبة على وجوهها ، وظاهر المدينة تل عليه مسجد ، وهناك عين تعرف بعين يونس النبي عليه السلام ، ويأوى إلى هذا المسجد النساك والعباد والزهاد

وكان أول ملك بنى هذه المدينة وسورها ملك عظيم قد دانت له الملوك ودانت له البلاد ، ويقال له سينوس بن يالوس ، فكانت مدة ملكه اثنتين وخمسين سنة

وكان بالموصل رجل آخر محاربا لهذا الملك ، وكانت بينهما حروب ووقائع ، ويقال : إن ملك الموصل كان فى ذلك العصر سابق بن مالك رجل من اليمين ثم ملك أهل نينوى عليهم بعده امرأة يقال لها « سيمون » فأقامت عليهم أربعين سنة تحارب ملوك الموصل ، وملكها من شاطئ دجلة إلى بلاد أرمينية ومن بلاد أذربيجان إلى حد الجزيرة والجودى وجبل النبيل إلى بلاد الزوزان وغيرها من أرمينية ، وكان أهل نينوى ممن سمينانبيطا وسريانيين ، والجنس واحد واللغة واحدة ، وإنما بان النبط عنها بأحرف يسيرة فى لغتهم ، والمقالة واحدة

ثم ملك بعد هذه المرأة « رسيس » ويقال : إنه كان ابنها ، وكان ملكه نحو من أربعين سنة ، ورجعت إليه الأرمن ، وقد كانت الحروب بينهم سجالات فى ملكه ، ثم غلبوا على أهل نينوى فكانت الحروب بين أهل أرمينية وبين ملوك الموصل

ويقال : إن هذا الملك آخر ملوك نينوى ، وكان يؤدى الضريبة إلى ملك

أول ملوك
نينوى

ملك سيمون

ملك رسيس

أرمينية ، وهؤلاء الملوك أخبار وسير وحروب قد أتينا على جميعها في كتابنا « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط

ذكر ملوك بابل ، وهم ملوك النبط وغيرهم

ذكر جماعة من أهل التبصر والبحث ، ومن ذوى العناية بأخبار ملوك العالم ؛ أن ملوك بابل هم أول ملوك العالم الذين مهدوا الأرض بالعارة ، وأن الفرس الأولى إنما أخذت الملك من هؤلاء ، كما أخذت الروم الملك من اليونانيين

نمرود الجبار وكان أولهم « نمرود » الجبار ، وكان ملكه نحواً من ستين سنة ، وهو الذى احتفر أنهاراً بالعراق آخذة من الفرات ، فيقال : إن من ذلك نهر كوثى بطريق من طرق الكوفة ، وهو بين قصر ابن هبيرة و بغداد ، لاختفاء خبره وشهرته ، وسند كرفيما يرد من هذا الكتاب كثيراً من أنهار العراق عند ذكرنا لملوك الفرس الأولى والثانية وغيرهم من ملوك الطوائف ، وإنما الغرض فى هذا الكتاب التلويح بتاريخ ملوك العالم والتنبيه على ماسلف من كتبنا

وملك بعده « أندلس » نحواً من سبعين سنة ، وكان عظيم البطش متجبراً فى الأرض ، وكانت فى أيامه حروب ، ثم ملك بعده « مرموس » نحواً من مائة سنة باغياً فى الأرض على أهلها ، ثم ملك بعده « سوسىوس » نحواً من تسعين سنة ، ثم ملك بعده « كورش » نحواً من خمسين سنة ، ثم ملك بعده « أئمر » نحواً من عشرين سنة ، ثم ملك بعده « شبرم » نحواً من أربعين سنة ، وقيل : أكثر من ذلك ، ثم ملك بعده « فرسميس » نحواً من سبعين سنة ، ثم ملك بعده « اينوس » نحواً من ثلاثين سنة ، ثم ملك بعده « ايلالوس » خمس عشرة سنة ، ثم ملك بعده « الحلوس » نحواً من أربعين سنة ، ثم ملك بعده « أومونوس » نحو ثلاثين سنة ، ثم ملك بعده « بهمكلوس » نحو ثلاثين سنة ثم ملك بعده « سفروس » نحو أربعين سنة ، وقد قيل دون ذلك ، وهلك ، ثم ملك بعده « مارنوس » نحو ثلاثين سنة ، ثم ملك بعده « رسطالين » أربعين سنة

بقية ملوك
بابل

ثم ملك بعده « اميرطوس » نحو ستين سنة ، ثم ملك بعده « العداس » نحو
 ثلاثين سنة ، ثم ملك بعده « ايليرنوس » نحو ستين سنة ، ثم ملك بعده
 « ساوشاش » نحو عشرين سنة ، ثم ملك بعده « فارينوس » نحو خمسين سنة ،
 وقيل : خمسا وأربعين سنة ، ثم ملك بعده « سوسادريوس » نحو أربعين سنة ،
 فغزاهم ملك من ملوك فارس من عقب دارا ، ثم ملك بعده « مسروق » نحو
 خمسين سنة ، ثم ملك بعده « ثايطوس » نحو ثلاثين سنة ، ثم ملك بعده « طايطوس »
 نحو أربعين سنة ، ثم ملك بعده « أقروس » نحو أربعين سنة ، ثم ملك بعده
 « لارسيس » نحو خمسين سنة ، وقيل : خمسا وأربعين سنة ، ثم ملك بعده
 « أفريطوس » نحو ثلاثين سنة ، ثم ملك بعده « مروطاوس » نحو عشرين سنة ،
 ثم ملك بعده « افيريس » نحو خمسين سنة ، ثم ملك بعده « منطوروس »
 نحو عشرين سنة ، ثم ملك بعده « قولاميا » نحو ستين سنة ، ثم ملك بعده
 « سعلس » خمسا وثلاثين سنة ، وقيل : خمسين سنة ، وكانت له حروب مع ملك
 من ملوك الصابئة ، كذلك ذكر في كتاب التاريخ القديم ، ثم ملك بعده
 « سيموجد » نحو ثلاثين سنة ، ثم ملك بعده « مردوخ » أربعين سنة ، وقيل
 أقل من ذلك ، ثم ملك بعده « سنخاريب » ثلاثين سنة ، وهو الذي أتى بيت
 المقدس ، ثم ملك بعده « سوسا » ثلاثين سنة ، وقيل أقل من ذلك ، ثم ملك
 بعده « بختنصر » الجبار خمسا وأربعين سنة ثم ملك بعده « قرمودح » نحو سنة
 ثم ملك بعده « نيطسعر » نحو ستين سنة ، وقيل أقل من ذلك ، ثم ملك بعده
 « مسنون » نحو ثمان سنين ، وقيل : عشرا ، ثم ملك بعده « معوسا » سنة ،
 وقيل أقل من ذلك ، ثم ملك بعده « دارنوس » إحدى وثلاثين سنة ، وقيل
 أكثر من ذلك ، ثم ملك بعده « كسرحوس » عشرين سنة ، ثم ملك بعده
 « فنجشمت » إحدى وأربعين سنة ، ثم ملك بعده « أحرست » ثلاث سنين ،
 وقيل : سنتين وشهرين ، ثم ملك بعده « شعيا » سنة ، وقيل : تسعة أشهر ، ثم

ملك بعده « أريوس » عشرين سنة ، وقيل : تسع عشرة سنة ، ثم ملك بعده « أطحست » تسعا وعشرين سنة ، ثم ملك بعده « دار التسع » خمس عشرة سنة ، وقيل : عشر سنين

قال المسعودى : فهؤلاء الملوك الذين أتينا على ذكرهم ، وأسمائهم ، ومدة مملكتهم ، وقد رسمت أسماؤهم هكذا فى كتب التواريخ الساففة ، وهم الذين شيدوا البنيان ، ومدّوا المدن ، وكوّروا الكور ، وحفروا الأنهار ، وغرسوا الأشجار ، واستنبطوا المياه ، وأثأروا الأرضين ، واستخرجوا المعادن من الحديد والرصاص والنجاس وغير ذلك ، وطبعوا السيوف ، واتخذوا عدة الحرب ، وغير ذلك من الحيل والمكايد ، ونصبوا قوانين للحرب بالقلب والميمنة والميسرة والأجنحة ، وجعلوا ذلك مثالا لأعضاء جسد الانسان ، ورتبوا لكل جزء نوعا من الأمة لايوازيها غيرها : فجعلوا أعلام القلب على صورة الفيل وماعظم من أجناس الحيوان ، وجعلوا أعلام الميمنة والميسرة على صورة السباع على حسب عظمتها واختلافها فى أنواعها ، وجعلوا فى الأجنحة صور ما لطف من السباع كالنمر والذئب ، وجعلوا صور أعلام الكيمياء على صور الحيات والعقبان وما خفى فعله من هوام الأرض ، وجعلوا ألوان كل نوع منها من السواد والبياض والصفرة والخضرة ولون السماء

وقد ذكر قوم أن الألوان ثمانية على حسب الموضع المستحق لها ، ومنعوا أن تكون الحمرة تشرب شيئا من ذلك إلا ما لطف من أجزائها داخلها فى جملة الأكثر من أشباه الحيوان من تلك الأعلام ، وزعموا أن قضية القياس توجب أن تكون سائر أعلام الحرب حمراء ؛ إذ كانت أليق وأشكل بلون الدم ، وأكثر ملاءمة ، إذ كان لونهما واحدا ، لكن منع من ذلك استعمالها فى حال الزينة والطرب وأوقات السرور ، واستعمال النساء والصبيان لها ، وفرح النفوس بها ، وأوجب ترك ذلك ، وإن حسن البصر مشاكل للون الحمرة ؛ إذ كان من

شأنه أنه إذا أدركها انبسط نوره في إدراكها ، وإذا وقع البصر على اللون الأسود اجتمع نوره ولم ينبسط في إدراكه انبساطه في الحمرة ، وأن النسبة الواقعة بين بصر الناظر وبين لون الحمرة الاشتراك ، والمباينة بالضدية بين نور البصر ولون السواد

وتكلم هؤلاء القوم في مراتب الألوان من الحمرة والسواد والبياض وغيرها ، ومرتبات الأنوار ، وما وجه ذلك من أسرار الطبيعة ، والحد المشترك بين نورية حسن البصر وبين لون الحمرة والبياض ، والحد المبين بين السواد وبين نور البصر ، دون سائر الألوان من الحمرة والخضرة والصفرة والبياض ، وتغلغل القوم في هذه المعاني إلى ماعلا من الأجسام السماوية من النيرين والخمسة واختلافها في ألوانها ، إلى غير ذلك من الأشخاص العلوية

وقد أتينا على ما قالوه من ذلك فيما سلف من كتبنا ، وأتينا على سير هؤلاء الملوك وأخبارهم واختلافهم في كتابنا « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط وقد ذهبت طائفة من الناس إلى أن هؤلاء الملوك كانت من النبط ، وغيرهم من الأمم ، وأنه كان يرأس بعضهم غيره من ملوك الفرس ممن كان مقما ببلخ ، والأشهر ما قدمنا ، وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب لمعا من أخبار النبط وأنسابهم

X ذكر ملوك الفرس الأولى، ووجمل من أخبارهم

الفرس تخبّر مع اختلاف آرائها وبعد أوطانها وتباينها في ديارها وما ألزمتها أنفسهم من حفظ أنسابها ، ينقل ذلك باق عن ماض ، وصغير عن كبير ، أن أول ملوكهم « كيومرث » ثم تنازعوا فيه : فمنهم من زعم أنه ابن آدم ، والأكبر من ولده ، ومنهم من زعم — وهم الأقلون عدداً — أنه أصل النسل ، وينبوع الذرء ، وقد ذهبت طائفة منهم إلى أن كيومرث هو أميم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح ، لأن أميم أول من حل بفارس من ولد نوح ، وكان كيومرث ينزل بفارس ، والفرس لاتعرف طوفان نوح ، والقوم الذين كانوا بين آدم ونوح عليهما السلام كان لسانهم سريانيا ، ولم يكن عليهم ملك ، بل كانوا في مسكن واحد والله أعلم بذلك

نسب
كيومرث

وكان كيومرث أكبر أهل عصره ، والمقدّم فيهم ، وكان أول ملك نصب في الأرض — فيما يزعمون — وكان السبب الذي دعا أهل ذلك العصر إلى إقامة ملك ونصب رئيس أنهم رأوا أكثر الناس قد جيلوا على التباغض والتحاسد والظلم والعدوان ، ورأوا أن الشرير منهم لا يصلحه إلا الرهبة ، ثم تأملوا أحوال الخليقة ، وتصرف شأن الجسم ، وصورة الإنسان الحساس الدراك ؛ فأروا الجسم بنيتة وكونه قد رتب بحواس تؤدي إلى معنى هو غيرها يوردها ويصدها ويميزها بما تورده إليه من أخلاقها في مداركها ، وهو معنى في القلب ، فأروا صلاح الجسم بتدبيره ، وأنه متى فسد تدبيره فسد سائر ، ولم تظهر أفعاله المتقنة المحكمة ؛ فلما رأوا هذا العالم الصغير الذي هو جسد الإنسان المرئي لاتستقيم أموره ولا تنتظم أحواله إلا باستقامة الرئيس الذي قدمنا ذكره علموا أن الناس لا يستقيمون إلا بملك : ينصفهم ، ويوجه العدل عليهم ، وينفذ الأحكام على ما يوجه العقل بينهم ، فساروا إلى كيومرث بن آدم ، وعرفوه حاجتهم إلى ملك وقيم ، وقالوا : أنت أفضلنا ،

كيومرث أول
ملوك الأرض

Contrast
Social

وأشرفنا ، وأكبرنا ، وبقية أئبنا ، وليس في العصر من يوازيك ، فردَّ أمرنا إليك ، وكن القائم فينا ؛ فإنَّنا تحت سمعك وطاعتك ، والقائلون بما تراه ، فأجابهم إلى مادعوه إليه ، واستوثق منهم بأ كيد العهود والمواثيق على السمع والطاعة وترك الخلاف عليه ، فلما وضع التاج على رأسه ، وكان أول من ركب التاج على رأسه من أهل الأرض ، قال : إن النعم لا تدوم إلا بالشكر ، وإنا نحمد الله ونشكره على نعمه ، ونرغب إليه في مزيد ، ونسأله المعونة على ما دفعنا إليه ، وحسن الهداية إلى العدل الذي به يجتمع الشمل ويصفو العيش ، ففتقوا بالعدل منا ، وأنصفونا من أنفسكم بورودكم إلى أفضل ما في هممكم ، والسلام
فلم يزل كيومرث قائما بالأمر ، حسن السيرة في الناس ، والحال آمنة ، والأمة ساكنة إلى أن مات

ولهم في وضع التاج على الرأس أسرار يذكرونها أعرضنا عن ذكرها ؛ إذ كنا قد أئبنا على ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط ، وذكروا أن كيومرث أول من أمر بالسكوت عند الطعام لتأخذ الطبيعة بقسطها فيصلح البدن بما يرد إليه من الغذاء ، وتسكن النفس عند ذلك ، فتدبر كل عضو من الأعضاء تدييرا يؤدي إلى ما فيه صلاحه من أخذ صفو الطعام ؛ فيكون الذي يرد إلى الكبد وغيره من الأعضاء القابلة للغذاء ما يناسبها ، وما فيه صلاحها ، فان الإنسان متى شغل عن طعامه بضرب من الضروب انصرف قسط من التدبير وجزء من التقدير إلى حيث انصباب الهمة ووقوع الاشتراك ، فأضر ذلك بالأنفس الحيوانية والقوة الانسانية ، وإذا كان ذلك أدى إلى مفارقة النفس الناطقة لهذا الجسد المرئي ، وفي ذلك ترك للحكمة وخروج عن الصواب

ولهم في هذا الباب سر لطيف من أسرار السبب الذي بين النفس والجسم ليس هذا موضعه ، وقد أئبنا على ذكره في الكتاب المترجم « بسر الحياة » وفي كتاب « الزلف » عند ذكرنا النفس الناطقة والنفس العلامة والنفس الحسية

والخيلة والنزاعية ، وما قال الناس في ذلك من تقدم وتأخر من الفلاسفة وغيرهم وقد تنوزع في مقدار عمر كيومرث هذا : فمن الناس من رأى أن عمره ألف سنة ، وقيل دون ذلك ، وللمجوس في كيومرث هذا خطب طويل في أنه مبدأ النسل وأنه نبت من نبات الأرض ، وهو الريباس ، هو وزوجته وهما شانة ومشانة ، وغير ذلك مما يفحش إيراده ، وما كان من خبره مع إبليس ، وقتله إياه ، وكان ينزل إصطخر فارس ، وكانت مدة ملكه أربعين سنة ، وقيل : أقل من ذلك ثم ملك بعده «هوشنج» بن قروال بن سيامك بن متشان كيومرث الملك ، وكان هوشنج ينزل الهند ، وكان ملكه أربعين سنة ، وقيل أكثر من ذلك ، وقد تنوزع فيه : فمنهم من رأى أنه أخ لكيومرث بن آدم ، ومنهم من رأى أنه ولد الملك الماضي

ملك هوشنج

ثم ملك بعده « طخمورث » بن أنوجهان بن استحد بن هوشنج ، وكان ينزل نيسابور ، وظهر في سنة من ملكه رجل يقال له « أيوداسف » أحدث مذاهب الصابئة ، وقال : إن معالي الشرف الكامل ، والبلاغ الشامل ، ومعدن الحياة في هذا السقف المرفوع ، وإن الكواكب هي المدبرات والواردات والصادرات ، وهي التي بمرورها في أفلاكها وقطعها مسافاتها واتصالها بنقطة وانفصالها عن نقطة يتم ما يكون في العالم من الآثار : من امتداد الأعمار وقصرها ، وتركب البسائط ، وانبساط المركبات ، وتنظيم الصور ، وظهور المياه وغيضها ، وفي النجوم السيارة في أفلاكها التدوير الأكبر ، وغير ذلك مما يخرج وصفه عن حد الاختصار والإيجاز ، واحتذى به جماعة من ذوى الضعف في الآراء ، فيقال : إن هذا الرجل أول من أظهر آراء الصابئة من الحرايين والكيمياريين ، وهذا النوع من الصابئة مبانيون للحرايين في نحلتهن ، وديارهم في بلاد واسط والبصرة من أرض العراق نحو البطائح والآجام ، فكان ملك طخمورث إلى أن هلك ثلاثين سنة ، وقيل غير ذلك

ملك
طخمورث

إحداث مذهب
الصابئة

ثم ملك بعده أخوه « جمشيد » بن أنوجهان ، وكان ينزل بفارس ، وقيل :
 إنه كان في زمانه طوفان ، وذهب كثير من الناس إلى أف النيروز في أيامه
 أحدث ، وفي ملكه سمى ، على حسب ما نورد في هذا الكتاب ،
 كذلك ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى عن عمر المعروف بكسرى ، وكان هذا
 الرجل من أشهر بعلم فارس وأخبار ملوكها حتى لقب بعمر كسرى ، وكان ملك
 جمشيد إلى أن هلك ستمائة سنة ، وقيل : تسعمائة سنة وستة أشهر ، وأحدث
 في الأرض أنواعا من الصناعات والأبنية وادعى الإلهية

ثم ملك بعده « بيوراسب » بن أرواسب بن رستوان بن نباداس بن
 طارح بن قروال بن ساهر فرس بن كيومرث ، وهو الدهاك ، وقد عرب اسمه
 جميعا فسماه قوم من العرب الضحاك ، وسماه قوم بهراسب ، وليس هو كذلك ،
 وإنما اسمه على ما وصفنا بيوراسب ، وقتل جمشيد الملك ، وقد تنوزع فيه : أمن
 الفرس كان أم من العرب ؟ فرعمت الفرس أنه منها ، وأنه كان ساحرا ، وأنه ملك
 الأقاليم السبعة ، وأن ملكه كان ألف سنة ، وبقي في الأرض ، وللفرس فيه
 خطب طويل ، وأنه مقيد مغل في جبل دباوند بين الري وطبرستان ، وقد ذكرته
 شعراء العرب ممن تقدم وتأخر ، وقد افتخر أبو نواس به ، وزعم أنه من اليمن ؛
 لأن أبا نواس مولى لسعد العشيرة من اليمن ، فقال :

وَكَانَ مِنَّا الضَّحَّاكُ تَعْبُدُهُ الْجَاهِلُ وَالْوَحْشُ فِي مَسَارِيهَا

ثم ملك بعده « أفريدون » بن أثقبان بن جمشيد المالك لأقاليم الأرض ، ملك أفريدون
 فأخذ بيوراسب ، فقيده في جبل دباوند على حسب ما ذكرنا ، وقد ذكر كثير من
 الفرس ومن غنى بأخبارهم مثل عمر كسرى وغيره أن أفريدون جعل هذا اليوم
 الذي قيد فيه الضحاك عيدا له ، وسماه المهرجان ، على حسب ما نورد بعد هذا
 الموضع من هذا الكتاب ، وما قيل في ذلك ، وكانت دارمملكة أفريدون بابل ،
 وهذا الإقليم يسمى باسم قرية من قراه يقال لها بابل على شاطئ نهر من أنهار

الفرات بأرض العراق على ساعة من المدينة المعروفة بجسر بابل ، ونهر النرس : قرية بالعراق وإليها تضاف الثياب النرسية ، وفي هذه القرية جب يعرف بجب دانيال النبي عليه السلام تقصده النصارى واليهود في أوقات من السنة في أعيادهم ، وإذا أشرف الانسان على هذه القرية تبين فيها آثارا عظيمة من ردم وهدم وبنيان قد صارت كالروابي ، وذهب كثير من الناس إلى أن بها هاروت وماروت ، وهما الملكان المذكوران في القرآن على حسب ماقص الله تعالى من تسمية هذه القرية ببابل . وكان ملك أفريدون خمسمائة سنة ، وقيل أقل من ذلك ، وقيل أكثر ، وقسم الأرض بين ولده ، وقد قال في ذلك بعض الشعراء ممن سلف من أبناء الفرس بعد الاسلام يذكر ولد أفريدون الثلاثة

وقسمنا ملكنا في دهرنا * قسمة اللحم على ظهر وضم
وجعلنا الشام والروم إلى * مغرب الشمس إلى القطرى سلم
وأطوج جعل التل له * فبلاد التل يحويها ابن عم
ولاً إيران جعلنا عنوة * فارس الملك وفرنا بالنعم

والناس فيما ذكرنا خطب طويل ، وأن بلاد بابل أضيفت إلى ولد أفريدون وهو إيراج ، وقتله أخواه في حياة أفريدون ، وهلك فلم يخلص له الملك فيعد في الملوك وسند كر فيما يرد من هذا الكتاب كيفية إضافة هذا الاقليم إلى إيراج وإسقاطهم الجيم وجعلهم النون بدلا منها فقالوا : إيران شهر ، والشهر : الملك

ملك منوجهر ثم ملك بعد أفريدون « منوجهر » بن إيران بن أفريدون على حسب ما ذكرنا من التنازع في نسبه وإلحاقه بإيران بن أفريدون ، وكان ملكه عشرين سنة ، وكان ينزل ببابل ، وقد قيل : إنه في زمانه كان موسى بن عمران ويوشع ابن نون عليهما السلام ، وكان لمنوجهر حروب مع عميه اللذين قتلا أباه وهما أطوج وسلم ، وقد أتينا على ذكر حروبهم فيما سلف من كتبنا

ثم ملك بعد منوجهر «سهم» بن أبان بن أثقبان بن يود بن منوجهر ، ملك سهم
فنزله بابل ، وملك ستين سنة ، وقيل أكثر من ذلك ، وكانت له حروب كثيرة
وسير وسياسات كثيرة قد أتينا على ذكرها في كتابنا « أخبار الزمان »

ثم ملك بعده «فراسياب» بن أطوج بن ياسر بن رامى بن أرس بن بورك بن ملك فراسياب
ساساس بن زسست بن نوح بن دوم بن سرور بن أطوج بن أفريدون الملك ،
وكان مولد فراسياب ببلد التل ؛ فلذلك غلط من غلط من أصحاب الكتب
والتصنيفات في التاريخ وغيره فزعم أنه تركى ، وكان تملكه على ماغلب عليه من
البلاد اثنتى عشرة سنة ، وعمره عند كثير من الناس أربعاً وثمانين سنة
ولا اثنتى عشرة سنة خلت من ملكه ظهر عليه زوبن بهاست بن كجهور
ابن عداست بن رايريج بن راع بن ماسر بن يود بن منوجهر الملك ، فهزمه وقتل
أصحابه بعد حروب كثيرة وعمر ماخر به فراسياب

وقد تنوزع في المقدار الذى ملك فيه : فقليل ثلاث سنين ، وقيل أكثر من
ذلك ، وكان مسكنه ببابل ، وللفرس كلام طويل في قتل فراسياب وكيفية
قتله وحروبه ، وما كان بين الفرس والتل من الحروب والغارات ، وما كان من
قتل سياوخش وخبر رستم بن دستان ، هذا كله مشروح في الكتاب المترجم
بكتاب السكيكين ترجمة ابن المقفع من الفارسية الأولى إلى العربية ، وخبر
اسفنديار بن كشتاسب بن بهراسب وقتل رستم بن دستان ، وما كان من قتل
بهمن بن اسفنديار لرستم وغير ذلك من عجائب الفرس الأولى وأخبارها ، وهذا
الكتاب تعظمه الفرس لما قد تضمن من خبر أسلافهم وسير ملوكهم ، وقد أتينا
بحمد الله على كثير من أخبارهم فيما سلف من كتبنا

وقد قيل : إن أول من نزل من الملوك بلخ وانتقل عن العراق كيكاووس ، وقد
كان سار نحو اليمن بعد أن كان له بالعراق تمرّد على الله ، وبنين بناءه لحرب
السماء ، وكان ملك اليمن الذى سار إليه كيكاووس فى ذلك الوقت شمر بن

فريقس ، فخرج إليه شمر فأسره وحبسه في أضيق محبس ، فهو يئنه ابنة لشمر يقال لها سعدى ، كانت تحسن إليه في خفية من أيها ، وإلى من معه من أصحابه ، ومكث في محبسه أربع سنين ، حتى أسر رستم بن دستان من بلاد سجستان سرية فيها أربعة آلاف ، فقتل ملك اليمن شمر بن فريقس ، واستنقذ كيكاووس ، وردّه إلى ملكه ، وسعدى معه ، فاعتلت عليه ، وأغرته بولده سياوخش ، حتى كان من أمره مع فراسياب التركي واستمّانه إليه وتزوجه بابنته حتى حملت منه بكيخسرو ، وما كان من قتل فراسياب بسياروخش بن كيكاووس ، وقتل رستم ابن دستان لسعدى ، وأخذ بطائلة سياوخش ، فقتل من قتله من وجوه الترك ، وعند الفرس على مافى كتاب السكيكين أن كيخسرو كان قبله على الملك جده لأبيه ، وهو كيكاووس ، ولم يعلم من هو ، ولم يكن لكيخسرو وعقب ، فجعل الملك في لهراسب ، وهؤلاء القوم كانوا يسكنون بلخ ، وكانت دار مملكتهم ، وكان يدعى نهر بلخ - وهو جيحون - بلغتهم كالف ، وكذلك يسميه كثير من أعاجم خراسان في هذا الوقت بهذا الاسم

فلم يزالوا كذلك إلى أن صار الملك إلى « حاي » ابنة بهمن بن اسفنديار ابن كشتاسب بن بهراسب ، فانتقلت إلى العراق ، وسكنت نحو المدائن

ملك كيخسرو ثم كان بعد كيخسرو بن سياوخش بن كيكاووس الملك إلى « لهراسب » ابن قنوج بن كيمس بن كينا سس بن كيناسة بن كيقباز الملك ؛ فعمر البلاد ، وأحسن السيرة لرعيته ، وشملهم عدله ولسنين خلت من ملكه نال بنى إسرائيل منه محن ، وشتمهم في البلاد ، وكانت له معهم أقاضيض يطول ذكرها

وذكر في بعض الروايات من أخبار الفرس أنه بنى بلخ الحسنة لما فيها من الميانه والشجر والمروج

وكان ملكه مائة وعشرين سنة ، وقد ذكر خبر مقتله مع الترك وما كان منهم في حصاره وقد أخذ بثاره بعد قتله في كتب قدماء الفرس

وقد ذكر كثير من غنى بأخبار الفرس أن يختصر مرزبان العراق ^{بختنصر} وبني إسرائيل والمغرب كان من قبل هذا الملك ، وهو الذي وطأ الشام ، وفتح بيت المقدس ، وسبى بني إسرائيل ، وكان من أمره بالشام والمغرب ما قد اشتهر ، والعامه تسميه البخت ناصر ، وأكثر الأخباريين والقصاص يغالون في أخباره ، ويبالغون في وصفه ، والمنجمون في زيجاتهم وأهل التواريخ في كتبهم يجعلونه ملكا ، وإنما كان مرزباناً على ما وصفنا للملوك ممن ذكرنا ، وتفسير مرزبان يراد به صاحب ربع من المملكة وصاحب ناحية ، وواليتها ، وقد كان حمل سببايا بني إسرائيل إلى الشرق ، وتزوج منهن امرأة يقال لها دينار ، فكانت سبب رد بني إسرائيل إلى بيت المقدس

وقيل : إن دينار أولدها لهراسب بن كشتاسب ، وقيل غير ذلك من لوجوه ، وإن حناى من نسل بني إسرائيل من أمها

وقيل : إن لهراسب قد كان أنفذ سنخاريب ، وكان خليفته على العراق ، إلى حرب بني إسرائيل فلم يصنع شيئاً ، فعقب بعده بالبخت نصر ، وقيل في البخت نصر غير ما ذكرنا مما سنورده بعد هذا الموضع في ذكر ملك بهمن بن اسفنديار بن كشتاسب بن بهراسب .

وقد أرخ بطليموس صاحب كتاب المجسطى تاريخ كتاب من عهد بخت نصر مرزبان المغرب ، وأرخ بابون صاحب كتاب القانون في النجوم من مملكة الاسكندر بن فيلبش المقدوني

ثم ملك بعده « زرادشت » بن استيان ، وقيل : إنه زرادشت بن بورسمت زرادشت متبني ^{المجوس} ابن قيدارست بن أركردشت بن هجنددست بن حبجيس بن مامير بن أرحدس ابن هزران بن استيان بن داندست بن هايروم بن أرح بن دوسر بن منوجهر الملك ، (١٣ - ١)

وكان من أهل أذربيجان ، والأشهر من نسبه أنه زرادشت بن استيان ، وهو نبي المجوس الذي أتاهم بالكتاب المعروف بالزمزمة عند عوام الناس ، واسمه عند المجوس نسياء ، وأتى زرادشت عندهم بالمعجزات الباهرات للعقول ، وأخبر عن الكائنات من المغيبات قبل حدوثها من الكليات والجزئيات ، والكليات : هي الأشياء العامة ، والجزئيات : هي الأشياء الخاصة ، مثل زيد يموت يوم كذا ، ويمرض فلان في وقت كذا ، ويولد لفلان في وقت كذا ، وأشبه ذلك ، ومعجم هذا الكتاب يدور على ستين حرفاً من أحرف المعجم ، وليس في سائر اللغات أكثر حروفاً من هذا ، ولهم خطب طويل قد أتينا على ذكره في كتابينا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، وأتى زرادشت بكتابهم هذا بلغة يعجزون عن إيراد مثلاً ، ولا يدركون كنه مرادها ، وسندكر بعد هذا الموضع من هذا الكتاب ما أتى به زرادشت ، وما جعل له من التفسير وتفسير التفسير ، وكتب هذا الكتاب في اثني عشر ألف مجلد بالذهب فيه وعد ووعيد ، وأمر ونهى ، وغير ذلك من الشرائع والعبادات ، فلم تزل الملوك تعمل بما في هذا الكتاب إلى عهد الاسكندر وما كان من قتله لدارا بن دارا فأحرق الاسكندر بعض هذا الكتاب ثم صار الملك بعد الطوائف إلى أردشير بن بابك ، فجمع الفرس على قراءة سورة منه يقال لها إسناد ، فالفرس في هذا الوقت لا يقرؤن غيرها من الكتاب الأول نسياء .

ثم عمل زرادشت تفسيراً عند عجزهم عن فهمه ، وسموا التفسير زيدا ، ثم عمل للتفسير تفسيراً ، وسماه بازيد ، ثم عمل علماؤهم بعد وفاة زرادشت تفسيراً لتفسير التفسير وشرحاً لسائر ما ذكرنا ، وسموا هذا التفسير بارده ؛ فالمجوس إلى هذا الوقت يعجزون عن حفظ كتابهم المنزل ، فصارع علماؤهم وموابدتهم يأخذون كثيراً ممن يحفظ أسباعاً من هذا الكتاب وأرباعاً وأثلاثاً ، فيبتدئ كل واحد بما حفظ من جزئه فيتلوه ، ويبتدئ الثاني منهم فيتلو جزءاً آخر ، والثالث كذلك

إلى أن يأتى الجميع على قراءة سائر الكتاب ، لعجز الواحد منهم عن حفظه على الكمال ، وقد كانوا يقولون : إن رجلا بسجستان بعد الثلاثمائة مستظهر بحفظ هذا الكتاب على الكمال .

وكان ملك كشتاسب إلى أن تمجس ثم هلك عشرين ومائة سنة ، وكانت مدة نبوة زرادشت فيهم خمسة وثلاثين سنة ، وهلك وهو ابن سبع وسبعين سنة ولما هلك زرادشت ولّى مكانه «حاماس» العالم وكان من أهل أذربيجان ، وهذا أول موبد قام فيهم بعد زرادشت ، نصبه لهم كشتاسب الملك .

حاماس
خليفة
زرادشت

ثم ملك بعده بهمن بن اسفنديار بن كشتاسب بن بهراسب ، وكان له حروب كثيرة مع رستم صاحب سجستان إلى أن قتل رستم ووالده دستان ، وقيل : إن أم بهمن كانت من بنى إسرائيل من ولد طالوت الملك ، وإنه هو الذى بعث بالبختنصر مرزبان العراق إلى بنى إسرائيل ، فكان من أمرهم ما وصفنا ، وكان ملك بهمن إلى أن هلك مائة واثنى عشرة سنة ، وقيل : إنه فى ملكه رد بقايا بنى إسرائيل إلى بيت المقدس ، فكان مقامهم ببابل إلى أن رجعوا إلى بيت المقدس سبعين سنة ، وذلك فى أيام كورس الفارسى المملك على العراق من قبل بهمن ، وبهمن يومئذ ببلخ ، وقد قيل : إن أم كورس كانت من بنى إسرائيل ، وكان دانيال الأصغر خاله ، وكانت مدة ملك كورس ثلاثا وعشرين سنة ، وفى وجه آخر من الروايات أن كورس كان ملكا برأسه ، لا من قبل بهمن ، وذلك بعد انقضاء ملك بهمن ، وأن كورس من ملوك الفرس الأولى ، وليس هذا عاما فى كتب التواريخ القديمة ، ودانيال الأكبر كان بين نوح وإبراهيم الخليل عليهما السلام ، وهو الذى استخرج العلم وما يحدث فى الأزمان إلى أن تنقضى الأرض ومن عليها ، وعلوم ملوك العالم وما يحدث فى السنين والشهور من الحوادث ، ودلائل ذلك فى الأفلاك ، ولما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس استخرجوا التوراة وغيرها من المواضع التى خبئت فيها من الأرض على ما قدمنا .

ملك بهمن
ابن اسفنديار

حمای
بنت بهمن

ثم ملكت « حمای » بنت بهمن بن اسفنديار بن كشتاسب بن بهراسب ،
وكانت تعرف بأماها شهر زاد ، ولهذه الملكة سير وحروب مع الروم وغيرهم من ملوك
الأرض ، وكانت حسنة السياسة لأهل مملكتها ، وكان ملكها بعد أبيها بهمن
ثلاثين سنة ، وقيل غير ذلك .

دارا
ابن بهمن

ثم ملك بعدها أخ لها يقال له « دارا » بن بهمن بن اسفنديار ، وكان ملكه
اثنتي عشرة سنة ، وكان ينزل بيبابل .

دارا
ابن دارا

ثم ملك « دارا » بن دارا بن بهمن بن اسفنديار بن كشتاسب بن بهراسب ،
والفرس تسمى دارا هذا باللغة الأولى من لغاتهم دارا بنوس ، وهو الذي قتله
الاسكندر بن فيليس المقدوني ، وكان ملكه إلى أن قتل ثلاثين سنة .

وقد ذكر أن منوجهر حين انهزم من حرب فراسياب التركي سار إلى جبل
طبرستان فتحصن به ، ثم ثاب بعد ذلك ومعه خيل ، فخارب فراسياب التركي ،
وقد وطئ العراق وغلب على الأقاليم ؛ فهرب إلى أرض الترك ، وأن الملك صار
بعد منوجهر إلى أخوين ، وقيل : بل كانا شريكين في الملك متظاهرين متعاونين
على عمارة الأرض وما خربه فراسياب : أحدهما « بهمست » بن كيجهر بن
دوزدف بن هوست بن دابدسك بن دوس بن منوجهر ، والآخر « كرساسب »
ابن نمار بن طهماسب بن آسك بن آرنس بن آدج بن دوس بن منوجهر ، وكان
كرساسب محاربا لفراسياب ، ومنازلا له ، والآخر وهو بهمست لازم بالعراق :
يعمر ما خربه فراسياب من الأرض ، واحتفر النهرين المعروفين بالزائين الصغير
والكبير ، على حسب ما قدمنا من ذكرهما في هذا الكتاب ، الخارجين من بلد
أرمينية الصاينين في دجلة : الأكبر بين الموصل والحديثة ، والآخر ببلاد الصين وسماه
باسمه ، وحفر بسواد العراق نهراً آخر وسماه بالزاب ، وجعل على هذا النهر بالعراق
ثلاث طساسيم من الضياع والعمائر وأسماها الزوابي ، وما ذكرنا فهو باق إلى هذه
الغاية ، وأن مملكتيهما كانت ثلاث سنين ، وأن كيخسرو بن سياخوس بن

كيكاووس بن كتيبة بن كيقباد لما قتل جده بيلاد السن والران من بلاد
أذربيجان وهو فراسياب بن سيمك بن تبت بن ديشهر بن وترك ، ووترك هذا
جدسام ، والترك عند طائفة من الناس من ولد لست بن ريسب بن أطوج بن
أفريدون ، وقد قدمنا وجهها من الرواية في نسبه فيما سلف من هذا الكتاب ؛
سار كيخسرو في البلاد ، ووطىء الممالك ، وانتهى إلى بلاد الصين ، فبنى هناك
مدينة عظيمة ، وسماها كنكدر ، وقد نزلها خلق من ملوك الصين كنزولهم أنمو
وغيرها من مدنها ، وقد قيل : إن كنكدر هي أنمو بعينها ، وقد قيل : إن كيكاووس
بنى مدينة قشмир المقدم ذكرها بأرض السند ، وإن سياخوش بنى في حياة أبيه
كيكاووس مدينة القندهار من أرض السند المقدم ذكرها فيما سلف من هذا
الكتاب .

قال المسعودى : ولمن ذكرنا من هؤلاء الملوك أخبار وسير قداًتينا على شرحها
فيما سلف من كتبنا ، وإنما نذكر في هذا الكتاب جوامع بنى بها على ما سلف
من مبسوطها ، وما نذكره من الوجوه فلاختلاف الروايات وتباين الناس في المصنفات
من كتبهم فيما ذكرناه من أخبارهم ، ليعلم من قرأ كتابنا هذا أنا قد بذلنا المجهود
من أنفسنا ، وذكرنا سائر ما قالوه فيما وصفناه ، وبالله التوفيق ومنه الاعانة .

ذكر ملوك الطوائف

وهم بين الفرس الأولى والثانية

قال المسعودي : وقد تنازع الناس في ملوك الطوائف : أمن الفرس كانوا أم من
النبيط أم من العرب ؟ فحكى جماعة من الأخباريين ممن عني بأخبار الماضين أنه لما
قتل الإسكندر بن فليش دارا بن دارا تغلب كل رئيس ناحية على ناحيته ، وكاتبهم
الإسكندر ، فمنهم فرس ، ونبيط ، وعرب ، وكان مراد الاسكندر من ذلك
تشتيت كلمتهم ، وتحزبهم ، وغلبة كل رئيس منهم على الصقع الذي هو به ،
فينعدم نظام الملك ، والالتقياد إلى ملك واحد يجمع كلمتهم ، إلا أن أكثرهم كانوا
يتقادون إلى الأشعانيين ، وهم ملوك الجبال من بلاد الدينور ونهوند وهمدان
وماسندان وأذربيجان ، وكان كل ملك منهم يلي هذا الصقع يسمى بالاسم الأعم
أشعان ، فقبل لسائر ملوك الطوائف الأشعانيون إضافة لهم إلى ملك هذا الصقع
لالتقيادهم إليه ، وقد حكى محمد بن هشام السكبي عن أبيه وغيره من علماء العرب أنهم
قالوا : أول ملوك الدنيا الكينان ، وهم من سميना من ملوك من سلف من الفرس
الأولى إلى دارا بن دارا ، ثم الأردوان ، وهم ملوك النبط ، وكانوا من ملوك الطوائف ،
وكانوا بأرض العراق مما يلي قصر ابن هبيرة وسقى الفرات والجامعين وسورا
وأحمد آباد والنرس إلى جبلا وتل فاجر والطفوف وسائر ذلك الصقع ، وكانت
ملوك العرب من مضر بن نزار بن معد وربيعة بن نزار وأمار بن نزار ، والنضرية
من بني نضر من اليمن وغيرهم من قحطان لهم ملوك ، وقد نصبت كل طائفة لها
ملكا ، لعدم ملك يجمع كلمتهم ، وذلك أن الاسكندر أشار عليه معمله ، وهو
أرسطاطليس ، في بعض رسائله إليه بذلك ، وكاتب الاسكندر ملك كل ناحية
وملكه على ناحيته ، وتوجه وحياء ، فاستبد كل واحد منهم بناحية ، فصار
ملكه من بعده في عقبه ممانعا عما في يده ، وطلبا للازدياد من غيره

وكان ملك الطوائف عند كثير من الناس ممن عني بأخبار الماضين ومعرفة سنينهم خمسمائة سنة وسبع عشرة سنة ، وذلك من ملك الاسكندر إلى أن ظهر أردشير بن بابك بن ساسان فغلب على ملوك الطوائف ، وقتل أردوان الملك بالعراق ، ووضع تاج أردوان على رأسه ، وكان قد قتله مبارزة على شاطئ دجلة ، فهذا أول يوم يعد منه ملك أردشير لاستيلائه على سائر ملوك الطوائف ، وتمهدت له البلاد ، واستقامت دعائها بملكه ، فمن ملوك الطوائف من قتله أردشير بن بابك ، ومنهم من قاده إلى ملكه وأجاب دعوته

وملوك الطوائف بين الفرس الأولى ممن سمينا وبين الفرس الثانية وهي الساسانية

وقد ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي عن عمر كسرى في كتاب له في أخبار الفرس يصف فيه طبقات ملوكهم ممن سلف وخلف ، وأخبارهم ، وخطبهم وتشعب أنسابهم ، وما بنوه من المدن ، وكوروه من الكور ، واحتفروه من الأنهار ، وأهل البيوتات منهم ، وما وسم به كل فريق منهم من الشهاجة ، وغيرهم ؛ أن أول من ملك من ملوك الطوائف « أسك » بن أسك بن أردان بن أشغان بن أتمر الجبار بن ساوس بن كيكافوس الملك ، عشرين سنة ثم ملك بعد أسك « سابور » بن أسك ستين سنة ، وفي إحدى وأربعين من مملكته كان ظهور السيد المسيح عليه السلام ببلاد فلسطين بإيليا ، ثم ملك « حود » بن إبراهيم بن أدرار بن أشغان عشرين سنة ، ثم ملك « نيرو » بن سابور الملك بن أسك الملك إحدى وعشرين سنة ، وقيل : إنه في أيامه سارنطوس ابن أشغانوس ملك رومية إلى إيليا ، وذلك بعد ارتقاء المسيح بأربعين سنة ، فقتل وأسر وسبي وخرب ، ثم ملك بعد نيرو بن سابور ابنه « جودر » بن نيرو تسع عشرة سنة ، ثم ملك بعده أخوه « هرمز » بن نيرو عشرين سنة ، ثم ملك « أرادوان » بن مردوان أربعين سنة ، ثم ملك بعده « كسرى »

ابن إيلاووس بن كسرى أربعاً وعشرين سنة ، ثم ملك بعده « إيلاووس » بن
أرادوان بن إيلاووس ثلاث عشرة سنة

قال المسعودى : فهذا وجه آخر غير ما قدمنا ، وقد قيل فى تاريخ سى ملوك
الطوائف غير ما وصفنا ، وإن مدتهم كانت أقل مما وصفنا ، والأول أشهر وأصح
فى مقدار ما ملكوا من السنين ، مع تباين التواريخ وتضاد ما فيها ، غير أن
الذى حكيناه هو ما أخذناه عن علماء الفرس ، وهم يراعون من تواريخ من
سلف ما لا يراعيه غيرهم ؛ لأن الفرس تدين بما وصفنا قولاً وعملاً ، وغيرهم من
الناس يقول ذلك ولا ينقاد إليه عملاً ، لتباين أهل الشرائع ، وقد آتينا فيما سلف
من كتبنا على الغرر من أخبار الطوائف وسيرهم وبالله التوفيق

ذكر أنساب فارس وما قاله الناس فى ذلك

اختلاف الناس فى نسب الفرس وأنسابهم : فمنهم من رأى أن فارس بن ناسور
ابن سام بن نوح ، وكذلك النبط ولد نبيط بن ناسور بن سام بن نوح ، وهذا
قول هشام بن محمد فى حكاية عن أبيه وغيره من علماء العرب ؛ ففارس ونبيط
أخوان ابنا ناسور ، ومنهم من زعم أنه من ولد يوسف بن يعقوب بن إسحق بن
إبراهيم الخليل صلوات الله عليهم ، ومنهم من ذكر أنه من ولد إرم بن إرفخشذ
ابن نوح ، وأنه ولد بضع عشرة رجلاً كلهم كان فارساً شجاعاً فسموا الفرس
بالفرسية وفى ذلك يقول حطان بن المعلى الفارسى

وَبَيْنَا سُمِّيَ الْفَوَارِسُ فَرُسًا نَا وَمِنَّا مَنَاجِبُ الْفَرَسَانِ
وَكَهُولُ طَوَاهُمُ الرَّكْضُ وَالْكَرَّ كَمِثْلِ الْكَرَاتِ يَوْمَ الطَّعَانِ

وقد زعم قوم أن الفرس من ولد لوط من ابنته ، وهى دعوى ، ولأصحاب
التواريخ فى هذا خبر طويل ، وذكر آخرون أنهم من ولد بَوَّان بن الأسود بن
سام بن نوح ، و بَوَّان هذا هو الذى ينسب إليه شعب بَوَّان من بلاد فارس ،

وهو أحد المواضع المشهورة في العالم بالحسن ، وكثرة الأشجار ، وتدفق المياه ، وكثرة أنواع الأشجار ، وقد ذكره بعض الشعراء فقال : —

شُعَيْبُ بَوَّانٍ فَدَارَ الرَّاهِبِ * فَثَمَّ تُلْفَى رَاحَةَ النَّوَائِبِ

ومنهم من رأى أن الفرس من ولد إيران بن أفريدون ، وقد قدمنا في صدر هذا الكتاب أخبار ولد أفريدون حين قسم الأرض بينهم ، وما قاله الشاعر في ذلك من قوله : —

وَلَا يُرَانُ جَعَلْنَا عَنَوَةً * فَارِسَ الرُّومِ وَفَزْنَا بِالنَّعَمِ

فأضيف الفرس إلى ذلك ، وإيران تسميه الفرس إيراج إذا عرفوا اسمه ، ولاتنا كر بين الفرس جميعا في أنها من ولد إيراج جميعا ، وإيراج هو إيران بن أفريدون ، هذا هو المستفيض بينهم ، والأغلب عليهم أنهم من آل إيراج ، ومن الناس من ذهب إلى أن سائر أجناس الفرس وأهل كور الأهواز من ولد عيلام ، ولا خلاف بين الفرس في أن الجميع منهم من ولد كيومرث ، وهذا هو الأشهر ، وكيومرث هو قبل إيراج بن أفريدون ، وإيراج بن أفريدون هو الذي ترجع إليه فارس من ولد كيومرث ، ومن الناس من ذهب إلى أن الفرس الثانية — وهم الساسانية — دون من سلف من الفرس الأولى هم من ولد منوچهر بن أفريدون ، ومنهم من ذهب إلى أن منوچهر هو ابن مسحر بن أفريس وترك ، ووترك هو إسحق بن إبراهيم الخليل ، وسار مسحر إلى أرض فارس ، وكان بها امرأة متملكة يقال لها كورك ابنة إيراج ، فتزوجها ، فولدت له منوچهر الملك ، وكثر ولده ، فملكوا الأرض ، وغلبوا عليها ، وهابتهم الملوك ؛ لما هم عليه من الشجاعة والفروسية ، ودثرت الفرس الأولى كدثور الأمم الماضية والعرب العاربة قال المسعودي : وأكثر حكماء العرب من نزار بن معد يقول هذا ، ويعمل عليه في بدء النسب ، وينقاد إليه كثير من الفرس ، ولا ينكرونه ، وقد ذكرته شعراء العرب من نزار بن معد ، وافتخرت على اليمن من قحطان بالفرس

وأنها من ولد إسحق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، فقال في ذلك إسحق بن
سويد العدوى عدى قریش : —

إذا افتخرت قحطان يوماً بسؤدد * أتى فخرنا أعلى عليها وأسودا
ملكناهم بدءاً بإسحق عمنا * وصاروا لنا غمرا على الدهر أعبدا
فإن كان منهم تبع وابن تبع * فأملأكم كانوا لأملا كنادا
ويجمعنا والغر أبناء سارة * أب لايالى بعده من تقردا
هم ملكوا شرقا وغربا ملوكهم * وهم منحوم بعد ذلك سؤودا
وفى ذلك أيضا يقول جرير بن الخطفي التميمي يفخر على قحطان بأن الفرس
والروم من أولاد إسحق والأنبياء من ولد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم
السلام من كلمة طويلة يقول فيها : —

وأبناء إسحق المليون إذا ارتدوا * حمائل موت لابسين السنورا
إذا افتخروا عدوا الصهبذ منهم * وكسرى وعدوا الهرمزان وقيصرا
وكان كتاب الله فيهم ونوره * وكانوا باصطخر الملوك وتسترا
ومنهم سليمان النبي الذي دعا * فأعطى بنيانا وملكنا مقدرنا
أبونا أبو إسحق يجمع بيننا * أب كان مهديا وملكنا معمرنا
وموسى وعيسى والذي خرساجدا * وأنت زرعاً دمع عينيه أخضرا
ويعقوب منهم زاده الله حكمة * وكان ابن يعقوب نبيا مطهرا
ويجمعنا والغر أبناء فارس * أب لايالى بعده من تأخرا
أبونا خليل الله ، والله ربنا ، * رضينا بما أعطى الاله وقدرنا
وفى ذلك يقول بشار بن برد : —

نمتي الكرام بنو فارس قریش وقومى قریش العجم
وقال أحد شعراء الفرس يذكر أنه من ولد إسحق وأن إسحق هو المسمى
وترك على حسب ما قدمنا قبل من كلمة له : —

أبونا وترك وبه أحاجى إذا فخر المفاخر بالولادة
أبونا وترك عبد رسول له شرف الرسالة والزهاده
من مثلى إذا افتخرت قرون وبتى مثل واسطة القلاده
ومن الفرس من يزعم أن وترك هو ابن أبريك ، وأن أبريك ابن سبع
نسوة تولدن من غير ذكر إلى أن يلحقن نسبهن بإيراج بن أفريدون ، وهذا مما
يدفعه العقل ، ويأباه الحس ، ويخرج عن العادة ، وتنبو عنه المشاهدة ، إلا ما خص
الله تعالى به السيد المسيح بن مريم عليه السلام ليؤدى آياته ودلائله الخارجة عن
العادة ، وعما ذكرنا من المشاهدات

وللفرس ههنا منازعات فى نسب منوجهر ، واضطراب فى كيفية إلحاقه
بأفريدون ، وفى وطء أفريدون لبنت إيراج ، ووطئه بنت البنت إلى السبع منهن
وقد كان بين ملك منوجهر بن مسحر بن أفيريس بن وترك على ما ذكرنا
وبين ملك أفريدون مدة خلت من الدهر ، وعدة من الملوك ؛ لتخرب كان
بإقليم بابل ، وعدم ذى همة تنقاد إليه المملكة ، ويستقيم له الملك ، وتجتمع عليه
الكلمة ، وانتقل الملك من ولد أفريدون إلى ولد إسحق

فان كان ما ذكرنا هو المعول عليه من قول هذه الطائفة يجب على ما يوجب
الحساب أن من كيومرث إلى انتقال الملك إلى ولد إسحق ألفا وتسعمائة واثنين
وعشرين سنة ، كذلك وجدت فى كتب تواريخ هذه الطائفة بأرض فارس
وبلاد كرمان

قال المسعودى : وقد افتخر بعض أبناء الفرس بعد التسعين والمائتين بحجده
إسحق بن إبراهيم الخليل على ولد إسماعيل بأن النبي كان إسحق دون إسماعيل
فقال من كلمة له :

قل لبنى هاجر ما بنت لكم ماهذه الكبرياء والعظمه
ألم تكن فى القديم أمكم لأمننا سارة الجمال أمه

والملك فينا والأنبياء لنا إن تنكروا ذاك تُوجدوا ظلمة
 إسحق كان الذبيح قد أجمع الناس عليه إلا ادعاء له
 حتى إذا ما محمد أظهر الدين وجلا بنوره الظلمه
 قاتم قريش الأحساب مفخرة أصل لنا إن كنتم بنيه فيه
 أما بنو يعرب فليسوا كمن أسكنه الله آمنا حرمه
 ولا كأبناء فارس وهم في الأرض مثل الأسود في الأجمه

وهي قصيدة طويلة ذكر فيها كلاما كثيرا لم يسعنا ذكره ، وقد أجابه
 عبد الله بن المعتز ، وكان قائل هذه القصيدة في عصره ، وعمر إلى أن مضت
 الثلاثه ، يناقضه في أبيات منها : فمن ذلك قوله :

أسمع صوتا ولا أرى أحدا من ذا الشقي الذي أباح دمه ؟
 حاشا لاسحق أن يكون لكم أبا وإن كنتم بنيه فيه
 قولاً لكلب يرى لبطشته قد فغر الليث للفراس فيه

والفرس لا تنقاد إلى القول بأن الملك يكون فيها لأحد غير ولد أفريدون في
 عصر من الأعصار فيما سلف وخلف إلى أن زال عنهم الملك ، إلا أن يكون دخل
 عليهم داخل على طريق التعصب بغير حق

وقد كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام ، وتطوف به ؛ تعظيما له ،
 ولجدها إبراهيم عليه السلام ، وتمسكا بهديه ، وحفظا لأنسابها ، وكان آخر من
 حج منهم ساسان بن بابك جد أردشير بن بابك ، وهو أول ملوك ساسان ، وأبوهم
 الذي يرجعون إليه كرجوع ملوك المروانية إلى مروان بن الحكم ، وخلفاء العباسيين
 إلى العباس بن عبد المطلب ، ولم يل الفرس الثانية أحد إلا من ولد أردشير بن
 بابك هذا ، فكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزمزم على بئر إسماعيل ،
 فقيل : إنما سميت زمزم زمزمته عليها ، هو وغيره من فارس ، وهذا يدل على

زيارة الفرس
 الكعبة

ترادف كثرة هذا الفعل منهم على هذا البئر ، وفي ذلك يقول الشاعر في قديم الزمان : —

زَمَزَمَتِ الفرس على زَمَزَمٍ وذاك من سالفها الأقدم
وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الاسلام بذلك ، فقال من كلمة : —
وما زلنا نحج البيت قدما ونلقى بالأباطح آمينا
وساسان بن بابك سارحتي آتى البيت العتيق يطوف دينا
فطاف به وزَمَزَمَ عند بئر لاسماعيل تروى الشارينا
وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالا في صدر الزمان ، وجواهر ، وقد
كان ساسان بن بابك أهدي غزالين من ذهب وجوهرا وسيوفا وذهبا كثيرا
فقذفه في زمزم
وقد ذهب قوم من مصنفى الكتب في التواريخ وغيرها من السير أن ذلك
كان لجرهم حين كانت بمكة ، وجرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك إليها ،
ويحتمل أن يكون لغيرها ، والله أعلم
وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب ما كان من فعل عبد المطالب بهذه
الأسياف وغيرها مما أودع في زمزم
والناس في الأنساب تنازع في بدنها وتشعبها ، وقد ذكرنا من ذلك جملا ،
وأوردنا منه جوامع يكتفى ذو المعرفة بالإشراف عليها عن كثير من مبسوطها

ذكر ملوك الساسانية وهم الفرس الثانية وأخبارهم

اردشير بن
بابك

كان أول من نسب إليه ملوكهم على حسب ما قدمنا في الباب الذي قبل هذا
أردشير بن بابك شاه بن ساسان بن بهافريد بن دارا بن ساسان بن بهمن
ابن اسفنديار بن كشتاسب بن بهراسب ، ولا خلاف بينهم في أن أردشير
من ولد منوجهر ، وكان مما حفظ من قوله يوم ملك وقتل أردوان وفرغ من ملوك
الطوائف ووضع التاج على رأسه أن قال : الحمد لله الذي خصنا بنعمه ، وشملنا
بفوائده وقسمه ، ومهد لنا البلاد ، وقاد إلى طاعتنا العباد ، نحمده حمد من عرف
فضل ما آتاه ، ونشكره شكر الدار بما منحه واصطفاه ، ألا وإناساعون في إقامة
منازل العدل ، وإدرار الفضل ، وتشديد المآثر ، وعمارة البلاد ، والرأفة بالعباد ،
ورم أقطار المملكة ، وردما انخرم في سائر الأيام منها ، فليسكن طائرهم ، أيها
الناس ، فاني أعم بالعدل القوى والضعيف ، والذنى والشريف ، وأجعل العدل
سنة محمودة ، وشرعية مقصودة ، وستردون في سيرتنا إلى ما تحمدوننا عليه ،
وتصدق أفعالنا أقوالنا ، إن شاء الله تعالى ، والسلام

قال المسعودى : وأردشير بن بابك المتقدم في ترتيب طبقات الندماء ، وبه
اقتدى المتأخرون من الملوك والخلفاء ، وكان يرى أن ذلك من السياسة ، ومما
يدهم عمود الرياسة ، فكانت طبقات خاصته ثلاثا : الأولى الأساورة وأبناء الملوك ،
وكان مجلس هذه الطبقة عن يمين الملك ، على نحو من عشرة أذرع ، وهم بطانة
الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم ، وكانت الطبقة الثانية على مقدار
عشرة أذرع من الأولى ، وهم وجوه المرازبة وملوك الكون والمقيمون بباب
أردشير ، والمرازبة وهم الإصْبَهِيذِيَّة من كانت مملكة الكون في أيامه ،
والطبقة الثالثة كانت رتبها على قدر عشرة أذرع من حد مرتبة الطبقة الثانية ،
وأهل هذه الطبقة المضحكون وأهل البطالة والهزل ، غير أنه لم يكن في هذه الطبقة

الثالثة خسيس الأصل ، ولا وضيع القدر ، ولا ناقص الجوارح ، ولا فاحش الطول أو القصر ، ولا مؤف ، ولا مرمى بأبنة ، ولا ابن ذى صناعة دينئه كابن حائك أو حجام ، ولو كان يعلم الغيب أوحى كل العلوم مثلاً

وكان أردشير يقول : ماشى أضر على نفس ملك أو رئيس أودى معرفة صحيحة من معاشرة سخيـف أو مخالطة وضيع ؛ لأنه كما أن النفس تصلح على مخالطة الشريف الأريب الحسيب ، كذلك تفسد بمعاشرة الخسيس ، حتى يقدح ذلك فيها ، ويزيلها عن فضيلتها ، ويثنيها عن محمود شريف أخلاقها ، وكما أن الريح إذا مرت بالطيب حملت طيباً تحيا به النفوس وتتقوى به جوارحها ، كذلك إذا مرت بالنتن فحمته ألت به النفس وأضر بأخلاقها إضراراً تاماً ، والفساد أسرع إليها من الصلاح ، إذ كان الهدم أسرع من البناء ، وقد يجد ذو المعرفة في نفسه عند معاشرة السفلة الوضعا شهراً فساد عقله دهرًا

وكان أردشير يقول : يجب على الملك أن يكون فائض العدل ؛ فإن العدل جماع الخير ، وهو الحصن الحصين من زوال الملك وتخمره ، وإن أول مخايل الإِدبار في الملك ذهاب العدل منه ، وإنه متى خفقت رايات الجور في ديار قوم كلفحتها عقاب العدل فردتها على العقب ، وليس أحد ممن يصحب الملوك ويخالطهم أولى باستجماع محاسن الأخلاق وفضائل الآداب وظرائف المُلح وغرائب النُتف من النديم ، حتى إنه ليجتاج أن يكون له مع شرف الملوك تواضع العبيد ، ومع عفاف النساء مجون الفتاك ، ومع وقار الشيوخ مزاح الأحداث ، وكل واحدة من هذه الخلال هو مضطر إليها في حال لا يحسن أن يجلب غيرها ، وإلى أن يجتمع له مع قوة الخاطر ما يفهم به ضمير الرئيس الذي ينادمه ، على حسب ما يأتيه من خلائقه ، ويعلم من معاني لحظه وإشاراته ؛ ما يعينه على شهوته ، ولا يكون نديماً حتى يكون له جمال ومروءة ، فأما جماله فنظافة ثوبه ، وطيب رائحته ، وفصاحة لسانه ، وأما مروءته فكثرة حياته في انبساطه إلى الجميل ،

ووقاره في مجلسه مع طلاقه وجهه في غير سخط ، ولا يستكمل المروءة حتى يسلو عن اللذة

ورتب أردشير المراتب فجعلها سبعة أرواح : فأولها الوزراء ، ثم الموبدان ، وهو القائم بأمور الدين ، وهو قاضي القضاة ، وهو رئيس الموازنة ، ومعناها القوام بأمور الدين في سائر المملكة ، والقضاة المنصوبون للأحكام ، وجعل الإصبهيين أربعة الأول : بخراسان ، والثاني بالمغرب ، والثالث ببلاد الجنوب ، والرابع ببلاد الشام ، فهؤلاء الأربعة هم أصحاب تدير الملك ، كل واحد منهم قد أفرد بتدير جزء من أجزاء المملكة ، فكل واحد منهم صاحب ربع منها ، ولكل واحد من هؤلاء مرزبان ، وهم خلفاء هؤلاء الأربعة ، ورتب أردشير الطبقات الأربعة من أصحاب التدير ومن إليهم أزمة الملك وحضور المشورة في إيراد الأمور وإصدارها ثم رتب طبقات المغنين وسائر المطربين وذوى الصنعة بالموسيقى ، فلم يزل على ذلك من طراً بعده من ملوك آل ساسان إلى بهرام جور ؛ فانه قرّر مراتب الأشراف وأبناء الملوك وسدنة بيوت النيران والنسك والزهاد وطبقات العلماء بالديانة وأنواع المهن الفلسفية على حالها ، وغير طبقات المغنين ؛ فرفع من كان بالطبقة الوسطى إلى الطبقة العليا ، والطبقة الدنيئة إلى الوسطى ، وغير المراتب على حسب إعجابه بالمطرب له منهم ، وأفسد ما رتبه أردشير بن بابك في طبقات المهنيين ، فسلك من ورد بعده من ملوكهم هذا المسلك ، حتى ورد كسرى أنوشروان فرد مراتب المغنين إلى ما كانت عليه في عهد أردشير بن بابك .

وقد كانت ملوك الأعاجم كلها من عهد أردشير تحتجب عن الندماء ، وكان بين الملك وبين أول الطبقات عشرون ذراعاً ؛ لأن الستارة التي على الملك تكون منه على عشرة أذرع ، ومن الطبقة الأولى على عشرة أذرع ، وكان الموكل بالستارة رجلاً من أبناء الأساورة يقال له خرم باش ، فاذا غاب هذا الرجل وكل بها آخر من أبناء الأساورة وذوى التحصيل ، وسمى بهذا الاسم ، وهذا الاسم عام لمن

رتب في هذه المرتبة ووقف هذا الموقف ، وتفسير ذلك كن فرحا مسرورا ، وكان خرم باش هذا إذا جلس الملك لندمائه ومعاقريه أمر رجلا أن يرتفع على أرفع مكان في دار الملك ، فيرفع عقيرته ويغرد بصوت رفيع يسمعه كل من حضر ، فيقول : يا لسان احفظ رأسك ، فانك تجالس في هذا اليوم الملك ، ثم ينزل ، وكان ذلك فعلهم في يوم جلوس الملك للهوه وطربه فيأخذ الندماء مراتبهم خافطة أصواتها ، غير مشيرة بشيء من جوارحها ، حتى يطالع الموكل بالستارة ، فيقول : غن أنت يا فلان كذا وكذا ، واضرب أنت يا فلان كذا وكذا ، من طريقة كذا وكذا ، من طرائق الموسيقى ، وقد كانت الأوائل من بنى أمية لا تظهر للندماء ، وكذلك الأوائل من خلفاء بنى العباس .

وكور أردشير بن بابك كورا ، ومدن مدنا ، وله عهد في أيدي الناس .
ولما خلا من ملكه أربع عشرة سنة ، وقيل : خمس عشرة سنة ، واستقامت له الأرض ، ومهداها ، وصال على الملوك فانقادت إلى طاعته ؛ زهد في الدنيا ، وتبين عوارها ، وما هي عليه من الغرور والعناء ، وقلة المكث ، وسرعة الغيلة منها إلى من أمنها ، ووثق بها ، واطمأن إليها ، وبأن له أنها غرارة ضلالة زائلة بائدة ، ما اعذوب منها جانب لامرئ وحلا إلا تمرر منها عليه جانب ، ورأى أن من بنى قبله المدائن وحصن الحصون وساق الجموع وكان أعظم جيشا وأشد جنودا وأتم عديدا قد صار رميا هشيا ، وتحت التراب مقيا ؛ فأثر التفرد عن المملكة ، والترك لها ، والحقاقي بيوت النيران ، والانفراد بعبادة الرحمن ، والأنس بالوحدة فنصب ابنه « سابور » لملكته ، وتوجه بتاجه ، وذلك أنه رآه أرجح ولده حاملا ، وأكملهم علما ، وأشدهم بأسا ، وأجزلهم مراسا ، فعاش بعد ذلك في حال تزدهد ، وخلوه بر به ، وكونه في بيوت النيران سنة ، وقيل : شهرا ، وقيل أكثر مما ذكرنا .

وأقام أردشير اثنتي عشرة سنة يحارب ملوك الطوائف : فمنهم من يكتابه

فينقاد إلى ملكه رهبة من صولته ، ومنهم من يمتنع عليه فيسير إلى داره ويأتي عليه ، وكان آخر من قتل منهم ملكا للنبط بناحية سواد العراق اسمه بابا بن برنيا صاحب قصر ابن هبيرة ، ثم أردوان الملك ، وفي هذا اليوم سمى شاهنشاه ، وهو ملك الملوك .

وأم ساسان الأكبر من سبايا بني إسرائيل ، وهى بنت سامان ، ولأردشير ابن بابك أخبار في بدء ملكه مع زاهد من زهادهم وأبناء ملوكهم يقال له تيس ، وكان أفلاطونى المذهب على رأى سقراط وأفلاطون ، أعرضنا عن ذكرها إذ كنا قد أتينا على جميع ذلك فى كتابنا « أخبار الزمان » وفى الكتاب الأوسط مع ذكر سيره وفتوحه ، وما كان من أمره ، ولأردشير بن بابك كتاب يعرف بكتاب « الكريامخ » فيه ذكر أخباره وحروبه ومسيره فى الأرض وسيره

وكان مما حفظ من وصية أردشير لابنه سابور عند نصبه إياه الملك أن قال له :

يابنى ، إن الدين والملك أخوان ، ولا غنى لواحد منهما عن صاحبه ، فالدين أس الملك ، والملك حارسه ، وما لم يكن له أس فهدوم ، وما لم يكن له حارس فضائع .

وكان مما حفظ من مكاتباته - أعنى أردشير - إلى خواص من أنواع رعيتة وعماله : من أردشير بن بهمن ملك الملوك ، إلى الكتاب الذين بهم تدير المملكة ، والفقهاء الذين هم عماد الدين ، والأساورة الذين هم حماة الحرب ، وإلى الحراث الذين هم عمرة البلاد ، سلام عليكم ، نحن بحمد الله صالحون ، وقد رفعنا إناوتنا عن رعيتنا ، بفضل رأفتنا ورحمتنا ، ونحن كاتبون إليكم بوصية فاحفظوها : لا تستشعروا الحقد فيكم فيدهمكم العدو ، ولا تحبوا الاحتكار فيشملكم القحط ، وكونوا لأبناء السبيل مأوى ترووا غدا فى المعاد ، وتزوجوا فى الأقارب فانه أمس للرحم وأقرب للنسب ، ولا تركنوا للدنيا فانها لا تدوم لأحد ، ولا تهتموا لها فلم يكن إلا ما شاء الله ، ولا ترفضوها مع ذلك فان الآخرة لا تنال إلا بها .

وكتب أردشير إلى بعض عماله : بلغني أنك تؤثر اللين على الغلظة ، والمودة على الهيبة ، والجن على الجراءة ، فليشد أو لك ؛ وليلن آخرك ، ولا تخين قلبا من هيبة ، ولا تعطلن من مودة ، ولا يبعد عليك ما أقول فانهما يتجاوزان .

ثم ملك بعد أردشير ابنه سابور ، وكان ملكه ثلاثا وثلاثين سنة ، وكانت له حروب مع كثير من ملوك العالم ، وبنى كورا ، ومصر مدنا نسبت إليه ، كانسب من الكور والمدن إلى آبائه ؛ والعرب تلقبه سابور الجند ، وفي أيامه ظهر ماني ، وقال بالآيتين ، فرجع سابور عن المجوسية إلى مذهب ماني والقول بالنور والبراءة من الظلمة ، ثم عاد بعد ذلك إلى دين المجوسية ، ولحق ماني بأرض الهند لأسباب أوجبت ذلك قد أثينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا .

وكتب ملك الروم إلى سابور بن أردشير : أما بعد ، فقد بلغني من سياستك لجندك ، وضبطك ما تحت يدك ، وسلامة أهل مملكتك بتديرك ؛ ما أحبت أن أسلك فيه طريقتك ، وأركب منها جاك .

فكتب إليه سابور : نلت ذلك بثمان خصال : ألم أهزل في أمر ولا نهى قط ، ولم أخلف وعدا ولا وعيدا قط ، وحاربت للغي لا للهوى ، واجتلبت قلوب الناس مقة بلا كره وخوفا بلامقت ، وعاقبت للذنب لا للغضب ، وعممت بالقوت ، وحسنت الفضول .

ويقال : إن سابور كتب إلى بعض عماله : إذا استكثبت رجلا فأسن رزقه ، وشد بصالح الأعوان عضده ، وأطلق بالتدبير يده ، ففي إسناء رزقه حسم طمعه ، وفي تقويته بالأعوان ثقل وطأته على أهل العدوان ، وفي إطلاقه بالتدبير ما أخافه عواقب الأمور ، ثم قفه من أمره على ماله قدمته ليشله أماما ويحفظه كلاما ، فإن وقع أمره بما رسمت فأوله عرضك وأوجب زيارته عليك ، وإن حاص عن أمرك علقته حجتك وأطلقت بالعقوبة عليه يدك ، والسلام .

وعهد سابور إلى ولده هرمز ومن تلاه بالملك بعده ، فقال : اجعلوا علو

أخلاقكم كعلو أخطاركم ، وارتفاع كرمكم كارتفاع هممكم ، وفضل سعيكم كفضل جدمكم .

وقيل : إن ملك سابور كان إحدى وثلاثين سنة ونصفا وثمانية عشر يوما . ثم ملك بعد سابور ابنه « هرمز » بن سابور الملقب بالبطل ، وكان ملكه سنة ، وقيل اثنين وعشرين شهرا ، وبنى مدينة رامهرمز من كور الأهواز .

وكتب إلى بعض عماله : لا يصلح لسد الثغور وقود الجيوش وإبرام الأمور وتدير الأقاليم إلا رجل تكاملت فيه خمس خصال : حزم يتيقن به عند موارد لأمر حقائق مصادرها ، وعلم يحجبه عن التهور في المشكلات إلا عند تجلي فرصتها ، وشجاعة لا تنقصها الملهمات بتواتر جوائحها ، وصدق في الوعد والوعيد يوثق بوفائه بهما ، وجود يهريق عليه تدبير الأموال في حقها .

ثم ملك بعده بهرام بن هرمز ثلاث سنين ، وكانت له حروب مع ملوك الشرق .

وقد ذكرنا أن بهرام أناه ماني بن فديك تلميذ ماردون فعرض عليه مذاهب هور الزنادقة الثنوية فقتله ، وقتل الرؤساء من أصحابه ، وفي أيام ماني هذا ظهر اسم الزنادقة الذي إليه أضيف الزنادقة ، وذلك أن الفرس حين أتاها زرادشت بن استيان - على حسب ما قدمنا من نسبه فيما سلف من هذا الكتاب - بكتابتهم المعروف بالنسناه باللغة الأولى من الفارسية ، وعمل له التفسير ، وهو الزند ، وعمل لهذا التفسير شرحا سماه البازند ، على حسب ما قدمنا ، وكان الزند بالتأويل غير المقدم المنزل ، وكان من أورد في شريعتهم شيئا بخلاف المنزل الذي هو النسناه وعدل إلى التأويل الذي هو الزند قالوا : هذا زندي ، فأضافوه إلى التأويل وأنه منحرف عن الظواهر من المنزل إلى تأويل هو بخلاف التنزيل ، فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس ، وقالوا : زنديق ، وعربوه ، والثنوية هم الزنادقة ، ولحق بهؤلاء سائر من اعتقد القدم وأبى حدوث العالم .

هرمز
بن سابور

رام بن هرمز

هور الزنادقة

ثم ملك بعده « بهرام » بن بهرام ، وكان ملكه سبع عشرة سنة ، وقيل بهرام بن بهرام غير ذلك ، وأقبل في أول ملكه على القصف واللذات والصيد والنزهة لا يفكر في ملكه ، ولا ينظر في أمور رعيته ، وأقطع الضياع لخواصه ومن لا ذنبه من خدمه وحاشيته ؛ فخربت الضياع ، وخلت من عمارها ، وسكنوا الضياع المعمورة ، فقلت العمارة إلا ما أقطع من الضياع ، وسقطت عنهم المطالبة والخراج بمأيلة الوزراء خواص الملك ، وكان تدير الملك مفوضا إلى وزرائه ؛ فخربت البلاد ، وقلت العمارة ، وقل ما في بيوت الأموال ، فضعف القوى من الجنود ، وهلك الضعيف منهم ، فلما كان في بعض الأيام ركب الملك إلى بعض متنزهاته وصيده فجذبه الليل وهو يسير نحو المدائن ، وكانت ليلة قراء ، فدعا بالمو بذان لأمر خطر بباله فالحق به ، وسأيره ، وأقبل على محادثته ، مستخبرا له عن سير أسلافه ، فتوسطوا في مسيرهم خرابات كانت من أمهات الضياع قد خربت في مملكته ، ولا أنيس بها إلا البوم ، وإذا بوم يصيح وآخر يجاوبه من بعض تلك الخرابات ، فقال الملك للموبذان : أترى أحدا من الناس أعطى فهم منطق هذا الطير المصوت في هذا الليل الهادي ؟ فقال له المو بذان : أنا أيها الملك ممن قد خصه الله بفهم ذلك ، فاستفهمه الملك عما قال ، فأعلمه أن قوله صحيح ، فقال له : فما يقول هذا الطائر ؟ وما الذي يقول الآخر ؟ قال المو بذان : هذا بوم ذكر يخاطب بومة ، ويقول لها : أمتعيني من نفسك حتى يخرج منا أولاد يسبحون الله ويبقى لنا في هذا العالم عقب يكثرون ذكرنا والترحم علينا ، فأجابته البومة إن الذي دعوتني إليه هو الحظ الأكبر ، والنصيب الأوفر ، في العاجل والآجل ، إلا أنني أشرت عليك خصالا إن أنت أعطيتنيها أجبتك إلى ما دعوتني إليه ، فقال لها الذكر : وما تلك الخصال ؟ قالت : أولها إن أنا أحتك نفسي وصرت إلى ما إليه دعوتني تضمن لي أن تعطيني من خرابات أمهات الضياع عشرين قرية مما قد خرب في أيام هذا الملك السعيد ، فقال له الملك : فما الذي قال لها الذكر ؟ قال المو بذان : كان من قوله لها إن دامت أيام هذا الملك السعيد جده

أعطيتك مما يخرب من الضياع ألف قرية ، فما تصنعين بها ؟ قالت : في اجتماعها ظهور النسل ، وكثرة الولد ، فتقطع كل واحد من أولادنا قرية من هذه الخرابات ، قال لها الذكر : هذا أسهل أمر أردتيه ^(١) ، وأيسر أمر طلبتيه ^(١) مني ، وقدمت لك الوعد وأنا ملئ بذلك ، فهأتى ما بعد ذلك ، فلما سمع الملك هذا الكلام من الموبدان عمل في نفسه ، واستيقظ من نومه ، وفكر فيما خطب به ، فنزل من ساعته ، وترجل للناس ، وخلا بالموبدان فقال له : أيها القيم بالدين ، والناصح الملك ، المنبه على ما أغفله من أمور ملكه ، وأضاعه من أمر بلاده ورعيته ، ماهذا الذي خاطبتني به ؟ فقد حركت مني ما كان ساكنا ، وبعثتني على علم ما كنت عنه غائبا ، قال الموبدان : فصادفت من الملك السعيد جده وقت سعد للعباد والبلاد ، فجعلت الكلام مثالا وموقظا على لسان الطائر عند طلب الملك مني جواب ما سأله ، ثم قال له الملك : أيها الناصح ، اكشف لي عن هذا الغرض الذي إليه رميت ، والمعنى الذي له قصدت ، ما المراد منه وإلى ماذا يؤول ؟ قال الموبدان : أيها الملك السعيد جده ، إن الملك لا يتم عزه إلا بالشرعية ، والقيام لله بطاعته ، والتصرف تحت أمره ونهيه ، ولا قوام للشرعية إلا بالملك ، ولا عز للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل ، والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة ، نصبه الرب وجعله قديما ، وهو الملك ، قال الملك : أما ما وصفت فحق ، فأبني عما تقصد ، وأوضح لي في البيان ، قال الموبدان : نعم أيها الملك ، عمدت إلى الضياع فانزعمتها من أربابها وعمارها ، وهم أرباب الخراج ومن يؤخذ منهم الأموال ، فأقطعها الحاشية والخدم وأهل البطالة وغيرهم ؛ فعمدوا إلى ما تعجل من غلاتها واستعجلوا المنفعة وتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع ، وسومحوا في الخراج لقرهم من الملك ، ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعمار الضياع ، فانجأوا عن ضياعهم ، ورحلوا عن ديارهم ، وآووا إلى ما تعزز من الضياع بأربابه

(١) الوجه في العربية « أردته » و « طلبته » بكسر التاء فيهما .

فسكنوه ، ققلت العمارة ، وخربت الضياع ، وقات الأموال ، فهلك الجنود والريعية ، وطمع في ملك فارس من أطاف بها من الملوك والأمم ؛ لعلمهم بانقطاع المواد التي بها تستقيم دعائم الملك ، فلما سمع الملك هذا الكلام من الموبذ ان أقام في موضعه ذلك ثلاثا ، وأحضر الوزراء والكتاب وأرباب الدواوين ، وأحضرت الجرائد ، فانتزعت الضياع من أيدي الخاصة والحاشية ، وردت إلى أربابها ، وجروا على رسومهم السالفة ، وأخذوا في العمارة ، وقوى من ضعف منهم فعمرت الأرض ، وأخصبت البلاد ، وكثرت الأموال عند جباية الخراج ، وقويت الجنود ، وقطعت مواد الأعداء ، وشجنت الثغور ، وأقبل الملك يباشر الأمر بنفسه في كل وقت من الزمان ، وينظر في أمر خواصه وعوامه ، فحسنت أيامه ، وانتظم ملكه ، حتي كانت تدعى أيامه أعياداً ؛ لما عم الناس من الخصب وشملهم من العدل

ثم ملك بعده بهرام بن الملك بن بهرام أربع سنين ، وأربعة أشهر ، ثم ملك بعده نرسی بن بهرام ، على ما ذكرنا من النسب ، وكان الملك يدعى البطل ، وكان ملكه سبع سنين ونصفاً ، ثم ملك بعده هرمز بن نرسی بن بهرام ، على ما ذكرنا من النسب ، وكان ملكه سبع سنين وخمسة أشهر ، وذكر أبو عبيدة معمر بن النخعي عن عمر كسرى أن كل ما ذكرنا من ملوك ساسان إلى هذا الملك — وهو هرمز بن نرسی — كانوا ينزلون جند يسابور من بلاد خوزستان ، وقد كان يعقوب بن الليث الصفار سكن جند يسابور متشبهاً بمن مضى من ملوك ساسان ، إلى أن مات بها ، وسندكر فيما يرد من هذا الكتاب أخبار المعتمد حين سكنه إياها ووفاته فيها ، ثم ملك بعد هرمز بن نرسی ابنه سابور بن هرمز ، وهو سابور ذو الأكتاف ، وكان ملكه إلى أن هلك اثنتين وسبعين سنة ، وخلفه والده حملاً ، فغلبت العرب على سواد العراق ، وقام الوزراء بأمر التدبير ، وكانت جمرة العرب ممن غلب على العراق ولد إياد بن نزار ، وكان يقال لها طبق

لإطباقها على البلاد ، وملكها يومئذ الحرث بن الأغبر الأيادي ، فلما بلغ سابور
من السن ست عشرة سنة أعد أساورته بالخروج إليهم والإيقاع بهم ، وكانت
إياد تصيف بالجزيرة ، وتشتو بالعراق ، وكان في حبس سابور رجل منهم يقال له
لقيط ، فكتب إلى إياد شعرا يندرهم به ، ويعلمهم خبر من يقصدهم ، وهو :

سلام في الصحيفة من لقيط على من في الجزيرة من إياد
بأن الليث يأتكم دلاقا فلا يحسبكم شوك القتاد
أتاكم منهم سبعون ألفا يجرؤون الكتاب كالجراد
على خيل ستأتكم فهذا أوان هلاككم كهلاك عاد

فلم يعبؤا بكتابه ، وسراياه تكرر نحو العراق وتغير على السواد ، فلما تجهز
القوم نحوهم أعاد إليهم كتابا يخبرهم أن القوم قد عسكروا ، وتحشدوا لهم ، وأنهم
سائرون إليهم ، وكتب إليهم شعرا أوله :

يا دار عبلة من تذكارها الجزعا هيجت لي الهم والأحزان والوجعا
أبلغ إيادا وحلل في سراتهم أنى أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا
ألا تخافون قوما لا أبالكم مشوا إليكم كأمثال الدبى سرعا
لو أن جمعهم راموا بهدتهم شم الشماريخ من شأن لا نصدا
فقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطاعا

فأوقع بهم ، فعمهم القتل ، فما أفلت منهم إلا نفر لحقوا بأرض الروم ، وخلع
بعد ذلك أكتاف العرب ، فسمى بعد ذلك سابور ذا الأكتاف

وقد كان معاوية بن أبي سفيان راسل من بالعراق من تميم ليثبتوا بعلى بن
أبي طالب رضى الله عنه ، فبلغ ذلك عليا رضوان الله عليه ، فقال في بعض
مقاماته في كلام له طويل : —

إن خبايرى الصلاح فسادا أو يرى الغنى في الأمور رشادا
لقريب من الهلاك كما أه ملك سابور بالسواد إيادا

وقد كان سابور في مسيره في البلاد أتى على بلاد البحرين ، وفيها يومئذ بنو تميم ، فأمن في قتلهم ، وفرت بنو تميم وشيخها يومئذ عمرو بن تميم بن مر ، وله يومئذ ثلثائة سنة ، وكان يعلق في عمود البيت في قفة قد اتخذت له ، فأرادوا حمله ، فأبى عليهم إلا أن يتركوه في ديارهم ، وقال : أنا هالك اليوم أو غدا ، وماذا بقي لي من فسحة العمر ، ولعل الله ينجيكم من صولة هذا الملك المسلط على العرب ، فخلوا عنه وتركوه على ما كان عليه ، فصبحت خيل سابور الديار ، فنظروا إلى أهلبا وقد ارتحلوا ، ونظروا إلى قفة معلقة في شجرة ، وسمع عمرو صهيل الخيل ووقعها ، وهمهمة الرجال ، فأقبل يصيح بصوت ضعيف ، فأخذوه وجاءوا به إلى سابور ، فلما وضع بين يديه نظر إلى دلائل الهرم ومرور الأيام عليه ظاهرة ، فقال له سابور : من أنت أيها الشيخ الفاني ؟ قال : أنا عمرو بن تميم بن مر ، وقد بلغت من العمر ما ترى ، وقد هرب الناس منك لإسرافك في القتل وشدة عقوبتك إياهم ، وآثرت الفناء على يدك لتبقى من مضى من قومي ، ولعل الله ملك السموات والأرض يجري على يدك فرجهم ، ويصرفك عما أنت بسبيله من قتلهم ، وأنا سائلك عن أمر إن أنت أذنت لي فيه ، فقال له سابور : قل يُسمع منك ، فقال له عمرو : ما الذي يحملك على قتل رعيتك ورجال العرب ؟ فقال سابور : أقتلهم لما ارتكبوا من أخذ بلادى وأهل مملكتي ، فقال عمرو : فعلوا ذلك ولست عليهم بقيم ، فلما بلغت بقوا على ما كانوا هاليه من الفساد هيبة قال سابور : أقتلهم لأنا ملوك الفرس نجد في مخزون علمنا وما سلف من أخبار أوائلنا أن العرب ستدال علينا ، وتكون لهم الغلبة على ملكنا ، فقال عمرو : هذا أمر تستحقه أو تظنه ، قال : بل أستحقه لا بد يكون ذلك ، قال له عمرو : فان كنت تعلم ذلك فلم تسيء إلى العرب ، والله لئن تبق على العرب جميعا وتحسن إليهم ليكافئوك^(١) عند إدالة الدولة لهم على قومك باحسانك ، وإن أنت طالت بك المدة كافؤك عند مصير الملك إليهم فيبغون عليك وعلى قومك ، إن كان

(١) الوجه في العربية « ليكافئتك » بتشديد النون .

لأمر حقاً كما تقول فهو أحزم في الرأي ، وأنفع في العاقبة ، وإن كان باطلا فلم تستعجل الإِثم وتسفك دماء رعييتك ، فقال سابور : الأمر صحيح ، وهو كائن لكم ، والرأي ما قلت ، ولقد صدقت في القول ، ونصحت في الخطاب ، فنادى منادى سابور بأمان الناس ، ورفع السيف ، والكف عن قتلهم ، ويقال : إن عمرا بقي في هذا العالم بعد هذا الوقت ثمانين سنة ، وقيل أقل من ذلك ، والله أعلم .

وسار سابور نحو بلاد الشام ، فافتتح المدن ، وقتل خلائق من الروم ، ثم طالبتة نفسه بالدخول إلى أرض الروم مستنكرا ليعرف أخبارهم وسيهرم ، فتنكر ، وسار إلى القسطنطينية ، فصادف ولية لقيصر قد اجتمع فيها الخاص والعام منهم ، فدخل في جملتهم وجلس على موائدهم ، وقد كان قيصر أمر مصورا آتى عسكر سابور فصوره له ، فلما جاء قيصر بالصورة أمر بها فصورت على آنية الشراب من الذهب والفضة ، وأتاه من كان على المائدة التي عليها سابور بكأس ، فنظر بعض الخدم إلى الصورة التي على الكأس وسابور مقابل على المائدة فعجب من اتفاق الصورتين ، وتقارب الشكين ، فقام إلى الملك ، فأخبره ، فأمر به ، فمثل بين يديه ، فسأله عن خبره ، فقال : أنا من أساورة سابور استحققت ^(١) العقوبة لأمر كان مني ، فدعاني ذلك إلى الدخول إلى أرضكم ، فلم يقبل ذلك منه ، وقدم إلى السيف ، فأقر ، فجعله في جلد بقرة ، وسار قيصر في جنوده حتى توسط العراق ، وافتتح المدائن ، وشن الغارات ، وعصد النخل ، وانتهى إلى مدينة جند يسابور ، وقد تحصن بها وجوه فارس ، فنزل عليها وحضر عيد لهم في تلك الليلة التي أشرفوا على فتح المدينة في صبيحتها ، فأغفل الموكلون أمر سابور ، وأخذ الشراب منهم ، وكان بالقرب من سابور جماعة من أسارى الفرس فخطبهم أن يحل بعضهم بعضا ، وشجعهم ، وأمرهم أن يصبوا عليه زقاقا من الزيت كانت هنالك ففعلوا فلان عليه الجلد وتحاص ، وآتى المدينة وهم يتحارسون على سورها

(١) الوجه في العربية « استحققت » بقافين .

فخاطبهم ، فرفعوه ورفعوه بالجلال ، ففتح أبواب خزائن السلاح ، وخرج بهم
ففرقهم حول مواضع من الجيش ، والروم غارون مطمئنون ، فكبس الجيش عند
ضرب النواقيس ، فأتوه بقيصر أسيرا ، فاستحياء وأبقى عليه ، وضم إليه من
أفلت من القتل من رجاله ، فغرس قيصر بالعراق الزيتون بدلا مما عضده من
النخل فيها ، ولم يكن يعهد بالعراق الزيتون قبل ذلك ، وبنى شاذروان مدينة
تستر لنهرها ، والشاذروان هو المسناة العظيمة ، والسكر من الحجر والحديد
والرصاص ، وعمر ما أخرج ، في أخبار يطول ذكرها ، وانصرف قيصر
نحو الروم

وقد ذكر في بعض الأخبار أن سابور ربق قيصر ، وقطع أعصاب عقبيه
أورقمها ، وأن الروم تربق دوابها ، ولا تلبس الخفاف المعقبة ، وفي ذلك يقول
الحارث بن جندة المعروف بالهرمزاني شعرا : —

هُمْ مَلَكُوا جَمِيعَ النَّاسِ طُرًّا وَهُمْ رَبَقُوا هَرَقْلًا بِالسَّوَادِ

وَهُمْ قَتَلُوا أَبَا قَابُوسَ عَصَبَا وَهُمْ أَخَذُوا الْبَسِيطَةَ مِنْ إِيَادِ

وفي فعل سابور وتغريه بنفسه في دخوله إلى أرض عدوه متجسسا يقول

بعض المتقدمين من شعراء أبناء فارس : —

وَكَانَ سَابُورُ صَفَا فِي أَرُومَتِهِ أَحِيدَ عَنْهَا فَأُضْحَى غَيْرَ مُخْتَارِ

إِذْ كَانَ بِالرُّومِ جَاسُوسًا يَجُولُ بِهِ حُومَ الْمَنِيَةِ مِنْ ذِي كَيْدٍ مَكَارِ

فَاسْتَأْسَرُوهُ وَكَانَتْ كِبُورَةُ عَجْبَا وَزَلَّةٌ سَبَقَتْ مِنْ غَيْرِ عَشَارِ

فَأَصْبَحَ الْمَلِكُ الرُّومِيُّ مُعْتَرِضَا أَرْضَ الْعِرَاقِ عَلَى هَوْلٍ وَأَخْطَارِ

فِرَاطُنَ الْفَرَسِ بِالْأَبْوَابِ فَاتَّقَرُّوْا كَمَا تَحَارَبُ أَسَدُ الْغَابِ فِي الْغَارِ

فَجَذَّ بِالسَّيْفِ أَمْرَ الرُّومِ فَامْتَحَقُوا لَهِ دَرَكٍ مِنْ طَلَابِ أَوْتَارِ

إِذْ يَغْرُسُونَ مِنَ الزَّيْتُونِ مَا عَضَدُوا مِنَ النَّخِيلِ وَمَا حَفُوا بِمَنْشَارِ

وغزا سابور بعد ذلك بلاد الجزيرة وآمد وغيرها من بلاد الروم ، ونقل

خلقا من أهلها ، وأسكنهم بلاد السوس وتستر وغيرها من مدن كور الأهواز ،
فتناسلوا وقطنوا تلك الديار ، فمن ذلك الوقت صار الديباج التستري وغيره من
أنواع الحرير يعمل بتستر ، والخز بالسوس ، والستور والفرش ببلاد نصيبين ،
ومكث إلى هذه الغاية ، وقد كان من قبله من ملوك الساسانية وكثير ممن سلف
من فارس الأولى يسكن بطيسمون ، وذلك بغربي المدائن من أرض العراق ،
فسكن سابور في الجانب الشرق من المدائن ، وبنى هناك الإيوان المعروف بإيوان
كسرى إلى هذه الغاية ، وقد كان أبرويز بن هرمز أتم مواضع من بناء هذا
الإيوان ، وقد كان الرشيد نازلا على دجلة بالقرب من الإيوان ، فسمع بعض
الخدم من وراء السرادق يقول لآخر : هذا الذي بنى هذا البناء ابن كذا وكذا
أراد أن يصعد عليه إلى السماء ، فأمر الرشيد بعض الأستاذين من الخدم أن يضربه
مائة عصا ، وقال لمن حضره : إن الملك نسبة ، والملوك به إخوة ، وإن الغيرة بعثتني
عليه وعلى أدبه لصيانة الملك ، وما يلحق الملوك للعلوك

وذكر عن الرشيد بعد القبض على البرامكة أنه بعث إلى يحيى بن خالد بن
برمك ، وهو في اعتقاله ، يشاوره في هدم الإيوان ، فبعث إليه لاتفعل ، فقال
الرشيد لمن حضره : في نفسه المجوسية ، والخنو عليها ، والمنع من إزالة آثارها ،
فشرع في هدمه ، ثم نظر فاذا يلزمه في هدمه أموال عظيمة لاتضبط كثرة ،
فأمسك عن ذلك ، وكتب إلى يحيى يعلمه ذلك ، فأجابه بأن ينفق في هدمه
ما يبلغ من الأموال ، ويحرص على فعله ، فعجب الرشيد من تنافى كلامه في أوله
وآخره ، فبعث إليه ليسأله عن ذلك ، فقال : نعم ، أما ما أشرت به في الأول فاني
أردت بقاء الذكر لأمة الاسلام وبعد الصيت ، وأن يكون من يرد في الأعصار
ويطراً من الأمم في الأزمان يرى مثل هذا البنيان العظيم فيقول : إن أمة قهرت
أمة هذا بنيانها فأزالت رسومها واحتوت على ملكها لأمة عظيمة شديدة منيعة ،
وأما جوابي الثاني فأخبرت أنه قد شرع في هدمه ثم عجز عنه ، فأردت نفي العجز

عن أمة الاسلام لئلا يقول من وصفت ممن يرد في الأعصار : إن هذه الأمة عجزت
عن هدم ما بنتها فارس ، فلما بلغ الرشيد ذلك من كلامه قال : قاتله الله تعالى فما
سمعته قال شيئاً قط إلا صدق فيه ، وأعرض عن هدمه ، وسابور هو الذي بنى
نيسابور ببلاد خراسان وغيرها بفارس والعراق

ثم ملك بعده أخوه أزدشير بن هرمز ، وكان ملكه إلى أن خلع أربعين سنة
ثم ملك بعده سابور بن سابور ، خمس سنين ، وكانت له حروب كثيرة مع
إياد بن نزار وغيرها من العرب ، فيقول فيه شاعر إياد : —
ملك سابور
ابن سابور

على رغم سابور بن سابور أصبحت قباب إياد حولها الخيل والنعم
ويقال : إن هذا الشعر قاله نفر قد لحقوا بأرض الروم حين أوقع بهم سابور
ذو الأكتاف على ما ذكرنا ثم تراجعوا إلى ديارهم ، وانضافوا إلى ربيعة من ولد
بكر بن وائل ، وإن ربيعة كانت قد غلبت على السواد وشتت الغارات في ملك
سابور بن سابور ، فقال شاعر إياد في ذلك ما وصفنا ، وهم داخلون في جملة ربيعة ،
وقيل غير ذلك ، والله أعلم بالصحيح منه

ثم ملك بعده بهرام بن سابور ، وكان ملكه عشرين سنة ، وقيل :
إحدى عشرة سنة

ثم ملك بعده يزدجرد بن سابور ، المعروف بالأثيم ، وكان ملكه إلى أن
هلك إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يوماً ، وقيل : اثنتين
وعشرين سنة غير شهرين

ثم ملك بعده بهرام بن يزدجرد ، فكان ملكه ثلاثاً وعشرين سنة ،
وقيل : تسع عشرة سنة ، وملك وهو ابن عشرين سنة ، وغاص هو وفرسه في
حومة حماة في بعض أيام صيده ، فجزعت عليه فارس ؛ لما عمها من عدله ، وشملها
من إحسانه ورأفته برعيته ، واستقامة الأمور في أيامه ، وقد كان خرج في أيامه
خافان ملك الترك إلى الصغد ، وشن الغارات في بلاده ، وقيل : إنه أتى إلى بلاد

بهرام جور

ارى وإن بهرام كتب أجناده وتنكب الطريق في اليسير من جريدة أصحابه حتى أتى على خاقان في جنوده ، وسار نحو العراق برأسه ، فهابته ملوك الأرض ، وهادنه قيصر ، وحمل إليه الأموال ، وقد كان بهرام قبل ذلك دخل إلى أرض الهند متنكرا ، ولأخبارهم متعرفا ، واتصل بشبرمة ملك من ملوك الهند ، فأبلى بين يديه في حرب من حروبه ، وأمكنه من عدوه ، فزوجه ابنته على أنه بعض أساورة فارس ، وكان نشؤه مع العرب بالخير ، وكان يقول الشعر بالعربية ، ويتكلم بسائر اللغات ، وكان على خاتمه مكتوب بالأفعال تعظم الأخبار ، وله أخبار في أخذه الملك بعد أبيه وتناوله التاج والراية ، وقد وضعها بين يديه ، وأخبار غير ذلك وسير يطول ذكرها ، ولأية علة سمى بهرام جور ، وما أحدث من الرمي بالنشاب في أيامه ، ومن النظم في داخل القوس وخارجها ، وقد أتينا على جميع ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، وما قالت الفرس والترك في بنية القوس ، وأنها مركبة على الطبائع الأربع كطبائع الانسان ، وما ذهبوا إليه من أنواع الرمي وكيفيته ، ومما حفظ من شعر بهرام جور قوله يوم ظهره بخاقان وقتله له : —

أقول له لما فضضت جموعه كأنك لم تسمع بصولات بهرام
فإني حامى ملك فارس كلها وما خير ملك لا يكون له حام
وقوله أيضا : —

لقد علم الأنام بكل أرض بأنهمو قد اضحوا لى عبيدا
ملكتم ملوكهم وقهرت منهم عزيزهم المسود والمسودا
فتلك أسودهم تقى حذارى وترهب من مخافى الورودا
وكنت إذا تشارس ملك أرض عبأت له الكتائب والجنودا
فيعطيني المقادة أو أوافى به يشكو السلاسل والقيودا

وله أشعار كثيرة بالعربية والفارسية أعرضنا عن ذكرها في هذا الموضع طلباً للايجاز .

ثم ملك بعده يزدجرد بن بهرام ، وكان ملكه تسع عشرة سنة ، وقيل : ثمان عشرة سنة وأربعة أشهر وثمانية عشر يوماً ، وقد كان بنى حائطاً باللبن والطين بناحية الباب والأبواب على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في ذكرنا للباب والأبواب وجبل الفتح ، وأحضر يزدجرد بن بهرام رجلاً من حكماء عصره كان في أقاصي مملكته أخذاً من أخلاقهم ومقتبس الرأى منهم يسوس به رعيته ، فقال له يزدجرد وقد مثل بين يديه : أيها الحكيم الفاضل ، ما صلاح الملك ؟ فقال : الرفق بالرعية ، وأخذ الحق منهم من غير مشقة ، والتودد إليهم بالعدل ، وأمن السبل ، وإنصاف المظلوم من الظالم ، قال : فما صلاح أمر الملك ، فقال : وزراؤه وأعوانه ، فانهم إن صاحوا صلح ، وإن فسدوا فسد ، قال له يزدجرد : إن الناس قد أكثروا في أسباب الفتن فصف لى ما الذى يَشْبُهُ وَيُنْشِئُها ، وما الذى يسكنها ويدفنها ، قال : يشبها ضغائن مجشها جرأة عامة ولدها استخفاف بخاصة وأكدها انبساط الألسن بضائر القلوب ، وإشفاق موسر ، وأمل معسر ، وغفلة ملتذ ، ويقظة محروم ، والذى يسكنها أخذ العدة لما يُخَافُ قبل حلوله ، وإيثار الجدد حين يلتذ الهزل ، والعمل بالحزم في الغضب والرضا .

ثم ملك بعده هرمز بن يزدجرد ، فنارعه أخوه فيروز ، فقتله وولى الملك ، وهو فيروز بن يزدجرد بن بهرام ، وكان ملك فيروز إلى أن هلك على يدى ملك الهياطلة باحسران بمرور الروذ من بلاد خراسان سبعا وعشرين سنة ، والهياطلة هم الصغد ، وهم بين بخارى وسمرقند

ثم ملك بلاس بن فيروز الملك ، وكان ملكه أربع سنين

ثم ملك قباد بن فيروز ، وفي أيامه ظهر مردق الزنديق ، وإليه تضاف قباد المردقة ، وله أخبار مع قباد ، وما أحدثه في العامة من النواميس والحيل إلى أن وظهور مردق

ملك
أنوشروان
ابن قباد

قتله أنوشروان في ملكه ، وكان ملك قباد إلى أن هلك ثلاثاً وأربعين سنة
ثم ملك بعده ولده أنوشروان بن قباد بن فيروز ثمانيا وأربعين سنة ، وقيل :
سبعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر ، وقد كان قباد خلع من ملكه وأجلس بدله أخاه
يقال له جاماست نحواً من سنتين ، لأمر كان من مردق وأصحابه ، فظاهر أنوشروان
بزرجمهر بن سرحو حتى أعيد قباد إلى ملكه في خبر طويل ، ولما ملك أنوشروان
وقتل مردق وأتبعه ثمانين ألفاً من أصحابه ، وذلك بين حادر والنهروان من أرض
العراق ، فسمى من ذلك اليوم أنوشروان ، وتفسير ذلك جديد الملوك ، وجمع أهل مملكته
على دين المجوسية ، ومنعهم النظر والخلاف والحجاج في الملل ، وسار نحو الباب
والأبواب وجبل الفتح لما كان من غارات من هنالك من الملوك على بلاده ،
فبنى السور على أرقاق البقر المنفوخة بالصخر والحديد والرصاص ، فكلما ارتفع
البناء نزلت تلك الأرقاق إلى أن استقرت في قرار البحر ، وقد ارتفع السور على
الماء ، وغاصت الرجال حينئذ بالخناجر والسكاكين إلى تلك الأرقاق فشقتها ،
وتمكن السور على وجه الماء في قرار البحر ، وهو باق إلى وقتنا هذا ، وهو سنة
اثنين وثلاثين وثلاثمائة ، ويسمى هذا الموضع من السور في البحر الصد مانها
للمراكب في البحر إن وردت من بعض الأعداء ، ثم مد السور في البحر ما بين
جبل الفتح والبحر ، وجعل فيه الأبواب مما يلي السفار ، ثم مد السور على جبل
الفتح على ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لأخبار جبل الفتح
والباب ، وكان لأنوشروان خبر مع ملوك الخزر إلى أن تأتى له هذا البناء ، وقيل :
إنه بنى ذلك بالرهبة وإذ عان من هنالك من الأمم ، وانصرف أنوشروان إلى
العراق ، ووفدت عليه رسل الملوك وهداياها والوفود من الممالك ، وكان فيمن
وفد إليه رسول ملك الروم قيصر بهدايا وألطف ، فنظر الرسول إلى إيوانه وحسن
بنيانه واعوجاج في ميدانه ، فقال : كان يحتاج هذا الصحن أن يكون مربعا ،
فقتل له : إن عجوزاً لها منزل من جانب الاعوجاج منه ، وإن الملك أرادها على

بيعه وأرغبها فأبت ، فلم يكرهها الملك ، وبقي الاعوجاج من ذلك على ماترى ، فقال الرومى : هذا الاعوجاج الآن أحسن من الاستواء .

وسار أنوشروان فى بلاده ، ودار فى مملكته ، فأحكم البنيان ، وشيّد القلاع والحصون ، ورتب الرجال ، فعبر إلى الشام فافتتح بها المدن ، وكان مما افتتح بلاد حَلَب وقنّسرين وحمص وفامية ، وهى بين أنطاكية وحمص ، وسار إلى أنطاكية وحاصرها ، وفيها أخت لقيصر ، فافتتحها ، وافتتح مدينة عظيمة كبيرة العمران عجيبية البنيان كانت فى ساحل أنطاكية رسوما بينة إلى هذه الغاية ، وأثرها قائم ، تُدعى سكوقية ، وأقبل يفتتح المدائن بالشام وأرض الروم ، ويغنم الغنائم والجواهر والأموال ، وبذل السيف ، وبث عساكره وسراياه ، فهادنه قيصر ، وحمل إليه الخراج والجزية ، فقبل ذلك منه ، ونقل من الشام المرمر والرخام وأنواع الفسيفساء والأحجار ، والفسيفساء : هى شىء يطبخ من الزجاج والأحجار ذوبهجة وألوان يدخل فيما فرش من الأرض والبنيان كالقصوص ، ومنه على هيئة الجوامات شاف ، وحمل ذلك إلى العراق ، فبنى مدينة نحو المدائن وسماها برومية ، وجعل بنيانها وما داخل سورها بما ذكرنا من أنواع الأحجار ، يحكى بذلك أنطاكية وغيرها من المدن فى الشام ، وهذه المدينة سورها من طين قائم إلى هذا الوقت خراب ، وباب يعرف بما ذكرنا ، وزوجه خاقان ملك الترك بابنته وابنة أخيه ، وهادنته ملوك الهند والشمال والجنوب وسائر الممالك ، وحملت إليه الهدايا ، ووفدت إليه الوفود خوفا من صولته وكثرة جنوده وعظم مملكته ، ولما يظهر من فعله بالممالك ، وقتله الملوك ، واتقياده إلى العدل ، وكتب إليه ملك الصين : من يعبور ملك الصين صاحب قصر الدر والجوهر ، الذى يجرى فى قصره نهران يستقيان العود والكافور الذى توجد رائحته على فرسخين ، والذى تخدمه بنات ألف ملك ، والذى فى مربطه ألف فيل أبيض ، إلى أخيه كسرى أنوشروان ، وأهدى إليه فرسا من در منضدا عينا الفارس والفرس من ياقوت

أحمر ، وقائم سيفه من نابت منضد بالجوهر ، وثوب حرير صينيا عثريا فيه صورة الملك جالسا في إيوانه ، وعليه حلينه وتاجه ، وعلى رأسه الخدم ، وبأيديهم المذاب ، صورة منسوجة بالذهب ، وأرض الثوب لازورد ، في سبط من ذهب ، تحمله جارية تغيب في شعرها ، تتلأأ جمالا ، وغير ما ذكرنا من عجائب ما يحمل من أرض الصين وتهديه الملوك إلى أكفائها ، وكتب إليه ملك الهند : من ملك الهند ، وعظيم أرا كنة المشرق ، وصاحب قصر الذهب وأبواب الياقوت واللدر ، إلى أخيه ملك فارس صاحب التاج والراية كسرى أنوشروان ، وأهدى إليه ألف من من عود هندي يذوب في النار كالشمع ، ويختم عليه كما يختم على الشمع فتبين فيه الكتابة ، وجاما من الياقوت الأحمر فتحه شبر مملوء درا ، وعشرة أمنان كافور كافستق وأكبر من ذلك ، وجارية طولها سبعة أشبار تضرب أشفار عينيها خدها ، وكأن بين أجفانها لمعان البرق من بياض مقلتيها مع صفاء لونها ودقة تخطيطها وإتقان تشكيلها مقرونة الحاجبين لها ضفائر تجرها ، وفرشا من جلود الحيات ألين من الحرير وأحسن من الموشى ، وكان كتابه في لحاء الشجر المعروف بالكاذى ، مكتوب بالذهب الأحمر ، وهذا الشجر يكون بأرض الهند والصين وهو نوع من النبات عجيب ذولون حسن وريح طيب ، لحاؤه أرق من الورق الصيني ، تنكاتب فيه ملوك الصين والهند ، وورد عليه وهو في عسكره محاربا لبعض أعدائه كتاب ملك التبت : من خاقان ملك تبتان ومشارك الأرض المتاخمة للصين والهند ، إلى أخيه المحمود في السيرة والقدر ، ملك المملكة المتوسطة للأقاليم السبعة ، وأهدى إليه أنواعا من العجائب التي تحمل من أرض تبت منها مائة جوشن تبتية ، ومائة قطعة تحافيف ، ومائة برس تبتية ، وأربعة آلاف من من المسك في نوافج غزلانه

وقد كان أنوشروان سار إلى ما وراء نهر بلخ ، وانتهى إلى جيلان ، وقتل أحسون ملك الهياطة بجده فيروز ، وملك مملكته فأضافها إلى مملكته

وقد كان نقل إليه من الهند كتاب كليلة ودمنة والشطرنج ، والخضاب الأسود المعروف بالهندي ، وهو الخضاب الذي يلمع سواده فيما يظهر من أصول الشعر سنة كاملة بصبغة سوداء ، ولا ينصل منه شيء

ويحكى أن هشام بن عبد الملك بن مروان كان يخضب بهذا الخضاب وكان لأنوشروان مائدة من الذهب عظيمة عليها أنواع من الجواهر مكتوب عليها من جوانبها : ليهنه طعامه من أكله من حله ، وعاد على ذوى الحاجة من فضله ، ماءً كلته وأنت تشتهيه فقد أكلته ، وما أكلته وأنت لا تشتهيه فقد أكلت ، وكان له خواتيم أربعة : خاتم للحراج فصه من العقيق ونقشه العدل ، وخاتم للضياع فصه فيروزج نقشه العمارة ، وخاتم للمعونة فصه ياقوت كحلى نقشه التآنى ، وخاتم للبريد فصه ياقوت أحمر كالنار نقشه الرجاء ، ووضع أنوشروان على العراق وضائع الخراج ، فألزم كل جريب من السواد من مزارع الحنطة والشعير درهما ، والأرز نصفاً وثلاثاً ، ولكل أربع نخلات فارسية درهما ، وكل ست نخلات دقل درهما ، وكل ست أصول زيتون درهما ، والكرم ثمانية دراهم ، والرطب سبعة دراهم ، فهذه سبعة أنواع من الغلات ، وترك ما عداها إذا كانت لقصم الناس والبهائم ، وكان أنوشروان يدعى كسرى الخير ، وقد ذكرته الشعراء في أشعارها ، ففي ذلك يقول عدى بن زيد العبادى من كلمة : —

أين كسرى خير الملوك أنوشر وان أم أين قبلة سابور
لم يهبه ريب المنون فولى الملك عنه فبابه مهجور
حين ولوا كأنهم ورق جاف فألوت به الصباو الدبور^(١)

وجلس أنوشروان يوماً للحكماء ليأخذ من آدابهم فقال لهم وقد أخذوا مراتبهم في مجلسه : دلوني على حكمة فيها منفعة خاصة نفسى وعامة رعيتى ، فتكلم

(١) فى الاصول « كأنهم ورق جف تذرى به الصبا والدبور » والذى أثبتناه هو المعروف فى رواية البيت ، والمتروك لا يستقيم معه الوزن

كل واحد بما حضره من رأى ، وأنوشروان مطرق يتفكر فى أقوالهم ، فأنهى القول إلى بزرجهر بن البختكان ، فقال : أيها الملك أنا جامع لك ذلك فى اثنتى عشرة كلمة ، فقال : هات ، فقال : أولهن تقوى الله فى الشهوة والرغبة والرغبة والغضب ، فاجعل ما عرض من ذلك كله لله لا للناس ، والثانية الصدق فى القول والعمل والوفاء بالعِدَاتِ والشروط والعهود والمواثيق ، والثالثة مشورة العلماء فيما يحدث من الأمور ، والرابعة إكرام العلماء والأشراف وأهل الثغور والقواد والكتاب والخول بقدر منازلهم ، والخامسة التعهد للقضاة والفحص عن العمال ومحاسبة عادلة ومجازاة المحسن منهم بإحسانه والمسيء على إساءته ، والسادسة تعهد أهل السجون بالعرض لهم بالأيام تستوثق منهم بالمسيء وتطلق البرىء ، والسابعة تعهد سبيل الناس وأسواقهم وأسعارهم وتجاراتهم ، والثامنة حسن تأديب الرعية فى الجرائم وإقامة الحدود ، والتاسعة إعداد السلاح وجمع آلات الحرب ، والعاشرة إكرام الولد والأهل والأقارب وتقدير ما يصلحهم ، والحادية عشرة إذكاء العيون فى الثغور ليعلم ما يتخوف فيؤخذ أهميته قبل هجومه ، والثانية عشرة تفقد الوزراء والخول والاستبدال بذى الغش والفجر عنهم ، فأمر أنوشروان أن يكتب هذا الكلام بالذهب ، وقال : هذا كلام فيه جوامع أنواع السياسات الملوكية وكان مما حفظ من كلام أنوشروان وحكمته أنه سئل : ما أعظم الكنوز قدرا وأتفعها عند الاحتياج إليها ؟ فقال : معروف أودعته الأحرار ، وعلم تورثه الأعقاب

وقيل لأنوشروان : من أطول الناس عمرا ؟ فقال : من كثر علمه فتأدب به من بعده ، أو معروف يشرف به عقبه

وأنوشروان الذى يقول : الإِنعام لقاح ، والشكر ولادة ، والمنعم هو الجاعل إلى شكره سبيلا

وهو الذى يقول : لاتعدن الحرصاء فى الأمناء ، ولا الكذايين فى الأحرار

وقال أنوشروان يوما لبزر جهر : من يصلح من ولدى الملك فأظهر ترشحه
والإيحاء إليه ؟ فقال : لأعرف ذلك ، ولكنى أصف لك من يصلح للملك :
أسماعهم للمعالي ، وأطلبهم للأدب ، وأجزعهم من العامة ، وأرافهم بالرعية ،
وأوصلهم للرحم ، وأبعدهم من الظلم ، فمن كانت هذه صفته فهو حقيق بالملك
قال السعودي : وقد ذكرنا في كتاب « الزلف » الخصال التي يستحق بها
الملك من وجدت فيه ، وما ذكرنا عن حكماء الفرس وأسلافها في ذلك وغيرها
من حكماء اليونانيين كأفلاطون ، وما ذكره في كتاب السياسة المدنية وغيره ممن
تأخر عن عصره

وذكر عن بزر جهر أنه قال : رأيت من أنوشروان خصلتين متباينتين لم أر
مثلهما منه ، جلس يوما للناس فدخل رجل من خاصة أهله ففتحاه وزيره ، فأمر
وزيره ، فأمر به أن يقام ويحجب عنه سنة لتعديده المرتبة التي رسمت له ، وازدياده
فيها عن مرتبة غيره في المجلس ، ثم رأيت يومنا ونحن عنده في سر من تدبير شيء
من المملكة ، وخدمته خلف فرشه وسرير ملكه يتحدثون ، فارتفعت أصواتهم
حتى شغلونا عن بعض ما كنا فيه ، فقلت له وأخبرته بتفاوت ما بين الحالتين ،
فقال لي : لا تعجل فنحن ملوك على رعيتنا ، وخدمنا ملوك على أرواحنا ينالون
منا في خلوتنا ملاحيلة لنا معه في التحرز منهم

وكان أنوشروان يقول : الملك بالجند ، والجند بالمال ، والمال بالخراج ،
والخراج بالعمارة ، والعمارة بالعدل ، والعدل باصلاح العمال ، وإصلاح العمال
باستقامة الوزراء ، ورأس الكل تفقد الملك أمور نفسه واقتداره على تأديبها حتى
يمسكها ولا تملكه

وكان يقول : صلاح الرعية أنصر من الجنود ، وعدل الملك أخصب من
عدل الزمان ،

وكان يقول : أيام السرور كليج البصر ، وأيام الحزن تكاد تكون شهورا

قال المسعودى : ولأنوشروان سير حسان قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا ، وما كان منه فى مسيره فى سائر أسفاره ، ومابنى من المدن والحصون ورتب من المقاتلة فى الثغور

ملك هرمز
ابن أنوشروان

ثم ملك بعده « هرمز » بن أنوشروان بن قباد ، وأمه فاقم بنت خاقان ملك الترك ، وقيل : بل ملك من ملوك الخزر مما يلي الباب والأبواب ، فكان ملكه اثنتى عشرة سنة ، وكان متحاملا على خواص الناس ، مائلا إلى عوامهم ، مقويا لهم ، مؤثرا للرو بصرية وتوابع العوام ، مقربا لهم بخواص الناس ، وقيل : إنه قتل فى مدة ملكه من خواص فارس ثلاثة عشر ألف رجل مذكور ، ولائنتى عشرة سنة من ملكه تخرم عليه الملك ، وتداغت أركانه ، وزحفت إليه الأعداء ، وكثرت عليه الخوارج ، وقد كان أزال أحكام الموبدان فخرت بذلك السنة المحمودة ، والشرعية المعهودة ، وغير الأحكام ، وأزال الرسوم ، وكان من سار إليه شابة ابن شب عظيم من ملوك الترك فى أربعمائة ألف ، فنزل نحو بلاد هراة وبلاد عيسى وبوشنج من أرض خراسان ، وسار إليه من أطراف أرضه طراخنة من الخزر فى جيش عظيم ، فشنوا الغارات فيما بين ذلك الصقع بخيل أوقفت ، وملوك تهادنت وتواهبت ما كان بينها من الدماء مما يلي جبل الفتح ، وسار بطريق قميص فى ثمانين ألفا مما يلي الجزيرة ، وسار مما يلي اليمن جيش عظيم للعرب من قحطان ومعد ، وعليهم العباس المعروف بالأحول وعمرو الأفوه ، فاضطرب على هرمز أمره وأحضر الموابذة وذوى الرأى منهم من بعد احتماله بهم وشاورهم ، فكان من نتيجة رأيهم موادعة الوجوه الثلاثة وإرضائهم والاقبال على شابة بن شاب فانتدب لخر به بهرام جور بن مرزبان الرى ، وكان بهرام هذا من ولد جرجير بن ميلاد من نسل أنوس المعروف بالران ، فسار فى اثنى عشر ألفا ، وشابة فى أربعمائة ألف ، فكانت لبهرام معه خطوب ومراسلات من ترغيب وترهيب وحيل فى الحرب ، إلى أن قتله بهرام ، واستباح عسكره ،

واستولى على خزائنه وأمواله ، وبعث إلى هرمز برأسه ، وقد كان برمودة بن شابة ولده تحصن في بعض القلاع من بهرام ، فنزل عليه بهرام ، فنزل برمودة على حكم هرمز ، وسار إليه ، وحمل بهرام حملا من الغنائم وما كان أخذه من شابة مما كان معه من تركات الملوك ، مثل ما كان في خزان إفراسياب من الأموال والجواهر التي كان أخذها من سياوخش ، وما كان بأيدي الترك من تركات هوحاسف ملك الترك مما أخذه من خزائن يستاسف من مدينة بلخ وغيرها من ذخائر ملوك الترك السافقة ، فلما انتهى ما وصفنا من الأموال والجواهر وغير ذلك من الغنائم من قبل بهرام حسده وزير هرمز ارتيحيسيس ، وقد نظر إلى إعجاب هرمز بما حمل إليه بهرام وسروره به ، فقال : أعظم هذه زلته ، وعرض لهرمز بحيانة بهرام ، واستبداده بأكثر الجواهر والأموال والغنائم ، وأغراه به ، فعصاه بهرام ، ثم احتال بهرام بدراهم ضرب عليها اسم كسرى أبرويز ، ودس أناسا من التجار فألقوها بباب هرمز ، فتعامل بها الناس ، وكثرت في أيديهم ، وعلم بها هرمز فلم يشك أن ابنه أبرويز ضربها طلبا للملك ، فهم به هرمز وهو لا يشك أن ذلك من فعله ، ولم يعلم أن الحيلة في ذلك من بهرام ، فهرب أبرويز من أبيه لتغيره عليه ولحق ببلاد أذربيجان وأرمينية والران والبيلقان ، وحبس هرمز خلى أبرويز بسطام ونقدويه ، فأعملا الحيلة في محبسهما وخرجا ، فأنضاف إليهما خلق من الجيش فدخلوا على هرمز فسملا عينيه وأعمياه ، فلما نمت ذلك إلى أبرويز سار إلى أبيه فدخل عليه وأخبره أنه لا ذنب له في ذلك ، وإنما هرب خوفا على نفسه منه ، فتوجه هرمز وسلم الملك إليه ، ونمت ذلك إلى بهرام جور فسار في عساكره يوم الباب ودار الملك ، فخرج إليه أبرويز فالتقيا على شاطئ النهران ، والنهر بينهما ، فتواقعا ، وكان لهما خطب طويل من تقاذف وتشاتم ، ثم كانت بينهما حروب انكشف فيها أبرويز لتخلف أصحابه عنه وميلهم إلى بهرام ، فقام تحته فرسه المعروف بشيداد - وهو المصور في الجبل ، وهو ببلاد قرماسين من أعمال الدينور

هو وأبرويز وغير ذلك من الصور ، وهذا الموضع من إحدى عجائب العالم وغرائب ما فيه من الصور العجيبة المنقورة في الصخر ، والفرس تذكر في أشعارها وغيرها من العرب هذا الفرس المعروف بشيداد ، وقد كان أبرويز على شيداد في بعض الأيام فاتقطع عنانه ، فدعا بصاحب سرجه وجمه ، فأراد ضرب عنقه لما لم يتعهد العنان ، فقال : أيها الملك ، ما بقي سير يحيد به ملك الإنس وملك الخيل ، فأطلقه ، وأجازه ، ولما تلج هذا الفرس تحت أبرويز وقصر طلب إلى النعمان في المعركة أن يمن عليه بفرسه المعروف باليحموم ، فأبى عليه ، ونجا عليه بنفسه ، ونظر حسان بن حنظلة بن حية الطائي إلى أبرويز وقد خاتته الرجال وأشرف على الهلاك ، فأعطاه فرسه المعروف بالصيب ، وقال له : أيها الملك ، انج على فرسي فإن حياتك للناس خير من حياتي ، وأعطاه أبرويز فرسه شيداد فنجا عليه في جملة الناس ، ومضى أبرويز إلى أبيه ، ففي ذلك يقول حسان بن حنظلة الطائي : -

أعطيت كسرى ما أراد ولم أكن لأتركه في الخيل يعثر راجلا
بذلت له ظهر الصيب وقد بدت مسومة من خيل ترك وائلا

فكافاه أبرويز بعد ذلك ، وعرف له ما صنع ، ولما سار أبرويز من الهزيمة إلى أبيه هرمز أشار عليه أن يلحق بقيصر ويستنجده ، فإن الملوك إذا استنجدت في مثل هذه الحالة أنجبت ، في خطب جرى بينه وبين أبيه ، فمضى أبرويز وتبعه غيره من الخواص ، وخاله بسطام وتقديويه ، وعبر دجلة ، وقطع الجسر خوفا من خيل بهرام ، ونظر في مسيره ذلك اليوم إلى خاليه ، وقد تأخر عنه ، فاستراب بهما وبمن انضاف إليهما ممن كان معهم ، فسألهما عن السبب ، فقالا : لسنا بآمنين أن يدخل بهرام إلى أبيك هرمز فيضع تاج الملكة على رأسه ، وإن كان أعمى ويصير هو الهرمان ، وتفسير ذلك أمير الأمر ، والروم تسمى صاحب هذه المرتبة الدمستق ، فيكتب بهرام عن أبيك هرمز إلى قيصر إن ابني أبرويز

وجماعة انضافوا إليه وثبوا بى وسموا عيني ، فاحمله إلى ، فيحملنا قيصر عليه ،
 فيأتى علينا بهرام ، ولا بد لنا من الرجوع إلى أبيك وقتله ، فناشدها الله أن
 لا يفعل ذلك ، وأظهر فيما ذكر عنه البراءة من فعلهما ، فرجعا من فورهما ، ومن
 يسرع معهما إلى المدائن وقد صاروا على أميال منها ، فدخلوا على هرمز فخنقاه ،
 ولحقا أبرويز ، ولحقهم خيل بهرام ، وكانت منهم حيلة فى بعض الديارات
 إلى أن تخلصوا من تلك الخيل ، وسار أبرويز ، ففى هرمز يقول ورقة
 ابن نوفل : -

لم يغن هرمز من شىء خزائنه والخلد قد حاولت عادً فما خلدوا
 ولا سليمان إذ تجرى الرياح له والجن والإنس تجرى بينها البرد
 وأسرع بهرام جور إلى المدائن من النهران ، حين باغته قتل هرمز ، فاحتوى
 على الملك ، ولحق أبرويز بالرها فزها ، وكاتب ملك الروم ، وهو موريقيس ، مع
 خاله بسطام وجماعة ممن كانوا معه ، يسأله النصرة على عدوه ، ويضمن له الوفاء
 بما ينفقه من أمواله ، والإحسان إلى جنده ، وأنه يؤدى إليه ديات من يقتل من
 رجاله وغير ذلك من الشروط ، وأهدى إليه هدايا كثيرة : منها مائة غلام من
 أبناء أراكنة الترك فى نهاية الحسن والجمال واستقامة الصور فى آذانهم أقراط
 الذهب فيها الدر واللؤلؤ ، ومائدة من العنبر فتحها ثلاثة أذرع على ثلاث قوائم من
 الذهب مفصلة بأنواع الجواهر أحد الأرجل ساعد وكف أسد والآخر ساق وعل
 بظلفه والثالث كف عقاب بمخالبه فى وسطها جام جزع يمانى فاخر فتحه شبر
 مملوءة حجارة ياقوت أحمر ، وسفط ذهب فيه مائة درة وزن كل درة مثقال
 أرفع ما يكون ، فحمل إليه موريقيس ملك الروم ألفى ألف دينار ، ومائة ألف
 فارس ، بعث بهم مع هديته ، وألف ثوب من الديباج الخزائنى المنسوج بالذهب
 الأحمر وغيره من الألوان ، وعشرين جارية من بنات ملوك برجان والجلالقة
 والصقالبة والوشكنس وغيرهم من الأجناس المجاورة لملك الروم على رءوسهن

أكاليل الجوهر ، وزوجه بابنته مارية وحملها إليه مع أخيه سدوس ، واشترط ملك الروم على أبرويز شروطا كثيرة : منها النزول عن الشام ومصر مما كان غلب عليه أنوشروان ، وترك التعرض لذلك ، فأجابه إلى ذلك ، وقد كانت ملوك الفرس تزوج إلى سائر من جاورها من ملوك الأمم ولا تزوجها ؛ لأنهم أحرار وأنجاد ، وللفرس في هذا خطب طويل كفعل قريش وتركها السبق وتحمسها فكانوا يققون بمزدلفة ، وهو يوم الحج الأكبر ، ويقولون : نحن الحمس ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار « أنا رجل أحسى » ولما اجتمع لأبرويز ما وصفنا سار إلى بلاد أذربيجان ؛ فاجتمع إليه هنالك من كان من العساكر ، وانضاف إليه كثير من الجنود والأمم ، وبلغ بهرام جور ماقد عزم عليه فسار إليه فيمن كان معه من عساكره ، فالتقى الجيشان جميعا ، فتوجهت على بهرام ، فأنكشف في نهر من أصحابه ، وانتهى إلى أطراف خراسان ، وكاتب خاقان ملك الترك فأمنه وسار إلى ملكه هو ومن خف معه من أصحابه وأخته كردية ، وكانت في الشجاعة والفروسية نحوه ، وعليها كان يعول في كثير من حربه ، ومضى كسرى أبرويز إلى دار مملكته ، وأمر الجنود موريقش بالأموال والمراكب والكساوى ، وكافأهم على ما كان منهم في معونته ، وحمل إليه ألفي ألف دينار ، وقرن ذلك بهدايا كثيرة وأموال عظيمة من آلات الذهب والفضة ، ووفى له بكل ما وعده ، وخرج من كل ما أوجبه على نفسه ؛ واحتال أبرويز في قتل بهرام في أرض الترك ، فقتل هناك غيلة ، وذكر أن رأسه حمل بعد أن احتيل عليه وأخرجه من الناوروس الذى كان خاقان ملك الترك دفنه فيه ، وحمله إليه رجل تاجر فارسي ، فنصب على باب أبرويز في رحبة قصره ، وخرجت كردية فيمن كان معها من أصحاب بهرام من أرض الترك ، وقد كان لها أخبار في الطريق مع ابن خاقان ، وكاتبها أبرويز في قتل خاله بسطام ، وكان مرزبان الديلم بخراسان ، فقتلته وقتلت خاله الآخر بآبيه هرمز ، ثم صارت كردية إليه فتزوجها

وللفرس كتاب مفرد في أخبار بهرام جور ، وما كان من مكايده ببلاد الترك حين صارت إليه ، واستنقاده لابنة ملك الترك من حيوان اسمه السمع نحو العير الكبير كان قد احتملها من بين جوارىها وعلا بها وقد خرجت لبعض متزهاتها وما كان من بدء حاله إلى مقتله ونسبه

وكان وزير أبرويز ، الغالب عليه ، والمدير لأمره ، حكيم من حكماء الفرس وهو بزرجمهر بن البختگان ، فلما خلا من ملكه ثلاث عشرة سنة أتهمه بالميل إلى بعض الزنادقة من الثنوية ، فأمر بحبسه ، وكتب إليه : كان من ثمرة علمك ، ونتيجة ما أدراك إليه عقلك ، أن صرت أهلا للقتل ، موضعا للعقوبة ، فكتب إليه بزرجمهر : أما إذ كان معي الجد فقد كنت أنتفع بثمره عقلي فالآن إذ لا أجد معي فقد أنتفع بثمره الصبر ، وإذ قد فقدت كثير الخير فقد استرحت من كثير من الشر ، وأغرى أبرويز بزرجمهر ، فدعا به ، وأمر بكسر أنفه وفمه ، فقال بزرجمهر : في لاهل لما هو شر من هذا ، فقال أبرويز : ولم يا عدو الله المخالف ؟ فقال : لأنني كنت أصفك لخواص الناس وعوامهم بما ليس فيك ، وأقربك من قلوبهم ، وأرفع من محاسن أمورك ما لم تكن عليه ، اسمع مني يا شر الملوك نفسا ، وأخبثهم فعلا ، وأسوأهم عشرة ، لا تقتلني بالشك وترفع به اليقين الذي قد علمته مني بالتمسك بالشرعية ، من ذا الذي يرجو عدلك ويثق بقولك ويطمئن إليك ؟ فغضب أبرويز ، وأمر به فضرب عنقه ؛ وبزرجمهر في أيدي الناس قضايا وحكم ومواعظ وكلام كثير في الزهد وغيره ، وندم أبرويز على قتله ، وتأسف ، ودعا بجمهر أرنوس الوزير الثاني ، وكانت مرتبته دون مرتبة بزرجمهر ، فلما رأى بزرجمهر قتيلا أسف عليه ، وعلم أنه لا ينبجو ، فأغاظ لأبرويز في الكلام ، فأمر به فقتل وأغرق في دجلة ، فلما عدم هذين الرجلين وما كانا عليه من الكفالة وتدبير الملك استوحش من شريعة العدل وواضحة الحق ، فعدل إلى الجور والعسف بخواص رعيته وعوامها ، وحملها على ما لم تكن تعهد ،

وأودهم إلى ما لم يكونوا يعرفونه من الظلم ، ووثب بطريق من بطارقة الروم يقال له فانوس قيمن اتبعه على موريتش ملك الروم حمى أبرويز ومنجده ققتلوه ، وملكوا موداس ، ونمى ذلك إلى أبرويز فغضب لمحيه ، وسير إلى الروم الجيوش وكانت له في ذلك أخبار يطول ذكرها ، وسير شهر يارمرزبان المغرب إلى حرب الروم فنزل أنطاكية فكانت له مع الروم وأبرويز أخبار ومكاتبات وحيل إلى أن خرج ملك الروم إلى حرب شهر يار ، وقدم خزائنه في البحر في ألف مركب ، فألقها الريح إلى ساحل أنطاكية ، فغنمها شهر يار ، وحملها إلى أبرويز ، فسميت خزائن الريح ، ثم فسدت الحال بين أبرويز وشهر يار ، ومايل شهر يار ملك الروم ، فسير شهر يار نحو العراق إلى أن انتهى إلى النهروان ، فاحتال أبرويز في كتب كتبها مع بعض أساقفة النصرانية ممن كان في ذمته حتى رده إلى القسطنطينية وأفسد الحال بينه وبين شهر يار ، وغير ذلك مما قد أتينا على ذكره في الكتاب الأوسط

يوم ذى قار وفي ملك أبرويز كانت حروب ذى قار ، وهو اليوم الذى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم « هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونصرت عليهم بى » وكانت وقعة ذى قار تمام أربعين من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة بعد أن بعث ، وقيل : بعد أن هاجر ، وفي رواية أخرى أنها كانت بعد وقعة بدر بأشهر ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وكانت هذه الوقعة بين بكر بن وائل والهامرز صاحب كسرى أبرويز ، وقد أتينا على هذه الأخبار على الشرح والايضاح في الكتاب الأوسط فأغنى ذلك عن إيراده في هذا الموضع

وفي أيام أبرويز كانت حوادث تنذر بالنبوة وتبشر بالرسالة ، وأنفذ أبرويز عبد المسيح بن بقبيلة الغساني إلى سطيح الكاهن ، فأخبره برؤيا الموبدان وارتجاج الإيوان ، وغير ذلك من أخبار فيض وادى السماوة ، وما كان من بحيرة ساوة ،

وكان لأبريز تسعة خواتم تدور في أمر الملك : منها خاتم فضه ياقوت أحمر نقشه صورة الملك وحوله مكتوب صفة الملك وحلقته ماس ذكر يختم به الرسائل والسجلات ، والخاتم الثاني فضه عقيق نقشه خراسان حره وحلقته ذهب يختم به التذكرات ، والخاتم الثالث فضه جزع نقشه فارس وحلقته ذهب منقوش فيه الوحا يختم به أجوبة البريد ، والخاتم الرابع فضه ياقوت مورد نقشه بالمال ينال الفرح وحلقته ذهب يختم به الترايك والكتب في التجاوز عن العصاة والمذنبين ، والخاتم الخامس فضه ياقوت بهرمان وهو أحسن ما يكون من الجمرة وأصفها وأشرفها نقشه حره وحزم أى بهجة وسعادة جافتاه لؤلؤ وماس يختم به خزائن الجواهر وبيت مال الخاصة وخزانة الكسوة وخزانة الحلى ، والخاتم السادس نقشه عقاب يختم به كتب الملوك إلى الآفاق وفصه حديد حبشى ، والخاتم السابع نقشه ذباب يختم به الأدوية والأطعمة والطيب فضه بادزهر ، والخاتم الثامن فضه حماهن نقشه رأس خنزير يختم به أعناق من يؤمر بقتله وما ينفذ من الكتب فى الدماء ، والخاتم التاسع حديد يلبسه عند دخول الحمام وفصه الابزن

وكان على مربطه خمسون ألف دابة وسروج ذهب مكحلة بالدر والجوهر على عدد ما لركابه من الخيل ، وكان على مربطه ألف فيل ، منها أشهب أشد بياضا من الثلج ، ومنها ما ارتفاعه اثنا عشر ذراعا ، وفى النادر ما يوجد من الفيلة الحربية ما ارتفاعه هذا القدر ، وأكثر ما يوجد من ارتفاع الفيلة من التسعة أذرع إلى العشرة ، وملوك الهند تبالغ فى أثمان ما عظم من الفيلة وارتفع من الأرض ، وقد يكون من الوحشية فى أرض الزنج ما هو أعظم سمكا مما وصفنا بأذرع كثيرة على حسب ما تحمل من قرونها المسماة بالأنياب ما وزن الناب خمسون ومائة من إلى المائتين ، والمن رطلان بالبغدادى ، وعلى قدر عظم الناب عظم جسد الفيل

وقد كان أبرويز خرج في بعض الأعياد وقد صفت له الجيوش والعدد
والسلاح ، وفيما صف له ألف فيل ، وقد أهدت به خمسون ألف فارس دون
الرجالة ، فلما نظرته الفيلة سجدت له ، فما رفعت رؤوسها وبسطها لخرائيمها حتى
جذبت بالحاجن وراطنها الفيالون بالهندية ، فلما بصر بذلك أبرويز تأسف على
ما خص به الهند من فضيلة الفيلة ، وقال : ليت الفيل لم يلدن هنديا وكان فارسيا ،
انظروا إليها وإلى سائر الدواب وفضلوها بقدر ما ترون من معرفتها وأدبها ، وقد
افتخرت الهند بالفيلة ، وعظم أجسامها ، ومعرفتها ، وحسن طاعتها ، وقبولها
الرياضات ، وفهمها المرادات ، وتمييزها بين الملك وغيره ، وأن غيرها من الدواب
لا يفهم شيئا من ذلك ، ولا يفصل بين شيئين ، وسنورد فيما يرد من هذا
الكتاب جملا من الفصول في أخبار الفيلة وما قالته الهند وغيرهم في ذلك
وتفضيلها على سائر الدواب : فكانت مدة ملك أبرويز إلى أن خلع وسمت
عيناه وقتل ثمانيا وثلاثين سنة

ملك قباذ
(شيرويه)
ابن ابرويز

ثم ملك بعده ولده « قباذ » المعروف بشيرويه القابض على أبيه ، والجاني
عليه ، والقاتل له ، والفرس تسميه المشئوم ، وفي أيامه كان الطاعون بالعراق
وغيرها من الأقاليم فهلك فيه مائتا ألف من الناس ، فالكثير يقول : هلك نصف
الناس ، والمقل يقول : الثالث ، وكان ملك شيرويه إلى أن هلك سنة وستة
أشهر : وقيل أقل من ذلك

ولسكسرى أبرويز ولابنه شيرويه أخبار عجيبة ومراسلات قد أتينا على
ذكرها فيما سلف من كتبنا

ثم ملك بعد شيرويه ولده « أردشير » ولي عهد الملك ، وهو ابن سبع
سنين ، فسار إليه من أنطاكية من بلاد الشام شهريار مرزبان المغرب المقدم
ذكره مع أبرويز ملك الروم ، فقتله ، فكان ملكه خمسة أشهر

ثم ملك « شهريار » نحو من عشرين يوما ، وقيل : شهرين ، وقيل غير

ذلك ، واغتالته ابنة لكسرى أبرويز يقال لها آزرمي دخت فقتلته
ثم ملك كسرى بن قباد بن أبرويز ، وقيل : إنه ابن لأبرويز ، وكان بناحية
الترك ، فسار يريد دار الملك ، فقتل في الطريق ، بعد ملكه ثلاثة أشهر
ثم ملك بعده « بوران » بنت كسرى أبرويز ، فكان ملكها سنة ونصف
ثم ملك رجل من أهل بيت الملك من ولد سابور بن يزدجرد الأثيم ، يقال
له « فيروزخشنس » فكان ملكه شهرين
ثم ملكت ابنة لكسرى أبرويز يقال لها « آزرمي دخت » فكان ملكها
سنة وأربعة أشهر

ثم ملك فرخ زاد خسرو بن كسرى أبرويز ، وهو طفل ، فكانت مدة
ملكه شهرا ، وقيل : أشهر

ثم ملك يزدجرد بن شهریار بن كسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان
قباد بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام بن يزدجرد بن سابور بن أردشير بن بابك بن
ساسان ، وهو آخر ملوك الساسانية فكان ملكه إلى أن قتل بمرو من بلاد
خراسان عشرين سنة ، وذلك لسبع سنين ونصف خلت من خلافة عثمان بن عفان
رضي الله عنه ، وفي سنة إحدى وثلاثين من الهجرة ، وقيل غير ذلك في مقدار
ملكه وخبر مقتله

إحصاء
بعده ملوك
الفرس

قال المسعودي : وذهب الأكثر من الناس ممن عني بأخبار الفرس وأيامهم
إلى أن جميع من ملك من آل ساسان بن أردشير بن بابك إلى يزدجرد بن
شهریار من الرجال والنساء ثلاثون ملكا : امرأتان ، وثمانية وعشرون رجلا ،
ووجدت في بعض التواريخ أن عدد ملوك الساسانية اثنان وثلاثون ملكا ،
وعدد الملوك الأول - وهم الفرس الأول - من كيومرث إلى دارا بن دارا تسعة
عشر ملكا ، منهم امرأة ، وهي جمانة بنت بهمن ، وإفراسياب التركي ، وسبعة
عشر رجلا ، وعدد ملوك الطوائف الذين قدمنا ذكرهم في مقتل دارا بن دارا إلى

أن ظهر أردشير بن بابك أحد عشر ملكا ، وهم ملوك الشعن والران ، ومن أجلهم
سمى سابور ملوك الطوائف الأشعان ، فجميع الملوك من كيومرث بن آدم - وهو
أول ملوك بني آدم ، على ما ذكرت الفرس - إلى يزديجرد بن شهريار بن كسرى
ستون ملكا : منهم ثلاث نسوة ، وعدة ماملوكوا من السنين أربعة آلاف سنة
وأربعمائة سنة وخمسون سنة ، وقيل : إن عدة الملوك من كيومرث إلى يزديجرد
ثمانون ملكا ،

ورأيت جماعة من الأخباريين وأصحاب السير وأرباب الكتب المصنفة في
التواريخ وغيرها يذهبون إلى أن سنى الفرس إلى الهجرة ثلاثة آلاف سنة وستمائة
وتسعون سنة : منها من كيومرث إلى انتقال الملك إلى منوشهر ألف وتسعمائة
وثنتان وعشرون سنة ، ومن منوشهر إلى زرادشت خمسمائة وثلاث وثمانون سنة ،
ومن زرادشت إلى الاسكندر مائتان وثمان وخمسون سنة ، وملك الاسكندر خمس
سنين ، ومن الاسكندر إلى ملك أردشير خمسمائة سنة وسبع عشرة سنة ، ومن
أردشير إلى الهجرة أربعمائة سنة

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملا من تاريخ العالم والأنبياء والملوك
في باب نقرده لذلك في الموضع المستحق له من هذا الكتاب ، دون ذكر الهجرة
وخلافة أبي بكر ومن تلا عصره من الخلفاء ومن ملوك بني أمية وبني العباس ؛
لأننا قد أفردنا لما ذكرنا بابا آخر فيما يرد من هذا الكتاب بعد انقضاء أخبار
الأمويين والعباسيين ترجمناه بذكر التاريخ الثاني

وكانت الفرس من بدء الدهر أربعة أجناس إلى أن جاء الله تعالى بالاسلام :
فالصنف الأول يقال له الحداهان ، وهم الأرباب ، كما يقال : رب المتاع ، ورب
الدار ، وذلك من كيومرث إلى أفريدون ، ثم كيان من أفريدون إلى دارا بن
دارا ، وهم الأشعان ، وهم ملوك الطوائف بعد الاسكندر على ما ذكرنا في باب
ذكر ملوك الطوائف ، ثم الساسانية ، وهم الفرس الثانية ، وقد ذكر أبو عبيدة

معمر بن المثنى فى كتابه فى « أخبار الفرس » الذى رواه عن كسرى أن الفرس طبقات أربع من سلف وخلف : فالطبقة الأولى من كيومرث إلى كوستاسب ، والطبقة الثانية كيان من كيقباد إلى الاسكندر بن فيلبس ، وآخرهم دارا ، والطبقة الثالثة وهم الأشعانية ملوك الطوائف ، والطبقة الرابعة سماهم ملوك الاجتماع ، وهم الساسانية ، أولهم أردشير بن بابك ، ثم سابور ، ثم أردشير ، هرمز ، نرسى بن هرمز ، هرمز بن نرسى ، سابور بن هرمز ، أردشير بن هرمز ، سابور بن أردشير ، سابور بن سابور ، بهرام بن سابور ، يزدجرد بن بهرام ، بهرام بن يزدجرد ، فيروز بن يزدجرد ، بلاش بن يزدجرد ، قباد بن فيروز ، أنوشروان بن هرمز ، أبرويز ، شيرويه ، أردشير ، شهریار ، بوران ، كسرى بن قباد ، فيروز ، خشنس ، آزرعى دخت ، فرخ زاد خسرو ، يزدجرد ، وإنما ذكرنا هؤلاء بعد أن قدمنا ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب للخلاف الواقع وتباين الروايات والتواريخ فى أعدادهم وأسمائهم ، فأوردنا مافاله المتنازعون من الأخباريين ، وقد أتينا على أخبارهم وسيرهم ووصاياهم وعهودهم ومكاتباتهم وتوقيعاتهم وكلامهم عند عقد التيجان على رؤوسهم ورسائلهم ، وسائر ما كان من الحوادث فى أعصارهم ، وما كوروه من الكور ، وأحدثوه من المدن ، وغير ذلك من أحوالهم فيما سلف من كتبنا ، وإماند كرى فى هذا الكتاب جوامع من تاريخهم وأعداد ملوكهم ولمعاً من بعض أخبارهم ، وكذلك ذكرنا فى كتابنا فى « أخبار الزمان » خطب الطبقات الأربع ، وما حفر كل ملك منهم من الأنهار ، وانفرد بينائه من المدن ، وآراء الملوك وأحكامها ، وكثيرا من قضاياها فى خواصها وعوامها ، وأنساب أصحاب خيل الملك ، ومن كان على خيل كل ملك منهم فى الحروب ، وأنساب حكمائهم وزهادهم من اشتهر بذلك فى أعصارهم ، وأنساب المرازبة ، وذكر أولاد الطبقات الأربع ممن تقدم ذكرهم ، وتشعب أنسابهم ، وتفرق أعقابهم ، ووصفنا الأبيات الثلاثة التى شرفها كسرى على سائر من بسواد العراق ، وهم مشهورون فى أهل السواد إلى وقتنا هذا ،

وأشرف السواد بعد هذه الأبيات الثلاثة من السهارجة الذين شرفهم أبرج وجعلهم
أشراف السواد ، ثم الطبقة الثانية بعد السهارجة هم الدقاقين ، وهم ولد وهكرت
ابن فردان بن بابك بن مرس بن كيومرث الملك ، وكان لوهكرت عشر بنين ،
فأبناء هؤلاء العشرة هم الدقاقين ، وكان وهكرت أول من تدهقن ، والدهاقين
تتفرع على مراتب خمس ، ومن ذكرنا كانت ملابسهم تختلف على قدر مراتبهم ،
وقتل يزدجرد الآخر من ملوكهم على حسب ما ذكرنا وله خمس وثلاثون سنة ،
وخلف من الولد : بهرام ، وفيروز ، ومن النساء : أدرك ، وسها ، ومزاد ، وزبد ،
وأكثر عقبه بمرور ، والأكثر من أبناء الملوك وأعقاب الطبقات الأربع بسواد
العراق إلى الآن يتدارسون أنسابهم ، ويحفظون أحسابهم كحفظ العرب من قحطان
ونزار ، ولا خلاف فيما ذكرنا عند ذوى الدراية كما وصفنا

قال المسعودى : فاذ قد ذكرنا جوامع من أخبار الفرس وطبقاتهم فلنذكر
الآن ملوك اليونانيين ، ولما من أخبارهم ، وتنازع الناس في بدء أنسابهم ، على
الاختصار والايجاز ، والله ولى التوفيق برحمته ورضوانه

ذكر ملوك اليونانيين ولمع من أخبارهم

وما قاله الناس في بدء أنسابهم

قال المسعودى : تنازع الناس في فرق اليونانيين : فذهب طائفة من الناس
إلى أنهم ينتمون إلى الروم ويضافون إلى ولد إسحق ، وقالت طائفة أخرى : إن
يونان هو ابن يافث بن نوح ، وذهب قوم إلى أنهم من ولد أوراس بن يوان بن
يافث بن نوح ، وذهب قوم إلى أنهم قبيل متقدم في الزمان الأول ، وإنما وهم
من وهم أن اليونانيين ينسبون إلى حيث تنسب الروم ، وينتمون إلى جد هم إبراهيم
لأن الديار كانت مشتركة ، والمقاطع والمواطن كانت متساوية ، وكان القوم قد
شاركوا القوم في السجية والمذهب ، فذلك غلط من غلطى النسبة ، وجعل الأب

الاختلاف في
نسب اليونان

واحدا ، وهذا طريق الصواب عند المفتشين ، وسبيل البحث عند الباحثين ، والروم قفت في لغاتها ووضع كتبها اليونانيون فلم يصلوا إلى كنه فصاحتهم وطلاقة ألسنتهم ، والروم أنقص في اللسان من اليونانيين ، وأضعف في ترتيب الكلام الذي عليه نهج تعبيرهم وسنن خطابهم

قال المسعودي : وقد ذكر أن يونان أخو قحطان ، وأنه من ولد عابر بن شالخ ، وأن أمره في الانفصال عن دار أخيه كان سبب الشك في الشركة في النسب ، وأنه خرج عن أرض اليمين في جماعة من ولده وأهله ومن انضاف إلى جملته حتى وافي أقاصى بلاد المغرب ، فأقام هنالك ، وأنسل في تلك الديار ، واستعجم لسانه ، ووازي من كان هنالك في اللغة الأعجمية من الإفرنجية والروم ، فزالت نسبته ، وانقطع نسبه ، وصار منسيا في ديار اليمين ، غير معروف عند النساين منهم

وكان يونان جبارا عظيما ، وسما جسيما ، وكان حسن العقل والخلق ، جزل الرأي ، كثير الهمة ، عظيم القدر

وقد كان يعقوب بن إسحق الكندي يذهب في نسب يونان إلى ما ذكرنا من أنه أخ لقحطان ، ويحتج لذلك بأخبار نذكرها في بدء الأنساب ، ونوردها من حديث الأحاد والأفراد ، لامن حديث الاستفاضة والكثرة

وقد ردَّ عليه أبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ في قصيدة طويلة ، وذكر خاطه نسب يونان بقحطان ، على حسب ما ذكرنا آنفا في صدر هذا الباب فقال : —

أبايوسف ، إني نظرت فلم أجِدْ	على الفحص رأيا صَحَّ منك ولا عقدا
وصرت حكيما عند قوم إذا امرؤ	بلاهم جميعا لم يجد عندهم عندا
أتقرن إحمادا بدين محمد	لقد جمّت شيئا يا أخا كندة إذا
وتخط يونانا بقحطان ضلّة	لعمري لقد باعدتَ بينهما جدا

ولما نشأ ولد يونان وكبر خرج يسير في الأرض يطلب موضعا يسكنه ، فاتته إلى موضع من المغرب ، فنزل بمدينة أثينا ، وهي المعروفة بمدينة الحكماء في ديار المغرب في صدر الزمان ، وأقام بها هو ومن معه من ولده ، فكثر نسله بها ، وبنى البنيان العظيم ، إلى أن أدركته الوفاة ، فجعل وصيته إلى الأكبر من ولده ، واسمه حرينوس ، فقال له : يا بني ، إني قد وافيت الأجل ، وقربت من الحسم الواجب ، وإني راحل عنك ومفارقك ، ومفارق إخوتك وأهل بيتك ، وقد كانت أحوالكم حسنة النظام بي ، وكنت كهفًا في الشدائد ، وعونا على المحن ، ومجنا في الزمان ، فعليك بالجوّد فإنه قطب الملك ومفتاح السياسة وباب السيادة ، وكن حريصا على اقتناء الرجال بالإنعام عليهم تكن سيدا رشيدا ، وإياك والحيد عن الطريقة المثلّي التي عليها بنى العقل فإن من ترك رأى اللب وثمره العقل تورط في المهالك ووقع في مقابض المتالف

ثم مات يونان ، واستولى ولده حرينوس على مكان أبيه ، وضم إليه أهله وولده ، ونما خبرهم ، وكثر نسلهم ، فغلبوا على ديار المغرب من بلاد الإفرنجية والتوكير وأجناس الأمم من الصقالبة وغيرهم

وكان أول ملوكهم ممن سماه بطليموس في كتابه فيلبس ، وتفسيره محب الفرس ، وقيل : إن اسمه ملبص ، وقيل : فيلفوس ، وكانت مدة ملكه

أول ملوك
اليونان

سبع سنين

وقد قيل : إن اليونانيين لما أن سار البخت نصر من ديار المشرق نحو الشام ومصر والمغرب وبذل السيف كانوا يؤدون الطاعة ويحملون الخراج إلى فارس ، وكان خراجهم بيضا من ذهب عددا معلوما ووزنا مفهوما وضريبة محصورة ، فلما أن كان من أمر الإسكندر بن فيلبس ، وهو الملك الماضي الذي هو أول ملوك اليونانيين على ما ذكره بطليموس ، ما كان من ظهوره وهيمته بعث إليه دارانوس ملك فارس ، وهو دارا بن دارا ، يطالب بما جرى من الرسم ، فبعث إليه

الاسكندر : إني قد ذبحت تلك الدجاجة التي كانت تبيض ببيض الذهب ، وأكلتها فكان من حروبهم ما دعا الاسكندر إلى الخروج إلى أرض الشام والعراق ، فاصطلم من كان بها من الملوك ، وقتل دارا بن دارا ملك الفرس ، وقد أتينا على خبر مقتله ومقتل غيره من ملوك الهند ومن لحق بهم من ملوك المشرق في الكتاب الأوسط

ونسب قوم الاسكندر أنه الاسكندر بن فيلبس بن مصرم بن هرمس بن نسب الاسكندر هردوس بن ميطنون بن رومي بن نويط بن نوفيل بن رومي بن ليطي بن يونان ابن يافت بن نوح ، ونسبه قوم أنه من ولد العيص بن إسحق بن إبراهيم ، ومنهم من رأى أنه الاسكندر بن يونه بن سرحون بن رومي بن قرمط بن نوفيل بن رومي بن الأصغر بن اليعز بن العيص بن إسحق بن إبراهيم

وقد تنازع الناس فيه : فمنهم من رأى أنه ذو القرنين ، ومنهم من رأى أنه غيره ، وتنازعوا أيضا في ذي القرنين : فمنهم من رأى أنه إنما سمى بذى القرنين لبلوغه بأطراف الأرض ، وأن الملك الموكل بجبل قاف سماه بهذا الاسم ، ومنهم من رأى أنه من الملائكة ، وهذا قول يعزى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والقول الأول لابن عباس في تسمية الملك إياه ، ومنهم من رأى أنه كان بذو أبتين من الذهب ، وهذا قول يعزى إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، وقد قيل غير ذلك ، وإنما نذكر تنازع الشرعيين من أهل الكتب ، وقد ذكره تبع في شعره ، وافتخر به ، وأنه من قحطان ، وقيل : إن بعض التبابعة غزا مدينة رومية فأسكنها خلقا من اليمن ، وإن ذا القرنين هو الاسكندر من أولئك العرب المتخلفين بها ، والله أعلم

وسار الاسكندر بعد أن ملك بلاد فارس ، فاحتوى على ملوكها ، وتزوج بابنة ملكها دارا بن دارا بعد أن قتله ، ثم سار إلى أرض السند والهند ، ووطىء ملوكها ، وحملت إليه الهدايا والخراج ، وحاربه ملكها فور ، وكان أعظم ملوك

الخلاف في
الاسكندر وفي
ذى القرنين

الهند ، وكان له معه حروب ، وقتله الاسكندر مبارزة

ثم سار الاسكندر نحو بلاد الصين والتبت ، فدانت له الملوك ، وحملت إليه الهدايا والضرائب ، وسار في مفاوز الترك يريد خراسان من بعد أن ذلّ ملوكها ، ورتب الرجال والقواد فيما افتتح من الممالك ، ورتب ببلاد التبت خلقا من رجاله وكذلك ببلاد الصين ، وكوّر بخراسان كورا ، وبنى مدناً في سائر أسفاره ، وكان معلمه أرسطاطاليس حكيم اليونانيين ، وهو صاحب كتاب المنطق وما بعد الطبيعة ، وتلميذ أفلاطون ، وأفلاطون تلميذ سقراط ، وصرف هؤلاء همهم إلى تقييد علوم الأسماء الطبيعية النفيسة وغير ذلك من علوم الفلسفة واتصالها بالإنسانيات ، وأبانوا عن الأشياء ، وأقاموا البرهان على صحتها ، وأوضحوها لمن استعجم عليه تناولها

وسار الاسكندر راجعاً من سفره يؤم المغرب ، فلما سار إلى مدينة شهر زور اشتدت علته ، وقيل : ببلاد نصيبين من ديار ربيعة ، وقيل : بالعراق ، فعهد إلى صاحب جيشه وخليفته على عسكره بطليموس

فلما مات الاسكندر طافت به الحكماء ممن كان معه من حكماء اليونانيين والفرس والهند وغيرهم من علماء الأمم ، وكان يجمعهم ، ويستريح إلى كلامهم ، ولا يصدر الأمور إلا عن رأيهم ، وجعل بعد أن مات في تابوت من الذهب ، وصرع بالجواهر بعد أن طلى جسمه بالأطمية الماسكة لأجزائه ، فقال عظيم الحكماء والمقدم فيهم : ليتكلم كل واحد منكم بكلام يكون للخاصة معزياً وللعمامة واعظاً ، وقام فوضع يده على التابوت ، فقال : أصبح أسر الأسراء أسيراً ، ثم قام حكيم ثان فقال : هذا الاسكندر الذي كان يخبئ الذهب فصار الذهب يخبئوه ، وقال الحكيم الثالث : ما أزهّد الناس في هذا الجسد ، وأرغبهم في هذا التابوت ، وقال الحكيم الرابع : من أعجب العجب أن القوى قد غاب ، والضعفاء لاهون مغترون ، وقال الخامس : ياذا الذي جعل أجله ضمناً ، وجعل أمله عياناً ، هلاًّ باعدت من

الحكماء على
جدث
الاسكندر

أجلك لتبلغ بعض أملك ، هلا حقت من أملك الامتناع عن فوت أجلك ، وقال
السادس : أيها الساعى المنتصب جمعت ما خذلك عن الاحتياج ، فغودرت عليك
أوزاره وفارقت أيامه ، فغناه غيرك ووباله عليك ، وقال السابع : قد كنت لنا
واعظافا وعظتنا موعظة أبلغ من وفاتك ، فمن كان له عقل فليعقل ، ومن كان
مغتريا فليغت ، وقال الثامن : ربَّ هائب لك كان يغتابك من ورائك ، وهو
اليوم بحضرتك لا يخافك ، وقال التاسع : رب حريص على سكوته إذ
لا تسكت ، وهو اليوم حريص على كلامك إذ لا تتكلم ، وقال العاشر : أماتت
هذه النفس لئلا تموت ، وقد ماتت ، وقال الحادى عشر ، وكان صاحب خزانة
كتب الحكمة : قد كنت تأمرنى أن لا أبعد عنك ، فالיום لا أقدر على الدنومك ،
وقال الثانى عشر : هذا اليوم عظيم العبر ، أقبل من شره ما كان مديرا ، وأدبر من
خيريه ما كان مقبلا ، فمن كان باكيا على من زال ملكه فليبك ، وقال الثالث عشر :
يا عظيم السلطان اضْحَلَّ سلطانك كما اضمحل ظل السحاب ، وعفت آثار مملكتك
كما عفت آثار الرباب ، وقال الرابع عشر : يا من ضاقت عليه الأرض طولاً وعرضاً ،
ليت شعرى كيف حالك فيما احتوى عليك منها ؟ وقال الخامس عشر : أعجب
لمن كانت هذه سبيله كيف شرهت نفسه بجمع الخطام الهائد والهشيم البائد ، وقال
السادس عشر : أيها الجمع الخافل والملتقى الفاضل ، لا ترغبوا فيما لا يدوم سروره
وتنقطع لذته ، فقد بان لكم الصلاح والرشاد من الغى والفساد ، وقال السابع
عشر : انظروا إلى حلم النائم كيف انقضى ؟! وظل الغمام كيف انجلى ؟! وقال الثامن
عشر ، وكان من حكماء الهند : يا من كان غضبه الموت هلا غضبت على الموت ،
وقال التاسع عشر : قد رأيتم أيها الجمع هذا الملك الماضى فليتعض به الآن هذا
الباقي ، وقال العشرون : هذا الذى دار كثيرا والآن يقر طويلا ، وقال الحادى
والعشرون : إن الذى كانت الأذان تنصت له قد سكت ، فليتكلم الآن كل
ساكت ، وقال الثانى والعشرون : سيلحق بك من سره موتك كما لحقت بمن سر

موته ، وقال الثالث والعشرون : مَالِكَ لَا تَقُلْ عَضُوا مِنْ أَعْصَانِكَ ، وقد كنت تستقل ملك الأرض ؟ بل مالك لا ترغب بنفسك عن ضيق المسكان الذى أنت به ، وقد كنت ترغب بها عن رحب البلاد ؟ وقال الرابع والعشرون ، وكان من نُسَّاك الهند وحكامها : إن دنيا يكون هكذا آخرها فالزهر أولى أن يكون فى أولها ، وقال الخامس والعشرون ، وكان صاحب مائدته : قد فُرِشَتِ النَّمَارِقُ ، ونضدت الوسائد ، وهيئت الموائد ، ولا أرى عميد المجلس ، وقال السادس والعشرون ، وكان صاحب بيت ماله : قد كنت تأمرنى بالجمع والادخار فالى من أدفع ذخائرك ؟ وقال السابع والعشرون ، وكان خازنا من خزانته : هذه مفاتيح خزائنك فمن يقبضها قبل أن أؤخذ بما لم آخذ منها ؟ وقال الثامن والعشرون : هذه الدنيا الطويلة العريضة طويت منها فى سبعة أشبار ، القول التاسع والعشرون قول زوجته ووشنك بنت دارا بن دارا ملك فارس : ما كنت أحسب أن غالب دارا الملك يغلب ، وأن كان هذا الكلام الذى سمعت منكم معاشر الحكماء فيه شرابه فقد خلف الكاس الذى تشرب به الجماعة ، القول الثلاثون ما يحكى عن أمه أنها قالت حين جاءها نعيه : لئن فقدت من ابنى أمره فما فقدت من قلبى ذكره وقبض الاسكندر وهو ابن ست وثلاثين سنة ، وكان ملكه تسع سنين قبل قتله لدارا بن دارا ، وست سنين بعد قتله لدارا بن دارا وتملكه على سائر ملوك الأرض ، وملك وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، وذلك بمقدونية ، وهى مصر ، وعهد إلى ولى عهده بطليموس بن أذينة أن يحمل تابوته إلى والدته بالإسكندرية ، وأوصاه أن يكتب إليها إذا أتاها نعيه أن تتخذ ولية وتنادى فى مملكتها أن لا يتخاف عنها أحد ، وأن لا يجيب دعوتها من قد فقد محبوبا أو مات له خليل ليكون ذلك مأتم الاسكندر بالسرور ، خلاف مأتم الناس بالحزن فلما ورد نعيه إليها ، ووضع التابوت بين يديها ؛ نادى فى أهل مملكتها على ما به أمرها ، فلم يجب أحد دعوتها ، ولا بادى إلى نداءها ، فقالت لحشمها : ما بال الناس

لم يجيبوا دعوتي ؟ فقالوا لها : أنت منعتهم ^(١) من ذلك ، قالت : وكيف ؟ قيل لها : أمرت أن لا يجيبك من فقد محبوبا ، أو عدم خيلا ، أو فارق حبيبا ، وليس فيهم أحد إلا وقد أصابه بعض ذلك ، فلما سمعت ذلك استيقظت ، وعلمت ما به سئلت ، وقالت : لقد عزاني ولدى أحسن العزاء ، وقالت : يا إسكندر ، ما أشبهه أو أحرَكَ بأوائلك ، وأمرت به فجعل في تابوت من المرمر ، وطلّى بالأظلية الماسكة لأجزائه ، وأخرجته عن الذهب ؛ لعلمها أن من يطرأ بعدها من الملوك والأمم لا يتركونه في ذلك الذهب ، وجعل التابوت المرمر على أحجار نُصِّدَتْ ، وصخور نصبت ، من الرخام والمرمر قد رصفت ، وهذا الموضع من الرخام والمرمر باق ببلاد الإسكندرية من أرض مصر يعرف بقبر الاسكندر إلى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، وسند كر فيما يرد من هذا الكتاب جوامع من أخبار الإسكندرية وعجائبها ، ومصر وأخبارها ونيلها ، في الموضع المستحق له من ذلك في كتابنا ، إن شاء الله تعالى

ذكر جوامع من حروب الاسكندر بأرض الهند

قال المسعودي : لما قتل الإسكندر فور صاحب مدينة المانكير من ملوك الهند ، واتقاد إليه جميع ملوك الهند ، على حسب ما ذكرناه من حمل الأموال وإخراج إليه ؛ بلغه أن في أقاصى أرض الهند ملوكا من ملوكهم ذا حكمة ، وسياسة ، وديانة ، وإنصاف للرعية ، وأنه قد أتى عليه من عمره مئون من السنين وأنه ليس بأرض الهند من فلاسفتهم وحكائهم مثله ، يقال له كند ، وكان قاهرا لنفسه ، مميता لصفاته من الشهوة الغضبية وغيرها ، حاملا لها على خلق كريم ، وأدب زائن ، فكتب إليه كتابا يقول فيه : أما بعد ، فإذا أتاك كتابي هذا فإن

(١) الوجه في العربية « منعهم » بكسر التاء وبدون الياء ، ولكن المؤلف

يستعمل مثل ذلك كثيرا ، وقد نهينا عليه مرارا فيما سبق

كنت قائماً فلا تقعد ، وإن كنت ماشياً فلا تلتفت ، وإلا مزقت ملكك ، وألحقتك بمن مضى من ملوك الهند ، فلما ورد عليه الكتاب أجاب الإسكندر بأحسن جواب ، وخاطبه بمالك الملوك ، وأعلمه أنه قد اجتمع له قبله أشياء لا يجتمع عند غيره مثلاً إلا من صارت إليه عنه ، فمن ذلك ابنة له لم تطاع الشمس على أحسن صورة منها ، وفياسوف يخبرك بمرادك قبل أن تسأله ؛ لحدة مزاجه ، وحسن قريحته ، واعتدال بنيته ، واتساعه في علمه ، وطيب لا تخشى معه داء ، ولا شيئاً من العوارض ، إلا ما يطرأ من الفناء والذئور الواقع بهذه البنية ، وحل العقدة التي عقدها المبدع لها المخترع لهذا الجسم الحسى ، وإن كانت بنية الانسان وهيكله قد نصبت في هذا العالم غرضاً للآفات والختوف والبلايا ، وقدحٌ عندي إذا أنا ملأته شرب منه عسكرك بجمعه ولا ينقص منه شيء ، ولا يزيد الوارد عليه إلا دهاقاً ، وأنا مُنفذٌ جميع ذلك إلى الملك ، وصائرٌ إليه ، فلما قرأ الإسكندر الكتاب ووقف على ما فيه قال : تكون هذه الأشياء الأربعة عندي ونجاة هذا الحكيم من صولتي أحب إلى من أن لا تكون عندي ويهلك ، فأنفذ إليه الإسكندر جماعة من حكماء اليونانيين في عدة من الرجال ، وتقدم إليهم : إن كان صادقاً فيما كتب به فاحملوا ذلك إلى ، ودعوا الرجل في موضعه ، وإن تبينتم أن الأمر بخلاف ذلك وأنه أخبر عن الشيء على خلاف ما هو به فقد خرج عن حد الحكمة فأشخصوه إلى ، فضى القوم حتى انتهوا إلى الملك ، فتلقاهم بأحسن لقاء ، وأنزلهم أحسن منزلٍ ، فلما كان في اليوم الثالث جلس لهم مجلساً خاصاً للحكماء منهم دون من كان معهم من المقاتلة ، فقال بعض الحكماء لبعض : إن صدقنا في الأولى صدقنا فيما بعدها مما ذكر ، فلما أخذت الحكماء مراتبها ، واستقرت بها مجالسها ؛ أقبل عليهم مباحثاً لهم في أصول الفلسفة والكلام في الطبيعيات وما فوقها من الإلهيات ، وعلى شماله جماعة من حكمائه وفلاسفته ، فطال الخطب في المبادئ الأول ، وتشاحوا القوم ونظروا في موضوعات العلماء وترتيبات الحكماء

على غير مراء ، وتناهى بهم الحكماء إلى غاية كان إليها صدورهم من العلويات ، ثم أخرج الجارية فلما ظهرت لأبصارهم رمقوها بأعينهم فلم يقع طرف واحد منهم على عضو من أعضائها مما ظهر فأمكنه أن يتعدى ببصره إلى غيره وشغله تأمل ذلك وحسنه وحسن شكلها وإتقان صورتها ، فخاف القوم على عقولهم لما ورد عليهم عند النظر إليها ، ثم إن كل واحد منهم رجع إلى نفسه وفهمه ، وقهر سلطان هواه ودواعى طبعه ، ثم أراهم بعد ذلك ما تقدم الوعد به وسيرهم وسير الفيلسوف والطبيب والجارية والقدر معهم وشيعهم مسافة من أرضه ، فلما وردوا على الاسكندر أمر بانزال الطبيب والفيلسوف ، ونظر إلى الجارية ، فثار عند مشاهدتها ، وبهرت عقله ، وأمر قيِّمَ جواريه بالقيام عليها ، ثم صرف همته إلى الفيلسوف ، وإلى علم ما عنده ، وإلى علم الطبيب ومحلّه من صنعة الطب وحفظ الصحة ، وقص الحكماء عليه ما جرى لهم من المباحثة مع الملك الهندي ، ومن أحضره من فلاسفته وحكمائه ، فأعجبه ذلك ، وتأمل أغراض القوم ومقاصدهم والغاية التي إليها كان أصدرهم ، وأقبل ينظر إلى مطاردة الهند في عللها ومعلولاتها وما يصفه اليونانيون من عللها وصحة قياسها على ما قدمنا من أوضاعها ، ثم أراد محنة الفيلسوف على حسب ما أخبر عنه ، فخلا بنفسه ، وأجال فكره ، فسرحله سائح من الفكر بايقاع معنى يختبره به فدعا بقدر فلاء سمنا وأدهقه ، ولم يجعل للزيادة عليه سبيلا ، ودفعه إلى رسول له ، وقال له : امض به إلى الفيلسوف ، ولا تخبره بشيء ، فلما ورد الرسول بالقدر ودفعه إلى الفيلسوف قال بصحة فهمه وتبينه للأمر المتقنة الحكمة في نفسه : لأمر ما بعث هذا الملك الحكيم بهذا السمن إلى ، وأجال فكره ، وسبر المراد به ، ثم دعا بنحو ألف إبرة فغرز أطرافها في السمن ، وأقنذها إلى الاسكندر ، فأمر الاسكندر بسبكها كرة مدورة ملهمة متساوية الأجزاء ، وأمر بردها إلى الفيلسوف ، فلما نظر إليها الفيلسوف وتأمل فعل الاسكندر فيها أمر ببسطها ، وبأن يتخذ منها مرآة بحضرتة ، وصقلها ، فصارت جسما صقيلا ترد صورة من

قابلها من الأشخاص ؛ لشدة صفائها ، وزوال الدرن عنها ، وأمر بردها إلى الاسكندر ، فلما نظر إليها ، وتأمل حسن صورته فيها ، دعا بطست فجعل المرأة فيه ، وأمر بإراقة الماء فيه عليها حتى رسبت ، وأمر بحمل ذلك إلى الفيلسوف ، فلما نظر الفيلسوف إلى ذلك أمر بالمرأة فجعل منها مشربة كالطرجهارة ، وجعلها في الطست فوق الماء ، فطفت فوقه ، وأمر بردها إلى الاسكندر ، فلما نظر الاسكندر إلى ذلك أمر بتراب ناعم فثلث منه ، وردّها إلى الفيلسوف ، فلما نظر الفيلسوف إلى ذلك تغير لونه ، وحال ، وجزع ، وتغيرت صفاته ، وأسبل دموعه على خده ، وكثر شهيقه ، وطال أئينه ، وظهر حنينه ، وأقام بقية يومه غير منتفع بنفسه ، ثم أفاق من ذلك الحال ، وزجر نفسه ، وأقبل عليها كالمتعاب لها ، وقال : ويحك يانفس !! ما الذى قذف بك فى هذه السدفة ، وأصار بك إلى هذه الغمة ، ووصلك بهذه الظلمة ؟ أنسيت وأنت فى النور تسرحين وفى العلوم ترحين وتنظرين فى الضياء الصادق وتنفسحين فى العالم المشرق ؟ أنزلت إلى عالم الظلم والمعاندة ، والغشم والمفاسدة ، تخطفك الخواطف ، وتنهرك العواصف ، قد حرمت علم الغيوب ، والكون فى العالم المحبوب ، ورميت بشدائد الخطوب ، ورفضت كل مطلوب ، أين مصادرك الطبية وراحتك القوية ؟ حلت فى الأجساد ، فقوى عليك الكون والفساد ، حلت يانفس بين السباع القتالة ، والأفاعى المهلكة ، والنيران المحرقة ، والريح العاصفة ، وصيرتك الأعمار فى قرارات الأجسام ، لا تشاهدين إلا غفلا ، ولا ترين إلا جاهلا ، قد زهد فى الخيرات ، ورغب عن الحسنات ، ثم رفع طرفه نحو السماء فرأى النجوم تزهر فقال بأعلى صوته : يالك من نجوم سائرة ، وأجسام زاهرة ، من عالم شريف طاعت ، ولشئ ما وضعت ، إنك من عالم نقيس قد كانت النفس فى أعاليه ساكنة ، وفى أكنافه قاطنة ، فقد أصبحت عنه ظاعنة ، ثم أقبل على الرسول وقال : خذه وردّه إلى الملك ، يعنى التراب ، ولم يحدث فيه حادثة ، فلما ورد الرسول على الاسكندر أخبره

بجميع مشاهد ، فتعجب الاسكندر من ذلك ، وعلم مرامى الفيلسوف ومقاصده ،
وغاية مراده فيما وقع بالنفوس من النقلة مما علا من العوالم إلى هذا العالم
ولما كان في صبيحة تلك الليلة جلس له الاسكندر جلوسا خاصا ، ودعا به ،
ولم يكن رآه قبل ذلك ، فلما أقبل ونظر إلى صورته وتأمل قامته وخلقه ، نظر
إلى رجل طويل الجسم ، رَحَبَ الجبين ، معتدل البنية ، فقال فى نفسه : هذه
بنية تضاد الحكمة ، فاذا اجتمع حسن الصورة وحسن الفهم كان أوحـد زمانه ،
ولست أشك أن هذا الشخص قد علم كل مارسلته به ، وأجانبى عليه من غير
مخاطبة ولا موافقة ولا مباحثة ، فليس فى وقته أحد يدانيه فى حكمته ، ولا يلحقه
فى علمه ، وتأمل الفيلسوف الاسكندر فأدار أصبعه السبابة على وجهه ، ووضعها
على أرنبة أنفه ، وأسرع نحو الاسكندر وهو جالس على غير سرير ملكه ، فحياه
بتحية الملوك ، فأشار إليه الاسكندر بالجلوس ، فجلس حيث أمره ، فقال له
الاسكندر : مابالك حين نظرت إلى ورميت بطرفك نحوى أدت إصبعك حول
وجهك ووضعتها على أرنبة أنفك ، قال : تأملتك أيها الملك بنورية عقلى وصفاء
مزاجى ، فتبينت فكرك فى ، وتأملت لصورتى ، وأنها قلما تجتمع مع الحكمة ،
فاذا كان ذلك كان صاحبها أوحـد زمانه ، فأدركت أصبعى مصداقا لما سنع لك ،
وأريتك مثالا شاهدا كما أنه ليس فى الوجه إلا أنف واحد فكذلك ليس فى دار
ملك الهند غيرى ، ولا يلحق أحد من الناس بى فى حكمى ، فقال له الاسكندر :
ما أحسن ما تأتى لك ما ذكرت ، وانتظم لك بحسن الخاطر ما وصفت ، فدع
عنك هذا ، مابالك حين أنفدت إليك قدحاً مملوءاً سمنا غرزت فيه إبراً ورددته
إلى ؟ قال الفيلسوف : علمت أيها الملك أنك تقول : إن قلبى قد امتلأ وعلمى
قد انتهى كامتلاء هذا الاناء من السمن ، فليس لأحد من الحكماء فيه مستزاد ،
فأخبرت الملك أن علمى يستزيد فى علمه ، ويدخل فيه دخول هذه الإبر فى هذا
الإناء ، قال : فأخبرنى مابالك حين عمل من الإبر كرة وأنفدتها إليك صيرتها

مرآة وردتها إلى صقيلة ، قال : علمت أيها الملك أنك تريد أن قلبك قد قسا من سفك الدماء والشغل بسياسة هذا العالم كقسوة هذه السكره ؛ فلا يقبل العلم ، ولا يرغب في فهم الغايات والعلوم والحكمة ، فأخبرتكم مجيبا مثلا بسبك السكره والحيلة في أمرها بجعل منها مرآة صقيلة مؤدية إلى الأجسام عند المقابلة لحسن الصفاء ، قال له الاسكندر : صدقت ، قد أجبتني عن مرادى ، فأخبرنى أيها الفيلسوف حين جعلت المرآة فى الطست ورسبت فى الماء جعلتها قدحا فوق الماء طافية ثم رددتها إلى ، قال الفيلسوف : علمت أنك تريد بذلك أن الأيام قد انقضت وقصرت والأجل قد قرب ، ولا يدرك العلم الكثير فى المهل القليل ، فأجبت الملك ممثلا أنى سأعمل الحيلة فى إيراد العلم الكثير فى المهل القليل إلى قلبه ، وتقريبه من فهمه ، كاحتيالى للمرأة من بعد كونها راسبة فى الماء حتى جعلتها طافية عليه ، قال له الاسكندر : صدقت ، فأخبرنى ما بالك حين ملأت الإناء ترابا رددته إلى ولم تحدث فيه حادثة كفعلك فيما سلف ، قال : علمت أنك تقول : ثم الموت وأنه لا بد منه ثم حقوق هذه البنية بهذا العنصر البارد اليابس المعتل الذى هو الأرض ودثورها وتفرق أجزائها ومفارقة النفس الناطقة الصافية الشريفة اللطيفة لهذا الجسد المرئى ، قال الاسكندر : صدقت ، ولأحسنن إلى الهند من أجلك ، وأمر له بجوائز كثيرة ، وأقطعها قطائع واسعة ، فقال له الفيلسوف : لو أحبيت المال لما أردت العلم ، ولست أدخل على علمى ما يصاده وينافيه ، واعلم أيها الملك أن الغنية توجب الخدمة ، ولسنا نجد عاقلا من خدم غير ذاته ، واستعمل غير ما يصلح نفسه ، والذى يصلح النفس الفلسفة ، وهى صقالها وغداؤها ، وتناول الحيوانية وغيرها من الموجودات ضد لها ، والحكمة سبيل إلى العلو ، وسلم إليه ، ومن عدم ذلك عدم القربة من بارئه ، واعلم أيها الملك أن بالعدل ركب جميع العالم بحزئياته ، ولا يقوم بالجور ، والعدل ميزان البارئ جل وعز ، فكذلك حكمته مبرأة عن كل ميل وزلل ، وأشبه الأشياء من أفعال الناس بأفعال بارئهم الإحسان

إلى الناس ، وقد ملكت أيها الملك سيفك وصوله ملكك وتأتيك في أمورك وانتظام سياستك أجسام رعيتك ؛ فتحرر أن تملك قلوبهم باحسانك إليهم ، وإنصافك لهم ، وعدلك فيهم ، فهي خزانة سلطانك ؛ فانك إن قدرت أن تقول قدرت أن تفعل ، فاحترز من أن تقول تأمن من أن تفعل ، فالملك السعيد من تمت له رياسة أيامه ، والملك الشقي من انقطعت عنه ؛ فمن تجرى في سيرته العدل استنار قلبه بعذوبة الطهارة

قال المسعودي رحمه الله : وخلا الاسكندر عن الفيلسوف لا يمكنه المقام معه ، فالحق بأرضه ، وللإسكندر مع هذا الفيلسوف مناظرات كثيرة في أنواع من العلوم ومكاتبات ، ومراسلات ، جرت بين الإسكندر وبين كند ملك الهند ، قد أتينا على مبسوطها والغرر من معانيها والزهر من عيونها في كتابنا في « أخبار الزمان » وأما القديح فامتحنه حين أدهمه بالماء وأورد عليه الناس فلم ينقص شربهم منه شيئاً ، وكان معمولاً بضرب من خواص الهند والروحانية والطبائع التامة والتوهم ، وغير ذلك من العلم مما يدعيه الهند ، وقد قيل : إنه كان لا دم أبي البشر عليه السلام بأرض سرنديب من بلاد الهند مبارك له فيها ، فورث عنه ، وتداولته الملوك ، إلى أن انتهى إلى كند هذا الملك العظيم سلطانه ، وما كان عليه من الحكمة ، وقيل غير ذلك من الوجوه ، مما قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا .

وللطبيب معه أخبار ظريفة ، ومناظرات عجبية ، في أوائل المعرفة وصناعة الطب وترقيته إلى مبسوط الصنعة من الطبيعيات وغيرها ، أعرضنا عن ذكرها خوفاً من الإطالة وميلاً إلى الاختصار في هذا المكان ، لتعلق الكلام بالتوهم الذي تدعيه الهند في صناعة الطب وغيرها .

وقد كان للإسكندر في أسفاره وتوسطه الممالك وقطعه الأقاليم ومشاهدته الأمم وملاقاته الحكماء - مع تنأى ديارهم ، وبعد أوطانهم ، واختلاف لغاتهم ،

وعجائب صورههم ، وتباينهم في شيمهم وأخلاقهم - أخبار كثيرة من حروب ومكايد وحيل وفنون من السير ، وما أحدث من الأبنية ، قد أتينا على شرح ذلك فيما سلف من كتبنا مما سمينا ، وغير ذلك مما عن وصفها أمسكنا ، وإعنا ذكرنا ليسير من أخباره ، لئلا يعرى كتابنا من شيء منها مع ذكرنا لمسيره ووفاته وبالله التوفيق .

ذكر ملوك اليونانيين بعد الاسكندر

ثم ملك بعد الاسكندر الملك خليفته « بطليموس » وكان حكيما عالما شابا مدبرا ، وكان ملكه أربعين سنة ، وقيل : بل كان ملكه عشرين سنة ، وقد كان لهذا الملك - وهو التالي للملك الاسكندر - حروب مع بني إسرائيل وغيرهم من ملوك الشام

بطليموس

وذكر جماعة من أهل الدرايات بأخبار ملوك العالم أنه أول من اقتنى البزاة ولعب بها وضراها ، وأنه ركب في بعض الأيام في طربه إلى بعض متنزهاته فنظر إلى بازٍ يطير ، فرآه إذا علا صب ، وإذا سفل خفق ، وإذا أراد أن يستوى ذرق ، فاتبعه حتى اقتحم شجرة ملتفة كثيرة الشوك ، فتأمله ، فأعجبه صفاء عينيه وصفرتها ، وكال خلقه ، فقال : هذا طائر حسن ، له سلاح ، وينبغي أن تتزين به الملوك في مجالسها ، فأمر أن يجمع منها عدة لتكون في مجلسه زينة ، فعرض لبازٍ منها أيمم ، وهو الحية الذكر ، فوثب عليه البازى فقتله ، فقال الملك : هذا ملك يغضب مما تغضب منه الملوك ، ثم عرض له بعد أيام ثعلب كان داجنا ، فوثب عليه البازى ، فما أفلت إلا جريضا ، فقال الملك : هذا ملك جبار لا يحتمل الضيم ، ثم مر طائر فوثب عليه فأكله ، فقال الملك : هذا ملك يمنع حماء ولا يضيع أكله فالعب بها ، ثم لعب بها بعده ملوك الأمم من اليونانيين والروم والعرب والعجم وغيرهم ، وثني من بعده من ملوك الروم بلعب الشواهين والاصطياد بها ، وقد قيل :

اللعب بالبزاة
والشواهين

إن الأزارقة - وهم ملوك الأندلس من الأشيبان - أول من لعب بالشواهين وصادبها ، وكذلك اليونانيون أول من صاد بالعقبان ولعب بها ، وقد ذكر أن ملوك الروم أول من صاد بالعقبان

قال المسعودي : وقد قدمنا^(١) فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لجبل الفتح والأبواب جملا من أخبارها وأخبار من لعب بها ، وقد كان من سلف من حكماء اليونانيين يقولون : إن الجوارح أجناس خلقها الله تعالى ، وأنشأها على منازلها ودرجاتها ، وهى أربعة أجناس وثلاثة عشر شكلا ، فأما الأجناس الأربعة فهى : البازى ، والشواهين ، والصقر ، والعقاب ، وقد ذكرنا هذه الأجناس والأشكال على طريق الخبر فى الكتاب الأوسط على مراتبها من سائر أنواع الحيوان الجوارح ، ودلائلها وما قاله الناس فى ذلك

ثم ملك بعد بطليموس « هيفلوس » وكان رجلا جبارا ، وفى أيامه عملت الطلسمات ، وظهرت عبادة التماثيل والأصنام لشبه دخلت عليهم وأنها وسائل بينهم وبين خالقهم تقر بهم إليه وتدنيهم منه ، وكان ملكه ثمانيا وثلاثين سنة ، وقيل : أربعين

وقد قيل : إن الذى تملك بعد خليفة الاسكندر بطليموس الثانى محب الأخ ، وغزا بنى إسرائيل ببلاد فلسطين وإيليا من أرض الشام ، فسباهم ، وقتل منهم ، وطلب العلوم ، ثم رد بنى إسرائيل إلى فلسطين ، وحمل معهم الجواهر والأموال وآلات الذهب والفضة لهيكل بيت المقدس ، وكان ملك الشام يومئذ أنطيوخس وهو الذى بنى مدينة أنطاكية ، وكانت دار ملكه ، وجعل بناء سورها أحد عجائب العالم فى البناء على السهل والجبل ، ومسافة السور اثنا عشر ميلا ، عمدة الأبراج فيه مائة وستة وثلاثون برجاً ، وجعل عدد شرفاته أربعة وعشرين ألف شرفة ، وجعل على كل برج من الأبراج بتولة بطريق أسكنه إياه برجاله وحيله ،

(١) انظر (ص ١٦٠) من هذا الجزء ، وما بعدها

وجعل كل برج منها طبقات ، والبطريق في أعلاه ، وجعل كل برج منها كالحصن عليها أبواب حديد ، وآثار الأبواب ومواضع الحديد بين إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - وأظهر فيها مياهها من أعين وغيرها لاسبيل إلى قطعها من خارجها ، وجعل إليها مياهها منصبة في قنى مخرقة إلى شوارعها ودورها ، ورأيت فيها في هذه المياه ما يستحجر في مجاريها المعمولة من الخرف لترادف البصر فيها فيتراكم طبقات ويمنع الماء من الجريان بانسداده فلا يعمل الحديد في كسره ، وقد ذكرنا ذلك في كتابنا المترجم : « القضايا والتجارب » وما شاهدناه حسا ونمى إلينا خبرا مما يولده ماء أنطاكية في أجساد الحيوان الناطق وأجوافهم ، وما يحدث في معدمهم ، من الرياح السوداء الباردة والقولنجية الغليظة ، وقد أراد الرشيد سكتها فقليل له بعض ما ذكرنا من أوصافها ، وترادف الصدا على السلاح من السيوف وغيرها بها ، وعدم تقارح الطيب بها ، واستحالت على اختلاف أنواعه ، فامتنع من سكتها .

ثم ملك على اليونانيين بعد هيفلوس « بطليموس » الصانع ستا وعشرين سنة ثم ملك بعده عليهم « بطليموس » المعروف بمحب الأب ، تسع عشرة سنة ، وكانت له حروب مع ملوك الشام وصاحب أنطاكية الاسكندروس ، وهو الذي بنى مدينة فامية بين حمص وأنطاكية .

ثم ملك بعده على اليونانيين « بطليموس » صاحب علم الفلك والنجوم وكتاب المجسطى وغيره ، أربعا وعشرين سنة .

ثم ملك « بطليموس » محب الأم ، خمسا وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده « بطليموس » الصانع سبعا وعشرين سنة .

ثم ملك « بطليموس » المخلص ، سبع عشرة سنة .

ثم ملك بعده « بطليموس » الاسكندراني ، اثنتي عشرة سنة .

ثم ملك بعده « بطليموس » الحديدي ، ثمان سنين .

ثم ملك بعده « بطليموس » الجوال ، ثمانيا وستين سنة ، وكانت له حروب كثيرة .

ثم ملك بعده « بطليموس » الحديد ، ثلاثين سنة .

ثم ملكت بعده ابنته « قبطرة » وكان ملكها اثنتين وعشرين سنة ، وكانت حكيمة متفلسفة ، مقربة للعلماء ، معظمة للحكام ، ولها كتب مصنفة في الطب والزينة ، وغير ذلك من الحكمة ، مترجمة باسمها ، منسوبة إليها ، معروفة عند صنعة أهل الطب ، وهذه الملكة آخر ملوك اليونانيين إلى أن انقضى ملكهم ، ودرثت أيامهم ، وامتحت آثارهم ، وزالت علومهم ، إلا ما بقى في أيدي حكمائهم ، وقد كان لهذه الملكة خبر ظريف في موتها وقتلها لنفسها ، وقد كان لها زوج يقال له أنطونيوس مشارك لها في ملك مقدونية ، وهي بلاد مصر من اسكندرية وغيرها ، فسار إليهم الثاني من ملوك الروم ومن بلاد رومية ، وهو أغسطس ، وهو أول من سمى قيصر ، وإليه تنسب القياصرة بعده ، وسندكر خبره في ملوك الروم بعد هذا الموضع ، وكانت له حروب بالشام ومصر مع قبطرة الملكة ومع زوجها أنطونيوس ، إلى أن قتله ، ولم يكن لقبطرة في دفع أغسطس ملك الروم عن ملك مصر حيلة ، وأراد أغسطس إعمال الحيلة فيها لعلمه بحكمتها ، وليتعلم منها إذ كانت بقية الحكماء اليونانيين ، ثم بعدها يقتلها ، فراسلها ، وعلمت مراده فيها ، وما قد وترها به من قتل زوجها وجنودها ، فطلبت الحية التي تكون بين الحجاز ومصر والشام ، وهي نوع من الحيات : تراعى الانسان ، حتى إذا تمكنت من النظر إلى عضو من أعضائه قفرت أذرا كثيرة كالرمح ، فلم تخط ذلك العضو بعينه ، حتى تنفل عليه سما ، فتأق عليه ، ولا يعلم بها ، لخوده من فوره ، ويتوهم الناس أنه قد مات فجأة حنق أنفه ، ورأيت نوعا من هذه الحيات بين بلاد خوزستان من كور الأهواز لمن أراد بلاد فارس من البصرة ، وهو الموضع المعروف بحامردوية بين مدينة دروق وبلاد الياسيان والعندم في الماء ، وهي حيات شبرية ، وتدعى

قبطرة
(كايو باطرة)

هناك القبرية ، ذات رأسين تكون في الرمل وفي جوف تراب الأرض ، فإذا أحست بالإنسان أو غيره من الحيوان وثبت من موضعها أذرا كثيرة فضربت بإحدى رأسها إلى أى موضع من ذلك الحيوان ، فتلاحقه من ساعته ضد الحياة وعدمها حينه ، فبعثت قلبطرة هذه الملكة فاحتمل لها حية من هذه المقدم ذكرها التى توجد بأطراف الحجاز ، فلما أن كان اليوم الذى علمت أن أغسطس يدخل قصر ملكها أمرت بعض جوارىها ومن أحبت فناءها قبلها ، وأن لا يلحقها العذاب بعدها ؛ فسمتها فى إنائها ، فخدمت من فورها ، ثم جلست قلبطرة الملكة على سرير ملكها ، ووضعت تاجها على رأسها ، وعليها ثيابها وزينة ملكها ، وجعلت أنواع الرياحين والزهر والفاكهة والطيب وما يجمع بمصر من عجائب الرياحين وغيرها مما ذكرنا ، مبسوطة فى مجلسها وقدام سريرها ، وعهدت بما احتاجت إليه من أمورها ، وفرت حشما من حولها ، فاشتغلوا بأنفسهم عن ملكتهم ؛ لما قد غشيهم من عدوهم ودخوله عليهم فى دار ملكهم ، وأدنت يدها من الإناء الزجاج الذى كانت فيه الحية فقربت يدها من فيه ، فتفتلت عليها الحية ، فجفت مكانها ، وانسابت الحية وخرجت من الإناء ، ولم تجد جعرا ولا مذهبا تذهب فيه لاتقان تلك المجالس بالرخام والمرمر والأصباغ ، فدخلت فى تلك الرياحين ودخل أغسطس حتى انتهى إلى المجلس فنظر إليها جالسة والتاج على رأسها ، فلم يشك فى أنها تنطق ، فدنا منها فتنين أنها ميتة ، وأعجب بتلك الرياحين ، فمد يده إلى كل نوع منها يلمسه ويتبينه ويعجب خواص من معه به ، ولم يدر ما سبب موتها فبينما هو كذلك من تناول تلك الرياحين وشما إذ قفزت عليه تلك الحية فرمته بسمها ، ففيس شقه من ساعته ، وذهب بصره الأيمن وسمعه ، فتعجب من فعلها وقتلها لنفسها ، وإيثارها للموت على الحياة مع الذل ، ثم ما كادته به من إلقاء الحية بين الرياحين ، فقال فى ذلك شعرا بالرومية يذكر حاله وما نزل به وقصتها ، وأقام بعد ما نزل به ما ذكرنا يوما وهلك ، ولولا أن الحية كانت قد أفرغت سمها على الجارية

ثم على قلبطرة الملكة لكان أغسطس قد هلك من ساعته ، ولم تمهله هذه المدة ، وهذا الشعر معروف عند الروم إلى هذه الغاية يذكرونه في يومهم ، ويرثون به ملوكهم ، وربما ذكروه في أغانيهم ، وهو متعال معروف عندهم ، وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا سير هؤلاء الملوك وأخبارهم وحروبهم وطوافهم البلاد ، وأخبار حكمائهم ، وما أحدثوه من الآراء والنحل ، ومقائل فلاسفتهم ، وغير ذلك من أسرارهم وعجيب أخبارهم .

والذي يعول عليه من عدد ملوكهم ، واتفق على ذلك أهل المعرفة بأخبارهم أن جميع عدد ملوك اليونانيين أربعة عشر ملكا آخرهم الملكة قلبطرة ، وأن جميع عدد سني ملوكهم ومدة أيامهم وامتداد سلطانتهم ثلثمائة سنة وسنة واحدة ، وكان كل ملك يملك على اليونانيين من بعد الإسكندر بن فيليبس يسمى بطليموس ، وهذا الاسم الأعم الشامل لملكهم ، كتسمية ملوك الفرس كسرى ، وتسمية ملوك الروم قيصر ، وتسمية ملوك اليمن تبع ، وتسمية ملوك الحبشة النجاشي ، وتسمية ملوك الزنج وهليمين ، وقد ذكرنا جملا من مراتب ملوك العالم وسماتهم واسمهم الأعم الشامل لهم فيما سلف من كتبنا ، وسنورد بعد هذا الموضع بالموضع المستحق له من هذا الكتاب جملا عن ذكر الملوك والممالك ؛ إن شاء الله تعالى .



ذكر ملوك الروم وما قاله الناس في أنسابهم

وعدد ملوكهم وتاريخ سنيهم

الاختلاف في
نسب الروم

تنازع الناس في الروم ، ولأية علة سموا بهذا الاسم ؛ فمنهم من قال : سمووا روما لاضافتهم إلى مدينة رومية ، واسمها روماس بالرومية ، وعرب هذا الاسم فسمى من كان بها روما ، وكذلك الروم في لغتهم لا يسمون أنفسهم ولا يدعون أهل الثغور إلّا رميس ، ومنهم من رأى أن هذا الاسم اسم للاب ، وهو روم ابن سماح بن هرمان بن عقلا بن العيص بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، ومنهم من رأى أنهم سموا باسم جد رومي بن ليطن بن يونان بن يافث بن بره ابن سرحون بن رومية بن مربط بن نوفيل بن روين بن الأصغر بن اليغز بن العيص بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام ، وقد ذكر جماعة من سلف من شعراء العرب قبل ظهور الاسلام ذلك الاشتهار ما وصفنا فيهم : منهم عدى بن زيد العبادي حيث يقول : —

وَبَنُو الْأَصْغَرِ الْكِرَامُ مُلُوكُ الرُّومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورٌ

وقد كان العيص بن إسحق ، وهو عيصو ، تزوج من بنات السكعانيين ، فأكثر أولاده منهم ، وقد قيل : إن العماليق — وهم العرب البادية الذين كانوا بالشام — من ولد اليغز بن عيصو ، وهذا ما لا ينقاد إليه علماء العرب إلّا في الروم دون ما ذكرنا من العماليق وغيرهم ، وهذه الأنساب كلها تتعلق بما في التوراة وغيرها من كتب العبرانيين

قال المسعودي : وغلبت الروم على ملك اليونانيين لأخبار يطول ذكرها ، ويتعذر في هذا الكتاب شرحها ، وكان أول من ملك من ملوك الروم فيها ساطوحاس ، وهو جانيوس الأصغر بن روم بن سماح بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، فكان ملكه اثنتين وعشرين سنة ، وقد قيل : إن أول من ملك من ملوك الروم قيصر ، واسمه

أول ملوك
الروم

هالوس بن إفليوس ، ثمان عشرة سنة ، وفي نسخة أخرى أن أول من ملك من ملوك الروم بعد اليونانيين بوليس ، سبع سنين ونصفاً ، وكانت مدينة رومية بنيت قبل الروم بأربعمائة سنة

ثم ملك بعده « أغسطس » بن قيصر ، ستاً وخمسين سنة ، وهذا الملك هو الأول من ملوك الروم ، واسمه قيصر ، وهو الثاني من ملوكهم ، وتفسير قيصر أى شقّ عنه ، وذلك أن أمه ماتت وهى حامل به فشق بطنها ، فكان هذا الملك يفتخر فى وقته بأن النساء لم تلده ، وكذلك من حدث بعده من ملوك الروم ممن كان من ولده يفتخرون بهذا الفعل وما كان من أمهم ، فصارت سمة لمن طراً بعده من ملوك الروم ، والله أعلم

وغزا هذا الملك الشام ومصر والاسكندرية ، وأزال من بقى من ملوك الاسكندرية ومقدونية وهى مصر ، وقد قدمنا أن كل ملك كان يلى مقدونية والاسكندرية يسمى بطليموس ، واحتوى هذا الملك - أعنى أغسطس - على خزان ملوك الاسكندرية ومقدونية ، ونقلها إلى رومية ، وكانت له حروب كثيرة فى الأرض ، وقد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا ، وكان يعبد الأوثان ، وبنى بأرض الروم مدناً وكوَّركورا نسبت تلك المدن إليه : منها قيسارية ، وكذلك بالشام بساحل فلسطين مدينة قيسارية ، وكان مولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بها ، وهو يسوع الناصرى على حسب ما قدمنا ، لاثنين وأربعين سنة خات من ملك قيصر أغسطس هذا ، فكان من ملك الإسكندر إلى مولد المسيح ثلثمائة سنة وتسع وستون سنة ، ورأيت بمدينة أنطاكية فى بعض تواريخ الروم الملكية فى كنيسة القسبان أنه كان من ملك الإسكندر إلى مولد المسيح ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، وكان مولد يسوع الناصرى بإيليا من بلاد فلسطين ، وهو أورشليم بالعبرانية ، فمن هبوط آدم إلى مولد المسيح فى تواريخ

أصحاب الشرائع من أهل الكتب خمسة آلاف سنة وخمسمائة سنة وخمسون سنة .

وأقام أغسطس وهو قيصر ملكا بعد مولد المسيح أربع عشرة سنة ونصفا وكان مدة ملكه على الروم برومية وفي سائر أسفاره ستا وخمسين سنة ، على حسب ما قدمنا من موته واسع الحية إياه بمقدونية ، وجفاف نصفه ، وذهاب سمعه وبصره ، عند ذكرنا لفعل قبايطرة بنفسها في الباب الذي قبل هذا الباب ثم ملك الروم بعده « طيباريوس » وكان مدة ملكه اثنتين وعشرين سنة ، وثلاث سنين بقيت من ملكه رفع المسيح عليه السلام ، ولما هلك هذا الملك برومية اختلفت الروم وتحزبت ، فأقاموا على اختلاف الكلمة والتنازع في الملك مائتي سنة وثمانيا وتسعين سنة ، لا نظام لهم ، ولا ملك يجمعهم ، ولما انتضى ما ذكرنا من المدة ملكوا عليهم « بطاريس » بمدينة رومية ، فكان ملكه أربع سنين ، والقوم لا يعرفون غير عبادة التماثيل والصور

ملك
طيباريوس

ثم ملك بعده « فلوريوس » أربع عشرة سنة ، وذلك برومية ، وهو أول ملك من ملوك الروم شرع في قتل النصارى وأتباع المسيح ، وقيل : إن في أيامه قتل برومية بطرس ، واسمه باليونانية شمعون ، والغرب تسميه سمعان ، هو وبولص ، صلبا منكسرين ، وما كان من خبرهما مع سيمن الساحر برومية ، وهما ممن أتى إلى أنطاكية وأخبر الله عز وجل عنهما في سورة يس ، ثم كان لهما بعد ذلك نبا عظيم ، وذلك بعد ظهور دين النصرانية برومية ، فجعلوا في أجربة من البلور ، فهما على ذلك بمدينة رومية في بعض الكنائس إلى هذه الغاية ، على حسب ما قدمنا آنفا فيما سلف من هذا الكتاب ، وأكثر من غنى بأخبار العالم وسير ملوكهم وتاريخهم ؛ فذهب قوم إلى أنهما قتلا برومية في ملك الخامس من ملوك الروم ، وتفرق تلاميذ يسوع الناصري في الأرض ؛ فسار مارا إلى العراق ، فمات بمدينة برمي والصفافية على شاطئ دجلة بين بغداد وواسط ، وهذا البلد بلد

ملك فلوريوس
وأتباع المسيح
عيسى ابن مريم

على بن عيسى بن داود بن الجراح ومحمد بن داود بن الجراح وغيرهما من الكتاب
قبره هناك في كنيسة إلى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، يعظمه
أهل دين النصرانية ، ومضى توما وكان من الاثنى عشر إلى بلاد الهند داعيا إلى
شريعة المسيح ، فمات هناك ، وسار آخر إلى آخر مدينة بخراسان ، فمات هناك
وموضع قبره مشهور يعظمه النصارى ، ومنهم أردمات ببلاد قوف وحائن البحار
وكرخ حران في تخوم العراق ، وموضعه مشهور ، ومات ماركس بالاسكندرية من
أرض مصر ، وقبره هناك ، وهو أحد التلاميذ الأربعة الذين ألفوا الانجيل ،
وقد كان لمارقس مع أهل مصر خبر ظريف في مقتله ، وقد أتينا على السبب في
ذلك في كتابنا الأوسط الذي كتابنا هذا تال له ، وأتينا على قصته مع أهل مصر
ووصيته لهم حين أراد المسير إلى المغرب : إنه من جاءكم على صورتى فاقتلوه ، فانه
سيرد عليكم بعدى أناس يتشبهون بى ، فبادروا إلى قتلهم ، ولا تقبلوا منهم
ما يقولون ، ومضى وغاب عنهم برهة من الزمان ، ولم يلحق بحيث أراد ، فرجع
إليهم ، فلما هموا بقتله قال لهم : ويحكم !! أنا ماركس ، قالوا : لا ، قد أخبرنا أبونا
مارقس وعهد إلينا بقتل من يتشبه به ، قال : فانى أنا ماركس ، قالوا : لا سبيل
إلى تركك ، ولا بد من قتلك ، فقتلوه ، وقد كان قبل ذلك سئل في بدء الأمر
عن البراهين المؤيدة لقوله ، وطلبوا منه المعجزات ، وقال له بعضهم : إن كنت
صادقا فيما أتيتنا به فاعرج إلى هذه السماء ، ونحن نراك ، فزرع عنه زر ثيابه
وأثر بمنزر صوف على أن يصعد إلى السماء ، فتعلق به جماعة من تلامذته ،
وقالوا له : إن مضيت فمن لنا بعدك إذ كنت الأب ، وكان أمره بعد ذلك على
ما وصفنا ، وتلاميذ المسيح اثنان وسبعون تلميذا واثنا عشر من غير الاثنى
والسبعين ، فاما الذين تملوا الانجيل فهم : لوقا ، ومارقس ، ويحيى ، ومتى ؛ ومنهم
من الاثنى والسبعين لوقا ومتى ، وقد يعد متى أيضا في غير الاثنى عشر ، ولا
أدرى ما معناه في ذلك ، والاثنان اللذان من الاثنى عشر يحيى بن سيداى ،

ومارقس صاحب الاسكندرية ، والثالث الذى ورد أنطاكية ، وقد تقدمه بطرس وتوما ، وهو بولس ، وهو الثالث المذكور فى القرآن بقوله تعالى (فعزنا بثالث) قال : وليس فى سائر رهبان النصرانية من يأكل اللحم غير رهبان مصر ؛ لأن ماركس أباح لهم ذلك

ملك نيرون ثم ملك الروم « نيرون » واستقام ملكه ، ورغب على حسب ما قدمنا ، ونمى دين النصرانية إلى الروم ؛ فكثرت فيهم الدعوة إليه ، فقتل هذا الملك منهم خلائق كثيرة ، وكان ملكه أربع عشرة سنة

ملك طيطش وأسباسيانوس ثم ملك بعده « طيطش وأسباسيانوس » مشتركين فى الملك ثلاث عشرة سنة ، وذلك بمدينة رومية ، ولسنة خلت من ملك هذين الملكين سارا إلى الشام ، وكانت لهما مع بنى إسرائيل حروب عظيمة ، وقتل فيها من بنى إسرائيل ثلثمائة ألف ، وخربا بيت المقدس ، وأحرقا الهيكل بالنار ، وحرثاه بالبقر ، وأزالا رسمه ، ومحووا أثره ، وكانت عبادتهما للأصنام

وهجدت فى بعض كتب التواريخ أن الله عاقب الروم من ذلك اليوم الذى خربت فيه بيت المقدس أن يسبى كل يوم منهم سبى يفعل ذلك من أطاف ببلادهم من الأمم ، فلا يوم من أيام العالم إلا والسبى واقع بهم ، قل ذلك أو أكثر ثم ملك الروم بعدها « ذونسطاس » خمس عشرة سنة عابدا للتماثيل معظما لها ، ولتسع سنين من ملكه نفى يوحنا التلاميذ أحد الأربعة من أصحاب الانجيل إلى بعض جزائر البحر ، ثم رده بعد ذلك

ثم ملك بعده « بيمونوس » سنة

ثم ملك بعده « طرنانوس » سبع عشرة سنة يعبد الأصنام ، ولتسع سنين خلت من ملكه مات يحيى التلاميذ

ثم ملك بعده « ادرياليس » إحدى عشرة سنة يعبد التماثيل ، وخرب سائر ما بنى بنو إسرائيل بالشام

ثم ملك بعده « انطاوليس » برومية ثلاثا وعشرين سنة ، وبنى بيت المقدس
وسماه إيليا ، وهو أول من سماه بهذا الاسم إيليا

ثم ملك بعده « مزليس » سبع عشرة سنة يعبد الأصنام

ثم ملك بعده « قرقودس » يعبد الأوثان ثلاث عشرة سنة

ثم ملك بعده « سربوس » ثمان عشرة سنة

ثم ملك بعده ولد له يقال له « أنطونيس » يعبد التماثيل ، سبع سنين

ثم ملك بعده « أنطونيس » الثانى ، أربع سنين ، يعبد التماثيل ، وفى آخر

ملك هذا الملك مات جالينوس الطبيب

ثم ملك بعده « الاسكندر مامياس » وتفسير مامياس العاجز ، وكان يعبد

التماثيل ، وكان ملكه ثلاث عشرة سنة

ثم ملك بعده « مقسمين » يعبد التماثيل ، وكان ملكه ثلاث سنين

ثم ملك بعده « عردياس » يعبد التماثيل ، ست سنين

ثم ملك بعده « يعريس » يعبد الأوثان ستين سنة ، وأمعن فى قتل

النصرانية ، وطلبهم ، ومن هذا الملك هرب أصحاب الكهف^(١) وقد اختلف

الناس فى أصحاب الكهف والرقيم : فمنهم من رأى أن أصحاب الكهف هم

أصحاب الرقيم ، وزعموا أن الرقيم هو مارقم من أسماء أهل الكهف فى لوح من

حجر على باب تلك المغارة ، ومنهم من رأى أن أصحاب الرقيم غير أصحاب

الكهف ، وقد ذكرنا كلا الموضوعين بأرض الروم ، وقد حكى أحمد بن الطبيب

عن مروان السرخسى تلميذ يعقوب بن إسحق الكندى عن محمد بن موسى المنجم

حين أنقذه الوثائق بالله من سُرٍّ مَنْ رَأَى إلى بلاد الروم حتى أشرف على أصحاب

(١) المعروف أن الملك الذى هرب منه أصحاب الكهف اسمه دقيانوس ،

والتاريخ فى مثل هذه المواضع ليس محلا للثقة والجزم ، فلا معنى لوقوفنا لتحقيق

مثل هذه المباحث ، والقرآن نفسه لم يتعرض لاسمه ولا زمنه ولا مكانه

الرقيم ، وهو الموضع المعروف من بلاد الروم بحارى ، وقد ذكرنا فى الكتاب الأوسط قصة أصحاب الكهف ، وموضعهم ، وكيفية أحوالهم ، إلى هذه الغاية ، وخبر أصحاب الرقيم ، وما حكاه محمد بن موسى المنجم من خبرهم وما لحقه من الموكل بهم حين أراد قتله بالنسم وقتل من كان معه من المسلمين ، وأخبرنا عن السد الذى بناه ذوالقرنين مانعا ليأجوج ومأجوج

قال المسعودى : وجدت فى كتاب صور الأرض وما عليها من الأبنية المعظمة والهياكل المشيدة قد صور مقدار عرض السد فيما بين الجباين دون الطول والذهب فى الصعد تسع درج ونصف من درج الفلك ؛ فمقدار ذلك من الجبل إلى الجبل خمسون ومائة فرسخ ، وهذا عند جماعة من أهل النظر والبحث مستحيل كونه ، وقد أنكر ذلك محمد بن كثير الفرغانى المنجم ، وتكلم عليه ، وبرهن على فساده وأفرد محمد بن الطيب الذى قتله المعتضد بالله لما ذكرنا من الكهف والرقيم رسائل قد أثينا على ما قيل فى ذلك فى كتابنا المترجم بالكتاب الأوسط

ثم ملك « حابس » ثلاث سنين

ثم ملك بعده « بدنوس » نحواً من عشرين سنة ، وقيل : خمس عشرة سنة

ثم ملك بعده « فورس » نحواً من عشرين سنة

ثم ملك بعده ولده يقال له « فارس » نحواً من سنتين

ثم ملك بعده « قليطاليس » عشر سنين

ثم ملك بعده « قسطنطين »

قال المسعودى : والذى وجدت فى الأكثر من كتب التواريخ مما اتفقوا

إحصاء بعده عليه أن عدة ملوك الروم الذين ملكوا بمدينة رومية ، وهم الذين قدمنا ذكرهم فى هذا الكتاب ، تسعة وأربعون ملكاً ، وجميع عدد سنى ملكهم من أول ملك ملئهم على حسب ما ذكرنا من الخلاف فى صدر هذا الكتاب إلى قسطنطين هذا ، وهو ابن هلافى ، أر بعمائة وسبع وثلاثون سنة وسبعة أشهر وسبعة أيام ،

ونسخ كتب التواريخ في هذا المعنى مختلفة غير متفقة في أسماء ملوكهم ومدة ملكهم ، وأكثرها بالرومية ، فحكينا من ذلك ما تأتى وصفه ، وهؤلاء الملوك أخبار وسير هي موجودة في كتب النصارى الملكية ، قد أتينا على مبسوطها والغرض منها في كتابنا « أخبار الزمان » وما شيدوا من البنيان ، وما كان لهم في هذا العالم من الأسفار ، وبالله التوفيق

ذكر ملوك الروم المنتصرة وهم ملوك القسطنطينية ولمع من أخبارهم

ملك قسطنطين بعد أن هلك فليطاليس برومية ، وهو يعبد الأوثان ، وكان أول ملك انتقل من ملك الروم عن رومية إلى بوزنطيا ، وهي مدينة القسطنطينية ، فبناها وسمّاها باسمه إلى وقتنا هذا ، وكان له في بنائها خبر ظريف مع بعض ملوك برجان لخوف داخله من بعض ملوك ساسان ، وكان خروجه من رومية ودخوله في دين النصرانية لسنة خلت من ملكه ، وتسع سنين من ملكه خرجت أمه هلاقي إلى أرض الشام فبنت الكنائس ، وسارت إلى بيت المقدس ، وطلبت الخشبة التي صلب عليها المسيح عندهم ، فلما صارت إليها حلتها بالذهب والفضة ، واتخذت لوجودها عيداً ، وهو عيد الصليب ، وهو لأربع عشرة تحلو من أيلول ، وفيه تفتح الترع والخلجانا ببلاد مصر على حسب ما نورد عند ذكرنا لأخبار مصر من هذا الكتاب ، وهي التي بنت كنيسة حمص على أربعة أركان ، ومن ذلك عجائب بنيان العالم ، واستخرجت الكنوز والدفائن بمصر والشام ، وصرفت ذلك إلى بناء الكنائس وتشيد دين النصرانية ؛ وكل كنيسة بالشام ومصر وبلاد الروم فإنها بنتها هذه الملكة هلاقي أم قسطنطين ، وقد جعل اسمها مع الصليب في كل كنيسة لها ، وليس في الروم في أحرفهم هاء ، وأحرف هلاقي خمسة أحرف فالأول امالة وهو بحساب الجمل خمسة ، والثاني وهو اللام ثلاثون ، والثالث إمالة أيضا وهي

خمس، والرابع النون وهى خمسون ، والخامس ياء وهو فى حساب الجمل عشرة ،
فذلك مائة اختصاراً على ما ذكرنا ، هذه صورة الحرف الذى هو مائة بالرومية ،
ولتسع عشرة سنة خلت من ملك قسطنطين بن هلالى اجتمع ثلثمائة وثمانية عشر
أُسقفاً بمدينة نيقية بأرض الروم ، فأقاموا دين النصرانية ، وهذا الاجتماع أول
الاجتماعات الستة الرومية السندوسات ، واحدها سندوس ، فالأول بنيقية على
ما ذكرنا من العدد ، وكان الاجتماع فيه على أرينوس ، وهذا اتفاق من سائر
دين النصرانية من الملكية والمشاركة ، وهم العباد الذين تسميهم الملكية وعامة
الناس النسطورية ، واتفاق من اليعاقبة على هذا السندوس أيضاً ، والسندوس
الثانى بالقسطنطينية على مقدنوس ، وعدة المجتمعين فيه من الأساقفة مائة وخمسون
رجلاً ، والسندوس الثالث بأفسوس ، وعددهم مائتا رجل ، والسندوس الرابع
بخلقدونية ، وعددهم ستمائة وستون رجلاً ، والسندوس الخامس بقسطنطينية ،
وعدهم مائة وستة وأربعون رجلاً ، والسندوس السادس كان فى ملكة
المدن ، وعددهم مائتان وتسعة وثمانون رجلاً ، وسنذكر بعد هذا الموضع فى
ترتيب ملوك الروم هذه السندوسات ، وغلبة دين النصرانية ، وزوال عبادة
التمثيل والصور

سبب تنصر
قسطنطين

وكان السبب فى دخول قسطنطين بن هلالى فى دين النصرانية والرغبة فيه
أن قسطنطين خرج فى بعض حروب برجان وغيرهم من الأمم ، وكانت الحرب
بينهم سجالاً نحواً من سنة ثم كانت عليه فى بعض الأيام ، فقتل من أصحابه
خلق كثير ، فخاف البوار ، فرأى فى النوم كأن رماحا نزلت من السماء فيها عذاب
وأعلاما على رؤوسها صلبان من الذهب والفضة والحديد والنحاس ، وأنواع الجواهر
والخشب ، وقيل له : خذ هذه الرماح ، وقاتل بها عدوك تُنصر ، فجعل يحارب بها فى
النوم ، فرأى عدوه منهزماً وقد نصر عليه ، وولاه الدبر ، فاستيقظ من رقدته ودعا
بالرماح ، فركب عليها ما ذكرنا ، ودفعها فى عسكره ، وزحف إلى عدوه ، فوَلَّوْا

وأخذهم السيف ، فرجع إلى مدينة نيقية ، وسأل أهل الخبرة عن تلك الصلبان ، وهل يعرفون ذلك في شيء من الآراء والنحل ، ف قيل له : إن بيت المقدس من أرض الشام مجمع لهذا المذهب ، وأخبر بما فعل من قبله من الملوك من قبل النصرانية ، فبعث إلى الشام ، وإلى بيت المقدس ، فحشد له ثلثمائة وثمانية عشر سقفاً ، فأتوه وهو بنيقية ، فقص عليهم أمره فشرعوا له دين النصرانية ، فهذا هو السندوس الأول ، وهو الاجتماع على ما ذكرنا ، وقد قيل : إن أم قسطنطين هلاقي كانت قد تنصرت وأخفت ذلك عنه قبل هذه الرؤيا

وكان ملك قسطنطين إلى أن هلك إحدى وثلاثين سنة ، وفي وجه آخر من التاريخ أنه ملك خمساً وعشرين ، وقد أتينا على أخباره وحرره وخروجه مرئاداً لموضع القسطنطينية ، ووروده إلى هذا الخليج الآخذ من بحر مانطش ونيطش في كتابنا « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط ، وأن خليج القسطنطينية يأخذ من هذا البحر ويجري فيه الماء جرياً ، ويصب إلى بحر الشام ، ومسافة هذا الخليج ثلثمائة وخمسون ميلاً ، وقيل أقل من ذلك ، وعرضه في الموضع الذي يأخذ من بحر مانطش نحو من عشرة أميال ، وهناك عمائر ومدينة للروم تدعى سباه تمنع من يرد في هذا البحر من مراكب الروم وغيرها ، ثم يضيق هذا الخليج عند القسطنطينية فيصير عرضه - وهو موضع العبور من الجانب الشرقي إلى الموضع الغربي الذي فيه القسطنطينية - نحواً من أربعة أميال ، وعليه العائر ، وينتهي في ضيقه إلى الموضع المعروف بالأندلس ، وهناك جبال وعين ماء كثير ماؤها موصوف تعرف بعين مسامة ابن عبد الملك ، وكان نزوله عليها حين حاصر القسطنطينية وأتته مراكب المسلمين في فم هذا الخليج مما يلي بحر الشام ومنتهى مصبه مضيق ، وهناك برج يمنع من فيه من يرد من مراكب المسلمين في الوقت الذي للمسلمين فيه مراكب تغزو الروم ، وأما الآن فمراكب الروم تغزو بلاد الإسلام ، والله الأمر من قبل ومن بعد ، وأخبرني أبو عمير عدي بن حاتم بن عبد الباقي الأزدي - وهو شيخ الثغور

الشامية قديماً إلى وقتنا هذا ، وهو من أهل التحصيل — أنه لما عبر إلى القسطنطينية في هذا الخليج حين دخل لإقامة الهدنة والفداء كان يتبين جرية هذا الماء وبرده مما يلي بحر مانطش ونيطش ، وربما يتبين في الماء الجرى مما يلي بحر الشام فيجده فاتراً ، وهذا يدل على اتصال ماء هذين البحرين ، وأنه قد دخل في بحر الروم إلى هذا الخليج أيضاً ، وسمعت غير واحد من أهل التحصيل ممن غزا غزاة سلوقية مع غلام أزارقة ، وقد كانوا دخلوا إلى خليج القسطنطينية وساروا فيه مسافة بعيدة ، أنهم وجدوا الماء في هذا الخليج يقل في أوقات من الليل والنهار ويكثر كالجزر والمد ، وعليه العائر والمدن ، فلما أحسوا بنقصان الماء بادروا بالخروج منه إلى البحر الرومي ، وأن في مدخله من بحر الروم مدينة تقرب من فم الخليج ، والخليج يطيف بالقسطنطينية من جهتين مما يلي الشرق ومما يلي الشمال ، وفي الجانب الجنوبي البر ، وفيه باب الذهب مطلى على صفائح النحاس ، وأعلى موضع في سورها نحو من ثلاثين ذراعاً ، وقد ذكر أنه أقل من ذلك وأن أقصر موضع فيه عشرة أذرع ، ولها أبواب كثيرة مما يلي البر والبحر ، وحولها كنائس كثيرة ، وقد قيل : إن لها ثلاثين باباً ، ومنهم من زعم أن عليها مائة باب صغاراً وكباراً ، وهو بلد عفن مختلف المهاب مرطب للأبدان لكونه بين ما وصفنا لهذه البحار .

قال المسعودي : ولم تزل الحكمة باقية عالية زمن اليونانيين وبرهة من مملكة الروم تعظم العلماء ، وتشرف الحكماء ، وكانت لهم الآراء في الطبيعيات والجسم والعقل والنفس والتعاليم الأربعة ، أغنى الارتماطيق ، وهو علم الأعداد ، والجومطريق ، وهو علم المساحة والهندسة ، والاسترونوميا ، وهو علم النجوم ، والموسيقى وهو علم تأليف اللحون ، ولم تزل العلوم قائمة السوق ، مشرقة الأقطار ، قوية المعالم ، شديدة المقاوم ، سامية البناء ؛ إلى أن تظاهرت ديانة النصرانية في الروم فعنفوا معالم الحكمة ، وأزالوا رسمها ، وعفوا سبلها ، وطمسوا ما كانت اليونانية بأنته ، وغيروا ما كانت القدماء منهم أوضحته ، وكان من شريف ما تركته المعرفة بعلم

الموسيقى
وشرفها

الموسيقى لأنه غذاء للنفس ، ومطرب لها ، ومليها ، تتهيج عند سماعه ، وتحن إلى تأليف أوضاعه ، وقد نطقت الحكمة بشرفه ، ونهت على نقاسة محله ، فقال الاسكندر: من فهم الألحان استغنى عن سائر الازدات ، وقد قالت الفلاسفة : إن النعم فضيلة شريفة كانت تعذرت عن المنطق ليست في قدرته فلم يقدر على إخراجها فأخرجتها النفس ألحانا ، فلما أظهرتها سرت بها وعشقتها وطربت إليها ، وربت الحكماء الأوتار الأربعة بإزاء الطبائع الأربعة ، فجعلوا الزير بإزاء المرة الصفراء ، والتمني بإزاء الدم ، والمثلث بإزاء البلغم ، والهم بإزاء السوداء ، وقد أشبعنا القول في الموسيقى وأصحاب الملاحى والايقاع وأصناف الرقص والطرب والنغم ونسب النغم وما استعملته كل أمة من الأمم من أصناف الملاحى من اليونانيين والروم والسريانيين والنبط والسند والهند والفرس وغيرهم من الأمم ، وذكرنا مناسبة النغم للأوتار وممازجة النفس والألحان وكيفية تولد الطرب وأنواع السرور وذهاب الغم وزوال الحزن ، وعلل ذلك الطبيعية والنفسية ، وما أحاط بذلك من جميع الوجوه ، في كتابنا المترجم بكتاب « الزلف » وأتينا على ظريف أخبارهم وأنواع لهوهم وتلاهيهم في كتاب « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا ، إذ هذا الكتاب في غاية الإيجاز ، وإن سنع لنا سأنح ذكرنا لمعنا هذه الجوامع فيما يرد من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، وإن تعذر ذلك فقد قدمنا التنبيه على ما سلف من كتبنا على الشرح والايضاح

ثم ملك الروم بعد قسطنطين بن هلالى الملك المنتصر « قسطنطين بن قسطنطين » وهو ابن الملك الماضى ، وكان ملكه أربعا وعشرين سنة ، وبنى كنائس كثيرة ، وشيد دين النصرانية

ثم تملك ابن أخى قسطنطين الأول « بوليانس » فرفض دين النصرانية ، ورجع إلى عبادة الأوثان ، وهو بوليانس المعروف بالحنفى ، وأهل دين النصرانية

لبعضهم فيه لرجوعه عن النصرانية وتغييره لرسومها يسمونه بليانس البرباط ، وغزا العراق في ملك سابور بن أردشير بن بابك ، فأتاه سَهْمٌ غَرَبٌ فذبحه ، وقد كان سار إلى العراق في جنود لا تحصى ، ولم يكن لسابور حيلة في دفعه ولقائه لمفاجأته إياه ، فانصرف سابور عن اللقاء إلى الحيلة في دفعه ، وكان من أمره ما وصفنا ، وكان ملكه إلى أن هلك سنة ، وقيل أكثر من ذلك ، وهو الملك الثالث من بعد ظهور دين النصرانية

ولما هلك بليانس جزع من كان معه من الملوك والبطارقة والجيش ، ففرعوا إلى بطريق كان معظما فيهم يقال له مريناس ، وقيل : إنه كاتب الماضي ، فأبى عليهم أن ينتملك إلا أن يرجعوا إلى دين النصرانية ، فأجابوه إلى ذلك ، وضايق سابور القوم ، وأحاط بعساكرهم ، فكان لمريناس مع سابور مراسلات ومهادنة واجتماع ومحادثة ومعاشرة ، ثم افترقا ، وانصرف بجيوش النصرانية موادعا لسابور ، وأخف عليه ما أتلف من أرضه بأموال حملها إليه ، وهدايا من لطائف الروم ، وشيد هياكل في دين النصرانية ، وردّها إلى ما كانت عليه ، ومنع من الأصنام والتماثيل ، وقتل على عبادتها ، وكان ملكه سنة

ثم ملك بعده « أوانيس » وهو على دين النصرانية ، ثم رجع عنها ، وهلك في بعض حروبه ، وكان ملكه إلى أن هلك أربع عشرة سنة ، وقيل : إن في أيامه استيقظ أصحاب الكهف من رقدهم ، على حسب ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم بعثوا أحدهم يورِّقهم إلى المدينة ، وهذا الموضع من أرض الروم في الشمال ، وللناس ممن عني بعلم الفلك وازرار الشمس عن كهفهم في حال طلوعها وغروبها لموضعهم من الشمال كلام كثير ، وقد أخبر الله تعالى في كتابه قال (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم - الآية) وكانوا من أهل مدينة أفسس من أرض الروم

يقظة أهل
الكهف

ثم ملك بعد أوانيس « غرامطناس » خمس عشرة سنة ، ولسنة من

ملكه كان اجتماع النصرانية ، وهو أحد الاجتماعات باسم القوم في روح القدس عندهم وأحرقوا مقدويس بطريق القسطنطينية ، وهو السندوس الثانى ثم ملك بعده « بدرسيس » الأكبر ، وتفسير هذا الاسم عندهم عطية الله ، وقام بدين النصرانية ، وعظم منها ، وبنى كنائس ، ولم يكن من أهل بيت الملك ولا من الروم ، وإنما كان أصله من الأشبان ، وهم بعض الملوك السالفة ، وقد كان ممن ملك الشام ومصر والأندلس ، وقد تنازع الناس فيهم : فذكر الواقدي في كتابه فتوح الأمصار أن بداهم من أهل أصبهان ، وأنهم ناقلة من هنالك ، وهذا يوجب أنهم من قبل ملوك فارس الأولى ، وذكر عبد الله بن خرداذبه نحو ذلك ، وساعدهما على ذلك جماعة من أهل السير والأخبار ، والأشهر من أمرهم أنهم ولد يافت بن نوح ، وهم من ملوك الأندلس من الأزارقة واحدهم أزريق ، وقد تنوزع في دياناتهم : فمنهم من رأى أنهم كانوا على دين المجوس ، ومنهم من رأى أنهم كانوا على مذهب الصابئة وغيرهم من عبدة الأصنام ، وقد قلنا : إن الأشهر من أنسابهم أنهم ولد يافت بن نوح ، فكان مدة ملك بدرسيس إلى أن هلك عشر سنين

ثم ملك بعده « أوباديس » أربع عشرة سنة ، وكان على دين النصرانية ثم ملك بعده ابنه « بدرسيس » الأصغر ، وذلك بمدينة أفسس ، وجمع مائتى أسقف ، وهذا الاجتماع الثالث الذى قدمنا ذكره آنفاً ، ولعن فيه نسطورس البطريرك ، وقد ذكرنا فى كتابنا « أخبار الزمان » الحية التى وقعت على نسطورس بطرك القسطنطينية صاحب الكرسي بالاسكندرية ، وما كان من نسطورس ، ونفيه ليوحنا المعروف بالراهب ، وما كان فى بدريا زوجة الملك إلى أن نفى نسطورس من القسطنطينية إلى أنطاكية ثم منها إلى صعيد مصر ، والمشاركة من النصارى أضفيوا إلى نسطورس لأنهم اتبعوه وقالوا بقوله ، وإنما وسمتهم الملكية بهذا الاسم لتعيرهم وتعييهم بذلك ، وقد كانت المشاركة بالخيرة وغيرها من المشرق تدعى بالعباد ، وسائر نصارى المشرق يابون هذه الاضافة إلى

نسطورس ، ويكرهون أن يقال لهم نسطورية ، وقد أيد برصوما مطران نصيبين رأى المشاركة في الثالث ، وهو الكلام في الأفانيم الثلاثة والجوهر الواحد وكيفية اتحاد اللاهوت القديم بالناسوت المحدث ، وكان ملك بدرسيس إلى أن هلك اثنتين وأربعين سنة

ثم ملك بعده « مرقيانوس » ثم ملك الروم « بلخاريا » زوجة مرقيانوس وكانت ملكة معه ، وفي أيامها كان خبر اليعاقبة من النصارى ، ووقع الخلاف بينهم في الثالث ، فكان ملكها سبع سنين ، وأكثر اليعاقبة بالعراق وبلاد تكريت والموصل والجزيرة ومصر وأقباطها إلا اليسير فإنهم ملكية ، والنوبة والأرمن يعاقبة ، ومطران اليعاقبة بتكريت بين الموصل وبغداد ، وقد كان لهم بالقرب من رأس العين واحد فمات ، وصاحبهم اليوم بناحية حلب ببلاد قنسرين والعواصم ، وكرسى اليعاقبة رسمه أن يكون بمدينة أنطاكية ، وكذلك لهم كرسى بمصر ، ولا أعلم لهم غير هذين الكرسين ، وهما مصر وأنطاكية

ثم ملك بعدها « ليون » الأصغر بن ليون ، وكان ملكه ست عشرة سنة ، وفي أيامه أحرم مسعرة اليعقوبى بطرك الاسكندرية ، واجتمع له من الأساقفة ستمائة وستون أسقفا ، وفي تاريخ الروم أن عدة المجتمعين ستمائة وستون رجلا ، وذلك بخلفونية ، وهذا الاجتماع هو السندوس الرابع عند الملكية ، واليعاقبة لا تعتد بهذا السندوس ، ولهم خبر ظريف في قصة سوارى البطرك ، وما كان من أمره ، وخبر تلميذه يعقوب البراذعى ، ودعوته إلى مذهب سوارى ، واليعاقبة أضيفت إلى مذهب يعقوب البراذعى هذا ، وبه عرفت ، وكان من أهل أنطاكية يعمل البراذع

ثم ملك بعد ليون الأصغر ابنه « ليون » سنة على دين الملكية ثم ملك بعده « بير » وهو من بلاد الأرمنين ، وكان يذهب إلى رأى

اليقوتية، وكان ملكه سبع عشرة سنة ، وكانت له حروب مع خوارج خرجوا عليه من دار الملك ، فظفر بهم

ثم ملك بعده « نسطاس » وكان يذهب إلى مذهب اليعقوبية ، وبني مدينة عمورية ، وأصاب كنوزا ودفائن عظيمة ، وكان ملكه إلى أن هلك تسعا وعشرين سنة

ثم ملك بعده « يوستيانوس » تسع سنين

ثم ملك بعده « سطاينس » تسعا وثلاثين سنة ، وقيل : أربعين ، وبني كنائس كثيرة ، وشيد دين النصرانية ، وأظهر مذاهب الملكية ، وبني كنيسة الرها ، وهى إحدى عجائب العالم ، والهياكل المذكورة ، وقد كان فى هذه الكنيسة منديل يعظمه النصارى ، وذلك أن يسوع الناصرى — حين أخرج من ماء المعمودية — تنشف به ، فلم يزل هذا المنديل يتداول إلى أن قرر بكنيسة الرها ، فاما اشتد أمر الروم على المسلمين وحاصروا الرها فى هذه السنة — وهى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة — أعطى هذا المنديل للروم ، فجنحوا إلى الهدنة ، وكان للروم عند تسليمهم هذا المنديل فرح عظيم

ثم ملك بعده ابن أخيه « فرسطيس » ثلاث عشرة سنة ، على رأى الملكية .

ثم ملك بعده « طباريس » أربع سنين ، وأظهر فى ملكه أنواعا من اللباس والآلات وآنية الذهب والفضة وغير ذلك من آلات الملوك

ثم ملك بعده « موريقس » عشرين سنة ، ونصر كسرى أبرويز على بهرام جور ، فقتل غيلة ، وبعث أبرويز غضباله بجيوش إلى الروم ، وكانت لهم حروب على حسب ما قدمنا

ثم ملك بعده « قرماس » ثمان سنين إلى أن قتل أيضا

ثم ملك « هرقل » وكان بطريقا فى بعض الجزائر قبل ذلك ، فعمر بيت

المقدس ، وذلك بعد انكشاف الفرس عن الشام ، وبنى الكنائس ، ولسبع سنين من ملكه كانت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة شرفها الله تعالى

ذكر ملوك الروم بعد ظهور الاسلام

قال المسعودي : وجدت في كتب التواريخ تنازعا في مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي عصر من كان من ملوك الروم : فمنهم من ذهب إلى ما قدمنا من مولده وهجرته ، ومنهم من رأى أن مولده عليه الصلاة والسلام كان في ملك نوسطورس الأول ، وكان ملكه تسعا وعشرين سنة

ثم ملك « نوسطورس » وكان ملكه عشرين سنة

ثم ملك بعده « هرقل » بن منطيوس ، وهو الذي في كتب الزيجات في النجوم ، وعليه يعمل أهل الحساب

وفي تواريخ ملوك الروم ممن سلف وخلف أن ملك الروم كان في وقت ظهور الاسلام وأيام أبي بكر وعمر « هرقل » وليس هذا الترتيب فيما عداها من كتب التواريخ وأصحاب الأخبار والسير ، إلا في اليسير منها ، وفي تواريخ أصحاب السير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هاجر وملك الروم قيصر بن مورك

ثم ملك بعده « قيصر » بن قيصر ، وذلك في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه

ثم ملك على الروم « هرقل » بن قيصر ، وذلك في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو الذي حاربه أمراء الاسلام الذين فتحوا الشام مثل أبي عبيدة ابن الجراح ، وخالد بن الوليد ، ويزيد بن أبي سفيان ، وغيرهم من أمراء الاسلام ، حين أخرجه من الشام

وكان الملك على الروم « مورك » بن هرقل في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه

ثم ملك « مورك » بن مورك في خلافة على بن أبي طالب رضى الله عنه ، وأيام معاوية بن أبي سفيان

ثم ملك بعده « قلفط » بن مورك بقية أيام معاوية ، وكانت بينه وبين معاوية مراسلات ومهادنات ، وكان يختلف بينهما نيق الرومى غلام كان لمعاوية ، وقد كان معاوية هادن أباه مورك بن مورك حين سار إلى حرب على بن أبي طالب رضى الله عنه ، وكان بشره بالملك وأعلمه أن المسلمين تجتمع كلمتهم على قتل صاحبهم ، يعنى عثمان ، ثم يؤول الملك إلى معاوية ، وقد كان معاوية يومئذ أميرا على الشام لعثمان في خبر طويل قد أتينا على ذكره في الكتاب الأوسط ، وأن ذلك من علم الملاحم تتوارثه ملوك الروم عن أسلافهم ، وكان ملك قلفط بن مورك في الآخر من أيام معاوية وأيام يزيد بن معاوية وأيام معاوية بن يزيد وأيام مروان بن الحكم وصدرا من أيام عبد الملك بن مروان

ثم ملك « لاون » بن قلفط في أيام عبد الملك بن مروان ، وكان الملك بعده « جيرون » بن لاون في أيام الوليد بن عبد الملك وأيام سليمان بن عبد الملك وخلافة عمر بن عبد العزيز ، ثم اضطرب ملك الروم لما كان من أمر مسلمة بن عبد الملك وغزو المسلمين إياهم في البر والبحر ؛ فملكوا عليهم رجلا من غير أهل بيت الملك من أهل مرعش ، يقال له جرجيس ، وكان ملكه تسع عشرة سنة ، ولم يزل ملك الروم مضطربا إلى أن ملكهم « قسطنطين » بن اليون ، وذلك في خلافة أبي العباس السفاح وأبى جعفر المنصور أخيه ، ثم ملك بعده « اليون » بن قسطنطين ، وذلك في أيام المهدي والهادي ، ثم ملك بعده « قسطنطين » بن اليون ، وكانت أمه أربين مملكة معه ، مشاركة له في الملك ؛ لصغر سنه في أيام هرون الرشيد ، فمات قسطنطين بن اليون وسملت عينا أمه بعد ذلك لأخبار

يطول ذكرها ، ثم ملك على الروم « يعفور »^(١) بن اسدراق ، وكانت ببنه وبين الرشيد مراسلات ، وغزاه الرشيد ، فأعطى القود من نفسه بعد بغى كان منه في بعض مراسلاته ، فانصرف الرشيد عنه ، ثم غدر ونقض ما كان أعطاه من الاتقياد ، وكنتم عن الرشيد أمره ؛ لعارض علة كان وجدها بالركة ، وفي اتقياد يعفور إلى الرشيد وحمله الأموال والهدايا والضريبة إليه يقول أبو العتاهية :

إمام الهدى ، أَصْبَحْتَ بالدين معنيا	وأصبحت تسقى كل مستمطريا
لك اسمان شُقا من رشاد ومن هدى	فأنت الذى تدعى رشيدا ومهديا
إذا ما سَخَطْتَ الشيء كان مُسَخَّطًا	وإن ترض شيئا كان فى الناس مرضيا
بسطت لنا شرقا وغربا يدُ العلا	فأوسعت شرقيا وأوسعت غربيا
وغشيت وجه الأرض بالجود والندى	فأصبح وجه الأرض بالجود مغشيا
وأنت ، أمير المؤمنين ، فى التقي	نشرت من الإحسان ما كان مطويا
قضى الله أن صفى لهارون ملكه	وكان قضاء الله فى الخلق مقضيا
تجبت الدنيا لهارون بالرضا	وأصبح يعفور لهارون ذميا

فلما عوفى الرشيد من علته دخل عليه بعض الشعراء وقد هابه الناس أن يخبروه بغدر يعفور ، فقال :

نقض الذى أعطاكه يعفور	فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه	فتح أذاك به الإله كبير
فتح يزيد على الفتوح يؤمنا	بالنصر فيه لؤاؤك المنصور
فلقد تبشرت الرعية أن آتى	بالعذر عنه وافد وبشير
وَرَجَتْ يمينك أن تُعَجِّلَ غزوةً	تشفى النفوس نكالها مذكور
يعفور ، إنك حين تغدر أن نأى	عنك الإمام لجاهل مغرور

(١) فى تاريخ ابن خلدون « نغفور » بالنون والغين المعجمة ، وفى بعض التواريخ « نغفور » بالنون والقاف

لظننت حين غدرت أنك مُفَلَّتْ هَبَلَتْكَ أَمَكْ ، ماظننت غرورُ
 إن الإمام على اقتسارك قادر قُرِبَتْ ديارك أم نأت بك دور
 ليس الإمام وإن غفلنا غافلاً عما يسوس بحزمه ويدير
 ملك تجرّد للجهاد بنفسه فَعَدُوُّهُ أَبَدًا به مقهور
 يامن يريد رضا الاله بسعيه والله لا يخفى عليه ضمير
 لانصح ينفع من يغش إمامه والنصح من نصحائه مشكور
 نصح الإمام على الأنام فريضة ولأهله كفارة وظهر

وهى طويلة ، فاما أنشده إياها قال الرشيد : أو قد فعل ، وعلم أن الوزراء قد
 احتالوا ، فتجهز وغزاه ، ونزل على هرقة ، وذلك فى سنة تسعين ومائة
 وأخبرنى أبو عمير عدى بن أحمد بن عبد الباقي الأزدي أن الرشيد لما أراد
 النزول على هرقة - وكان معه أهله الثغور ، وفيهم شيخا الثغور الشامية مخلد
 ابن الحسين وأبو إسحق الفزارى صاحب كتاب السير - فخلا الرشيد بمخلد
 ابن الحسين ، فقال : أى شئ تقول فى نزولنا على هذا الحصن ؟ فقال : هذا أول
 حصن لقيت من حصون الروم ، وهو فى نهاية المنعة ، فان نزلت عليه وسهل الله
 فتحه لم يتعذر عليك فتح حصن بعده ، فأمره بالانصراف ، ودعا بأبى إسحق
 الفزارى فقال له مثل ما قال لمخلد ، فقال : يا أمير المؤمنين هذا حصن بنته الروم فى
 بحر الدروب ، وجعلته ثغرا من الثغور ، وليس بالآهل ؛ فإن أنت فتحتة لم يكن
 فيه ما يعم المسلمون من الغنائم ، وإن تعذر فتحه كان ذلك نقصا فى التدبير ،
 والرأى عندى أن يسير أمير المؤمنين إلى مدينة عظيمة من مدن الروم ، فإن
 فتحت عمت غنائمها المسلمين ، وإن تعذر ذلك قام العذر ، فمال الرشيد إلى قول
 مخلد ، فنزل على هرقة ، ونصب حولها الحرب تسعة عشر يوما ، فأصيب خلق
 كثير من المسلمين ، وفيت الأرواد والعلوفات ، وضاق صدر الرشيد من ذلك ،
 فأحضر أبا إسحق الفزارى ، فقال : يا إبراهيم قد ترى منازل بالمسلمين ، فما الرأى

الآن عندك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كنت أشقت من هذا ، وقدمت القول فيه ، ورأيت أن يكون الجدد والحرب من المسلمين على غير هذا الحصن ، والآن فلا سبيل إلى الرحيل عنه من بعد المباشرة فيكون ذلك نقصا في الملك ، ووهنا في الدين ، وإطاعا لغيره من الحصون في الامتناع عن المسلمين ، والمصابرة لهم ، لكن الرأي يا أمير المؤمنين أن تأمر بالنداء في الجيش أن أمير المؤمنين مقيم على هذا الحصن إلى أن يفتحه الله عز الله وجل على المسلمين ، وتأمر بقطع الخشب وجمع الأحجار وبناء مدينة بازاء هذا الحصن إلى أن يفتحه الله عز وجل ولا يكون هذا الخبر ينمو إلى أحد من الجيش إلا على المقام ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الحرب خدعة » وهذه حرب حيلة لا حرب سيف ، فأمر الرشيد من ساعته بالنداء ؛ فحملت الأحجار وقطع الخشب من الشجر ، وأخذ الناس في البناء ، فلما رأى أهل الحصن ذلك جعلوا يتسللون في الليل ، ويدلون أنفسهم بالحبال

وفي خبر أبي عمير بن عبد الباقي زيادات ، منها خبر الجارية التي سباهها الرشيد من هذا الحصن ، وهي ابنة بطريقه ، وكانت ذات حسن وجمال ، فزاد فيها صاحب الرشيد في المغنم ، وبالع فيها حتى اشتراها له ، فباغت من قلبه ، وبنى لها نحو الرفقة بأميال على طريق بالس حصنا سماه هرقة ، يحاكي به حصن هرقة ببلاد الروم ، في خبر طويل قد أتينا على جميعه في كتابنا الأوسط

وهذا الحصن باق إلى هذه الغاية هنالك خراب يعرف بهرقة

وأخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد ، قال : أخبرني أبو العيناء ، قال : أخبرني شبل الترمجان ، قال : كنت مع الرشيد حين نزل على هرقة وفتحها ؛ فرأيت بها حجرا منصوبا مكتوبا عليه باليونانية ، فجعلت أترجمه والرشيد ينظر إلى ، وأنا لأعلم ، فكانت ترجمته « بسم الله الرحمن الرحيم ، يا ابن آدم عافص الفرصة عند إمكانها ، وكل الأمور إلى وليها ، ولا يحملنك إفراط السرور على المأثم ، ولا تحمل نفسك هم يوم

لم يأت ، فإنه إن يك من أجلك وبقية عمرك يأت الله فيه برزقك ، ولا تكن من المغرورين بجمع المال ؛ فكم قد رأينا جامعاً لبعل حليته ، ومقتراً لنفسه ، موفراً لخزانة غيره » وقد كان تاريخ هذا الكتاب في ذلك اليوم زائداً على ألفي سنة

وباب هرقة مُطْلٍ على وادٍ وخذقٍ يطيف بها ، وذكر جماعة من أهل الخبرة من أهل الثغور أن أهل هرقة لما اشتد بهم الحصار ، وعَضَّهم الحرب بالحجارة والسهام والنار ؛ فتحوا الباب ، فاستشرف المسامون لذلك ، فإذا رجل من أهلها كأجل الرجال قد خرج في أكمل السلاح ، فنادى : يا معشر العرب ، قد طالت مواقفكم إيانا ، فليخرج إلى منكم الرجل والعشرة إلى العشرين مبارزة فلم يخرج إليه من الناس أحد ، ينتظرون إذْناً الرشيد ، وكان الرشيد نائماً ، فلما استيقظ أخبر بذلك ، فتأسف ولام خدمه على تركهم إيقاظه ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، إن امتناع الناس منه يطعمه ويطفئه ويجرئه أن يخرج في غد فيطلب المبارزة ويعود لمثل قوله ، فطالت على الرشيد ليلته ، وأصبح كالمنتظر له ؛ إذ فتح الباب ، فإذا الفارس قد خرج ، وعاد إلى كلامه ، فقال الرشيد : من له ؟ فابتدر جلة القواد ، فعزم على إخراج بعضهم ، فضج أهل الثغور والمتطوعة بباب المضرب ، فأذن لبعضهم ، وفي مجاسه محمد بن الحسين وإبراهيم الفزاري ، فدخلوا ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، قوادك مشهورون بالبأس ، والنجدة ، وعلاو الصيت ، ومباشرة الحرب ، ومتى خرج واحد منهم وقتل هذا العلاج لم يكبر ذلك ، وإن قتله العلاج كانت وضیعة على العسكر عظيمة ، وثمة لا تنسد ، ونحن عامة لا يرتفع لأحد منا صيت فان رأى أمير المؤمنين أن يختار رجلاً منا يخرج إليه فعل ، فصوصب الرشيد رأيهم وقال محمد وإبراهيم : صدقوا يا أمير المؤمنين ، فأومؤا إلى رجل منهم يعرف بابن الجزرى مشهور في الثغور موصوف بالنجدة ، فقال له الرشيد : أخرج إليه ؟ قال : نعم ، وأستعين بالله عليه ، فقال : أعطوه فرساً وسيفاً ورمحاً وترساً ، فقال : يا أمير

المؤمنين أنا بفرسى أوثق ، ورمحي في يدي أشد ، ولكن قد قبلت السيف والترس ؛ فلبس السلاح ، واستنداه الرشيد وأتبعه بالدعاء ، وخرج معه عشرون من المتطوعة ، فلما انقضَّ في الوادي قال لهم العليج وهو يعدهم واحدا واحدا : إنما كان الشرط عشرين ، وقد ازددتم رجلا ، ولكن لا بأس ، فنادوه ليس يخرج لك منا إلا رجل واحد ، فلما فصل منهم ابن الجزري تأمله العليج ، وقد أشرف أكثر الروم من الحصن يتأملون صاحبهم ، فقال له الرومي : أتصدقني عما أسألك عنه ؟ قال : نعم ، قال : أنت ابن الجزري بالله ؟ قال : اللهم نعم ، فكفء له ؟ قال : بلى كفء ، ثم أخذ في شأنهما ، فتطاعنا حتى طال الأمر بينهما ، وكاد الفرسان أن يقوموا تحتها ، وليس واحد منهما خلدش صاحبه ، ثم رميا برمحيهما هذا نحو أصحابه وهذا نحو حصنه ، وانتضيا سيوفهما وقد اشتدت الحرب عليهما ، وتبدل جوادهما ، فجعل ابن الجزري يضرب الرومي الضربة التي يظن أنه قد بالغ فيها فيتقيها الرومي ، وكانت درقته حديدا ، فيسمع لها صوت منكر ، ويضربه الرومي فيغوص سيفه ؛ لأن ترس ابن الجزري كانت يمانية ، وكان العليج يخاف أن يغوص السيف فيعطب ، فلما يئس كل واحد منهما من صاحبه انهزم ابن الجزري ، فداخلت الرشيد والمسلمين من ذلك كآبة لم يصبهم مثالا ، وعطط المشركون من حصنهم ، وإنما كانت حيلة من ابن الجزري ، فاتبعه العليج ، وعلا عليه ، فلما تمكن منه ابن الجزري رماه بوهق فاخبطه من سرجه ، ثم عطف عليه ، فإِصَلَ إلى الأرض حتى فارق رأسه ، وكبر المسلمون ، وانكسر المشركون ، وبادروا الباب ليغلقوه ، واتصل الخبر بالرشيد ، فصاح بالقواد أن يجعلوا في حجارة الجانيق النار ، فليس عند القوم دفع بعدها ، وعاجلهم المسلمون إلى الباب فدخلوها بالسيف ، وقيل : إنهم نادوا بالأمان ، فأمنوا ، وافتتحها عنوة أشهر من قول من قال : إنها فتحت صلحا ، فقال في ذلك الشاعر المكي : —

هَوَتْ هِرْقَلَةً مَا أَنْ رَأَتْ عَجَبًا خَوَاتِمًا تَرْتَمِي بِالنَفْطِ وَالنَّارِ

كان نيرانها من جنب قلعهم مصقلات على أرسان قصار
وهذا كلام ضعيف ولكن قد عظم قدره في ذلك الوقت للمعنى ، وعظمت
لصاحبه الجائزة ، وصبت الأموال على ابن الجزرى وقوّد وخلع عليه ، فلم
يقبل شيئاً من ذلك : وسأل أن يعفى ويترك على ما هو عليه ، ففي هذا يقول
الشاعر أبو العتاهية : —

ألا نادى هِرْقَلَةُ للخراب من الملك الموقِّق للصواب
غدا هُرُونٌ يرعد بالمنايا وييرق بالمذكرة القضاء
وريات يحل النصر فيها تمرُّ كأنها مرُّ السحاب
أمير المؤمنين، ظفرت فأسلم وأبشر بالغنيمة والإياب

والرشيد مع يعفور هذا بعد ذلك أخبار كثيرة ، قد أتينا على مبسوطها في
كتابنا الأوسط ، وما كان من خبره في إرساله ليمحي بن الشخير حين أمره أن
يتطارش على يعفور ، وما كان من يعفور وإخباره لبطارقته أن الرشيد بعث
بهذا متصامماً ، وما طالبه ابن الشخير بدينار أو درهم عليه صورة الملك حين عرضت
عليه الخزان ، وما كان من اتقياد يعفور بعد ذلك إلى طاعة الرشيد ، وشرطه
عليه أن يحمل إليه أينما كان من ماء عين العشيّة ، وهى عين الديدون ، وهى
في نهاية الصفاء والرقّة ، وغير ذلك مما عنه أمسكنا طلباً للاختصار

ثم ملك بعد يعفور « استراق بن يعفور بن استراق » في أيام محمد الأمين ،
فلم يزل ملكاً حتى غلب على الملك قسطنطين قلفط ، وكان ملك قسطنطين هذا
في خلافة المأمون

ثم ملك بعده « نظر نوفيل » وذلك في خلافة المعتصم ، وهو الذى فتح
زبطرة ، وغزاه المعتصم بالله ففتح عمورية ، وسنورد خبره فيما يرد من هذا الكتاب
في أخبار المعتصم ، إن شاء الله تعالى

ثم ملك بعده « ميخائيل بن نوفيل » وذلك في خلافة الواثق والمتوكل

والمنتصر والمستعين

ثم كان بين الروم تنازع في الملك ، فملكوا عليهم « نوفيل بن ميخايل ابن نوفيل » ثم غلب على الملك نسييل الصقلي ولم يكن من أهل بيت الملك ، وكان ملكه أيام المعتز والمنتدى ، وبعض خلافة المعتمد

ثم ملك بعده ابنه « اليون بن نسييل » بقية أيام المعتمد وصدر من أيام المعتضد ثم هلك فملكوا عليهم ابنا له يقال له « الاسكندروس » فلم يحمدا أمره ، فخلعوه ، وملكوا عليهم أخاه « لاوى بن اليون بن نسييل الصقلي » وكان ملكه بقية أيام المعتضد والمكتفى وصدر من أيام المقتدر

ثم هلك وخلف ولدا صغيرا يقال له « قسطنطين » فملك وغلب على مشاركته في الملك « أرميوس » بطريق البحر وصاحب غزوه وحروبه ، فزوج قسطنطين بابنته ، وذلك في بقية أيام المقتدر وأيام القاهر والراضى والمتقى إلى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، في خلافة أبي إسحق المتقى بن المقتدر ، وملوك الروم في هذا الوقت المؤرخ ثلاثة ، والأكبر منهم والمدبر للأمور أرمينوس المتغلب ، ثم الثانى وهو قسطنطين بن لاوى بن اليون بن نسييل ، والملك الثالث ابن لأرميوس يخاطب بالملك اسمه اسطفنوس وجعل أرميوس ابنا له آخر صاحب الكرسي بالقسطنطينية ، وهو البطرك الأكبر الذى يأخذون عنه دينهم ، وقد كان خصاء قبل ذلك ، وقر به إلى الكنيسة ، وأمر الروم يدور في وقتنا هذا على ما ذكرنا من ملوكهم

قال المسعودى : فالى هذا الوقت انتهت أخبار ملوك الروم ، على حسب ما ذكرنا ، والله أعلم ما يكون من أمرهم في المستقبل من الزمان

فعدد سنى ملوك الروم المنتصرة من قسطنطين بن هلالى ، وهو المظهر لدين النصرانية على ما ذكرنا ، إلى هذا الوقت خمسمائة سنة وسبع سنين ، والذى أجمع عليه من عدد ملوكهم من قسطنطين إلى هذا الوقت المؤرخ أحد وأربعون ملكا ،

ولم يعد ابن أرميوس ، ووقع العدد على قسطنطين وأرميوس الذين هما ملكا الروم في هذا الوقت المؤرخ ، وإن أدخلنا في هذا العدد ابن أرميوس فعدد ملوك الروم من بدء النصرانية - وهو الملك قسطنطين بن هلافي - اثنان وأربعون ملكا ، في مدة هذه السنين المذكورة ، وقد ذهب جماعة ممن عني بأخبار العالم إلى أن من حين هبط آدم عليه السلام إلى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، ستة آلاف سنة ومائتين وتسعا وخمسين سنة ، وسند كرفيا يرد من هذا الكتاب جملا من تاريخ سني العالم والأنبياء والملوك في باب تفرد له ، إن شاء الله تعالى

ذكر مصر وأخبارها ونيلها وعجائبها وأخبار ملوكها

وغير ذلك مما اتصل بهذا الباب

قال المسعودي : ذكر الله جل ثناؤه مصر في مواضع من كتابه ؛ فقال عز وجل (وقال الذي اشتراه من مصر) (وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) وقال تعالى (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتا) وقال (اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم) وقال تعالى (وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه)

ووصف بعض الحكماء مصر فقال : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة حمراء ، فأما اللؤلؤة البيضاء فإن مصر في شهر أبيب - وهو تموز - وميسرى - وهو آب - وتوت - وهو أيلول - يركبها الماء ، فترى الدنيا بيضاء ، وضياها على روابي وتلال مثل السكواكب ، قد أحاطت المياه بها من كل وجه ، فلا سبيل لبعض البلاد إلى بعض إلا في الزوارق ؛ وأما المسكة السوداء فإن في شهر بابه - وهو تشرين الأول - وهاتور - وهو تشرين الثاني - وكيهك - وهو كانون الأول -

ينكشف الماء عنها ، وينضب عن أرضها ، فتصير أرضا سوداء ، وفيها تقع
الزراعات ، وللأرض روائح طيبة تشبه روائح المسك ؛ وأما الزمردة الخضراء فان
في شهر طوبة - وهو كانون الثاني - وأمشير - وهو شباط - ورمات - وهو
أزار - تلمع ، ويكثر عشبها ونباتها فتصير كالزمردة الخضراء ؛ وأما السبيكة الحمراء
فان في شهر برمودة - وهو نيسان - وشنس - وهو أيار - وبؤونة - وهو حزيران -
يبيض الزرع فيه ، ويتورد العشب ، فهو كسبيكة الذهب منظرا ومنفعة
وسندكر هذه الشهور بالسرانية والعربية والفارسية ، ونسمى كل شهر ،
بعد هذا الموضع من هذا الكتاب ، وإن كنا قد أتينا على جميع ذلك في
الكتاب الأوسط

ووصف آخر مصر فقال : نيلها عجب ، وأرضها ذهب ، وخيرها جلب ،
وملكها لمن سلب ، ومالها رغب ، وفي أهلها صخب ، وطاعتهم رهب ، وسلامهم
تعب ، وحروبهم حرب ، وهى لمن غلب

ونهرها النيل من سادات الأنهار ، وأشرف البحار ، لأنه يخرج من الجنة
على حسب ماورد به خبر الشريعة إن النيل وسيحان ، وهو نهر أذنة بين طرسوس
والمصيصة ، وجيحان ، ومخرجه من عيون تعرف بعيون جيحان على ثلاثة أيام
من مدينة مرعش ، ويطرح إلى البحر الرومى ؛ فليس للمسامين عليه من المدن
إلا المصيصة وكفرياد ، ومجرها بينهما ، والفرات ، وقد قدمنا الأخبار عنه وعن
النيل ومبدهما ومقدار جريانها على وجه الأرض ومصبهما ، فيما سلف من هذا
الكتاب ، وأنه يخرج من الجنة ، وكذلك الدجلة وغيرها مما اشتهر من الأنهار
الكبار .

وقد قالت العرب فى النيل : إنه إذا زاد غاضت له الأنهار ، والأعين
والآبار ، وإذا غاض زادت ، فزياداتها من غيضة ، وغيضة من زياداتها ،
قال البصرى : -

يفيض إن زادت له الأنهار * في الأرض ذات العرض والمقدار
وقالت الهند : زيادته ونقصانه بالسيول ، ونحن نعرف ذلك بتوالى الأنواء ،
وتوالى الأمطار ، وركد السحاب
وقالت الروم : لم يزد قط ولم ينقص ، وإنما زيادته ونقصانه من عيون
كثرت واتصلت
وقالت القبط : زيادته ونقصانه من عيون في شاطئه يراها من سافر
ولحق بأعليه

وقيل : لم يزد قط ، وإنما زيادته بريح الشمال إذا كثرت واتصلت به ،
فتحبسه ، فيفيض على وجه الأرض

وقد ذكرنا التنازع في النيل وزيادته ممن سلف وخلف على الشرح
والإيضاح وغيره من الأنهار الكبار والبحار والبحيرات الصغار في « أخبار
الزمان » في الفن الثاني ؛ فأغنى ذلك عن إعادتها في هذا الكتاب

ومصر من سادات القرى ورؤساء المدن ، قال الله تعالى حاكيا عن فرعون
(أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحى أفلا تبصرون) وقال عز وجل
حاكيا عن يوسف عليه السلام (اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم)
وليس فى أنهار الدنيا نهر يسمى بحرا غير نيل مصر لكبره واستبحاره ، وقد
قدمنا فيما سلف من كتبنا الخبر عن جبل القمر الذى بدء النيل منه ، وما يظهر
من تأثير القمر فيه عند زيادته ونقصانه من النور والظلام فى البدء والحاق
وقد روى عن زيد بن أسلم فى قوله تعالى (فان لم يصبها وابل فطل) قال :
هى مصر : إن لم يصبها وابل زكت ، وإن أصابها مطر ضعفت ، وقال بعض
الشعراء يصف مصر ونيلها :

مِصرٌ ومِصرٌ شأنها عجيب * ونيلها تجرى به الجنوب

وهى مصر ، واسمها كعناها ، وعلى اسمها سميت الأمصار ، ومنها اشتق هذا

الاسم عند علماء المصريين ، وقد قال عمرو بن معد يكرب : —

ما النيل أصبع واحدا بمدوده * وجرت له ريح الصبا فجرى لها
عودت كندة عادت محمودة * فاصبر لجأها وروّ سجأها

قال المسعودى : ويتبدى نيل مصر بالتنفس والزيادة بقية بؤونة — وهو
حزيران — وأيب — وهو تموز — ومسرى — وهو آب — فإذا كان الماء زائدا زاد
شهر توت كله — وهو أيلول — إلى انقضائه ، فإذا انتهت الزيادة إلى ست عشرة
ذراعا ففيه تمام الخراج ، وخصب الأرض ، وريع للبلد عام ، وهو ضار للبهائم
لعدم المرعى والسكّاء ، وأتم الزيادات كلها العامة النفع للبلد كله سبعة عشر ذراعا
وفى ذلك كفايتها ، ورى جميع أرضها ، وإذا زاد على السبع عشرة وبلغ ثمان
عشرة ذراعا وغلقها استبحر من أرض مصر الربع ، وفى ذلك ضرر لبعض الضياع
لما ذكرنا من وجه الاستبحار وغير ذلك ، وإن كانت الزيادة ثمان عشرة ذراعا
كانت العاقبة فى انصرافه حدوث وباء بمصر ، وأكثر الزيادات ثمان عشرة
ذراعا ، وقد كان النيل بلغ فى زيادته تسع عشرة ذراعا ، وذلك سنة تسع
وتسعين فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، ومساحة الذراع إلى أن تبلغ اثني عشر
ذراعا ثمان وعشرون أصبعا ، ومن اثني عشر ذراعا إلى ما فوق يصير الذراع أربعا
وعشرين أصبعا ، وأقل ما يبق فى قاع المقياس من الماء ثلاث أذرع ، وفى نيل تلك
السنة يكون الماء قليلا ، والأذرع التى يستسقى عليها بمصر هى ذراعان تسميان
منكرا ونكيرا ، وهى الذراع الثالثة عشر ، والذراع الرابعة عشر ، فإذا انصرف
الماء عن هاتين الدراعين — أعنى ثلاث عشرة وأربع عشرة — وزيادة نصف ذراع
من الخمس عشرة ، واستسقى الناس بمصر ؛ كان الضرر شاملا لكل البلدان ،
إلا أن يأذن الله عز وجل فى زيادة الماء ، وإذا تم خمس عشرة ودخل فى ست
عشرة ذراعا كان فيه صلاح لبعض الناس ، ولا يستسقى فيه ، وكان ذلك نقصا
من خراج السلطان ، والترع التى بغيزة مصر أربع أمهات : أسماؤها ترعة ذنب

التمساح ، وترعة بلقينة ، وخليج سردوس ، وخليج ذات الساحل ، وتفتح هذه الترع إذا كان الماء زائداً في عيد الصليب ، وهو لأربع عشرة تخلو من توت - وهو أيلول - وقد قدمنا خبر تسمية هذا اليوم بعيد الصليب فيما سلف من هذا الكتاب ، والنبيل الشيرازي يتخذ بمصر من ماء طوبة - وهو كانون الآخر - بعد الغطاس ، وهو لعشر تمضي من طوبة ، وأصفي ما يكون النيل في ذلك الوقت ، وأهل مصر يفتخرون بصفاء النيل في هذا الوقت ، وفيه تختزن المياه أهل تنيس ودمياط وتونة وسائر قرايا البحيرة

ليلة الغطاس
وعادات مصر
فيها

وليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها ، لا ينام الناس فيها ، وهي ليلة إحدى عشرة تمضي من طوبة وستة من كانون الثاني

ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر والإخشيد محمد بن طنج في داره المعروفة بالختارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطيف بها ، وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب القسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ، وقد حضر النيل في تلك الليلة مئو آلاف من الناس المسلمين والنصارى ؛ منهم في الزوارق ، ومنهم في الدور الدانيسة من النيل ، ومنهم على الشطوط لا يتناكرون الحضور ، ويحضرون كل ما يمكنهم إظهاره من المساك كل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والقصف ، وهي أحسن ليلة تكون بمصر ، وأشمها سرورا ، ولا تعلق فيها الدروب ، ويغطس أكثرهم في النيل ، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ للداء

مقاييس النيل

قال المسعودي : وأما المقاييس الموضوعة بمصر لمعرفة زيادة النيل وتقصانه فاني سمعت جماعة من أهل الخبرة يخبرون أن يوسف النبي صلى الله عليه وسلم - حين بنى الأهرام - اتخذ مقياسا لمعرفة زيادة النيل وتقصانه ، وأن ذلك كان بمنف ، ولم يكن بنى القسطاط يومئذ ، وأن دلوكة الملكة العجوز وضعت مقياسا

آخر بالصعيد أيضا ببلاد إخميم ، فهذه المقاييس الموضوعة قبل مجيء الإسلام ، ثم ورد الإسلام وافتتحت مصر ، وكانوا يعرفون زيادة النيل بما ذكرنا وقصانه بما وصفنا ، إلى أن ولى عبد العزيز بن مروان فاتخذ مقياسا بالجزيرة التى تدعى جزيرة الصناعة ، وهى الجزيرة التى بين القسطنطينية والجزيرة ، والمعبّر عليها من القسطنطينية على الجسر ، ثم منها على جسر آخر إلى الجزيرة ، وهو بين الجانب الغربى من القسطنطينية والجانب الشرقى ، وهذا المقياس الذى اتخذه أسامة بن زيد التنوخى هو أكثرها استعمالا ، واتخذ ذلك فى أيام سليمان بن عبد الملك بن مروان ، وهو المقياس الذى يعمل عليه فى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، بالقسطنطينية وقد كان من سلف يقيسون بالمقياس الذى بمنف ، ثم ترك استعماله وعمل على مقياس الجزيرة المعمول فى أيام سليمان بن عبد الملك ، وفى هذه الجزيرة مقياس آخر لأحمد بن طولون ، والعمل عليه عند كثرة الماء ، وترادف الرياح ، واختلاف مهابها ، وكثرة الموج ، وقد كانت أرض مصر كلها تروى من ست عشرة ذراعا عامرها وغامرها ؛ لما أحكموا من جسورها ، وبناء قناطرها ، وتنقية خلجانها ، وكان بمصر سبع خلجانات : فمنها خليج الاسكندرية ، وخليج سخا ، وخليج دمياط ، وخليج منف ، وخليج الفيوم ، وخليج سردوس ، وخليج المنهى

وكانت مصر فيما يذكر أهل الخبرة أكثر البلاد جنانا ، وذلك أن جنانها كانت متصلة بحافى النيل من أوله إلى آخره ، من حد أسوان إلى رشيد ، وكان الماء إذا بلغ فى زيادته تسع أذرع دخل خليج المنهى وخليج الفيوم وخليج سردوس وخليج سخا ، وكان الذى ولى حفر خليج سردوس لفرعون عدو الله هامان ، فلما ابتدأ فى حفره أتاه أهل القرى يسألونه أن يجرى الخليج إلى تحت قراهم ويعطوه على ذلك ما أراد من المال ، وكان يعمل ذلك حتى اجتمعت له أموال عظيمة ، فحمل تلك الأموال إلى فرعون ، فلما وضعها بين يديه سأله عنها ،

فأخبره بما فعل ، فقال : إنه ينبغي للسيد أن يعطف على عبده ، ويفيض عليهم معروفه ، ولا يرغب فيما في أيديهم ، ونحن أحق من فعل هذا بعبده ، فاردد على أهل كل قرية ما أخذته منهم ، ففعل ذلك هامان ، ورد على أهل كل قرية ما أخذ منهم ، فليس في الخلقان التي بأرض مصر أكثر عطوفا وعزاقيل من خليج سردوس ، وأما خليج الفيوم وخليج المنهى فإن الذي حفرها يوسف بن يعقوب صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن الريان بن الوليد ملك مصر لما رأى رؤياه في البقر والسنابل وعبرها يوسف عليه السلام استعمله على ما كان يلي من أرض مصر ، وقد أخبر الله بذلك عند إخباره عن نبيه يوسف بقوله (اجعاني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم)

قال المسعودي : وقد تنازع أهل الملة في تصرف المؤمنين مع الفاسقين ؛ فمنهم من رأى أن الملك كان مؤمنا ، ولولا ذلك ما وسع يوسف معاونة الكفار والتصرف في أوامرهم ونواهيهم ، ومنهم من رأى أن ذلك جائز على ما يوجبه أحوال الوقت والأصلح للحال ، وقد ذكرنا قول كل فريق من هؤلاء في كتابنا في المقالات في أصول الديانات

الفيوم

وأما أخبار الفيوم من صعيد مصر وخارجاتها من المرتفع والمطاطى ومطاطى المطاطى ، وهذه عبارة أهل مصر ، يريدون بذلك المنخفض ، وكيفية فعل يوسف فيها وعمارته أرضها بعد كونها خربة ومصفاة لمياه الصعيد ، وهى جزيرة قد أحاط الماء حينئذ بأكثر أقطارها ، فقد أتينا على ذلك فى الكتاب الأوسط فأغنى عن إعادته فى هذا الكتاب ، وكذلك فى تسمية الفيوم فيوما ، وأن ذلك ألف يوم ، وما كان من خبر يوسف مع الوزراء وحسد هم إياه

وقد كانت مصر على مازعم أهل الخبرة والعناية بأخبار شأن العالم يركب أرضها ماء النيل وينبسط على بلاد الصعيد إلى أسفل الأرض ، وموضع القسطنط في وقتنا هذا ، وقد كان بدء ذلك من موضع يعرف بالجنادل من أسوان الحبشة ،

وقد قدمنا ذكر هذا الموضع فيما سلف من هذا الكتاب ، إلى أن عرض لذلك
موانع من انتقال الماء وجريانه ، وما ينقل من النوبة بتياره من موضع إلى موضع ،
فنضب من بعض المواضع من بلاد مصر على حسب ما وصفنا عن صاحب المنطق
من عمران الأرض وخرابها فيما سلف من هذا الكتاب ، فسكن الناس بلاد
مصر ، ولم يزل الماء ينضب عن أرضها قليلا قليلا حتى امتلأت أرض مصر من
المدن والعمائر ، وطرقوا للماء ، وحفروا له الخجانات ، وعقدوا في وجهه المسناة ، إلا
أن ذلك خفي على ساكنها ، لأن طول الزمان أذهب معرفة أول سكنها كيف
كان ذلك ، ولم نتعرض في هذا الكتاب لذكر العلة الموجبة لامتناع المطر
بمصر ، ولا لكثير من أخبار الاسكندرية وكيفية بنائها ، والأمم التي تداولتها ،
والملوك التي سكنتها من العرب وغيرها ، لأننا قد أتينا على ذلك في الكتاب
الأوسط ، وسنذكر بعد هذا الموضع جملا من أخبارها ، وجوامع من كيفية بنائها ،
وما كان من أمر الإسكندر فيها .

قال المسعودي : وقد كان أحمد بن طولون بمصر بلغه في سنة ثمان وخمسين ومائتين
أن رجلا بأعلى بلاد مصر من أرض الصعيد له ثلاثون ومائة سنة من الأنباط ،
ممن يشار إليه بالعلم من لدن حدائته والنظر والإشراف على الآراء والنحل من
مذاهب المتفلسفين وغيرهم من أهل الملل ، وأنه علامة بمصر وأرضها على برها
وبحرها وأخبارها وأخبار ملوكها ، وأنه ممن سافر في الأرض ، وتوسط الممالك ،
وشاهد الأمم من أنواع البيضان والسودان ، وأنه ذو معرفة بهيئات الأفلاك
والنجوم وأحكامها ، فبعث أحمد بن طولون رجلا من قواده في أصحابه ، فحمله في
النيل إليه مكرما ، وكان قد انفرد عن الناس في بنيان اتخذها ، وسكن في أعلاه ،
وقد رأى الرابع عشر من ولد ولده ، فلما مثل بحضرة أحمد بن طولون نظر إلى رجل
دلائل الهرم فيه بينة ، وشواهد ما أتى عليه من الدهر ظاهرة ، والحواس سليمة ،
والقضية قائمة ، والعقل صحيح ؛ يفهم عن مخاطبه ، ويحسن البيان والجواب عن

أحمد بن طولون
رجل به
أخبار الصعيد

نفسه ، فأسكنه بعض مقاصيره ، ومهدله ، وحمل إليه لذيذ المآكل والمشارب ، فأبى أن لا يتواطأ على شيء ، وأن لا يتغذى إلا بغذاء كان حمله معه من كهك وغيره ، وقال : هذه بنية قوامها بما ترون من هذا الغذاء ، وهذا الملبس ؛ فان أنتم سئتموها ^{الله} النقلة عن هذه العادة وتناول ما أوردتموه عليها من المآكل والمشارب والملابس كان ذلك سبب انحلال هذه البنية ، وتقريق هذه الصورة ، فترك على ما كان عليه ، وما جرت به عادته ، وأحضر له أحمد بن طولون من حضره من أهل الديار ، وصرف همته عليه ، وأخلى نفسه له في ليال وأيام كثيرة ، يسمع كلامه وإيراداته وجواباته فيما سئل عنه ؛ فكان مما سئل عنه الخبر عن بحيرة تنيس ودمياط ، فقال : كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة وثراوة ، وكانت جنانا ونحلا وكرما وشجرا ومزارع ، وكانت فيها بحار على ارتفاع من الأرض وقرى على قرارها ، ولم ير الناس بلدا أحسن من هذه الأرض ، ولا أحسن اتصالا من جناتها وكرومها ، ولم يكن بمصر كورة يقال إنها تشبهها إلا الفيوم ، وأخصب وأكثر فاكهة ورياحين من الأصناف الغريبة ، وكان الماء منحدرًا إليها لا ينقطع عنها صيفا ولا شتاء ، يسقون منه جناتهم إذا شاؤا ، وكذلك زروعهم ، وسأره يصب إلى البحر من سائر خلجانه ، ومن الموضع المعروف بالأشتوم ، وقد كان بين البحر وبين هذه الأرض نحو مسيرة يوم ، وكان فيما بين العريش وجزيرة قبرس طريق مسلوكة إلى قبرس تسلكه الدواب ببسًا ، ولم يكن فيما بين العريش وجزيرة قبرس إلا مخاضة ، وجزيرة قبرس اليوم بينها وبين العريش في البحر سير طويل ، وكذلك فيما بينها وبين أرض الروم ، وقد كان بين الأندلس في الموضع الذي يسمى الخضراء - وهو قريب من فاس المغرب وطنجة - قنطرة مبنية بالحجارة والطوب تمر عليها الإبل والدواب من ساحل المغرب من بلاد الأندلس إلى المغرب ، وماء البحر تحت تلك القنطرة متقطع خلجانات صغارًا تجري تحت قناطرها وما عقد من الطاقات تحتها على

صخور صم ، وقد عقد من كل جانب حجر إلى حجر طاق ، وهو مبدأ بحر الروم
الآخذ من أوقيانوس ، وهو البحر المحيط الأكبر ، فلم يزل البحر يزيد مأؤه ويعلو
أرضا فأرضا في طول على ممر السنين ، يرى زيادته أهل كل زمان ، ويتبينه أهل كل
عصر ، ويقفون عليه ، حتى علا الماء الطريق الذي كان بين العريش وبين قبرس ،
وعلا القنطرة التي كانت بين الأندلس وبرطجة ، وما وصفت فبين ظاهر عند
أهل الأندلس وأهل فاس من بلاد المغرب من خبر هذه القنطرة ، وربما بدا
الموضع لأهل المراكب تحت الماء فيقولون : هذه القنطرة ، وكان طولها نحو اثني
عشر ميلا ، وعرض واسع ، وسمو ^وبين ، فلما مضت لدقطنيانوس من ملكه
مائتان وإحدى وخمسون سنة هجم الماء من البحر على بعض المواضع التي
تسمى اليوم بحيرة تنيس فأغرقه ، وصار يزيد في كل عام حتى أغرقها بأجمعها ،
فما كان من القرى التي في قرارها غرق ، وأما التي كانت على ارتفاع من
الأرض فبقيت منها تونة وسيمود وغير ذلك مما هي باقية إلى هذا الوقت ،
والماء محيط بها ، وكان أهل القرى التي في هذه البحيرة ينقلون موتاهم
إلى تنيس فيعبرونهم واحدا فوق واحد ، وهي الأكوام الثلاثة التي تسمى
أبوالكوم ، وكان استحكام غرق هذه الأرض بأجمعها وقد مضى لدقطنيانوس
الملك مائتان وإحدى وخمسون سنة ، وذلك قبل أن تفتح مصر بمائة سنة ، قال :
وقد كان ملك من ملوك الأمم كانت داره اليوم مع أركون من أركان البلينا وما
اتصل بها من الأرض خروق وخنادق وخلصانات فتحت من النيل إلى البحر ،
يمنع كل واحد من الآخر ، وكان ذلك داعيا لشعب الماء من النيل واستيلائه على
هذه الأرض ، ^{وسئل} عن ملوك الأحابش على النيل وممالكهم ، فقال : لقيت
من ملوكهم ستين ملكا في ممالك مختلفة ، كل ملك منهم ينازع من يليه من
الملوك ، وبلادهم حارة يابسة مسودة وييسها لحرارتها ولا استحكام النارية فيها
تغيرت الفضة ذهباً لطبخ الشمس إياها لحرارتها وييسها وناريتها فتحولت

ذهباً ، وقد يطبخ الذهب الذى يؤتى به من المعدن خالصا صفائح بالملح والزجاج
 والطوب فيخرج منه فضة خالصة بيضاء ، وليس يدفع هذا الأمر إلا من
 لا معرفة له بما وصفنا ، ولا قارب شيئاً مما ذكرنا ، قيل له : فما منتهى النيل فى
 أعاليه ، قال : البحيرة التى لا يدرك طولها وعرضها ، وهى نحو الأرض التى الليل
 والنهار فيها متساويان طول الدهر ، وهى تحت الموضع الذى تسميه المنجمون
 الفلك المستقيم ، وما ذكرت فمعروف غير منكر ، وسئل عن بناء الأهرام ، فقال :
 إنها قبور الملوك ، كان الملك منهم إذا مات وضع فى حوض حجارة ، ويسمى
 بمصر والشام الجرن ، وأطبق عليه ، ثم يبنى من الهرم على قدر ما يريدون من
 ارتفاع الأساس ، ثم يحمل الحوض فيوضع وسط الهرم ، ثم يقنطر عليه البنيان
 والأقباء ، ثم يرفعون البناء على هذا المقدار الذى ترونه ، ويجعل باب الهرم تحت
 الهرم ، ثم يحفر له طريق فى الأرض بعقد أزج ، فيكون طول الأزج تحت الأرض
 مائة ذراع وأكثر ، ولكل هرم من هذه الأهرام باب يدخل منه على ما وصفت ،
 فقليل له : فكيف بنيت هذه الأهرام المملسة ؟ وعلى أى شىء كانوا يصعدون
 ويبنون ؟ وعلى أى شىء كانوا يحملون هذه الحجارة العظيمة التى لا يقدر أهل
 زماننا هذا على أن يحركوا الحجر الواحد إلا بجهد إن قدروا ؟ فقال : كان القوم
 يبنون الهرم مدريجاً ذا مراق كالدرج ، فاذا فرغوا منه نحتوه من فوق إلى أسفل ،
 فهذه كانت حيلتهم ، وكانوا مع هذا لهم صبر وقوة وطاعة للملوكهم ديانة ، فقليل له :
 ما بال هذه الكتابة التى على الأهرام والبرابى لا تقرأ ؟ فقال : دثر الحكماء وأهل
 العصر الذين كان هذا قلمهم ، وتداول أرض مصر الأمم ، فغلب على أهلها القلم
 الرومى كأشكال أحرف القبط والروم بأحرفها على حسب ما ولدوه من الكتابة
 بين الرومى والقبطى الأول ؛ فذهب عنهم كتابة آبائهم ، فقليل له : فمن أول من
 سكن مصر ؟ قال : أول من نزل هذه الأرض مصر بن بيسر بن حام بن نوح ،
 ومرفى أنساب ولد نوح الثلاثة وأولادهم ، وتفرقهم فى الأرض ، فقليل له : أتعرف

بمصر مقاطع رخام ؟ قال : نعم في الجبل الشرقى من الصعيد جبل رخام عظيم كانت الأوائل تقطع منه العمود وغيرها ، وكانوا يجلون ما عملوا بالرمل بعد النقر ؛ فمنها العمود والقواعد والرؤوس التى تسميها أهل مصر الأسوانية ، ومنها حجارة الطواحين ، فتلك نقرها الأولون بعد حدوث النصرانية بمئتين من السنين ، ومنها العمود التى بالإسكندرية ، والعمود بها الضخم الكبير لا يعلم بالعالم عمود مثله ، وقد رأيت في جبل أسوان أخا هذا العمود قد هندس ونقر ولم يفصل من الجبل ولم يحك ما ظهر منه ، وإنما كانوا ينتظرون أن يفصل من الجبل ثم يحمل إلى حيث يريد القوم ، وسئل عن مدينة العقاب ، فقال : هى غربى أهرام بوصير الجيزة ، وهى على خمسة أيام لباليها للراكب المجد ، وقد وُجِّدَتْ ^(١) طريقها ، وُعمِّيت المسالك إليها ، والسمت الذى يؤدى نحوها ، وذكر ما فيها من عجائب البنيان والجواهر والأموال والعلة التى لها سميت مدينة العقاب ، ووصف مدينة أخرى غربى أخميم من أرض الصعيد ذات بنيان عجيب اتخذتها الملوك السافنة ، وذكر من شأن هذه المدينة الأخرى عجائب من الأخبار ، وزعم أن بينها وبين إخميم من أرض الصعيد مسيرة ستة أيام ، وسئل عن النوبة وأرضها ، فقال : هم أصحاب إبل وبُخْت وبقر وغنم ، وملكهم يستعد الخيل العتاق ، والأغلب من ركوب عوامهم البراذين ، ورميهم بالنبل عن قسيّ عربية ، وعندهم أخذ الرمي أهل الحجاز واليمن وغيرهم من العرب ، وهم الذين تسميهم العرب رماة الحدق ، ولهم النخل والكرم والذرة والموز والحنطة ، وأرضهم كأنها جزء من أرض اليمن ، وللنوبة أترج كأكبر ما يكون بأرض الإسلام ، وملوكهم تزعم أنها من حمير ، وملكهم يستولى على مقراونوبة وعلوة ، ووراء علوة أمة عظيمة من السودان تدعى بكنه ، وهم عراة كالزنج ، وأرضهم تنبت الذهب ، وفى مملكة هذه الأمة يخرق النيل فيتشعب منه خليج عظيم ، ثم يحصر الخليج من بعد انفصاله من النيل ، وينحدر الأكثر إلى بلاد النوبة ، وهو لا يتغير فإذا كان فى بعض الأزمنة انفصل

(١) فى بعض النسخ « وقد عورت »

الأكثر من الماء في ذلك الخليج ، وابيض الأكثر ، واخضر الأقل ؛ فيشق ذلك الخليج أودية وخاجان وأعماق مأنوسة حتى يخرج إلى جلاسق والجنوب ، وذلك ساحل الزنج ، ومصبه في بحرهم ، ثم سئل عن الفيوم والمنهى وحجر اللاهون ، فذكر كلاما طويلا في أمر الفيوم ، وأن جارية من بنات الروم وابنها نزلوا الفيوم وكانوا البدء في عمارتها وعمارة أرضها ، وإتما كان الماء يأتى الفيوم من المنهى أيام جرى النيل ، ولم يكن حجر اللاهون بنى ، وإتما كان مصب الماء من المنهى من الموضع المعروف بدمونة ، ثم بنى اللاهون على ما هو اليوم عليه ، ويقال : إن يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام بناه أيام العزيز ، ودبر من أمر الفيوم ما هو اليوم قائم بين من الخليج المرتفعة المطاطية ، وهو خليج فوق خليج فوق خليج ، وهى القنطرة المعروفة بسفونة ، وأقام العمود الذى في وسط الفيوم ، وهو غائص في الأرض لا يدرك منتهاه منها ، وهو أحد عجائب الدنيا ، مربع الشكل ، قد جهدأ ناس من الأمم من ورد بعد يوسف عليه السلام أن يتنهوا إلى آخره في الأرض حفرافلم يتأت لهم ذلك ، وغلبهم الماء ، فعمجزهم ، ورأس هذا العمود مساوٍ لأرض المنهى ، قال : وأما حجر اللاهون فان من سطح الحجر الذى فيما بين الفرش إلى ناحية اللاهون ، واللاهون هى القرية بعينها ، ففيها من السطح إلى القرية ستون ذراعا ورمال بالماء في المنهى ، وظهر بعض الدرج ، وفى حائط الحجر فوارات بعضها اليوم يخرج منه الماء ، وبعض لا يرى ، وفيما بين سطح الحجر الذى ما بين القبتين وبين القرية شاذروان ، وهو من أسفل الدرج ، وإتما يدخل الماء الفيوم بدرج الحجر ، وجعات الاسقالة - وهى القناطر - ليخرج الماء منها ، ولا يعلو الماء الحجر أيام سده ، فبالتقدير بيناء حجر اللاهون وبقدر ما يكفى الفيوم من الماء يدخل إليها وبناء حجر اللاهون من أعجب الأمور ، ومن أحكم البنيان ، ومن البناء الذى يبقى على وجه الأرض لا يتحرك ولا يزول : بالهندسة عمل ، وبالفسفة أتنق ، وفى السعود نصب ، وقد ذكر كثير من أهل بلدنا أن يوسف عليه السلام عمل

ذلك بالوحى ، والله أعلم / ولم تنزل ملوك الأرض - إذا غلبت على بلادنا ، واحتوت على أرضنا - صارت إلى هذا الموضع فتأملت ، لما قد نعى إليها من أخباره ، وسار فى الخليفة من عجائب بنيانه وإتقانه ، وكان هذا الرجل من أقباط مصر ، ممن يظهر دين النصرانية ورأى اليعقوبية ، فأمر أحمد بن طولون فى بعض الأيام ، وقد أحضر مجلسه بعض أهل النظر ، أن يسأله عن الدليل على صحة دين النصرانية ، فسأله عن ذلك ، فقال : دليل على صحتها وجودى إياها متناقضة متنافية ، تدفعها العقول ، وتنفر منها النفوس ؛ لتباينها وتضادها ، لا نظر يقويها ، ولا برهان يعصدها من العقل والحس عند التأمل لها والفحص عنها ، ورأيت مع ذلك أمما كثيرة ، وملوكا عظيمة ذوى معرفة وحس ، قد انقادوا إليها وتدينوا بها ، فعلمت أنهم لم يقبلوها ، ولم يتدينوا بها - مع ما ذكرت من تناقضها فى العقل - إلا لدلائل شاهدها ، وآيات علموها ، ومعجزات عرفوها ؛ أوجبت اقتيادهم إليها والتدين بها ، قال له السائل : وما التضاد الذى فيها ؟ قال : وهل يدرك أو يعلم غايته : منها قولهم بأن الواحد ثلاثة ، والثلاثة واحد ، ووصفهم الأقاليم والجوهر وهو الثالث ، وهل الأقاليم فى أنفسها قادرة عالمة أم لا ؟ وفى اتحاد ربهم القديم بالانسان الحدث ، وما جرى فى ولادته وقتله وصلبه ، وهل فى التشنيع أكبر وأفحش من إله صلب ، وبُصق فى وجهه ، ووضع على رأسه الإكليل من الشوك ، وضرب رأسه بالقضيب ، وسمرت يداه ، ونخس بالأسنة والخشب جنباه ، وطلب الماء فسقى الخل فى بطيخ الخنظل ؟ فأمسكوا عن مناظرته وانقطعوا عن مجادلتها ؛ لما قد أعطاهم من تناقض مذهبه وفساده ووهنه ، فقال طبيب لابن طولون يهودى قد حضر المجلس : أياذن لى الأمير فى مخاطبته ؟ قال : شأنك ، فأقبل على القبطى مسائلا له ، فقال له القبطى : وما أنت أيها الرجل ؟ وما نحتك ؟ قال له : يهودى ، فقال له : مجوسى إذا ؟! قال له : كيف ذلك وهو يهودى ؟ قال : لأنهم يرون نكاح البنات فى بعض الحالات ، إذ كان فى دينهم

أن الأخ يتزوج بنت أخيه ، وعليهم أن يتزوجوا نساء إخوتهم إذا ماتوا ، فإذا وافق اليهودي أن تكون امرأة أخيه ابنته لم يجد بدا من أن يتزوجها ، وهذا من أسرارهم ، وما يكتمنونه ولا يظهرونه ، فهل في المجوسية أشنع من هذا ؟ فأنكر اليهودي ذلك ، وجحد أن يكون في دينه أو يعرفه أحد من اليهود ، فاستخبر ابن طولون صحة ذلك ، فوجد الطبيب اليهودي قد تزوج امرأة أخيه ، وكانت بنته ، ثم أقبل القبطي على ابن طولون ، فقال : أيها الأمير ، هؤلاء يزعمون - وأشار إلى اليهودي - أن الله خلق آدم على صورته ، وعن نبي من أنبيائهم سماه قال في كتابه إنه رآه في قديم الزمان أبيض الرأس والحية ، وأن الله تعالى قال : إني أنا النار المحرقة ، والحمى الآخذة ، وأنا الذي آخذ الأبناء بذنوب الآباء ، ثم في توراتهم أن بنات لوط سقينه الخمر حتى سكر وزنى بهن ، وحمّلن منه ، وولدن ، وأن موسى ردّ على الله الرسالة مرتين حتى اشتد غضب الله عليه ، وأن هرون صنع العجل الذي عبده بنو إسرائيل ، وأن موسى أظهر معجزات لفرعون ، وفعلت السحرة مثلاً ، ثم قالوا في ذبائح الحيوان والتقرب إلى الله بدمائها ولحومها وتحكمهم على العقل ومنعهم من النظر بغير برهان ، وهو قولهم : إن شريعتهم لا تنتسخ ، ولا يقبل قول أحد من الأنبياء بعد موسى إذا انحرف عما جاء به موسى ، ولا فرق في قضية العقل بين مومى وغيره من الأنبياء إذا أتى ببرهان ، وبأن بحجة ، ثم الأكبر من كفرهم قولهم في يوم عيد الكفور ، وهو يوم الاستغفار وذلك لعشر تخلو من تشرين الأول : إن الرب الصغير ويسمونه منتظرون يقوم في هذا اليوم قائماً ، وينتف شعور رأسه ، ويقول : ويلى إذا خربت بيتي ، وأيتمت بيتي ، قامتي منكسة لأرفعها ، حتى آتى بيتي ، وذكر عن اليهود أفاضيل وتخاليط كثيرة ، ومناقضات واسعة ، ولهذا القبطي مجالس كثيرة عن أحمد بن طولون مع جماعة من الفلاسفة والديصانية والثنوية والصابئة والمجوس ، وعدة من متكلمي الاسلام ، وقد أتينا على ما احتمل منها إirاده في كتابنا في

دوره
تسلسل
وانته

« أخبار الزمان » وذكروا جميع ذلك في كتابنا « المقالات في أصول الديانات »
 وكان هذا القبطى — على ما نرى إلينا من خبره ، وصح عندنا من قوله —
 يذهب إلى فساد النظر ، والقول بتسكافؤ المذاهب ، وأقام عند ابن طولون نحو
 سنة فأجازه ، وأعطاه ، فأبى قبول شيء من ذلك ، فردّه إلى بلده مكرما ، وأقام
 بعد ذلك مدة من الزمان ، ثم هلك ، وله مصنفات تدل من كلامه على ما ذكرنا
 عنه ، والله أعلم بكيفية ذلك

قال المسعودى : وفى نيل مصر وأرضها عجائب كثيرة من أنواع الحيوان مافى البر
 والبحر : من ذلك السمك المعروف بالرعاد ، وهو نحو الذراع ، إذا وقعت فى شبكة الصياد
 رعدت يداه وعضداه ، فيعلم بوقوعها ، فيبادر إلى أخذها وإخراجها عن شبكته ، ولو
 أمسكها بخشب أو قصب فعلت ذلك ، وقد ذكرها جالينوس ، وأنها إن جعلت
 على رأس من به صداع شديد أو شقيقة وهى فى الحياة هداً من ساعته ، والفرس
 الذى يكون فى نيل مصر إذا خرج من الماء وانتهى وطؤه إلى بعض المواضع من
 الأرض علم أهل مصر أن النيل يزيد إلى ذلك الموضع بعينه ، غير زائد عليه ،
 ولا متصر عنه ، لا يختلف ذلك عندهم بطول العادات والتجارب ، وفى ظهوره من
 الماء ضرر بأرباب الأرض والفلاحة لرعيه الزرع ، وذلك أنه يظهر من الماء فى الليل
 فينتهى إلى موضع من الزرع ، ثم يولى عائداً إلى الماء ، فيرعى فى حال رجوعه من
 الموضع الذى انتهى إليه مسيره ، ولا يرعى من ذلك شيء فى ممره ، كأنه يحدد
 مقدار ما يرعاه فيها إذا رعت ووردت إلى النيل فشربت ثم تقذف ما فى أجوافها
 فى مواضع شتى ، فينبت ذلك مرة ثانية ، فإذا كثر ذلك من فعله واتصل ضرره
 بأرباب الضياع طرح له التمس فى الموضع الذى يعرف خروجه منه مكاكى
 كثيرة مبداً مبسوطة ، فيأكله ، ثم يعود إلى الماء ، فيربو فى جوفه ويزداد فى
 انتفاخه فيشق جوفه ، فيموت ويطفو على الماء ، ويقذف به إلى الساحل ، والموضع

من عجائب
 مصر ونيلها

الذى يكون فيه لا يكاد يرى فيه تمساح ، وهو على صورة الفرس إلا أن حوافره والذنب بخلاف ذلك والجهة أوسع

قال المسعودى : وقد ذكر جماعة من الشرعيين أن بيصر بن حام بن نوح لما انفصل عن أرض بابل بولده وكثير من أهل بيته غرب نحو مصر ، وكان له أولاد أربعة : مصر بن بيصر ، وقوف بن بيصر ، وساح ، وباح ، فنزل بموضع يقال له منف ، وبذلك يسمى إلى وقتنا هذا ، وكان عددهم ثلاثين فسميت بهم ، كما سميت مدينة ثمانين من أرض الجزيرة وبلاد الموصل من بلاد بنى حمدان ، وإنما نسبت إلى عدد ساكنيها ممن كان مع نوح فى السفينة ، وكان بيصر بن حام قد كبر سنه فأوصى إلى الأكبر من ولده ، وهو مصر ، واجتمع الناس إليه ، وانضافوا إلى جملتهم ، وأخصبت البلاد ؛ فتملك عليهم مصر بن بيصر ، وملك من حد رفح من أرض فلسطين من بلاد الشام ، وقيل : من العريش ، وقيل : من الموضع المعروف بالشجرة ، وهو آخر أرض مصر ، والفرق بينها وبين الشام ، وهو الموضع المشهور بين العريش ورفح - إلى بلاد أسوان من أرض الصعيد طولاً ، ومن أيلة - وهى تخوم الحجاز - إلى برقة عرضاً ، وكان لمصر أولاد أربعة ، وهم قبط ، وأشمون ، وإتريب ، وصا ، فقسم مصر الأرض بين أولاده الأربعة أرباعاً وعهد إلى الأكبر من ولده - وهو قبط - وأقباط مصر يضافون فى النسب إلى أبيهم قبط بن مصر ، وأضيفت المواضع إلى ساكنيها ، وعرفت بأسمائهم ؛ فنها أشمون ، وقبط ، وصا ، وإتريب ، وهذه أسماء هذه المواضع إلى هذه الغاية ، واختلطت الأنساب ، وكثر ولد قبط ، وهم الأقباط ؛ فغلبوا على سائر الأرض ، ودخل غيرهم فى أنسابهم ؛ لما ذكرنا من الكثرة ، فقليل لكل قبط مصر وكل فريق منهم يعرف نسبه واتصاله بمصر بن بيصر بن حام بن نوح إلى هذه الغاية

ولما هلك قبط بن مصر ملك بعده أشمون بن مصر ، ثم ملك بعده صابن

مصر ، وملك بعده « إتريب » بن مصر ، ثم ملك بعده « مالمق بن دارس »
ثم ملك بعده « حرايا بن مالمق » ثم ملك بعده « كلي بن حرايا » وأقام في الملك
نحو من مائة سنة ، ثم ملك بعده أخ يقال له « باليا بن حرايا » ثم ملك بعده
« لوطيس بن باليا » نحو من سبعين سنة ، ثم ملكت بعده ابنة له يقال لها
« حور يابنت لوطيس » نحو من ثلاثين سنة ، ثم ملكت بعدها امرأة أخرى
يقال لها « مأموم » وكثر ولد بيمصر بن حام بأرض مصر ، فقتشعوا ، ومَلَكُوا
النساء ، فطمعت فيهم ملوك الأرض ، فسار إليهم من الشام ملك من ملوك
العالمق ، يقال له الوليد بن دومع ، فكانت له حروب بها ، وغلب على الملك ،
فانقادوا إليه ، واستقام له الأمر إلى أن هلك ، ثم ملك بعده « الريان بن الوليد »
العالمق ، وهو فرعون يوسف ، وقد ذكر الله تعالى خبره مع يوسف وما كان من
أمرها في كتابه العزيز ، وقد آتينا على شرح ذلك في كتابنا الأوسط ، ثم ملك
بعده « دارم بن الريان » العالمق ، ثم ملك بعده « كامس بن معدان » العالمق
ثم ملك بعده « الوليد بن مصعب » وهو فرعون موسى ، وقد تنوزع فيه : فمن
الناس من رأى أنه من العالمق ، ومنهم من رأى أنه من لحم من بلاد الشام ،
ومنهم من رأى أنه من الأقباط من ولد مصر بن بيمصر ، وكان يعرف بظاما ،
وقد آتينا على ذلك في الكتاب الأوسط ، وهلك فرعون غرقا حين خرج في
طلب بنى إسرائيل حين أخرجهم موسى بن عمران وجعل الله لهم طريقا في البحر
يَبَسًا ، ولما غرق فرعون ومن كان معه من الجنود وخشى من بقى بأرض مصر
من الذراري والنساء والعبيد أن يغزوهم ملوك الشام والمغرب فملَكُوا عليهم امرأة
ذات رأى وحزم ، يقال لها « دلوكه » فبنت على بلاد مصر حائطًا يحيط بجميع
البلاد ، وجعلت عليه الحارس والأجراس والرجال متصلة أصواتهم يقرب بعضهم
من بعض ، وأثر هذا الحائط باق إلى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين
وثلاثمائة يعرف بحائط العجوز ، وقيل : إنما بنته خوفًا على ولدها ، وكان كثير

القنص ، فخافت عليه سباع البر والبحر واغتتيال من جاور أرضهم من الملوك والبدو ، فحَوَّطت الحائط من التماسيح وغيرها ، وقد قيل في ذلك من الوجوه غير ما ذكرنا ، فلكتهم ثلاثين سنة ، واتخذت بمصر البرابي والصور ، وأحكمت آلات السحر ، وجعلت في البرابي صور من يرد من كل ناحية ودوابهم إبلا كانت أم خيلا ، وصورت ما يرد في البحر من المراكب من بحر المغرب والشأم ، وجمعت في هذه البرابي العظيمة المشيدة البنيان أسرار الطبيعة وخواص الأحجار والنبات والحيوان ، من الحادية والبادية ، وجعلت ذلك في أوقات حركات فلكية ، واتصالها بالمؤثرات العلوية ، وكانوا إذا ورد إليهم جيش من نحو الحجاز واليمن عورت تلك الصورة التي في البرابي من الابل وغيرها فيتعور ما في ذلك الجيش ، وينقطع عنهم ناسه وحيوانه ، وإذا كان الجيش من نحو الشأم فعل في تلك الصور التي من تلك الجهة التي أقبل منها جيش الشأم ما فعل بما وصفنا فيحدث في ذلك الجيش من الآفات في ناسه وحيوانه ما صنع في تلك الصور التي من تلك الجهة ، وكذلك ماورد من جيوش الغرب ، وما ورد في البحر من رومية والشأم وغير ذلك من الممالك ، فهاتهم الملوك والأمم ، ومنعوا ناحيتهم من عدوهم ، واتصل ملكهم بتدبير هذه العجوز وإتقانها لزوم أقطار هذه المملكة وأحكامها السياسية ، وقد تكلم الناس فيما سلف وخلف في هذه الخواص وأسرار الطبيعة التي كانت ببلاد مصر ، وهذا الخبر من فعل العجوز عند المصريين مستفيض لا يشكُّون فيه ، والبرابي بمصر من صعيدها وغيره باقية إلى هذا الوقت ، وفيها أنواع الصور مما إذا صورت في بعض الأشياء أحدثت أفعالا على حسب ما رسمت له ووضعت من أجله ، على حسب قولهم في الطبائع التام ، والله أعلم بكيفية ذلك

قال المسعودي : وأخبرني غير واحد من بلاد أخميم من صعيد مصر ، عن أبي الفيض ذي النون بن إبراهيم المصري الاخميمي الزاهد ، وكان حكيما ، وكان له طريقة

يأتيها ونحلة يعضدها ، وكان ممن يقرأ عن أخبار هذه البرابي ودارها وامتحن كثيراً بماصور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور ، قال : رأيت في بعض البرابي كتاباً تدبرته فإذا هو « احذر العبيد الممتقين ، والأحداث المقرين ، والجند المتعبدين ، والنبط المستعربين » قال : ورأيت في بعضها كتاباً تدبرته فإذا فيه « يقدر المقدور والقضاء يضحك » وزعم أنه رأى في آخره كتابة وتبينها في ذلك القلم الأول فوجدها :

تدبرُّ بالنجوم ولست تدري وربُّ النجم يفعل ما يريد

وكانت هذه الأمة التي اتخذت هذه البرابي لهجة بالنظر في أحكام النجوم مواظبين على معرفة أسرار الطبيعة ، وكان عندها مما دلت عليه أحكام النجوم أن طوفانا سيكون في الأرض ، ولم يقطع بأن ذلك الطوفان ماهو أنارٌ تأتي على الأرض فتحرق ما عليها ، أو ماء فيغرقها ، أو سيف يبيد أهلها ؟ فخافت دثور العلوم وفناءها بفناء أهلها ، فاتخذت هذه البرابي ، واحدها بربي ، ورسمت فيها علومها من الصور والتماثيل والكتابة ، وجعلت بنينها نوعين : طينا ، وحجرا ، وفرزت مايني بالطين مما يبنى بالحجر ، وقالت : إن كان هذا الطوفان نارا استحجر مايني من الطين وانحرق ، وبقيت هذه العلوم ، وإن كان الطوفان الوارد ماء أذهب مايني بالطين ويبقى مايني بالحجارة ، وإن كان الطوفان سيفاً بقي كلا النوعين ماهو بالطين وما هو بالحجر ، وهذا ما قيل والله أعلم كان قبل الطوفان ، وإن الطوفان الذي كانوا يرقبونه لم يعينوه أنار هو أم ماء أم سيف ، وكان سيفاً أتى على جميع أهل مصر من أمة غشياً وملك ينزل عليها فأباد أهلها ، ومصدق ذلك ما يوجد ببلاد تنيس من التلال المنضدة من الناس من صغير وكبير ، وذكر وأنثى ، كالجبال العظام ، وهى المعروفة ببلاد تنيس من أرض مصر ذوات الكوم ، وما يوجد ببلاد مصر وصعيدها من الناس المنكسين بعضهم على بعض في كهوف وغيرانٍ ونواويس ، ومواقع كثيرة من الأرض لا يدري من أى الأمم هم ، فلا

النصارى تخبر عنهم أنهم من أسلافهم ، ولا اليهود تقول عنهم إنهم من أوائلهم ، ولا المسلمون يدرون من هم ، ولا تاريخ ينبئ عن حالهم ، عليهم أثوابهم ، وكثيراً ما يوجد في تلك الروابي والجبال من حلبيهم ، والبرابي ببلاد مصر بنيان قائم عجيب : كالبربا المتخذة بأنصاء من صعيد مصر ، وهو أحد الموصوفين منها ، والبربا التي ببلاد أخميم ، والبربا التي ببلاد سمنود ، وغير ذلك ، والأهرام وطولها عظيم ، وبنائها عجيب ، عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم الساقفة ، والممالك الدائرة ، لا يدري ما تلك الكتابة ولما المراد بها ، وقد قال من عني بتقدير ذرعها : إن مقدار ارتفاع ذهابها في الجوانح من أربع مائة ذراع ، أو أكثر ، وكلما علا به الصعداء دق ذلك ، والغرض مما وصفنا عليها من الرسوم ما ذكرنا ، وإن ذلك علوم وخواص وسحر وأسرار للطبيعة ، وإن من تلك الكتابة مكتوب : إنا بنيناها فمن يدعى موازتنا في الملك وبلوغنا في القدرة وانتهاءنا من السلطان فليهدمها ، وليلز رسمها ؛ فإن الهدم أيسر من البناء ، والتفريق أيسر من التأليف ، وقد ذكر أن بعض ملوك الإسلام شرع في هدم بعضها فإذا خراج مصر وغيرها لا يفي بقلعها ، وهى من الحجر والرخام ، والغرض في كتابنا هذا الإخبار عن جمل الأشياء وجوامعها ، لأعن تفصيلها وبسطها ، وقد أتينا على سائر ما شاهدناه حساً في مطافات الأرض والممالك ، وما نمتي إلينا خبراً من الخواص وأسرار الحيوان والنبات والجماد في عجائب البلدان والآثار والبقاع ، في كتابنا المترجم بكتاب « القضايا والتجارب »

ولا تمنع بين ذوى الفهم أن في مواضع من الأرض مدنا وقرى لا يدخلها عقرب ولا حية ، مثل مدينة حمص ومعرّة وبُصْرَى وأنطاكية ، وقد كان ببلاد أنطاكية ، إذا أخرج إنسان يده خارج السور وقع عليه البق ، فإذا جذبها إلى داخل لم يبق على يده من ذلك شيء ، إلى أن كسر عمود من الرخام في بعض المواضع بها ، فأصيب في أعلاه حق من نحاس في داخله بق

مصور من نحاس نحو كف ، فما مضت أيام أو على الفور من ذلك حتى صار
البقي في وقتنا هذا يعم الأكر من دورهم ، وهذا حجر المغناطيس يجذب الحديد ،
ولقد رأيت بمصر حية مصورة من حديد أو نحاس توضع على شيء ويذني منها
حجر المغناطيس فيحدث فيها حركة تباعد منه ، وحجر المغناطيس إذا
أصابته رائحة الثوم بطل فعله في الحديد ، وإذا غسل بشيء من الخل أو ناله
شيء من غسل النحل عاد إلى فعله الأول من جذب الحديد ،
وللمغناطيس في الحديد خواص عجيبة غير ما ذكرنا كاللحجر الماص للدم ، والله
عز وجل قد استأثر بعلم الأشياء ، وأظهر للعباد ما شاء مما لهم فيه الصلاح
على قدر الوقت وحاجتهم فيه إليه ، وأشياء استأثر بعلمها لم يظهرها
خلقه ، فلا تقف العقول على كنهها ، وكما يجمع بين أشياء فيحدث لاجتماعها
معنى هو غيرها ؛ كما يحدث من ماء العفص والزاج عند الاجتماع من شدة
السواد ، وكحدوث جوهر الزجاج عند جمعنا بين الرمل والمغنيسيا والقليل عند الطبخ
والسبك لذلك ، وكذلك لو جمع بين ماء القلي وماء المرتك وهو المرداسنج
خرج الحادث من مزاجيهما كالزبد بياضا ، وإذا مزج ماء القلي بماء الزاج خرج
من مزاجيهما لون أحمر كالصفر ، وكجمعنا في النتائج بين الفرس الأثني والحمار
فتحدث بغلا ، ولو نتج دابة على أتان لخرج منها بغل أفطس ذو خبث ودهاء
يسمى الكودن ، وقد ذكرنا النتائج الذي كان بصعيد مصر مما يلي الحبشة ،
وما كان ينتج من الثيران على الأتني ، والحخير على البقر ، وما كان يحدث من ذلك
من الدواب العجيبة التي ليست بحمير ولا بقر كالبعغل الذي ليس بدابة ولا حمار ،
وقد ضربنا ضروب التوليدات في أنواع الحيوان والنبات من تطعيمهم الفروس
والأشجار وما تولد من الطعوم في المذاق في كتابنا المترجم بكتاب « القضايا
والتجارب » في أنواع الفلاحات وغيرها ، وذكرنا باب خواص الأشياء ومعرفتها
والطلسمات وعجائبها ، وهو باب كبير في ذكر بعضه نيابة عن بعض ، والجزء

منه يوهمك الكل ، واليسير منه يدلك على الكثير ؛ ويمكن - والله أعلم - أن تكون هذه الخواص والطلسمات والأشياء المحدثه في العالم للحركات مما وصفنا والدافعة والمانعة والمنفردة والجاذبة والفاعلة في الحيوان وغير ذلك مثل الطرد والجذب كانت دلالة لبعض الأنبياء في الأمم الخالية جعلها الله كذلك لذلك النبي دلالة ومعجزة تدل على صدقه وتنبئه من غيره ليؤدى عن الله أمره ونهيه وما فيه من الصلاح لخلقهم في ذلك الوقت ، ثم رفع الله ذلك الشيء ، وبقيت علومه ، وما أبانه الله عز وجل مما ذكرنا ؛ في أيدي الناس ، وأصل ذلك إلهي كما وصفنا إذ كان ما ذكرنا ممكنا غير واجب ولا ممتنع في القدرة

قال المسعودي : فلنرجع إلى ما كنا فيه من أخبار ملوك مصر ، وكان الملك بعد انقضاء ملك دلوكة العجوز « دركوش بن ملوطش » ثم ملك بعده « نورش بن دركوش » ثم ملك بعده « لعس بن نورش » نحو من خمسين سنة ، ثم ملك بعده « دسا بن نورش » نحو من عشرين سنة ، ثم ملك بعده ابنه « ملوطش » عشرين سنة ، ثم ملك بعده « مكاكيل » وكانت له حروب ومسير في الأرض ، وهو فرعون الأعرج الذي غزا بني إسرائيل وخرب بيت القدس ، ثم ملك بعده « مرينوس » وكانت له حروب كثيرة بالمغرب ، ثم ملك بعده « نفاس ابن مرينوس » ثمانين سنة ، ثم ملك بعده « قومس بن نفاس » عشرين سنة ، ثم ملك بعده « كاميل » وكانت له حروب مع ملوك المغرب ، وغزاه البخت ناصر مرزبان المغرب من قبل ملوك فارس ؛ فخرّب أرضه وقتل رجاله وسار البخت ناصر نحو المغرب ، وقد أتينا على أخباره في كتاب « راحة الأرواح » لأن هذا الكتاب رسمناه بأخبار مسير الملوك للأرض ، وأخبار مقاتلتهم ، دون ما ذكرنا في كتابنا في « أخبار الزمان » ولما زال أمر البخت ناصر ومن معه من جنود فارس مبدأ النصرانية ملكت الروم مصر ، وغلبت عليها ، فتنصر أهلها فلم يزالوا على ذلك إلى أن

ملك كسرى أنوشروان ، فغلبت جيوشه على الشام ، وسارت نحو مصر ، فملكوها ، وغلبوا على أهلها ، نحواً من عشرين سنة ، وكانت بين الروم وفارس حروب كثيرة ، فكان أهل مصر يؤدون خراجين : خراجاً إلى فارس ، وخراجاً إلى الروم ، عن بلادهم ، ثم انجأت فارس عن مصر والشام لأمر حدث في دار مملكتهم ، فغلب الروم على مصر والشام ، وأشهروا النصرانية ، فشمّل ذلك من بالشام ومصر إلى أن أتى الله بالاسلام ، وكان من أمر المقوقس صاحب القبط مع النبي صلى الله عليه وسلم من الهدايا ما كان إلى أن افتتحها عمرو بن العاص ، ومن كان معه في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فبنى عمرو بن العاص القسطنطينية ، وهو قصبة مصر في هذا الوقت ، وكان ملك مصر — وهو المقوقس صاحب القبط — ينزل الإسكندرية في بعض فصول السنة ، وفي بعضها مدينة منف ، وفي بعضها قصر الشمع ، وهو اليوم يعرف بهذا الاسم في وسط مدينة القسطنطينية ، ولعمرو بن العاص في فتح مصر أخبار ، وما كان بينه وبين المقوقس وفتح قصر الشمع ، وغير ذلك من أخبار مصر والإسكندرية ، وما كان من حروب المسلمين في ذلك ، ودخول عمرو بن العاص إلى مصر والإسكندرية في الجاهلية ، وما كان من خبره مع الراهب والكثرة الذهب التي كانوا يظهرونها للناس في أعيادهم ، ووقوعها في حجر عمرو بن العاص ، وذلك قبل ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، قد أتينا على جميع ذلك في كتابنا في « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط

قال المسعودي : والذي اتفقت عليه أهل التواريخ — مع تباين ما فيها — أن عدة ملوك مصر من الفراعنة وغيرها اثنان وثلاثون فرعوناً ، ومن ملوك بابل من ملوك على مصر خمسة ، ومن ملوك بابل — وهم العماليق الذين ظهروا إليها من بلاد الشام — أربعة ، ومن الروم سبعة ، ومن اليونانيين عشرة ، وذلك قبل ظهور السيد المسيح عليه السلام ، وملكها أناس من الفرس من قبل الأكاسرة ، وكان

إحصاء
بملوك مصر
ومدة ملكهم

مدة من ملك مصر من الفراعنة والروم والعاليق واليونانيين ألف سنة وثلثائة
لألف سنة

قال المسعودي : وسألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد وغيره من بلاد مصر
من أهل الخبرة عن تفسير فرعون ، فلم يخبروني عن معنى ذلك ، ولا تحصل لي في
لغتهم ، فيمكن - والله أعلم - أن هذا الاسم كان سمة لملوك تلك الأعصار ، وأن
تلك اللغة تغيرت كتغير الفهلوية ، وهي الفارسية الأولى ، إلى الفارسية الثانية ،
وكاليونانية إلى الرومية ، وتغير الحيرية ، وغير ذلك من اللغات

ولمصر أخبار عجيبة من الدقائق وما يوجد من الدفائن من ذخائر الملوك التي
استودعها الأرض وغيرهم من الأمم من سكن تلك الأرض وتدعى بالمطالب
إلى هذه الغاية قد أتينا على جميع ذلك فيما سلف من كتبنا ؛ فمن جميع أخبارها
ما ذكره يحيى بن بكير ، قال : كان عبد العزيز بن مروان عاملا على مصر لأخيه
عبد الملك بن مروان ، فأتاه رجل متنصح ، فسأله عن نصحه ، فقال : بالقبة
الفلانية كنز عظيم ، قال عبد العزيز : وما مصداق ذلك ؟ قال : هو أن يظهر لنا
بلاط من المرمر والرخام عند يسير من الحفر ، ثم ينتهي بنا الحفر إلى قلع باب من
الصفير ، تحته عمود من الذهب ، على أعلاه ديك عيناه ياقوتتان تساويان ملك
الدنيا ، وجناحاه مضرجان بالياقوت والزمر ، على رأسه صفائح من الذهب ، على
أعلى ذلك العمود ، فأمر له عبد العزيز بنفقة ألوف من الدنانير لأجرة من يحفر
من الرجال في ذلك ويعمل فيه ، وكان هنالك تل عظيم ، فاحتفروا حفرة عظيمة
في الأرض ، والدلائل المقدم ذكرها من الرخام والمرمر تظهر ، فازداد عبد العزيز
حرصا على ذلك ، وأوسع في النفقة ، وأكثر من الرجال ، ثم انتهوا في حفرهم
إلى ظهور رأس الديك ، فبرق عند ظهوره لمعان عظيم كالبرق الخاطف لما في عينيه
من الياقوت وشدة نوره ولمعان ضيائه ، ثم بانت قوائمه ، وظهر حول العمود عمود
من البنين بأنواع من الأحجار والرخام ، وقناطر مقنطرة ، وطاقات على أبوابه

بعض عجائب
وأخبار مصر

معتودة ، ولاحت منها تماثيل وصور أشخاص من أنواع الصور والذهب وأجربة من الأحجار قد أطبقت عليها أغطيها وسبكت وقيد ذلك بأعمدة الذهب ، فركب عبد العزيز بن مروان حتى أشرف على الموضع ، فنظر إلى ماظهر من ذلك فأسرع بعضهم فوضع قدمه على درجة منسبكة من نحاس تنتهى إلى ما هنالك ، فلما استقرت قدمه على المرقاة الرابعة ظهر سيفان عظيمان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها ، فالتفتا على الرجل ، فلم يدرك حتى جزأه قطعا وهوى جسمه سفلا ، فلما استقر جسمه على بعض الدرج اهتز العمود وصفر الديك تصفيرا عجيبا سمعه من كان بالبعد من هنالك ، وحرك جناحيه فظهرت من تحته أصوات عجيبة ، قد عملت بالكواكب والحركات ، إذا ما وقع على بعض تلك الدرج شئ أو ماسها تهافت من هنالك من الرجال إلى أسفل تلك الحفيرة ، وكان فيها من يحفر ويعمل وينقل التراب ويبصر ويتحرك ويأمر وينهى نحو ألف رجل ، فهلكوا جميعا ، فخرج عبد العزيز ، وقال : هذا ردم عجيب الأمر ممنوع النيل نعوذ بالله منه ، وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هناك من التراب على من هلك من الناس فكان الموضع قبرا لهم

قال المسعودى : وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ، ومن قد أغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر ؛ وقع إليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام المقدم ذكرها ، بأن فيه مطلبا عجيبا ، فأخبروا الإخشيد محمد بن طعيج بذلك ، فأذن لهم فى حفره ، وأباحهم استعمال الحيلة فى إخراجها ، فحفروا حفرا عظيما إلى أن انتهوا إلى أرج وأقباء وحجارة مخوفة فى صخر منقور فيه تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب قد طليت بالأطلية المانعة من سرعة البلى وتفرق الأجزاء ، والصور مختلفة : منها صورة شيوخ وشبان ونساء وأطفال أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والفيروزج والزبرجد ، ومنها

ما وجوها ذهب وفضة ، فكسروا بعض تلك التماثيل ، فوجدوا في أجوافها رما
بالية ، وأجساما فانية ، وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الأبنية كالبرابي وغيرها
من الآلات من المرمر والرخام ، وفيه نوع من الطلاء الذى قد طلى منه ذلك الميت
الموضوع فى تمثال الخشب ، وما بقى من الطلاء متروك فى ذلك الاناء ، والطلاء
دواء مسحوق وأخلط معمولة لاراحة لها ، فجعل منه على النار ، ففاح منه روائح
طيبة مختلفة لاتعرف فى نوع من الأنواع التى للطيب ، وقد جعل كل تمثال من
الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير أعمارهم
وتباين صورهم ، وبازاء كل تمثال من تلك التماثيل تمثال من الحجر المرمر أو من
الرخام الأخضر على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل والصور ، عليها أنواع
من الكتابات لم يقف على استخراجها أحدهم من أهل الملك ، وزعم قوم من ذوى
الدراية منهم أن لذلك القلم من حين فقدم الأرض - أعنى أرض مصر - أربعة
آلاف سنة ، وفيما ذكرناه دلالة على أن هؤلاء ليسوا بيهود ولا بنصارى ،
ولم يؤدhem الحفر إلا إلى ما ذكرناه من هذه التماثيل ، وكان ذلك فى سنة ثمان
وعشرين وثلثمائة

وقد كان لمن سلف وخلف من ولاية مصر إلى أحمد بن طولون وغيره إلى هذا
الوقت - وهو سنة اثنتين وثلثين وثلثمائة - أخبار عجيبة فيما استخرج فى أيامهم
من الدفائن والأموال والجوهر ، وما أصيب فى هذه المطالب من القبور والخزائن
وقد أتينا على ذكرها فيما تقدم من تصنيفنا وبالله التوفيق

ذكر الاسكندرية وبنائها وملوكها وعجائبها

وما ألحق بهذا الباب

ذكر جماعة من أهل العلم أن الاسكندر المقدوني لما استقام ملكه في بلاده سار يختار أرضاً صحيحة الهواء والتربة والماء ، حتى انتهى إلى موضع الاسكندرية فأصاب فيها أثر بنيان وعمدًا كثيرة من الرخام ، وفي وسطها عمود عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند - وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد - أنا شداد بن عاد بن شداد ابن عاد ، شددت بساعدى البلاد ، وقطعت عظيم العماد ، من الجبال والأطواد ، وأنا بنيت إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلاً في البلاد ، أردت أن أبني ههنا كإرم ، وأثقل إليها كل ذى إقدام وكرم ، من جميع العشائر والأمم ، وذلك إذ لا خوف ولا هرم ، ولا اهتمام ولا سقم ، فأصابني ما أعجبنى ، وعما أردت قطعني ، ومع وقوعه طال همي وشجني ، وقل نومي وسكني ، فارتحلت بالأمس عن داري لا تقهر ملك جبار ، ولا لخوف جيش جرار ، ولا عن رغبة ولا عن صغار ، لكن تمام المقدار ، وانقطاع الآثار ، وسلطان العزيز الجبار ، فمن رأى أثرى ، وعرف خبرى ، وطول عمرى ، ونفاذ بصرى ، وشدة حذرى ، فلا يغير بالدنيا بعدى ، فإنها غرارة تأخذ منك ما تعطى ، وتسترجع ما تولى ، وكلام كثير يرى فناء الدنيا ويمنع من الاغترار بها والسكون إليها ، ونزل الاسكندر يتدبر هذا الكلام ويعتبره ، ثم بعث فحشر الصناعات من البلاد وخط الأساس ، وجعل طولها وعرضها أميالاً ، وحشد إليها العمود والرخام ، وأتته المراكب فيها أنواع الرخام ، وأنواع المرمر والأحجار ، من جزيرة صقلية وبلاد إفريقية وإقريطش وأقصى بحر الروم مما يلي مصبه بحر أوقيانوس ، وحمل إليه أيضاً من جزيرة رودس وهى جزيرة مقابلة للاسكندرية على ليلة منها في البحر ، وهى أول بلاد الافرنجة وهذه الجزيرة فى وقتنا هذا - وهوسنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة - دار صناعة الروم

مناء
الاسكندرية

وبها تنشأ المراكب الحربية ، وفيها خلق كثير من الروم ، ومراكبهم تطرق بلاد الاسكندرية وغيرها من بلاد مصر ؛ فتغير وتأسر وتسبي ، وأمر الاسكندر الفعلة والصناع أن يدوروا بما رسم لهم من أساس سور المدينة ، وجعل على كل قطعة من الأرض خشبة قائمة ، وجعل من الخشبة إلى الخشبة حبالا منوطة بعضها ببعض ، وأوصل جميع ذلك بعمود من الرخام ، وكان أمام مضربه ، وعلق على العمود جرسا عظيما مصوتا ، وأمر الناس والقوام على البنائين والفعلة والصناع أنهم إذا سمعوا صوت ذلك الجرس وتحركت الحبال وقد علق على كل قطعة منها جرسا صغيرا على أن يضعوا أساس المدينة دفعة واحدة من سائر أقطارها ، وأحب الاسكندر أن يجعل ذلك في وقت يختاره ذى طالع سعيد ، فخفق الاسكندر برأسه وأخذته سنة في حال ارتقابه الوقت المحمود المأخوذ فيه الطالع ، فجاء غراب فجلس على حبل الجرس الكبير الذى فوق العمود فخركه ، وخرج صوت الجرس وتحركت الحبال ، وخفقت ما عليها من الأجراس الصغار ، وكان ذلك معمولا بحركات فلسفية ، وحيل حكيمية ، فلما رأى الصناع تحرك تلك الحبال وسمعوا تلك الأصوات وضعوا الأساس دفعة واحدة ، وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس ، قاستيقظ الاسكندر من رقدته وسأل عن الخبر ، فأخبر بذلك ، فعجب ، وقال : أردت أمرا وأراد الله غيره ، ويأبى الله إلا ما يريد ، أردت طول بقائها ، وأراد الله سرعة فناءها وخرابها وتداول الملوك إياها ، وإن الاسكندر لما أحكم بنيانها وأثبت أساسها وجن الليل عليهم خرجت دواب من البحر فأتت على جميع ذلك البنيان ، فقال الاسكندر حين أصبح : هذا بدء الخراب فى عمارتها ، وتحقق مراد البارى فى زوالها ، وتطير من فعل الدواب ، فلم يزل البناء يبنى فى كل يوم ويحكم ، ويوكل به من يمنع الدواب إذا خرجت من البحر ، فيصيحون وقد خرب البنيان ، فقلق الاسكندر لذلك ، وراعه مارأى ، فأقبل يفكر ما الذى يصنع ، وأى حيلة يوقع فى دفع الأذية عن المدينة ، فسنحت له الحيلة فى ليلته

عند خلوته بنفسه وإيراده الأمور وإصدارها ، فلما أصبح دعا بالصناع فأتخذوا له تابوتا من الخشب طوله عشرة أذرع في عرض خمس ، وجعلت فيه جامات من الزجاج قد أحاط بها خشب التابوت باستدارتها ، وقد أمسك ذلك بالقار والزفت وغيره من الأطلية الدافعة للماء ، حذرا من دخول الماء إلى التابوت ، وقد جعل فيها مواضع للحيال ودخل الإسكندر في التابوت والرجلان معه من كتبه ممن له علم باتقان التصوير ومبالغة فيه ، وأمر أن تسد عليهم الأبواب ، وأن يطلّى بما ذكرنا من الأطلية ، وأمر فأتى بمركبين عظيمين ، فأخرجا إلى لجة البحر ، وعلق على التابوت من أسفله مثقلات الرصاص والحديد والحجارة تهوى بالتابوت سفلا ؛ إذ كان من شأنه لما فيه من الهواء أن يطفو فوق الماء ولا يرسب في سفله ، وجعل التابوت إلى المركبين ، وطول حباله ، ففاض التابوت حتى انتهى إلى قرار البحر ، فنظروا إلى دواب البحر وحيوانه من ذلك الزجاج الشفاف في صفاء ماء البحر فاذا هم بشياطين على مثال الناس : رءوسهم على مثال رءوس السباع ، وفي أيدي بعضهم القووس ، وفي أيدي بعض المناشير والمقارع ، يحاكون بذلك صنائع المدينة والفعلة وما في أيديهم من آلات البناء ، فأثبتت الاسكندر ومن معه تلك الصور وأحكموها بالتصوير في القراطيس ، على اختلاف أنواعها وتشوه خلقتهم وقدودهم وأشكالهم ، ثم حرك الحبال ، فلما أحس بذلك من في المركبين جذبوا الحبال وأخرجوا التابوت ، فلما خرج الإسكندر من التابوت وساروا إلى مدينة الاسكندرية أمر صنّاع الحديد والنحاس والحجارة فعملوا تماثيل تلك الدواب على ما كان صورته الاسكندر وصاحبائه ، فلما فرغوا منها وضعت على العمدة بشاطيء البحر ، ثم أمرهم فبنوا ، فلما جن الليل ظهرت تلك الدواب والآفات من البحر ، فنظرت إلى صورها على العمدة مقابلة إلى البحر ، فرجعت إلى البحر ولم تعد بعد ذلك ، ثم لما بنيت الاسكندرية وشيدت أمر الاسكندر أن يكتب على أبوابها « هذه الاسكندرية أردت أن أبنيتها على الفلاح والنجاح واليمن والسعادة والسرور والثبات في الدهور ،

ولم يرد البارى عز وجل ملك السموات والأرض ومفنى الأمم أن نبنيها كذلك ،
فبنيتها ، وأحكمت بنيانها ، وشيدت سورها ، وآتاني الله من كل شىء علما وحكما ،
وسهل لى وجوه الأسباب ، فلم يتعذر على فى العالم شىء مما أردته ، ولا امتنع عنى
شىء مما طلبته ، لطفًا من الله عز وجل ، وصنعابى ، وصلاحي ولعباده من أهل
عصرى ، والحمد لله رب العالمين ، لا إله إلا الله رب كل شىء » ورسم الاسكندر
بعد هذه الكتابة كل ما يحدث ببلده من الأحداث بعده فى مستقبل الزمان : من
الآفات ، والعمران ، والخراب ، وما يؤول إليه إلى وقت دثور العالم ، وكان بناء
الاسكندرية طبقات ، وتحتها قناطر مقنطرة ، كما تدور المدينة ، يسير تحتها الفارس
وييده رمح لا يضيق به حتى يدور جميع تلك الأزاج والقناطر التى تحت المدينة ،
وقد عمل لتلك العقود والأزاج مخاريق ، وتنفسات للضياء ، ومنافذ للهواء ، وقد
كانت الاسكندرية تضىء بالليل بغير مصباح ؛ لشدة بياض الرخام والمرمر ،
وأسواقها وشوارعها وأزقتها مقنطرة بها لئلا يصيب أهلها شىء من المطر ، وقد كان
عليها سبعة أسوار من أنواع الحجارة المختلفة ألوانها ، بينها خنادق ، وبين كل
خندق وسور فصول ، وربما علق على المدينة شقاق الحرير الأخضر لاختطاف
بياض الرخام أبصار الناس لشدة بياضه .

فلما أحكم بناؤها ، وسكنها أهلها ، كانت آفات البحر وسكانه - على ما زعم
الأخباريون من المصريين والاسكندريين - تختطف بالليل أهل المدينة ؛
فيصبحون وقد فقد منهم العدد الكثير

ولما علم الاسكندر بذلك اتخذ الطلسمات على أعمدة هناك تدعى المسال ،
وهى باقية إلى هذه الغاية ، كل واحد من هذه الأعمدة على هيئة السروة ، وطول
كل واحد منها ثمانون ذراعا ، على عمد من نحاس ، وجعل تحتها صورا وأشكالاً
وكتابة ، وذلك عند انخفاض درجة من درج الفلك وقربها من هذا العالم ،
وعند أصحاب الطلسمات المنجمين والفلكيين أنه إذا ارتفع من الملك درجة

وانخفض أخرى في مدة يذكرونها من السنين نحو ستمائة سنة تأتي في هذا العالم فعل الطلسمات النافعة المانعة والدافعة ، وقد ذكر هذا جماعة من أصحاب الزيجاب والنجوم وغيرهم من مصنفى الكتب في هذا المعنى ، ولهم في ذلك سر من أسرار الفلك ليس كتابنا هذا موضعا له ، ولغيرهم من ذهب إلى أن ذلك للطف قوى الطبائع التام وغير ذلك مما قاله الناس ، وما ذكرنا من درج الفلك فوجود في كتب من تأخر من علماء المنجمين والفلكيين ؛ كأبى معشر البلخى ، والخوازمى ، ومحمد بن كثير الفرغانى ، وما شاء الله وحسن ، واليزيدى ، ومحمد ابن جابر البتاني في زيجه السدير ، وثابت بن قرة ، وغير هؤلاء من تكلم في علوم هيات الفلك والنجوم

منارة
الاسكندرية

قال المسعودى : فأما منارة الاسكندرية فذهب الأكثر من المصريين والاسكندرانيين - ممن عني بأخبار بلدهم - إلى أن الاسكندر بن فيلبش المقدونى هو الذى بناها على حسب ما قدمنا فى بناء المدينة ، ومنهم من رأى أن دلوكة الملكة هى التى بنتها ، وجعلتها مرقبا لمن يرد من العدو إلى بلدهم ، ومنهم من رأى أن العاشر من فراعنة مصر هو الذى بناها ، وقد قدمنا ذكر هذا الملك فيما سلف من هذا الكتاب ، ومنهم من رأى أن الذى بنى مدينة رومية هو الذى بنى مدينة الإسكندرية ومنارتها والأهرام بمصر ، وإنما أضيفت الإسكندرية إلى الاسكندر لشهرته بالاستيلاء على الأكثر من ممالك العالم فشهرت به ، وذكروا فى ذلك أخبارا كثيرة ، يدلون بها على ما قالوا ، والاسكندر لم يطرقه فى هذا البحر عدو ، ولا هاب ملوكا يرد إليه فى بلده ويفزوه فى داره فيكون هو الذى جعلها مرقبا ، وإن الذى بناها جعلها على كرسى من الزجاج على هيئة السرطان فى جوف البحر ، وعلى طرف اللسان الذى هو داخل فى البحر من البر ، وجعل على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره ، فيها تمثال قد أشار بسبابته من يده نحو الشمس أينما كانت من الفلك ، وإذا علت فى الفلك فأصبغه مشيرة نحوها ،

فاذا انخفضت انخفضت يده سفلا ، يدور معها حيث دارت ، ومنها تمثال يشير بيده إلى البحر إذا صار العدو منه على نحو من ليلة ، فاذا دنا وجاز أن يرى بالبصر لقرب المسافة سمع لذلك التمثال صوت هائل يسمع من ميلين أو ثلاثة ، فيعلم أهل المدينة أن العدو قد دنا منهم ، ويرمقونه بأبصارهم ، ومنها تمثال كلما مضى من الليل والنهار ساعة سمعوا له صوتا بخلاف ماصوت في الساعة التي قبلها ، وصوته مطرب ، وقد كان ملك الروم في مدة الوليد بن عبد الملك بن مروان أخذ خادما من خواص خدمه ذا رأى ودهاء ، وجاء مستأمنا إلى بعض الثغور ، فوردبالة حسنة ، ومعه جماعة ، فجاء إلى الوليد فأخبره أنه من خواص الملك ، وأنه أراد قتله بموجدة وحال بلغته عنه لم يكن لها أصل ، وأنه استوحش منه ، ورغب في الاسلام ، فأسلم على يد الوليد ، وتقرب من قلبه ، وتنصح إليه في دفائن استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من الشام بكتب كانت معه فيها صفات تلك الدفائن ، فلما رأى الوليد تلك الأموال والجواهر شرهت نفسه ، واستحكم طمعه ، فقال له الخادم : يا أمير المؤمنين ، إن ههنا أموالا وجواهر ودفائن للملوك ، فسأله الوليد عن الخبر ، فقال : تحت منارة الاسكندرية أموال الأرض ، وذلك أن الاسكندر احتوى على الأموال والجواهر التي كانت لشداد بن عاد وملوك العرب بمصر والشام ، فبنى بها الآزاج تحت الأرض ، وقنطرها الأقباء والقناطر والسراديب ، وأودعها تلك الذخائر من العين والورق والجواهر ، وبنى فوق ذلك هذه المنارة ، وكان طولها في الهواء ألف ذراع ، والمرآة على علوها ، والديادة جلوس حولها ، فاذا نظروا إلى العدو في البحر في ضوء تلك المرآة ، صوتوا بمن قرب منهم ، ونصبوا ونشروا أعلاما فيراها من بعد منهم فيحذر الناس ، وينذر البلد ، فلا يكون للعدو عليهم سبيل ، فبعث الوليد مع الخادم بجيش وأناس من ثقاته وخواصه فهدم نصف المنارة من أعلاها ، وأزيلت المرآة ، فضج الناس من أهل الاسكندرية وغيرها ، وعلموا أنها مكيدة وحيلة في أمرها ، ولما علم الخادم استفاضة ذلك ، وأنه سينمى إلى الوليد ، وأنه قد بلغ ما يحتاج إليه هرب في الليل في

مركب كان قد أعدده ، وواطأ قوما على ذلك من أمره ، فتمت حيلته ، وبقيت المنارة على ما ذكرنا فى هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - وكان حوالى منارة الإسكندرية فى البحر مغاص يخرج منه قطع من الجواهر تتخذ منه فصوص للخواتم أنواعا من الجواهر : منه الكركهن والادرك وأشباد جشم ، ويقال : إن ذلك من الآلات التى كان اتخذها الاسكندر للشراب ، فلما مات كسرتها أمه ورمت بها فى تلك المواضع من البحر ؛ ومنهم من رأى أن الاسكندر اتخذ ذلك النوع من الجواهر وغرقه حول المنارة لكيلا يخلو من الناس حولها لأن من شأن الجواهر أن يكون مطلوبا أبدا فى كل عصر فى معدنه ، براكان أو بحرا ، فيكون الموضع على دوام الأوقات بالناس معمورا ، والأكثر مما يستخرج من الجواهر حول منارة الاسكندرية الأشبادجشم ، وقد رأيت كثيرا من أصحاب التلويحات ومن غنى بأعمال الجواهر المشبهة بالمعدنية يعمل هذه الجواهر المعروفة بالأشبادجشم ويتخذ منه النصول وغيرها ، وكذلك الفصوص المعروفة بالباقلهون وهى ترى ألوانا مختلفة من حمرة وصفرة تتلون فى المنظر ألوانا مختلفة على حسب ما قدمنا ، والتلون من ذلك على حسب الجواهر فى صفائه واختلاف نظر البصر فى إدراكه ، وتلون هذا النوع من الجواهر - أعنى الباقلهون - نحو تلون ريش صدور الطواويس فإنها تتلون ألوانا مختلفة أذناها وأجنحتها ، أعنى الذكور دون الإناث ، وقد رأيت منها بأرض الهند ألوانا تظهر بحس البصر عند تأملها لاتدرك ولا تحصى ، ولا تشبه بلون من الألوان ، لما يترأى من تموج الألوان فى ريشها ، ويتأتى ذلك منها لعظم خلقها وكبر أجسامها وسعة ريشها ؛ لأن للطواويس بأرض الهند شأنا عجيبا ، والذى يحمل منها إلى أرض الإسلام ويخرج عن أرض الهند فيبيض ويفرخ تكون صغيرة الأجسام ، كدرة الألوان لاتخطف أنوار الأبصار بادراكها وإنما تشبه بالهندية بالشبه اليسير ، هذا فى الذكور منها دون الإناث ، وذلك نحو النارنج والأترج المدور ، حمل من أرض الهند إلى أرض غيرها بعد الثلثمائة ، فزرع بعمان ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام ، حتى كثر فى دور الناس بطرسوس وغيرها

الطواويس

من الثغور الشامية وأنطاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر ، وما كان يعبد ولا يعرف ، فعدمت منه الروائع الخيرية الطيبة ، واللون الحسن الذى يوجد فيه بأرض الهند ؛ لعدم ذلك الهواء والتربة والماء وخاصة البلد

ويقال : إن هذه المنارة إنما جعلت المرأة فى أعلاها لأن ملوك الروم بعد الاسكندر كانت تحارب ملوك مصر على الاسكندرية ، فجعل من كان بالاسكندرية من الملوك تلك المرأة ترى من يرد فى البحر من عدوهم إلا أن من يدخلها يتيه فيها إلا أن يكون عارفا بالدخول والخروج فيها لكثرة بيوتها وطبقاتها ومما رقبها ، وقد ذكر أن المغاربة حين وافوا فى خلافة المقتدر فى جيش صاحب المغرب ودخل جماعة منهم على خيولهم إلى المنارة فتأهوا فيها ، وفيها طرق تؤول إلى مهاو تهوى إلى السرطان الزجاج ، وفيها مخارق إلى البحر فتتهوؤوا بدوابهم وقد منهم عدد كثير ، وعلم بهم بعد ذلك ، وقيل : إن تهوؤهم كان فى كرسى بها قدامها ، وفيها مسجد فى هذا الوقت يربط فيه متطوعة المصريين وغيرهم

ولبلاد مصر والاسكندرية وبلاد الأندلس ورومية وما فى الشرق واليمن والمغرب أخبار كثيرة فى عجائب البلدان والأبنية والآثار وخواص البقاع وما يؤثر فى ساكنيها وقطانها أعرضنا عن ذكرها ، إذ كنا قد أتينا على الأخبار منها فيما سلف من كتبنا من عجائب العالم من دوابه وبره وبحره ، فأغنى ذلك عن إعادة ذكره ، ولم نتعرض فيما سلف من هذا الكتاب لذكر بيوت النيران والهياكل المعظمة والبيوت المشرفة وغير ذلك مما يليق بمعناها ، بل نذكرها فى الموضع المستحق بها من هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالى

ذكر السودان وأنسابهم واختلاف أجناسهم وأنواعهم

وتباينهم في ديارهم ، وأخبار ملوكهم

قال المسعودي : لما تفرق ولد نوح في الأرض سار ولد كوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر ، ثم افترقوا فسات منهم طائفة ميمنة بين المشرق والمغرب وهم النوبة والبجة والزنج ، وسار فريق منهم نحو المغرب وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة والغافو ومرتك وكوكو والحمي وغانة وغير ذلك من أنواع الأحابش والدمادم ، ثم افترق الذين مضوا بين المشرق والمغرب ؛ فصارت الزنج من المكين والمسكون وبربرا وغيرهم من أنواع الزنج ، وقد قدمنا فيما سلف عند ذكرنا للبحر الحبشي ، والخليج البربري وما عليه من أنواع السودان واتصلهم في ديارهم إلى بلاد الدهلك والزليع وناصع ، وهؤلاء القوم هم أصحاب جلود النمر والحمير ، وهي لباسهم ، ومن أرضهم تحمل إلى بلاد الاسلام ، وهي أكبر ما يكون من جلود النمرة وأحسنها للسروج ، وبحر الزنج والأحابش هو عن يمين بحر الهند ، وإن كانت مياهها متصلة ، ومن أرضهم يحمل الذبل من ظهور السلاحف ، وهو الذي يتخذ منه الأمشاط كالقرن ، وأكثر ما تكون الدابة المعروفة بالزرافة في أرضهم ، وإن كانت عامة الوجود في أرض النوبة دون سائر بلاد الأحابش ، وقد تنوزع في نتاج هذا النوع من الدواب المعروفة بالزرافة ؛ فمنهم من رأى أن بدء نتاجها من الابل ، ومنهم من رأى أن ذلك كان يجمع بين الابل والزرافة ، وأن النمر ظهرت من ذلك ، ومنهم من زعم أنه نوع من الحيوان قائم بذاته كقيام الخيل والحمير والبقر ، وأن ليس سبيلها كسبيل البغال المولدة من الخيل والحمير ، وتدعى الزرافة بالفارسية اشتراكا ، وقد كانت تهدي إلى ملوكهم من أرض النوبة كما تحمل إلى ملوك العرب ومن مضى من خلفاء بني العباس وولاية مصر ، وهي دابة

الزرافة

طويلة اليدين والرقبة ، قصيرة الرجلين ، لاركبتين لرجليها ، وإنما الركبتان ليديها ، وقد ذكر الجاحظ في كتاب الحيوان عند ذكر الزرافة كلاما كثيرا في نتائجها ، وأن في أعلى بلاد النوبة يجتمع سباع ووحوش ودواب كثيرة في حمارّة القبيظ إلى شرايع المياه ، فتسافد هنالك ، فيلقح منها ما يلقح ويمتنع ما يمتنع ، فيجىء من ذلك خلق كثير مختلفون في الصور والأشكال ؛ منها الزرافة ذات الأظلاف ، وهى دابة منحنية إلى خلفها ، مصبوبة الظهر إلى مؤخرها ، وذلك لقصر رجلها ، وللناس في الزرافة كلام كثير على حسب ما قدمنا في بدء نتائجها ، وأن النور ببلاد النوبة عظيمة الخلق ، وأن الإبل صغيرة الخلق قصيرة القوائم ، وأن ذلك لاتساع أرحام القلاص العربية ؛ لخوائج الزمان وغيرها من إبل خراسان ؛ فيظهر بينهما ويتولد عنهما الجمال البخت والحمارات ، ولا ينتج بين بختي وبختية ، وإنما يصح هذا النوع من الابل بين نواتج الابل ، وهى ذات السنامين ، وبين قلاص الابل ، وهى النوق العربية ، وكننتاج البخت بين البجاوية والمهرية ، وللزرافة أخبار كثيرة قد ذكر ذلك صاحب المنطق في كتابه الكبير ومنافع أعضائها وغير ذلك من أعضاء سائر الحيوان ، وقد أتينا على جميع ما يحتاج إليه من ذلك في كتابنا المترجم بـ « القضايا والتجارب » والزرافة عجيبة الفعل في إلفها ، وتوددها إلى أهلها ، وهى كالفيلة : منها وحشية ، ومنها مستأنسة أهلية ، مع من قدمنا ذكره من الزنوج والأجناس من الحبشة الذين صاروا عن يمين النيل ، ولحقوا بأسافل البحر الحبشى ، وقطعت الزنج دون سائر الأحابش الخليج المنفصل من أعلى النيل الذى يصب إلى بحر الزنج ، فسكنت الزنج في ذلك الصقع ، واتصلت مساكنهم إلى بلاد سفالة ، وهى أقاصى بلاد الزنج ، وإليه تقصد مراكب الثمانين والسيرافيين ، وهى غاية مقاصدهم في بحر الزنج ، كما أن أقاصى بحر الصين متصل ببلاد السيلى ، وقد تقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب ،

وكذلك أقاصى بحر الزنج هو بلاد سفالة ، وأقاصيه بلاد الواق واق ، وهى أرض كثيرة الذهب ، كثيرة العجائب ، حصينة حارة

لو قليمين
ملك الزنج
لو قليمين
ملك الزنج
صيد الفيلة

واتخذت الزنج دار مملكة ، وملكوا عليهم ملكا سموه لو قليمين ، وهى سمة لسائر ملوكهم فى سائر الأعصار على ما قدمنا آتفا ، ويركب لو قليمين - وهو يملك ملوك سائر الزنوج - فى ثلثمائة ألف فارس ، ودوابهم البقر ، وليس فى أرضهم خيل ولا بغال ولا إبل ، ولا يعرفونها ، وكذلك لا يعرفون الثلج والبرد ، ولا غيرهم من الأحابش ، ومنهم أجناس محدة الأسنان يأكل بعضهم بعضا ، ومساكن الزنج من حد الخليج المتشعب من أعلى النيل إلى بلاد سفالة والواق واق ، ومقدار مسافة مساكنهم واتصال مقاطعهم فى الطول والعرض نحو سبعمائة فرسخ أودية وجبال ورمال ، والفيلة فى بلاد الزنج فى نهاية الكثرة ، وحشية كلها غير مستأنسة ، والزنج لا يستعمل منها شيئا فى حروب ولا غيرها ، بل تقتلها ، وذلك أنهم يطرحون لها نوعا من ورق الشجر ولحاءه وأغصانه يكون بأرضهم فى الماء ، ويختفى رجال الزنج ؛ فترد الفيلة لشربها ، فإذا وردت وشربت من ذلك الماء أسكرها ، فتقع ، ولا مفاصل لقوائمها ولا ركب على حسب ما قدمنا ، فيخرجون إليها بأعظم ما يكون من الحراب فيقتلونها لأخذ أنيابها ؛ فمن أرضهم تجهز أنياب الفيلة ، فى كل ناب منها خمسون ومائة من ، بل أكثر من ذلك ، والاثنان منها ثلثمائة من ، وأكثر من ذلك ، فيجهز الأكثر منها من بلاد عمان إلى أرض الصين والهند ، وذلك أنها تحمل من بلاد الزنج إلى عمان ، ومن عمان إلى حيث ذكرنا ، ولولا ذلك لسكان العاج بأرض الإسلام كثيرا ، وأهل الصين يتخذ ملوكها وقوادها وأراكتها الأعمدة من العاج ، ولا يدخل قوادها ولا أحد من خواصها على ملوكها بشيء من الحديد ، بل بتلك الأعمدة المتخذة من العاج ، ورغبتهم فيما استقام من أنياب الفيلة ولم يتقوس لاتخاذ الأعمدة منها على ما ذكرنا ، ويستعمل العاج فى دخن بيوت أصنامها وأبجزة هياكلها ، كاستعمال النصرارى فى الكنائس

الدخنة المعروفة بدخنة مريم وغيرها من الأبخرة ، وأهل الصين لا يتخذون الفيلة في أرضهم ، ويتطيرون من اقتنائها عندهم ، والحرب عليها ؛ لخبر كان لهم في قديم الزمان في بعض حروبهم ، والهند كثيرة الاستعمال لما تجهز إليهم من العاج في نصب الخناجر ، وهي الحرازي ، واحدها حرزي ، وفي قوائم سيوفها ، وهي القراطل ، واحدها قرطل ، وهي سيوف معوجة ، والأغلب في استعمال الهند العاج اتخاذها منه الشطرنج والنرد ، والشطرنج ذو صور وأشكال على صور الحيوان من الناطقين وغيرهم ، كل قطعة من الشطرنج كالشبر في عرض ذلك كالأكبر إلى الأكبر ، فإذا لعبوا بها فانما يقوم الواحد قائماً فينتقلها في بيوتها ، والأغلب عليهم في لعبهم التمار بالشطرنج والنرد على الثياب والجواهر ، وربما نقد إلى أحد من هم مامعه فيلعب في قطع أعضاء من جسمه ، وهو أن يجعلوا بحضرتهم قدرا من النحاس صغيرة على نار فحم فيها دهن لهم أحمر فيغلي ذلك الدهن المدمل للجراح والماسك لسيلان الدم ، فإذا لعب في أصبع من أصابعه وقمر^(١) قطعها بتلك الخنجر ، وهو مثل النار ، ثم غمس يده في ذلك الدهن ، فكوها ، ثم عاد إلى لعبه ، فإذا توجه عليه اللعب أبان أصبعا ثانية ، وربما توجه عليه اللعب في قطع أعضائه كلها من الأصابع والكف ثم إلى الذراع والزند وسائر الأطراف ، وكل ذلك يستعمل فيه السكى بذلك الدهن ، وهو دهن عجيب يعمل من أخلاط وعقاقير بأرض الهند عجيب المعنى ، لما ذكرنا ، وما ذكرنا عنهم فستفيض من فعلهم

الفيل بلاد
الهند

والهند تتخذ الفيلة في بلادها ، وتتناج في أرضها ، ليس فيها وحشية ، وإنما هي حربية ومستعملة كاستعمال البقر والابل ، وأكثرها يأوى إلى المروج يروى والضياع والغياض كالجواميس في أرض الإسلام ، والفيلة تهرب من المكان الذي يكون فيه الكركدن على حسب ما قدمنا ، فلا ترعى في موضع يشم فيه رائحة الكركدن ، ويعمر الفيل بأرض الهند نحو من أربع مائة سنة ، كذلك

يذكر الزنج لأنها تعرف في ديارها ومفاوزها ، والفيل العظيم مما يتأتى فيها قتله ،
ومنها الأسود والأبيض والأبق والأغبر ، وفي أرض الهند منها ما يعمر المائة سنة
والمائتين ، ويضع حمله في كل سبع سنين ، ولها بأرض الهند آفة عظيمة من نوع
الزبرقان حيوان عجيب من الحيوان يعرف بالزبرقان ، وهي دابة أصغر من الفهد أحمر ذو زغب وعينين
براقتين عجبية سريعة الوثبة ، يبلغ في وثبته الثلاثين والأربعين والخمسين ذراعا
وأكثر من ذلك ، فاذا أشرف على الفيل ورشش عليه بوله بذنبه فيحرقها ،
وربما لحق الإنسان فأتى عليه ، وفي الهند من إذا أشرفت عليه هذه
الدابة تعلق بأكبر ما يكون من الساج ، وهي أكبر من النخل وأكبر من
شجر الجوز تسكن الشجرة منها الخلق الكثير من الناس وغيرهم من الحيوان على
حسب ما تحمل إلى البصرة والعراق ومصر من خشب الساج في طوله ، فاذا
تعلق الإنسان بأعلى تلك الشجرة وعجز هذا الحيوان عن إدراكه لصق بالأرض
ووثب إلى أعلى الشجرة ، فإن لم يلحق الإنسان في وثبته رشش من بوله إلى أعلى
الشجرة ، وإلا وضع رأسه في الأرض وصاح صياحا عجيبا ، فيخرج من فيه قطع
دم ويموت من ساعته ، وأى موضع من الشجر سقط عليه بوله أحرقه ، وإن
أصاب الإنسان شيء من بوله أتلعه ، وكذلك سائر الحيوان ، وملوك الهند تتخذ
في خزائنها مرارة هذه الدابة ومذاكيه ومواقع من أعضائه ، وهو السم القاتل من
ساعته ، ومنه ما يسقى به السلاح فيتلف من فوره ، ومذاكيه هذه الدابة كمذاكيه
كلب الماء الذي يخرج منه الجند بادستر ، وهذا الكلب أمره مشهور عند
الصيدلة وغيرهم ، وهو اسم فارسي معرب ، وإنما هو كند وتفسير ذلك الخصية ،
فعرّب فقيل جند بادستر ، والدابة المتقدم ذكرها المعروفة بالزبرقان لا تأوى إلى
موضع يكون فيه النوشان - وهو الكر كدن - وتهرب منه كما يهرب منه الفيل
أيضا ، والفيل يهرب من السنابير - وهي القطاط - ولا يقف لها البتة إذا أبصرها ،
وقد ذكر عن ملوك الفرس أنها كانت توقى الفيلة بالرجال المقاتلة حولها ومراعاة

حيل الأعداء عند الحرب بتخيلة السناير عليها ، وكذلك أفعال ملوك السند والهند إلى هذه الغاية ، وقد ذكر أن الخنازير ربما تهرب منها الفيلة ، وقد كان رجل بالموتان من أرض السند يدعى هرون بن موسى مولى الأزد ، كان شاعرا شجاعا ذا رئاسة في قومه ومنعة بأرض السند مما يلي أرض الموتان ، وكان في حصن له ، فالتقى مع بعض ملوك الهند وقد قدمت الهند أمامها الفيلة ، فبرز هرون بن موسى أمام الصف ، وقصد لعظيم الفيلة وقد خبا تحت ثوبه سنورا ، فلما دنا في حاتمته من الفيل خلى القط عليه ، فولى الفيل منهزما لما بصر بذلك الهر ، وكان ذلك سبب هزيمة الجيش ، وقتل الملك ، وغلبت المسلمون عليهم ، ولهرون ابن موسى قصيدة يصف فيها ما ذكرناه ، وهى : —

أليس عجبيا بأن تلقه	له فطن الأسد فى جرم فيل
وأطرف من قشه زوله	بحلم يحل عن الخفشليل
أليس عجبيا بأن بلها	غليظ الدراك لطيف الحويل
وأوقص مختلف خلقه	طويل النيوب قصير النصيل
ويخضع لليث ليث العرين	بأن ناشب الهر من رأس ميل
ويلقى العدو بناب عظيم	وجوف رحيب وصوت ضئيل
وأشبهه شئ إذا قسته	بخنزير برّ وجاموس غيل
ينازعه كل ذى أربع	فما فى الأنام له من عديل
ويعصف بالمر بعد النمر	كما يعصف الريح للعنديل
وشخص يرى يده أنه	فإن وصلوه فسياف صقيل
وأقبل كالطود هادى الخميس	بصوت شديد أمام الرعيل
فمر بسيل كسيل الآتى	بخطم خفيف وجرم ثقيل
فان شمته زاد فى هوله	بشاعة أذنين فى رأس غول
وقد كنت أعددت هرا له	قليل التهيّب للزنديل

فلما أحس به في العجاج أتانا الإلهُ بفتح جليل
وطار وراغم فياله بقلب نخيب وجسم ثقیل
فسبحان خالقه وحده إله الأنام ورب الفيول

العندبيل : طائر صغير يكون بأرض السند والهند ، تذكره الشعراء في أشعارها مثلاً به لصغره ، والزندبيل هو العظيم من الفيلة والمقدم فيها ، وقد قيل : إن الزندبيل هو اسم لما اشتد في الحرب من أنياب الفيلة ، وقد ذكر بعض الشعراء في هذا المعنى الزندبيل عند ذكره للفيل فقال : —

ذاك الذي مشفره طويل وهو من الأفيال زندبيل
وقال آخر : —

* وفيه ذو الطول زندبيل *

وقد ذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب الحيوان هذه القصيدة ، وفسر بعض أبياتها ، وذكر في معنى الخنشبيل وتفسير قول الأنصاري في صفة النحل : —
تبيض العشاء بأذناها وفي مدر الأرض عنها فضول
ويشبعها المص مص الثرى إذا جاءت الشاة للخنشبيل
قال : وهذا غير قوله : —

قد علمت جارية عطبول أتى بنصل الصيف خنشبيل
والفيلة لا تنتج ولا تولد إلا بأرض الزنج والهند ، ولا تعظم أنيابها بأرض السند والهند على حسب ما تعظم بأرض الزنج ، والزنج تتخذ من جلود الفيلة الدرق ، وكذلك الهند ، ولا ياحق ذلك في المنعة بشيء من الدرق الصيني والتبتى والمطى والتجاوى ، ولا ما يقع من اللين وغير ذلك من أنواع الدرق ، وخرطومة أنفه وبه يوصل الطعام والشراب إلى جوفه وهو شيء من الغضروف واللحم والعصب ، وبه يقاتل ويضرب ومنه يصيح ، وليس صوت الفيل على مقدار عظم جسمه وكبر خلقه ، وقد كان المنصور

عنى بجمع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة إياها ، واقتنائها لها ، وإعدادها للحروب والزينة فى الأعياد وغيرها ، فإنها أوطأ مراكب الملوك وأمهدها ، وأخبرنى بعض الكتاب ممن يرجع إلى أدب وعقل ومعرفة بأيام الناس بمدينة السلام ، أنه اشترى بغلة فى غاية الفَرَاة والحسن ، فكان يركبها فى مهماته وتصرفاته ، وكانت إذا رأت الجمال البُخْت أو العَراب من العمالة أو غيرها فى الطريق نفرت وشبت ، وكان يلقي منها جهدا جهيدا فيصبر على ذلك المكروه لما هى عليه من الفراهة والحسن ، وأنه لا يحمله غيرها أعظم جسمه وكبر بطنه وسمنه فلما كان فى بعض الأيام اجتازت بيباب الطاق — وذلك فى أيام المقتدر ، وقد أخرج الفيلة للرياضة والتمهيد وليحمل عليها الليث بن على الصفار وأصحابه ، وقد كان مؤنس المظفر الخادم أسره ببلاد فارس حين خرج على السلطان — قال : فأشرف على قطار من الجمال البخت منهزمة خائفة من الفيل ، تجمر فى مشيتها ، لا سبيل لمن عليها أن يجسبها لما قد لحقها من الجزع ، فلما رأت البغلة ذلك شبت وولت على عقبها ، ورمت بى الأرض فوقعت كجلد ثور منفوخ ، ودخلت الجمال إلى درب لا ينفذ ، وقد كانت البغلة حين رمت بى ونفرت من الجمال دخلت ذلك الدرب ، وجاءت الفيلة على أثر ذلك ، فلما نظرت البغلة إلى الفيلة وعظم خلقها لحقت بالجمال ودخلت بينها كأنها لم تزل معها وتذلت كتذل الجمال ؛ إذ رأى جماعة من الناس ، فرفعوا ، ودخل الغلام فأخرج البغلة وما استطاع إخراجها حتى مضت الفيلة وأخرجت من وسط تلك الجمال ، فوالله ما نفرت بعد ذلك من جمل ، ولقد ألفت الجمال حتى كأنها بعضها لاستصغارها صورة الجمل عندما شاهدت صورة الفيل ، وكل حيوان ذى لسان فأصل لسانه إلى داخل وطرفه إلى خارج إلا الفيل فان طرف لسانه إلى داخل وأصله إلى خارج ، والهند تزعم أنه لولا أن لسانه مقلوب ثم لقن الكلام لتكلم ، والهند تشرف الفيل وتفضله على سائر الحيوان ، لما اجتمع فيه من الخصال الحمودة : من علو سمكه ، وعظم صورته ،

وبدع منظره ، واتصال صهوته ، وطول خرطوميه ، وسعة أذنه ، وكبر غرموله مع خفة
وطئه ، وطول عمره ، وثقل جسمه ، وقلة اكترائه بما وضع على ظهره ، وأنه مع
كبر هذا الجسم وعظم هذه الصورة يمر بالإنسان فلا يحس بوطئه ، ولا يشعر به
لحسن خطوته واستقامة مشيه

وقد وصف عمرو بن بحر الجاحظ الفيل في كتاب الحيوان فأغرق في وصفه ،
وأكثر في مدحه ، وعدد معاني كثيرة في صفة الفيل وهيئته ، وما هو عليه من
عجيب التركيب وغريب التأليف ، والمعاني الصحيحة ، والإحساسات اللطيفة ،
وفي قبولها التأديب ، وصحة تمييزها ، ومرعتها إلى التلقين والتقويم ، وما في أبدانها
من الأعضاء السكرية ، والأجزاء الشريفة ، وكم مقدار منافعها ، ومبلغ مضارها ،
وبتلك الفضيلة من الإحساس فاقت تلك الأجناس ، وما فيها من الآلات
والبرهانات والعلامات النيرات التي جلاها لعيون خلقه ، وفرق بينها وبين عقول
عباده ، وقيدها عليهم ، وحفظها لهم ؛ لتكثر لهم ، وتزيد بهم إلى وضوح الحجة ،
وتسخروهم لتمام النعمة ، وما ذكر الله في الكتاب الناطق ، والخبر الصادق ، وفي
الآثار المعروفة ، والأمثال المضروبة ، في التجارب الصحيحة ، وما فالت الشعراء
فيه ، ونظقت به الفصحاء ، وميزته العلماء ، وعجبت منه الحكماء ، وحالها عند
الملوك ، وموضع نفعها عند الحروب ، وسياستها في العيون ، وجلالتها في الصدور ،
وفي طول أعمارها ، وقوة أبدانها ، وفي اعتزامها وتصميمها وأحقادها وشدة
اكترائها ، وطلبها بطوائفها ، وارتفاعها عن ملك السقاط واقتناء السفلة والأراذل
وعن ارتخائها في الثمن ، وارتباطها على الخسف ، وابتدائها ، وإزالتها عن امتناع
طبائعها ، وتمنع غرائزها أن تصلح أبدانها وتنبت أنيابها وتعظم جوارحها وتتسافد
وتتلاقح إلا في معادنها وبلادها ومغارس أعراقها ، مع التماس الملوك ذلك منها ،
وطبع القوم عليها بالتقرب بذلك منها ، حتى أعجزت الحيل ، وأخرجت عن حد
الطمع ، وعن الإخبار عن حملها ووضعها ومواضع أعضائها ، والذي خالفت فيه

الأشكال الأربعة التي تحيط بالجميع مما يستناخ أو يقوم أو يمشى أو يطير ، وجميع ما ينتقل عن أولية خلقه ، وما يبقى على الطبع الأول من صورته ، وعما يتنازع منه شبه الحيوان ، وما يخالف فيه جميع الحيوان ، وعن القول في شدة قلبه وأسرته ، وفي حدته على ما هو أعظم بدنا وأشد قلباً وأحد ظفراً وأذرب لساناً ، وهربه مما هو أصغر جسماً ، وأكل حدّاً ، وأضعف أسراً ، وأخل ذكراً ، وعن الإخبار عن خصاله المذمومة ، وأموره المحموده ، وعن القول في لونه وجلده وشعره ولحمه وشحمه وعظمه وبوله ونحوه ، وعن لسانه وفمه ، مع غير ذلك من المواعيد الكثيرة التي تضمن إيرادها ، فلما انتهى إلى موضع بطنها وإيراد وضعها وما أسلفه من القول في هذه المعاني التي قدمها أو رد جوامع متفرقة ، ولمعاً غير متسقة في الفيلة وغيرها ، وأعرض عن إيراد خواص أعضائها ، وأكثر منافعها ، وعجيب خصالها ، وما ذكر من أسرار الطبيعة ، وما قالته فلاسفة الهند في بدنها ، وما أثرته عن تقدم من حكمائها في تداولها وعلة تكونها في أرض الزنج والسند ، دون سائر البقاع من الأرض ، والسبب المانع لتكونها في غيرها ، والتضاد الذي بينها وبين الكركدن مع عظم خلقها ، وفرارها من السنور مع صغر حجم جسمه ولطافة منظره ، وعن كثرة الطرب الذي يوجد في الفيل دون غيره من الحيوان ، وقبولها الرياضة والدَّرابَة والمعرفة عند المحاورة ، والدهاء والخبت والتمييز .

وقد ذكر صاحب المنطق في كتاب الحيوان جملاً كثيرة من خصال الفيل ومنافع أعضائه ، وسلك طريقة لم يسلكها من تقدم من حكماء الهند ، من أن العالم بما فيه من الأجسام على جهات ثلاث : متفق ، ومختلف ، ومضاد ، وأن ذلك في الجملة هو جماد ونام ، وإخراجهم عن العالم الأفلاك والنجوم والبروج وغير ذلك من الأجسام السماوية وليست بجماد ولا نام وأنها أحياناً ناطقة

قال المسعودي : فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه آتفا في صدر هذا الباب ، من

ذكر الزنج وبلادهم وغيرهم من أنواع الأحابش ؛ فالزنج مع كثرة اصطيادها لما ذكرنا من الفيلة وجمعها لعاجها غير منتفعة بشيء من ذلك في آلاتها ، وإنما تتحلى الزنج بالحديد بدلا عن الذهب والفضة ، وما ذكرنا من دوابهم أنها بقر ، وأنهم عليها يتقاتلون بدلا من الابل والخيول ، وهى بقر تجرى كالخيل بسروج ولجم ، ورأيت بالرى نوعا من هذا البقر يبول كما تبول الخيل ، ويشور بحمله كما تشور الإبل إذا استقلت بأحمالها ، وهذا النوع من البقر يحمل عليه الميتة من الحيوان كالخيل والابل والحمير والبقر ، وملاكها نوع من الجوس من دفنه ، ولهم خارج الرى قرية لا يسكن معهم فيها غيرهم ، فإذا مات بالرى أو قزوين شيء مما ذكرنا من البهائم ورد الواحد منهم مع ثوره فأناخه وحمل عليه تلك الجيفة وسار بها إلى قريته ، فأكلهم منها ، وبنياهم من عظامها ، ويحففون من لحمها ما يدخرونه لشتائهم ، فأكثر أكلهم وأكل بقرهم من تلك اللحمان رطب ويابس ، وهذا النوع من البقر الغالب عليه حمرة الخدق ، وسائر البقر تنفر وتهرب من هذا البقر ، ورأيت بأصبهان وقمّ منها مافى أنوفها حلق الحديد والصفرة ، قد خرمت فيها الحبال ، وخطمت بها كما يفعل بالجمال البخت ، وكذلك بالرى رأيت ثورا منها قد عدا نحو ثور من غير هذا النوع ، فلما رآه قصده قام فزعامن هذا الجنس ، وليس فى سائر أنواع البقر ما يأوى المياه والجزائر والبحيرات إلا البقر المعروف بالحبشية التى تكون ببلاد مصر وأعمالها وبحيرة تنيس ودمياط وما اتصل بتلك الديار ، وأما الجواميس فإنها بالثغر الشامى فى بحر أكبر ما يكون من العجل ، فى أنوفها حلق الحديد والصفرة على ما ذكرنا من البقر ، وكذلك منها ببلاد أنطاكية وأكثر من ذلك ببلاد السند والهند وطبرستان ، وقرون تلك البقر أكبر من قرون هذه الجواميس التى بأرض الاسلام ، وطول القرن منها نحو الذراع والذراعين ، وكذلك الجواميس كثيرة بأرض العراق مما يلى صفوف الكوفة والبصرة والبطائح وما اتصل به هذه الديار ، والناس يذكرون عنقاء مغرب ويصورون العنقاء فى

الحمامات وغيرها ، ولم أجد أحدا في هذه الممالك ممن شاهدته أو نعى إلى خبره ذكر أنه رآها ، ولست أدري كيف ذلك ، ولعله اسم لا مسمى له

ولنرجع الآن إلى أخبار الزنج وأخبار ملوكها ، فأما تفسير اسم ملك الزنج - الذى هو وقلمين - فعنى ذلك ابن الرب الكبير ؛ لأنه اختاره للملكهم والعدل فيهم ، فتي جار الملك عليهم في حكمه وحاد عن الحق قتلوه وحرموا عقبه الملك ، ويزعمون أنه إذا فعل ذلك فقد بطل أن يكون ابن الرب الذى هو ملك السموات والأرض ، ويسمون الخالق عز وجل مكئنجوا ، وتفسيره الرب الكبير ، والزنج أولو فصاحة فى ألسنتهم ، وفيهم خطباء بلغتهم ، يقف الرجل منهم الزاهد فيخطب على الخلق الكثير منهم ، ويرغبهم فى القرب من بارئهم ، ويبعثهم على طاعته ، ويرهبهم من عقابه وصولته ، ويدكرهم من مضى من ملوكهم وأسلافهم ، وليس لهم شريعة يرجعون إليها ، بل رسوم ملوكهم ، وأنواع من السياسات يسوسون بها رعيتهم ، وأكلهم الموز ، وهو ببلادهم كثير ، وكذلك بأرض الهند ، والغالب على أقوات الزنج الذرة ، ونبت يقال له الكلارى يقع من الأرض : كالكمأة ، والراسن ، ومنه ماهو كثير ببلاد عدن وما اتصل بها من أرض اليمن ، ويشبه هذا الكلارى القلقاس الذى يكون بالشأم ومصر ؛ ومن غذائهم أيضا العسل واللحم ، ومن هوى منهم شيئا من نبات أو حيوان أو جماد يجمده ، وجزائرهم فى البحر لا تحصى كثرة ، وفيها النارجيل يعم أكله سائر الزنج ، ومن بعض تلك الجزائر جزيرة بينها وبين ساحل الزنج نحو من يوم أو يومين ، فيها خلائق من المسامين يقال لهم قنبلو ، ويتوارثها المسلمون ، على حسب ما ذكرنا من أمرها فى هذا الكتاب ، وأما النوبة فافترقت فرقتين : فرقة فى شرق النيل وغربه ، وأناخت على شاطئه ، فاتصلت ديارها بديار القبط من أرض مصر والصعيد من بلاد أسوان وغيرها ، واتسعت مساكن النوبة على شاطئ النيل مصعدة ، ولحقوا بقرى من أعاليه ، وبنوا دار مملكة ، وهى مدينة عظيمة تدعى دققله ،

والفريق الآخر من النوبة يقال لهم علوه ، وبنوا مدينة عظيمة وسموها سرية
قال المسعودى : وانتهيت فى تصنيفى إلى هذا الموضع من كتابنا هذا فى
شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، فأخبرت أن الملك فى مدينة
دقنة إلى النوبة « ليرنى بن سدر » وهو ملك ابن ملك ابن ملك فصاعدا ،
وملكه يحتوى على أم قرية وعلوه ، والبلد المتصل بملكته بأرض أسوان يعرف
بمريس ، وإليه تضاف الزنج المريسية ، وعمل هذا الملك متصل بأعمال مصر من
أرض الصعيد ومدينة أسوان

البجة

وأما البجة فلها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر ، وتشعبوا فرقا ، وملكوا
عليهم ملكا وفى أرضهم معادن الذهب ، وهو التبر ، ومعادن الزمرد ، وتتصل
سراياهم مناسرهم على النجب إلى بلاد النوبة ، فيغيرون ويسبون ، وقد كانت
النوبة قبل ذلك أشد من البجة ، إلى أن قوى الاسلام وظهر ، وسكن جماعة
من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقى وعيذاب ، وسكن فى تلك الديار خلق
من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ؛ فاشتدت شوكتهم ، وتزوجوا فى
البجة فتقويت البجة بمن صاهرها من ربيعة ، وقويت ربيعة بالبجة على من
ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من مضر بن نزار من سكن تلك الديار ،
وصاحب المعدن فى وقتنا هذا — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — بشر بن مروان
ابن إسحق ، وهو من ربيعة ، يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من
مضر واليمن وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة بالحجف البجاوبة ، وهم
الحدارب ، وهم مسلمون ممن بين سائر البجة ، والدار حلاس من البجة كفار
يعبدون صنما لهم ،

الحبشى

وأما الحبشة فاسم دار مملكتهم كعمى ، وهى مدينة عظيمة ، وهى دار مملكة
النجاشى ، وللحبشة مدن كثيرة وعمائر واسعة ، يتصل ملك النجاشى بالبحر
الحبشى ، ولهم ساحل لهم فيه مدن كثيرة ، وهو مقابل لبلاد اليمن ، فمن مدن

الحبشة على الساحل الزيلع والدهلك وناصع ، وهذه مدن فيها خلق من المسلمين إلا أنهم في ذمة الحبشة ، وبين ساحل الحبشة ومدينة علافة - وهى ساحل زبيد من أرض اليمن - ثلاثة أيام عرض البحر بين الساحلين ، ومن هذا الموضع عبرت الحبشة البحر حين مالت اليمن فى أيام ذى نواس ، وهو صاحب الأخدود المذكور فى القرآن ، وصاحب زبيد فى وقتنا هذا إبراهيم بن زياد صاحب الحرملى ، ومراكبه تختلف إلى ساحل الحبشة ، ويركب فيها الشجار بالأمتعة ، وبينهم مهادنة ، وهذا الموضع من البحر بين هذين الشطين - أعنى ساحل اليمن ، وساحل الحبشة - أقل المواضع فيه عرضا ، وهنالك جزائر بين هذين الساحلين : منها جزيرة العقل يقال : إن فيها ماء يعرف بماء العقل ، تسقى منه أرباب المراكب ، ويفعل فى القرائح والدكاء فعلا جميلا ، وقد ذكر بعض الفلاسفة المتقدمين ما يفعل هذا الماء وماله من الخواص ، وذكر علة ذلك ، وقد أتينا على الخبر فى كتابنا فى « أخبار الزمان » عند ذكرنا لأخبار المتطبين فى تجاربهم وما كان من قضاياهم فى علاجهم من سلف قبل ظهور الاسلام وغيرهم من اتصل بالملوك والخلفاء بعد ظهور الشرع ، وقد غلب ابن زياد على هذه الجزيرة ، وله فى هذا الوقت رجال مرتبون فيها من أصحابه ، وفى هذا البحر مما يلى بلاد عدن جزيرة تعرف بسقطرة ، إليها يضاف الصبر السقطرى ، ولا يوجد إلا فيها ، ولا يحمل إلا منها ، وقد كان أرسطاطاليس ابن ترميا حين كتب إلى الاسكندر بن فيلبش حين سار إلى الشام فى أمر هذه الجزيرة يوصيه بها وأن يبعث إليها جماعة من اليونانيين يسكنهم فيها من أجل الصبر السقطرى الذى يقع فى الأيارات وغيرها ، فصور الاسكندر إلى هذه الجزيرة خلقا من اليونانيين أكثرهم من مدينة أرسطاطاليس بن ترميا حين ، وهى مدينة اسطاعور ، فى المراكب بأهلهم فى بحر القلزم ، فغلبوا على من كان بها من ملوك الهند ، وملكوا الجزيرة ، وكان للهند بها صنم عظيم ، فنقل ذلك الصنم فى أخبار يطول ذكرها ، وتناسل من بالجزيرة من اليونانيين ، ومضى الاسكندر فظهر

جزيرة
سقطرة

المسيح فتنصر من كان بها إلى هذا الوقت ، وليس في الدنيا - والله أعلم - موضع فيه قوم من اليونانيين يحفظون أنسابهم لم يداخلهم في أنسابهم روم ولا غيرهم غير أهل هذه الجزيرة ، وهم في هذا الوقت تأوى إليهم بوارج الهند الذين يقطعون على المسلمين في هذه البوارج ، وهى المراكب ، على من أراد الصين والهند وغيرها كما يقطع الروم في الشواني على المسلمين في البحر الرومى من ساحل الشام ومصر ، ويحمل من جزيرة سقطرة الصبر وغيره من العقاقير ، ولهذه الجزيرة أخبار عجيبة ، ولما فيها من خواص النبات والعقاقير قد أتينا على كثير من ذكرها فيما سلف من كتبنا

وأما غير هؤلاء من الحبشة الذين قدمنا ذكرهم ممن أمعن في المغرب - مثل الزغاوة والكركر والقراقر ومردة المرويين والهنديين واللاله والقرباطين وزويله والعرد - فلكل واحد منهم من هؤلاء وغيرهم من أنواع الأحابش ملك ، ودار مملكه ، وقد أتينا على ذكر جميع أجناس السودان وأنواعهم ومساكنهم ومواضعها من الفلك ، ولأية علة تفلت شعورهم واسودت ألوانهم ، وغير ذلك من أخبارهم وأخبار ملوكهم وعجائب سيرهم وتشعبهم في أنسابهم ؛ فى كتابنا « أخبار الزمان » فى الفن الأول من جملة الثلاثين فنا ، ثم فيما بعد من هذا الكتاب مما لم نذكره فى كتابنا « أخبار الزمان » مما لا ينبغي ترك إيراده فيه ولا تعريته منه

قال المسعودى : وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما افتتح عمرو بن العاص مصر كتب إليه بمحاربة النوبة ، فغزاهم المسلمون ، فوجدهم يرمون الحدق وأبى عمرو بن العاص أن يصلحهم ، حتى صرف عن مصر ، ووليها عبد الله بن سعد ؛ فصالحهم على رءوس من السبى معلومة ، مما يسبى هذا الملك المجاور للمسلمين من غيرهم من ممالك النوبة المقدم ذكرها فيما سلف من هذا الباب المدعو بملك مريس وغيرها من أرض النوبة ، فصار ما قبض منه من السبى سنة جارية فى

كل سنة إلى هذه الغاية يحمل إلى صاحب مصر ويدعى هذا السبي في العربية بأرض مصر والنوبة بالبقط ، وعدد ذلك ثلثمائة رأس وخمسة وستون رأساً ، وأراه رسم على عدد أيام السنة هذا لبيت مال المسلمين بشرط الهدنة بينهم وبين النوبة وللأمير بمصر غير ما ذكرنا من عدد السبي أربعون رأساً ، ولخليفته المقيم ببلاد أسوان المجاورة لأرض النوبة ، وهو المتولى لقبض هذا البقط ، وهو السبي ، عشرون رأساً غير الأربعين ، وللحاكم المقيم بأسوان الذى يحضر مع أمير أسوان قبض البقط خمسة رؤس غير العشرين التى يقبضها الأمير ، ولاثنى عشر شاهداً عدولاً من أهل أسوان يحضرون مع الحاكم حين قبض البقط اثنا عشر رأساً من السبي ، على حسب ما جرى به الرسم فى صدر الاسلام فى بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة ، والموضع الذى يتسلم فيه هذا البقط ويحضره من سميناه وغيرهم من النوبة من ثقات الملك يعرف بالقصر ، وهو على ستة أميال من مدينة أسوان ، بالقرب من جزيرة بلاق ، وبلاق هذه مدينة فى الموضع المعروف بالجنادل من الجبال والأحجار ، وهذه المدينة فى هذه الجزيرة يحيط بها ماء النيل كإحاطة ماء الفرات بالمدن التى فى الجزائر بين رحبة مالك بن طوق ، وبين الرسة وناوسة وغانة والحديثة ، وفى مدينة بلاق خلق كثير من الناس ومنبر ونخل كثير فى كلا الشطين ، وهذه المدينة إليها ينتهى سفن النوبة وسفن المسلمين من بلاد مصر وأسوان ، ومدينة أسوان يسكنها خلق كثير من العرب من قحطان وزار بن معد من ربيعة ومضر وخلق من قريش ، وأكثرهم ناقلة من الحجاز وغيره ، والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير تودع النواة الأرض فتنبت نخلة ، ويؤكل من ثمرها بعد سنتين ، وليست تربتهم كثرة البصرة ولا الكوفة ولا غيرها من أرض النخل ؛ لأن النخل بالبصرة لا ينبت من النوى بل ينبت من التال والفسيل ، وهو النخل الصغير ، وما يخرج من النواة فليس يشمر ولا يفلح ، ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلية بأرض النوبة (١-٢٢)

يؤدون خراجها إلى ملك النوبة ، وابتيعت هذه الضياع من النوبة في صدر الزمان في دولة بنى أمية و بنى العباس ، وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفد أوفدهم إلى القسطنطين ، ذكروا عنه أن ناسا من أهل مملكته وعبيده باعوا ضياعا من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان ، وأنها ضياعه والقوم عبيد لا أملاك لهم ، وإنما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها ، فرد المأمون أمرهم إلى الحاكم بمدينة أسوان ومن بها من أهل العلم والشيوخ ، وعلم من ابتاع هذه الضياع من أهل أسوان أنها ستنزح من أيديهم ، فاحتالوا على ملك النوبة بأن تقدموا إلى من ابتاع منهم من أهل النوبة أنهم إذا حضروا حضرة الحاكم أن لا يقروا لملوكهم بالعبودية ، وأن يقولوا : سبيلنا معاشر المسلمين سبيلكم مع ملككم تجب علينا طاعته وترك مخالفته ، فإن كنتم أنتم عبيدا لملككم وأموالكم له فنحن كذلك ، فلما جمع الحاكم بينهم وبين صاحب اللك أتوا بهذا الكلام للحاكم ونحوه مما أوقفوه عليه من هذا المعنى ، فمضى البيع لعدم إقرارهم بالرق لملكهم إلى هذا الوقت ، وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس ، وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك نوعين : نوع من وصفنا أحرار غير عبيد ، والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد ، وهم من سكن من النوبة في غير هذه البلاد المجاورة لأسوان ، وهى بلاد مريس ، ومعدن الزمرد في عمل الصعيد الأعلى من أعمال مدينة قفط ، ومنها يخرج إلى هذا المعدن ، والموضع الذى فيه الزمرد يعرف بالحزبة مفازة وجبال ، والبجة تحمى هذا المكان المعروف بالحزبة ، وإليها يؤدى الخفارات من يرد إلى حفر الزمرد ، والزمرد الذى يقتلع من هذا المعدن يتنوع أربعة أنواع : النوع الأول منها يعرف بالمر ، وهو أجودها وأغلاها ثمنا ، وهو شديد الخضرة كثير الماء ، تشبه خضرته بأشد ما يكون من السلق خضرة ، وهذا اللون غير كدر ولا ضارب إلى السواد ، والنوع الثانى يدعى بالبحرى ، ومعناها فى هذه التسمية هو أن ملوك البحر من السند والهند والرانج

الزمرد
وأنواعه

والصين ترغب في هذا النوع من الزمرد ، وتباهى في استعماله ولباسه في تيجانها وأكاليها وخواتيمها وأسورتها ، فسمى البحرى لما ذكرنا وهو ثانى المر في الجودة وتشبه خضرته بالأول والماء كقداح ورق الآس الذى يظهر فى أوائل أغصان الآس وأطرافه ؛ والنوع الثالث يعرف بالمغربى ، ومعناه فى هذه التسمية وإضافتهم إياه إلى المغرب هو أن ملوك المغرب من الافرنجة والتوكير والأندلس والجلالقة والوسكنس والصقالبة والروس ، وإن كان أكثر هؤلاء الأمم متصلين بالجرى ، وهو ما بين المشرق والمغرب على حسب ما ذكرنا من ديار ولد يافت بن نوح ، يتنافسون فى هذا النوع من الزمرد كتنافس من ذكرنا من ملوك الهند والصين فى النوع المعروف بالبحرى ، والنوع الرابع هو المسمى بالأصم ، وهو أدنى الأنواع وأقلها ثمنا لقلة مائه وخضرته ، وهذا النوع يتفاوت فى اللون من الخضرة والقلة ، وجملة الوصف بهذه الأنواع الأربعة فى الجودة والمباغة فى الثمن هو أكثرها ماء وأصفاها وأكثرها خضرة وألقاها من السواد والصفرة ، وغير ذلك من الألوان مع تعرّى هذا الجوهر من النموشة ، فإذا سلم مما ذكرنا كان فى نوعه غاية فى الجودة ونهاية فى الوصف ، وفى حجارته ما يبلغ الخمسة المثاقيل فى الوزن ، إلى أن ينتهى إلى حد العدسة فى المقدار ؛ فيدخل ذلك فى النظم من الخناق وغيرها ، وآفات هذا الجوهر المنوع كثيرة ؛ منها الریم ، والحجارة ، والعروق البيض التى تشوب هذا الجوهر وتوجد فيه ، ولا يتناكر بين ذوى الدراية بهذا الجوهر ومن عنى بمعرفته أن الحيات والأفاعى وسائر أنواع الحيات من الثعابين وغيرها إذا أبصرت الزمرد الخالص سالت أحداقها ، وأن الملسوع إذا سقى من الزمرد الخالص وزف دائقين على الفور أمن على نفسه من سرى السم فى جسده ، ولا يوجد شئ من أنواع الحيات يقرب من معدنه وأرضه ، وهو حجر لين رخو ، يتكلس إذا ورد على الماس ، وقد كانت ملوك اليونانيين ومن تلاهم من ملوك الروم تعظم شأن هذا الجوهر ، وتفصله على غيره من سائر الجواهر ، لما اجتمع فيه

من الخواص العجيبة ، والمنافع الكثيرة ، ولخفته في الوزن دون سائر الجواهر المعدنية ، وأكثر ما يوجد من هذه الأنواع العروق في الأرض ، وهو المتنافس فيه ، إذا سلم من الاعوجاج والتنقب ، واستقام سلكه ، واستطال ما استدار ، وأدناه ما ينحل في معدنه من التراب ويلتقط من الطين ، وقد يوجد على ظهر الأرض في هذا المعدن في وهاده وجباله وما انخفض وارتفع من أرضه نوعان منه وهما المغربي والأصم المقدم ذكرهما ، وقد يحمل من أرض الهند وبلاد سندان وبحر كيتايت من مملكة البلهرا صاحب الناكور المقدم ذكره فيما سلف من هذا الكتاب نوع من الزمرد يلحق بوصف ما ذكرنا من النور والخضرة والشعاع ، إلا أنه حجر صلب أصلب مما وصفنا ، وأثقل مما ذكرنا ، ولا يفرق بين هذا النوع المحمول من أرض الهند وبين الأنواع الأربعة المقدم ذكرها إلا ذو دراية فطن أو ماهر ظريف ، وهذا النوع الهندي يعرفه أصحاب الجواهر بالمكي ؛ لأنه يحمل من أرض الهند إلى بلاد عدن وغيرها من سواحل اليمن ، ويؤتى به مكة ، فاشتهر بهذا الاسم لما وصفنا ، وبهذا النعت لما ذكرنا ، وقد أتينا على مبسوط أخبار الجواهر الشفافة وغيرها ووصف معادنها على الشرح والإيضاح في كتابنا في « أخبار الزمان » ووجدت جماعة بصعيد مصر - من ذوى الدراية - ممن اتصلت معرفته بهذا المعدن ، وعرف هذا النوع من الجواهر الذى هو الزمرد يخبرون أن هذا الزمرد يكثر ويقل في فصول من السنة ، وفي قوة من مواد الهواء ، وهبوب نوع من الرياح الأربع ، وتتقوى الخضرة فيه والشعاع النورى في أوائل الشهر والزيادة في نور القمر ، ولذلك اختار من عني بمعرفة أكثر المعادن من الجوهريّة وغيرها أن الكبريت الأبيض والأصفر وغيرها من أنواع الكبريت يكثر في معدنه في السنة التى يكثر برقها ، وتشتد صواعقها ، على حسب ما أخبرنا به فيما سلف من هذا الكتاب عن الكافور من بلاد قيصورة وغيرها من أرض الهند أنه يكثر في السنة التى تكثر فيها الصواعق والعود والبروق ، ولولا أن المكثار

كحاطب ليل ، والإيجاز لَمَحَة دالة ، ووَحَى صرّح عن ضمير ، والبلاغة إيضاح
بإيجاز لَأَسْهَبْتُ في هذا الباب

وبين هذا الموضع المعروف بالخربة الذي فيه معدن هذا النوع من الجوهر ،
وهو الزمرد ، وبين ما اتصل به من العمارة وقرب منه من الديار ؛ مسيرة سبعة أيام
وهي قنط وقوص وغيرها من صعيد مصر ، وقوص راكبة للنيل ، وبين النيل قوص وقنط
وقنط نحو من ميلين ، ولمدينتي قنط وقوص أخبار عجيبة في بدء عمرانها وما كان
في أيام الأقباط من أخبارها ، إلا أن مدينة قنط في هذا الوقت متداعية للخراب
وقوص أعمر ، والناس فيها أكثر

وبوادي البجة المألوفة لهذا المعدن معدن الزمرد وتتصل ديارها بالعلاق ،
وهي معدن الذهب على حسب ما قدمنا في هذا الباب ، وبين العلاق والنيل
خمس عشرة مرحلة ، وماء أهل العلاق ما أنهل من السماء ، ولهم معين يسيل
في وسط العلاق ، وأقرب العمارة إليه مدينة أسوان ، ومنها يستمد العلاق
والنوبة ، متصلة تجاراتهما وقوافلها بمدينة أسوان وأهل أسوان مختلطون بالنوبة
قال المسعودي : وأما بلاد الواحات - وهي بين بلاد مصر والاسكندرية

الواحات

وصعيد مصر والمغرب وأرض الأحابش من النوبة وغيرهم - فقد ذكرنا جملا من
أخبارها ، وكيفية العمران بها ، والخواص في أرضها ، فيما سلف من كتبنا ، ولها
أرض شبية وزاجية وعيون حامضة وغير ذلك من الطعوم ، وصاحب الواحات في
وقتنا هذا - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - عبد الملك بن مروان ، وهو رجل
من لواتة ، إلا أنه مرواني المذهب ، ويركب في ألوف من الناس خيلا ورجلا
ونجبا ، وبينه وبين الأحابش نحو من ستة أيام ، وكذلك بينه وبين سائر
ما ذكرنا من العماثر هذا المقدار من المسافة ، وفي أرضه خواص وعجائب ، وهو
بلد قائم بنفسه ، غير متصل بغيره ، ولا مفتقر إليه ، ويحمل من أرضه التمر
والزبيب والعناب ، وقد رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بالواحات يساب

الإخشيدي محمد بن طعج ، وذلك سنة ثلاثين وثلاثمائة ، وسألته عن كثير من أخبار بلدهم ، وما احتجت أن أعلمه من خواص أرضهم ، وكذلك كان فعلى مع غيره فى سائر الأوقات ممن لم أصل إلى بلادهم ، وأخبرنى هذا الرجل عما بأرضهم من الشب وأنواع الزاج ، وما يحمل من بلادهم ، وما بأرضهم من أنواع العيون الحامضة ، وغير ذلك من المياه المختلفة الطعوم .

وقد ذكر صاحب المنطق أن بعض المواضع عيوناً حامضة يستعمل مأوها كاستعمان الخل ، وذكر المواضع التى تتبع منها العيون المرة ، وأن قوة مأها فى المرارة لا يخالط شيئاً إلا مرَّره ، وأن العلة فى اختلاف هذه الطعوم فى المياه أن الأرضين مختلفة مثل مواضع الشب والمواضع النارية والرمادية ، وذكر الأظعمة^(١) التى ببلاد صقلية المقدم ذكرها إذا خالطت الماء أفادته طعوماً مختلفة على قدر اختلافها وأعداد طعومها

أنواع الطعوم وأعداد الطعوم ثمانية : فأولها العذب ، والملح ، والدسم والخلو ، والحامض ، والمر ، والقباض ، والحريف ، وقد تنازع الناس فيما ذكرنا فمنهم من رأى أن أعدادها سبعة ، ومنهم من ذهب إلى أنها ستة ، وأكثر من قال فى أعدادها هو ما ذكرنا آنفاً ثمانية ، وقد قال من سلف فى قوى المياه أقاويل مختلفة : فمن ذلك أن العذاب مُعَدٌّ وإن كان سخناً ، فإن استعمل من داخل أو من خارج فإنه ينقى الجسد ، وإن استعمل أكثر مما يحتاج إليه فإنه يرخى الأعضاء ويضعفها ، وأن الماء البارد يشد الأعضاء ، ويقطع العطش ، وأن الزيادة منه تخدر الجسد وتميته ، وأن الماء الأجاج ينفع من سدود الكبد والطحال وأن الماء الكبريتى ينفع الجراح والقروح العتيقة والحكة ، والروقى نافع للحكة والجرب ، وأن ماء النضار نافع من أوجاع الصلب والعصب ، وماء الحديد نافع من الاسترخاء فى الأحشاء وما بطن من الأوعية ، وماء النحاس نافع من الرطوبة والبلية الكائنة فى الجسد والرأس ، وماء الجص يشنج المعدة ويقبضها

(١) كذا فى الأصول ، والظاهر أنه أراد « وذكر أن المعادن - الخ »

ويكرشها ، وماء الزاج يحسن الدم ، وماء البحر نافع من البرص ، وقد ذكر جماعة أنه ينفع من الأخطا الفاسدة إذا شرب منه اليسير مع دهن اللوز ، وله فى البصر إعياب فظيع ، وأن أصح المياه للأجساد الأبيض البراق الذى يخرج من جبال الصين من مشرق الشمس نحو مغربها ، القابل بسرعة مايرد إليه من الحر والبرد ، وللناس فيما ذكرنا كلام كثير فى أنواع المياه وأوصافها ومنافعها ومضارها ليس كتابنا هذا موضعا له ، وإنما تغافل بنا الكلام إلى ذكرها ، وتشعب بنا القول إلى وصفها

وكل ما ذكرنا من بلاد الأحابش ما كان من غربى اليمن وجدة والجار ، مما يلي بحر القلزم ؛ فبلاد قشقة لاخير فى أرضها ، ولا شئ يحمل من ساحلها إلا ما وصفنا من الذبل والنمور وغيرها ، وكذلك ما عليه من ساحل الشحر وبلاد الأحقاف من ساحل حضرموت إلى عدن فبلد لاخصب لأهله فيه ، ولا يحمل من أرضهم إلا اللبان وقشار الكندر ، وهذا البحر اتصاله بالقلزم ، وهو عن يمين بحر الهند ، وإن كان الماء متصلا ، وليس فى البحار وما ذكرنا من الخليجان مما احتوى عليه البحر الحبشى أصعب ولا أكثر جبالا ولا أسهك رائحة ولا أقحط ولا أقل خيرا فى بطنه وظهره من بحر القلزم ، وسائر البحر الحبشى تقطعه المراكب فى إبان سيرها فيه بالليل والنهار ، إلا بحر القلزم ، فإن المراكب تسير فيه بالنهار ، فإذا جن الليل أرست فى مواضع معروفة كالمراحل المشهورة ، والمنافذ المعروفة ؛ لكثرة جباله وظلمته ووحشته ، وليس هذا البحر مما اتصل به من بحر الهند والصين وغيره فى شئ ، وهو بالضد من ذلك ، لأن بحر الهند والصين فى قعره اللؤلؤ ، وفى جباله الجواهر ، ومعادن الذهب والفضة والرصاص القلعى ، وفى أفواه دوابه العاج ، وفى منابته الآبنوس ، والخيصران ، والقنا ، والبقم ، والساج ، والعود ، وأحجار الكافور ، والجوز ، والقرنفل ، والصندل ، والأفوية ، والطيب ، والعنبر ، وطيور الببغاء الأبيض والخضر ، واحدها ببغاء^(١) ، ثم الطواويس وأنواعها فى صورها

(١) المعروف أن الواحد ببغاء ، والجمع ببغاوات

واختلافها في الصغر والكبر ، ومنها ما يكون كالنعامة كبرا ، وحشرات أرض^(١) الهند الزباد كالسنابير كثيرة بأرض الإسلام متخذة كالسنور ، وأكثر ما يخرج من ضرعها الطيب المعروف بلبن الزباد ، وهو نوع من الطيب عجيب ، ثم ما يظهر في وقت من السنة من جباه القبيلة بأرض الهند ورءوسها من العرق الذي هو كالمسك ، والهند تراعى ظهور هذا الطيب في الفصل من الزمان الذي يكون فيه ، فتأخذه وتجعله على بعض أدهانها الطيبة ، فيكون أعلى طيبها المستطرف عندها ، والذي تستعمله ملوكها وخواصها لضروب من المنافع منها طيب الرائحة والتحمر الذي قد فاق على سائر الطيب وما يؤثر في الإنسان عند شمه إياه واستعماله من ظهور الشبق من الرجال والنساء والطلب للباه والاعتلام والطرب والنشاط والأريحية ، وكثير من فتاك الهند وشجعانهم يستعمل هذا الدهن عند اللقاء والحرب ؛ لأن ذلك عندهم مما يشجع القلب ، ويقوى النفس ، ويبعثها على الإقدام وأكثر ما يظهر هذا النوع من العرق في جباه القبيلة في ذلك الفصل من السنة في حال اعتلامها وهيجانها ، وإذا كان ذلك منها هرب عنها سوأسها ورُعلتها ، ولا يفرق بين من يعرف وغيره من الناس ، وإذا وجد الفيل ما وصفنا سلك الأودية والجبال والغياض ، وندّ عن بلده ، وغاب عن وطنه ، فاذا قدم على النوشان الذي هو الكركدن هرب حينئذ من الفيل ، ولا يقيم في الموضع الذي هو فيه ؛ لأن الفيل عند ذلك بحال السكران لا يعقل ولا يميز بين الكركدن الذي كان يخافه قبل ذلك وغيره ، فاذا خرج عنه ذلك الفصل من السنة واسترجع عاد إلى بلاده على مسيرة شهر وأكثر من ذلك ، وهو في بقية من سكره ، فيبقى نحو ذلك المقدار الذي كان هيجانه فيه عليلا ، ولا يكون ذلك إلا في الفحول من القبيلة وذوى الجراءة منها والإقدام ، وما ذكرنا من طيب المسك وغير ذلك مما عنه أمسكنا من عجائبه وخبراته ، وفيما ذكرنا تنبيه على غيره ، وللهند خطب طويل في ظهور هذا النوع من الطيب في هذه الجباه من القبيلة والفرق بينهما وبين

(١) كذا ، ولعل الأصل «ومن حشرات أرض الهند الزباد ، وهي كالسنابير - الخ»

سائر أنواع الدواب ما يظهر من الفيل من الجزع عند وروده المياه من الغدران والأنهار للشرب إذا كان الماء صافيا فانه يثيره ويكدره ويمتنع من شربه حين صفائه ، وإن ذلك يوجد في أكثر الخيل إذا وردت الماء وكان صافيا ضربته بأيديها فكدرته فتشرب حينئذ ، وتوافق الخيل الفيلة في هذا المعنى دون سائر الحيوان ، وإن ذلك لمشاهدة صورها في الماء لصقلته وصفائه ، ولعلمها بزوال ذلك عند كدره ، وإن الابل الأغلب منها يفعل ذلك ، ولعان غير ذلك مما وصفنا من أن ماعظم من الحيوان إذا رأى صورته منعكسة على صفاء الماء أعجبته لعظمها وحسنها وما بان له من حسن الهيئة عما دونه من أنواع الحيوان ، وليس شيء يفعل ذلك من الحيوان غير ما ذكرنا من الخيل والابل ، وإن الفيل مع عظم جسمه ولطافة نفسه وخفة روحه وحسن تمييزه والمعرفة بوليه وعدوه من الناطقين وغيرهم وقبوله الرياضة تمتنع أثناءه كما تمتنع النوق إذا لقحت ، وليس شيء من الدواب يمتنع من السفاد من الإناث عند حملها إلا الفيلة والابل ، وهذا باب إن نحن تقصيناه وذكرنا ما فيه طال به الكتاب ، وخرج عن حد الاختصار والایجاز ، وقد أتينا على وصف جميع ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » وغيره من كتبنا فلنذكر الآن أنواعا من ولد يافث بن نوح ؛ إذ كنا قد قدمنا في سلف من هذا الكتاب كثيرا من ذكر الأمم مع اختلاف ألوانهم وتباينهم في ديارهم واختلافهم في أحوالهم ، إن شاء الله تعالى

ذكر الصقالبة ومساكنها

وأخبار ملوكها وأجناسها

أجناس
الصقالبة

الصقالبة : من ولد بار بن يافث بن نوح ، وإليه يرجع سائر أجناس الصقالبة ، وبه يلحقون فى أنسابهم ، هذا قول كثير من أهل الدراية من غنى بهذا الشأن ، ومساكنهم بالجرا إلى أن تتصل بالمغرب ، وهم أجناس مختلفة ، وبينهم حروب ، ولهم ملوك ، ومنهم من يتقاد إلى دين النصرانية إلى رأى اليعقوبية ، ومنهم من لا كتاب له ولا يتقاد إلى شريعة ، وهم جاهلية لا يعرفون شيئا من الشرائع ، وهؤلاء أجناس : فمنهم جنس كان الملك فيهم قديما فى صدر الزمان ، وكان ملكهم يدعى ماجل ، وهذا الجنس يدعى ولينا ، وكان يتلو هذا الجنس فى القديم سائر أجناس الصقالبة ، لكون الملك فيهم ، وانتباد سائر ملوكهم إليه ، ثم يتلو هذا الجنس من أجناس الصقالبة اضطرابه ، وملكهم فى هذا الوقت يدعى بصقلانج ، وجنس يقال له دلاونه ، وملكهم يدعى وايج صلاف ، وجنس يقال لهم ياحيق ، وملكهم يدعى عرابه ، وهذا الجنس أشجع أجناس الصقالبة ، وأفرس ، وجنس يدعى ماين ، وملكهم يدعى ريير ، ثم جنس عند الصقالبة مهيب لعل يطول ذكرها وأوصاف يكثر شرحها ، وتفرتهم من ملة ينقادون إليها ، ثم جنس يقال له مرارة ، ثم جنس يقال له جراوش ، ثم جنس يقال له صاصيف ، ثم جنس يقال له حانين ، وما سميناه من أسماء بعض ملوك هذه الأجناس فسمه معروفة لملكهم ، والجنس الذى سميناه المعروف بسريق يحرقون أنفسهم بالنار إذا مات فيهم الملك الرئيس ، ويحرقون دوابهم ، ولهم أفعال مثل أفعال الهند ، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب طرفا من ذكرهم عند ذكرنا لجبل الفتح والخزر ، وأن فى بلاد الخزر مع الخزر خلقا من الصقالبة والروس ، وأنهم يحرقون

أنفسهم بالنيران ، وهذا الجنس من الصقالبة وغيرهم متصلون بالشرق ، ويبعدون من الغرب :

فالأول من ملوك الصقالبة ملك الدير ، وله مدن واسعة ، وعمائر كثيرة ، وتجار المسلمين يقصدون دار ملكه بأنواع التجارات

ثم يلي هذا الملك من ملوك الصقالبة ملك الإفرنج ، وله مدن وعمائر كثيرة وجيوش واسعة ، وعدد كثير ، ويحارب الروم والافرنج والنوكبرد ، وغير هؤلاء من الأمم ، والحرب بينهم سجال

ثم يلي هذا الملك من بلاد الصقالبة ملك الترك ، وهذا الجنس أحسن الصقالبة صورة ، وأكثرهم عددا ، وأشدّهم بأسا

والصقالبة أجناس كثيرة ، وأنواع واسعة ، لا يأتي كتابنا هذا على وصف أجناسهم وتفریع أنواعهم ، وقد قدمنا الأخبار عن الملك الذي كان ينقاد إليه ملوكهم في قديم الزمان ، وهو ماجل ولينانا ، وهذا الجنس أصل من أصول الصقالبة معظّم في أجناسهم ، وله قدم فيهم

ثم اختلفت الكلمة بين أجناسهم ؛ فزال نظامهم ، وتحزبت أجناسهم ، وملك كل جنس منهم ملكا على حسب ما ذكرنا من ملوكهم لأمر يطول ذكرها وقد أتينا على جمل من شرحها وكثير من مبسوطها في كتابنا « أخبار الزمان » من الأمم الماضية ، والأجيال الخالية ، والممالك الدائرة

ذكر الافرنجة والجلالقة وملوكها

الافرنجة والصقالبة والنوكرد والأسنان ويأجوج وماجوج والترك والخزر وبرجان واللان والجلالقة وغير من ذكرنا ممن حل الجرا ، وهو الشمال ، لا خلاف بين أهل البحث والنظر من الشرعيين أن جميع من ذكرنا من هؤلاء الأمم من ولد يافث بن نوح ؛ فالافرنجة أشد هؤلاء الأجناس بأسا ، وأمنعهم هيبة ، وأكثرهم عدّة ، وأوسعهم ملكا ، وأكثرهم مدنا ، وأحسنهم نظاما واثقبادا لملوكهم ، وأكثرهم طاعة ؛ إلا أن الجلالقة أشد من الافرنجة بأسا ، وأعظم منهم نكاية ، والرجل من الجلالقة يقاوم عدة من الافرنجة ، وكلمة الافرنجة متفقة على ملك واحد ، لاتنازع بينهم في ذلك ، ولا تحزب ، واسم دار مملكتهم في وقتنا هذا نومرة ، وهى مدينة عظيمة ، ولهم من المدن نحو من خمسين ومائة مدينة غير العائر والكور ، وكان أوائل بلاد الافرنجة قبل ظهور الإسلام في البحر جزيرة رودس ، وهى الجزيرة التى ذكرنا أنها مقابلة للاسكندرية ، وأن فيها دار صناعة المراكب فى وقتنا هذا للروم ، ثم جزيرة إقريطش ، وقد كانت للافرنجة أيضا ففتحها المسلمون وزلواها إلى هذه الغاية ، وكانت بلاد إفريقية وجزيرة صقلية للافرنجة أيضا ، وقد أتينا على أخبار هذه الجزائر وخبر الجزيرة المعروفة بالبركان ، وهى الأظمة التى يخرج منها أجسام من النار كأجساد الناس بلارءوس ؛ فتعلو فى الهواء بالليل ، ثم تسقط فى البحر فتطفو على الماء ، وهى الحجارة التى يحك بها الكتابة من الدفاتر ، وهى خفاف بيض على هيئة الشهد وأكوار الزناير الصغار ، وهى الأظمة المعروفة بأظمة صقلية ، وفيها هلك مرقونوس الحكيم الذى صنف كتاب إيساغوجى ، وهو المدخل إلى علم المنطق ، وهذا الكتاب بهذا الرجل يعرف ، وكذلك أتينا على ذكر سائر أطام الأرض : كأظمة وادى برهوت من بلاد حضرموت وبلاد الشحر ، وأظمة بلاد الزنج من

بحر الصين ، وأطمة بلاد أسك ، وهى ما بين بلاد فارس ، وهذه النار ترى بالليل من نحو عشرين فرسخا ، وهى مشهورة بأرض الاسلام ، وتفسير أطمة هى عين النار التى تعرض من الأرض ، ولم نتعرض فى هذا الكتاب لذكر الخاصة الكبرى والزاجية ، ولا الحمامات التى تظهر من مائها النار كالخاصة التى ببلاد ماسبذان من أرض أذربيجان والنهران والصيمرة ، وهذه الخاصة فى قرية من قرى أذربيجان يقال لها القومان ، وهى أطمة تظهر من وسط مائها النار ، وهى أطمة عجيبة تمتع ورود الماء عن إطفائها ، وتدفعه بشدة قوتها وسلطان لهبها ، وهى إحدى عجائب العالم ؛ إذ كنا قد أتينا على جميع ذلك فيما سلف من كتبنا ، وقد أتينا على منافع أنواع المياه بجوامع ذكرناها ، ولمع لَوْحنا بها ، فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا الواحات من بلاد مصر ؛ وإن كنا قد أتينا على مبسوط ذلك فيما تقدم من كتبنا

ذكر النوبرد وملوكها

قد تقدم ذكرنا للنوبرد ، وأنهم من ولد يافت بن نوح ، وبلادهم متصلة بالمغرب ، ومحلمهم بالجزا ، ولهم جزائر كثيرة فيها أمم من الناس ، وهم ذوو بأس شديد ومنعة ، ولهم مدن كثيرة يجمعهم ملك واحد ، وأسماء ملوكهم فى سائر الأعصار « أركيس » والمدينة العظمى من مدنها ودار مملكتهم هى تبت ، ويحترقها نهر عظيم ، وهى جانبان ، وهذا النهر أحد أنهار العالم الموصوفة بالكبر والعجائب يقال له سانيط ، قد ذكره جماعة ممن عنى بهذا المعنى ممن تقدم ، وكان المسلمون ممن جاؤهم من بلاد الأندلس والمغرب غلبوهم على مدن كثيرة من مدنها مثل مدينة تارة طارينو

قال المسعودى : وجدت فى كتاب وقع إلى القسطنطينية بمصر سنة ست وثلاثين وثلثمائة أهداه عرمار الأسقف بمدينة زهرة من مدن الإفرنجية فى سنة ثمان

وعشرين وثلاثة إلى الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن عبد الملك بن مروان ابن الحكم ولى عهد أبيه عبد الرحمن صاحب الأندلس فى هذا الوقت فى عهده : يا أمير المؤمنين ، إن أول ملوك إفريقية قلوذويه ، وكان مجوسيا فتنصر هو وابنه لذريق وابنه دفشرت ، ثم ولى بعده ابنه « لذريق » ، ثم ولى بعده « قركان » ابن دفشرت ، ثم ولى بعده ابنه « تنين » ثم ولى بعده « نازلة بن تنين » وكانت ولايته ستا وعشرين سنة ، وكان فى أيام الحكم صاحب الأندلس ، وقد توقع أولاده ووقع الاختلاف بينهم ، حتى تغانت الإفريقية بسببهم ، وصار لذريق بن نازلة صاحب ملكهم ، فملك ثمانيا وعشرين سنة وستة أشهر ، وهو الذى أقبل إلى طرطوشة فحاصرها ، ثم ولى بعده ابنه « نازلة » وهو الذى تهادى مع محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان ، وكان محمد يخاطب بالإمام ، وكانت ولايته تسعا وثلاثين سنة وستة أشهر ، ثم ولى بعده ابنه « لذريق » ستة أعوام ، ثم وثب عليه قائد الإفريقية المسمى برشة ، وملك إفريقية ، فأقام فى ملكهم ثمان سنين ، وهو الذى صالح المجوس عن بلده سبع سنين بسمائة رطل ذهب وسمائة رطل فضة يؤديها صاحب الإفريقية إليه ، ثم ولى بعده « نازلة بن بغيرة » أربع سنين ، ثم ملك بعد نازلة أخوه ، ومكث إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ، ثم ولى بعده « لذريق بن نازلة » وهو ملك إفريقية إلى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، واستوت مملكته عشر سنين إلى هذا التاريخ على حسب ما نرى إلينا من خبره

قال المسعودى : وأشد ما على الأندلس من الأمم المحاربة لهم الجلاقة ، كما أن الإفريقية حرب لهم ، غير أن الجلاقة أشد بأسا ، وقد كان لعبد الرحمن بن محمد صاحب الأندلس فى هذا الوقت وزير من ولد أمية يقال له أحمد بن إسحاق

فقبض عليه عبد الرحمن لأمر كان منه استحق عليه في الشريعة العقوبة ؛ فقتله عبد الرحمن ، وكان للوزير أخ يقال له أمية في مدينة من ثغور الأندلس ، يقال لها سيرين ، فلما نمي إليه ما فعل بأخيه عصى على عبد الرحمن ، فصار في حيز ردمير ملك الجلالة ، فأعانه على المسلمين ، ودلّه على عوراتهم ، ثم خرج أمية في بعض الأيام من المدينة يتصيد في بعض متنزهاتها فغلب على المدينة بعض غلمانه ، ومنعه من الدخول إليها ، وكتب إلى عبد الرحمن ، ومضى أمية بن إسحق أخو الوزير المقتول إلى ردمير ، فاصطفاه ، واستوزره ، وصيره في جملته ، وغزا عبد الرحمن صاحب الأندلس بثورة مملكة الجلالة المتقدمة صفة بنيانها وأسوارها في باب جمل الأخبار عن البحار وما فيها وما حولها من العجائب والأمم ومراتب الملوك وأخبار الأندلس وغير ذلك ، وكان عبد الرحمن في مائة ألف أو يزيدون ، فكانت وقعة بينه وبين ردمير ملك الجلالة في شوال سنة سبع وعشرين وثلثمائة بعد الكسوف الذي كان في هذا الشهر ثلاثة أيام ، وكانت للمسلمين عليهم ، ثم أنابوا بعد أن حوصروا وأولجوا إلى المدينة فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندق خمسين ألفا ، وقيل : إن الذي منع ردمير من طلب من نجا من المسلمين أمية بن إسحق ، وخوفه الكمين ، ورغبه فيما كان في معسكر المسلمين من الأموال والعدد والخزائن ، ولولا ذلك لآتى على جميع المسلمين ، ثم إن أمية بعد ذلك استأمن إلى عبد الرحمن ، وتخلص من ردمير ، فقبله عبد الرحمن أحسن قبول ، وقد كان عبد الرحمن بعد هذه الوقعة جهز عساكر مع عدة من قواده إلى الجلالة ، وكانت لهم معهم حروب هلك فيها من الجلالة ضعف ما قتل من المسلمين في الوقعة الأولى ، وكانت للمسلمين عليهم إلى هذه الغاية ، وردمير ملك الجلالة إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - وكان قبله على الملك أردون الفرس ، والجلالة والافرنجة تدين بدين النصرانية على رأى الملكية

رجع الحديث : ومدينة طارينو ومدينة سيرين وغيرهما من مدنها السكبار
سكنها المسلمون مدة من الزمان

ثم إن النوبرد أنابوا ورجعوا على من كان في تلك المدن من المسلمين ،
فأخرجوهم عنها بعد حرب طويل ، وما ذكرنا من المدن في وقتنا هذا - وهو
سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة - في أيدي النوبرد

قال المسعودي : وما ذكرنا من الجلائقة والإفرنجية والصقالبة والنوبرد
وغيرها من الأمم فديارهم متقاربة ، والأكثر منهم حرب لأهل الأندلس في هذا
الوقت ذو منعة وقوة عظيمة على ما قدمنا من نسبه وأخباره ، وقد كان عبدالرحمن
ابن معاوية بن هشام سار إلى الأندلس في أول دولة بني العباس ، وله أخبار
كثيرة في كيفية وصوله إلى الأندلس ، ودار مملكة الأندلس قرطبة على ما ذكرنا ؛
ولهم مدن كثيرة ، وعمائر واسعة ، وثغور في أطراف أرضهم ، وربما يجتمع عليهم
من جاورهم من الأمم من ولد يافت من الجلائقة وبرجان والإفرنجية وغيرها من
الأمم ، وصاحب الأندلس في هذا الوقت يركب في مائة ألف ، وهو ذو منعة
بالرجال والمال والكرام والعدد ، والله أعلم

ذكر عاد وملوكها

ذكر جماعة من ذوى العناية بأخبار العالم أن المَلِك يُؤَثَّر من بعد نوح في عاد
الأولى التي بادت قبل سائر ممالك العرب كلها ، ومصدق ذلك قوله عز وجل :
(وأنه أهلك عادا الأولى) فانه يدل على تقدمهم ، وأن هناك عادا ثانية ، وأخبر
الله عن ملكهم ، ونطق بشدة بطشهم ، وما بنوه من الأبنية المشيدة التي تدعى
على مر الدهور العادية ، وقد أخبر الله تعالى عن قول نبيه هود عليه السلام وخطابه
إياهم : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم
بطشتم جبارين)

وعاد أول من ملك في الأرض من هذه الطائفة بعد أن أهلك الله عز وجل الكفار من قوم نوح ، وذلك لقوله تعالى : (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة) وذلك أن هؤلاء القوم كانوا في هيات النخل طولا ، وكانوا في اتصال الأعمار وطولها بحسب ذلك من القدر ، وكانت نفوسهم قوية ، وأكبادهم غليظة ، ولم يكن في الأرض أمة هي أشد بطشا وأكثر آثارا وأقوى عقولا وأكثر أحلاما من قوم عاد ، ولم يكن الهلك يعرض في أجسامهم ؛ لقوة آثار الطبيعة فيها ، وما أوتوه من الزيادة إلى تمام البنية وكمال الهيئة على حسب ما أخبر الله عز وجل

وكان عاد رجلا جبارا عظيم الخلقة ، وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وكان عاد يعبد القمر ، وذكروا أنه رأى من صلبه أربعة آلاف ولد ، وأنه تزوج ألف امرأة ، وكانت بلاده متصلة باليمن ، وهي بلاد الأحقاف ، وبلاد سنجار وبلاد عمان إلى حضر موت على حسب ما قدمنا آنفا فيما سلف من هذا الكتاب وغيره من كتبنا

وقد ذكر جماعة من الأخباريين - ممن غنى بأخبار العرب - أن عادا لما توسط العمر اجتمع له الولد وولد الولد ، ورأى البطن العاشر من ولده ، وظهور الكثرة مع تشييد الملك واستقامة الأمر ؛ غمر إحسانه الناس ، وقرى الضيف ، وأحواله منتظمة ، والدنيا عليه مقبلة ، فعاش ألف سنة ومائتي سنة ثم مات

وكان الملك بعده في الأكبر من ولده ، وهو « شديد بن عاد » وكان ملكه خمسمائة سنة وثمانين سنة ، وقيل غير ذلك

ثم ملك بعده أخوه « شداد بن عاد » وكان ملكه تسعمائة سنة ، ويقال : إنه احتوى على سائر ممالك العالم ، وهو الذي بنى مدينة إرم ذات العماد ، على حسب ما قدمنا فيما سلف من كتبنا عند إخبارنا عن هذه المدينة ، وتنازع الناس في كيفيتها وماهيتها ، وفي أي بلاد هي

وهذه عاد الثانية التي ذكرها الله تعالى فقال : (ألم تركيف فعلر بك بعد إرم ذات العماد) وإلى هذه المدينة انتهى البطش ، ولشداد بن عاد سير في الأرض ، وطواف في البلاد عظيم : في ممالك الهند وغيرها من ممالك الشرق والغرب ، وحروب كثيرة ، أعرضنا عن ذكرها لشرط الاختصار ، ومَعَوْلَنَا في ذلك على ما بسطناه من أخبارهم في كتاب « أخبار الزمان : من الأمم الماضية ، والأجيال الخالية ، والممالك الدائرة » وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب - عند ذكرنا تفرق الناس قبائل وتشعب الأنساب ، وما قالوا في ذلك من الأشعار - جملا من أخبار عاد ونيبها هود ، فأما تنازع الناس ممن سلف وخلف في العلة التي بها عظمت أجسامهم وطالت أعمارهم فقد أتينا على ذكر ذلك في كتابنا المترجم : « كتاب الروس السبعية من السياسة الملوكية » وكذلك في كتابنا المترجم : « كتاب الزلف »

ذكر ثمود وملوكها ، وصالح نبيها

قد ذكرنا فيما سلف ذكر ثمود في غير هذا الكتاب ، وكان ملك ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح بين الشام والحجاز إلى ساحل البحر الحبشى ، وديارهم بفتح الناقة ، وبيوتهم إلى وقتنا هذا أبنية منحوتة في الجبال ، ورمهم باقية ، وآثارهم بادية ، وذلك في طريق الحاج لمن ورد من الشام بالقرب من وادى القرى ، وبيوتهم منحوتة في الصخر بأبواب صغار ، ومساكنهم على قدر مساكن أهل عصرنا ، وهذا يدل على أن أجسامهم على قدر أجسامنا ، دون ما يخبر به القصص من بعد أجسامهم ، وليس هؤلاء كعاد إذ كانت آثارهم ومواضع مساكنهم وبنينهم بأرض الشعر تدل على بعد أجسامهم

وكان ملك الملك الأول من ملوكهم مائتي سنة ، وهو عاد بن إرم بن ثمود ابن عابر بن إرم بن سام بن نوح

ثم ملك بعده « جندع بن عمرو » بن الدليل بن إرم بن ثمود بن عابر بن إرم ابن سام بن نوح ، وكان ملكه إلى أن هلك مائتي سنة وتسعين سنة ، وملك جندع هذا بعد أن كان من أمـر صالح النبي صلى الله عليه وسلم ما كان على ما ذكرنا أربعين سنة ، فجميع ممالك هذا الملك - وهو جندع - ثلثمائة وسبع وعشرون سنة ، فهؤلاء ملوك ثمود

و بعث الله صالحا نبيا وهو غلام حدث ثمود على فترة كانت بينه وبين هود نحو من مائة سنة ، فدعاهم إلى الله ، وملكهم يومئذ هو جندع بن عمرو على ما ذكرنا ؛ فلم يجب صالحا من قومه إلا نفريسير ، وكبر صالح ، ولم يزد قومه من الإيمان إلا بعدا ، فلما تواتر عليهم إعداره وإنذاره ووعدته ووعيده ساموه المعجزات ، وإظهار العلامات ؛ ليمنعوه من دعائهم ، وليعجزوه عن خطابهم ، فحضر عيد لهم ، وقد أظهروا أوثانهم ، وكان القوم أصحاب إبل ، فساموه الآية من جنس أموالهم ، وطلبوه بما هو مجانس لأملأكمهم ، من بعد اتفاق آرائهم ، فقال له زعيم من زعمائهم : يا صالح ، إن كنت صادقاً في قولك ، وأنتك معبر عن ربك ؛ فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة ، ولتكن وبراء سوداء عشراء نتوجا حالكة صافية اللون ذات عرف وناصية وشعرووبر ، فاستغاث بربه ، فتحركت الصخرة وتململت ، وبدا منها حنين وأنين ، ثم انصدعت من بعد تمخض شديد كتمخض المرأة حين الولادة ، وظهر منها ناقة على ما طلبوه من الصفة ، ثم تلاها من الصخرة سقب لها نحوها في الوصف ، فأمعنا في رعي الكلاء وطلب المرعى ، فأمن خلق ممن حضره ، وزعيمهم الذي سأله وهو جندع بن عمرو ، وأقامت الناقة يحلبون من لبنها ما يعم شربه ثمود كلها ، وضايقتهم في الكلاء والماء ، وكان في ثمود امرأتان ذواتا حسن وجهال ، فزرها رجلان من ثمود ، وهما قدار بن سالف ومصدع بن مفرج ، والمرأتان عزيزة بنت زعيم وصدوف بنت الحيا ، فقالت صدوف : لو كان لنا في

صالح رسول
الله إلى ثمود

هذا اليوم ماء لأستقينا كم خمرا ، وهذا يوم الناقة ووردوها ، ولا سبيل لنا إلى الشرب ، فقالت عذينة : بلى والله لو أن لنا رجلا لدفنونا بإياها ، وهل هى إلا بعير من الابل ؟ !! فقال قدار : ياصدوف ، إن أنا كفيتك أمر الناقة فمالى عندك ؟ فقالت : نفسى ، وهل حائل دونها عنك ؟ فأجابت الأخرى صاحبها بنحو ذلك ، فقالا : ميلا علينا بالخمير ، فشربا حتى توسطنا السكر ، ثم خرجا فاستغويا تسعة رهط ، وهم التسعة الذين أخبر الله تعالى عنهم فى كتابه بقوله : (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) وقصدوا طريق الناقة فى حال صدورها ، فضرب قدار عرقوبها بالسيف ، فعرقبها ، واتبع صاحبها الآخر العرقوب الآخر ، فخرت الناقة لوجعها ، ووجأ قدار لبتئها فنحرها ، ولاذ السقب بصخرة فاحقته بعضهم فعقره ، وورد صالح فنظر إلى ما فعلوه ، فوعدهم العذاب ، وكان ذلك فى يوم الأربعاء ، فقالوا له مستهزئين : يا صالح ، متى يكون ما وعدتنا به من العذاب عن ربك ؟؟ فقال : تصبح وجوهكم يوم مونس - وهو يوم الخميس - مصفرة ، ويوم العروبة محمرة ، ويوم شيار مسودة ، ثم يصبحكم العذاب يوم أول ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب أسماء الشهور والأيام بلغتهم ، فهم التسعة بقتل صالح ، وقالوا : إن كان صادقا كنا قد عاجلناه قبل أن يعاجلنا ، وإن كان كاذبا كنا قد ألحقناه بناقته ، فأتوه ليلا ، فحالت الملائكة بينهم وبينه ، وأمطرتهم الحجارة ، ومنعه الله منهم ، فلما أصبحوا نظروا إلى وجوههم كما وعدهم صفراء كأنها الورس : قد حالت الألوان ، وتغيرت الأجسام ، وتيقن القوم صدق الوعيد ، وأن العذاب واقع بهم ، وخرج صالح فى ليلة الأحد من بين ظهرانهم مع من خف من المؤمنين ، فنزل موضع مدينة الرملة من بلاد فلسطين ، وأتاهم العذاب يوم الأحد ، وفيهم يقول بعض من آمن بصالح عليه السلام :

أراكم يا رجال بنى عتيد كأن وجوهكم طليت بؤرس

ويوم عروبة أحمّرت وجوه مصفرة ونادوا يال مرس
ويوم شيار فاسودت وجوه من الحيين قبل طلوع شمس
فلما كان أول في ضحاه أتهم صيحة عمت بتعس
وفيههم يقول حتاف بن عمرو ، وكان ممن اعترلهم من المؤمنين ، وبان عن
ديارهم : —

كانت ثمود ذوى عز ومكرمة ما إن يُضام لهم في الناس من جَارِ
لا يرهبون من الأعداء حولهم وقَعَ السيوف ولا نزعا بأوتار
فأهلكوا ناقة كانت لرَبِّهم قد أنذروها وكانوا غير أنذار
نادوا قدارا ولحم السقب بينهم هل للعجول وهل للسقب من ثار
لم يرعيا صالحا في عقر ناقته وأخفروا العهد هذياً أى إخفار
فصادفوا عنده من ربه حرّساً فشدّخوا روسهم شدخا بأحجار
وسند كر فيما يرد من هذا الكتاب - عند ذكرنا لتفرق الناس مما يلي -
من أخبار ثمود جملا ، وما كان من أمر الناس بأرض بابل ، وافتراق
لغاتهم ، وما قاله كل فريق منهم من الشعر ؛ على حسب ما أعطاه الله من اللسان
وإن كنا قد أتينا على شرح ذلك على الكمال فيما تقدم لنا من كتابنا « أخبار
الزمان » وبالله التوفيق

ذكر مكة واخبارها وبناء البيت

ومن تداوله من جرهم وغيرها ، وما لحق بهذا الباب

ولما أسكن إبراهيم ولده إسماعيل مكة مع أمه هاجر ، واستودعه خالقه على حسب ما أخبر الله عنه أنه أسكنه بواد غير ذي زرع ، وكان موضع البيت ربوة حمراء ؛ أمر إبراهيم هاجر أن تتخذ عليه عريشاً يكون لها مسكناً ، وكان من ظمأ إسماعيل وهاجر ما كان إلى أن أنبع الله لهما زمزم ، وأقحط الشجر واليمن ، فنفرق العماليق وجرهم في البلاد ، ومن هناك من بقايا عاد ، فبقيت العماليق نحو تهامة يطلبون الماء والمرعى والدار الحصينة ، وعليهم السميذع بن هود بن لابي بن قنطور بن كركر بن حيدان ، فلما أمعنت بنو كركر في المسير — وقد عدت الماء والمرعى ، واشتد بها الجهد — أقبل السميذع بن هود يحثهم على السير في شعره ، ويشجعهم بما قد نزل بهم ، وهو : -

سيروا بنى الكركر في البلاد إني أرى ذا الدهر في فساد

قد سار من قحطان ذي الرشاد جرهم لما هدّها التعادى

فأشرف رؤّادهم - وهم المتقدمون لطلب الماء - على الوادى فنظروا الطير ترتفع وتنخفض ، فهبطوا الوادى ونظروا إلى العريش على الربوة الحمراء ، وفيها هاجر وإسماعيل ، وقد زمت حول الماء بالأحجار ومنعته من الجريان ، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «رحم الله أمنا هاجر ؛ لولا أنها بخلت ومنعت ماء زمزم من أن يجرى بما حوطت حوله من الأحجار لجرى الماء على وجه الأرض» فسلم الرؤّاد عليها ، واستأذنها في نزولهم وشرابهم من الماء ، فأنست إليهم ، وأذنت لهم في النزول ، فتلقوا من كان وراءهم من أهلهم ، وأخبروهم خبر الماء فزلوا الوادى مطمئنين ، مستبشرين بالماء ، وبما أضاء الوادى من نور النبوة وموضع البيت الحرام ، وتكلم إسماعيل بالعربية خلاف لغة أبيه

وقد ذكرنا في هذا الكتاب وغيره ماقاله الناس في ذلك من قحطان ونزار
وتزوج إسماعيل بالجداء بنت سعد العملاق

وقد كان إبراهيم استأذن سارة في زيارة إسماعيل ، فأذنت له ، فوافى مكة ^{زيارة إبراهيم}
وإسماعيل في الصيد ومعه أمه هاجر ، فسلم على الجداء زوجة إسماعيل ، فلم ترد عليه
السلام ، فقال : هل من منزل ؟ فقالت : لاها الله ، قال : فما فعل رب البيت ؟
قالت : هو غائب ، فقال لها : إذا ورد فأخبريه أن إبراهيم يقول لك بعد مسئلته
عنك وعن أمك : استبدل بعتبة بيتك غيرها ، وانصرف إبراهيم من فوره نحو
الشأم ، وراح إسماعيل وهاجر فنظرا إلى الوادي قد أشرق وأنار ، والأغنام تتنسم
الآثار ، فقال لزوجته الجداء : هل كان لك بعدى من خبر ؟ قالت : نعم ، شيخ
وَرَدَ على ، وأخبرته بالقصة ، فقال : ذاك أبى خليل الرحمن ، وقد أمرنى بتخليتك ،
فالحق بأهلك ، فلا خير فيك

وتسامعت جرهم بنى كركر ونزولهم الوادي ، وماهم فيه من الخصب وإدرار
الضرع ، وهم في حال القحط ؛ فبادروا نحو مكة ، وعليهم الحرث بن مضاض بن عمرو
ابن سعد بن الرقيب بن ظالم بن محالة بن هي بن نبت بن جرهم ، حتى أتوا الوادي ،
ونزلوا مكة ، واستوطنوها مع إسماعيل ومن تقدمهم من العاليق من بنى كركر ، وقد
قيل في كركر : إنه من العاليق ، وقيل : إنه من جرهم ، والأشهر أنه من العاليق ،
وتزوج إسماعيل زوجته الثانية ، وهى شامة بنت مهليل بن سعد بن عوف بن هي بن نبت

واستأذن إبراهيم سارة في زيارة إسماعيل ، فاستحلفتة غيرة عليه أنه إذا أتى
الموضع لا ينزل من ركبته ، وقد تنازع الناس على أى شىء كان ركوبه : فمنهم
من قال : كان راكبا على البراق ، ومنهم من قال : على أتان ، وقيل غير ذلك
من الحيوان ، فلما أتى إبراهيم الوادي سلم على زوجة إسماعيل الجهرمية ، فسلمت
عليه ، ورحبت به ، وتلقته بأحسن لقاء ، وسألها عن إسماعيل وهاجر ، فأخبرته
بخبيرها ، وأنهما في رعيهما ، وعرضت عليه النزول ، فأبى ، وقيل : إن هاجر

تزوج إسماعيل
من جرهم

زيارة إبراهيم
مكة مرة ثانية

كانت قد ماتت ولها من السن تسعون سنة ، وألحت الجهرمية على إبراهيم في النزول ، فأبى ، فقدمت إليه لبنا وشرائح من لحم الصيد ، فدعا فيه بالبركة ، وجاءته بججر كان في البيت ، فمال عن ركابه ، وجعلته تحت قدمه اليمنى ، ثم رجّلت شعره ودهنته ، ثم حوت الحجر إلى شماله ، فوضع رجله اليسرى عليه أيضا ، ومال برأسه نحوها ، فرجلته ودهنته ، فأثرت قدماه في الحجر على ما وصفنا من ترتيب اليمن والشمال ، فلما رأت الجهرمية ذلك أكبرت ما شاهدته ، وهذا الحجر هو مقام إبراهيم ، فقال لها إبراهيم : ارفعيه ، فسيكون له شأن ونبا بعد حين ، ثم قال لها : إذا جاءك إسماعيل فقل له : إن إبراهيم يقرأ عليك السلام ويقول لك : احتفظ بعتبة بيتك ، فنعمت العتبة هي ، وسار إبراهيم راجعا نحو الشام

سر تسمية
إسماعيل

وقيل : إنما سمي إسماعيل لأن الله سمع دعاء هاجر ورحمها حين هربت من سيدتها سارة أم إسحق ، وقيل : إن الله سمع دعاء إبراهيم وقبض إسماعيل وله مائة وسبع وثلاثون سنة ؛ فدفن في المسجد الحرام حيال الموضع الذي فيه الحجر الأسود

أبناء إسماعيل

وولد لإسماعيل اثنا عشر ولدا ذكرًا ، وهم : نابت^(١) ، وقيدر ، وأذبل ، ومسيم ومسمع ، ودمّا ، ودوام ، ومشى ، وحداد ، ونيم ، ويطور ، ونابش ، وكل هؤلاء قد أنسل

بناء الكعبة

وقد كان إبراهيم قدم إلى مكة ولاسماعيل ثلاثون سنة ، حين أمره الله تعالى ببناء البيت فبناه ، وكان إسماعيل يأتي بالحجر من عشرة جبال ذكرت ، وطوله ثلاثون ذراعا ، وعرضه اثنان وعشرون ذراعا ، وسمكه سبعة أذرع ، وجعل له بابا ، ولم يستقف ، ووضع الركن موضعه ، وألصق المقام بالبيت وذلك قوله عز وجل : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل - الآية) وأمر الله تعالى إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج

(١) في بعض هذه الاسماء اختلاف كثير ، وقد رأينا بقاءه كما في الأصول

ولما قبض إسماعيل قام بالبيت بعده نابت بن إسماعيل ، ثم قام من بعده أناس
من جرهم لغلبة جرهم على ولد إسماعيل ، وكان ملك جرهم يومئذ الحرث بن
مضاض ، وهو أول من ولى البيت ، وكان ينزل هناك في الموضع المعروف
بقعيقعان في هذا الوقت ، وكان كل من دخل مكة بتجارة عَشْرَهَا عليه ، وذلك
في أعلى مكة ، وملك العماليق السמידع بن هود بن حدر بن مازن بن لاي بن
قنطورا ، وكان ينزل أجبادا من أسفل مكة ، وكان يُعَشَّر من دخل مكة من
ناحيته ، وكانت بينهم حروب ؛ فخرج الحرث بن مضاض ملك جرهم تتقفع
معه الرماح والدرق ، فسمى الموضع بقعيقعان لما ذكرنا ، وخرج السמידع ملك
العماليق ومعه الجياد من الخيل فعرف الموضع بأجباد إلى هذا الوقت ، فكانت
على الجرهميين ، وافترضوا ، فسمى الموضع فاضحا إلى هذا الوقت ، ثم اصطاحوا
ونحروا الجزر وطبخوا فسمى الموضع بطابخ إلى الآن ، وصارت ولاية البيت إلى
العماليق ، ثم كانت لجرهم عليهم ، وأقاموا ولاية البيت نحو ثلثمائة سنة ، وكان آخر
ملوكهم الحرث بن مضاض الأصغر بن عمرو بن الحرث بن مضاض الأكبر ،
وزادوا في بناء البيت ورفعته على ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السلام ،
وبغت جرهم في الحرم وطغت ، حتى فسق رجل منهم في الحرم بامرأة ، وكان
الرجل يدعى بإساف والمرأة نائلة ، فسخهما الله عز وجل حجرين صيّرا بعد ذلك
وثنيين وعبدا تقربا بهما إلى الله تعالى ، وقيل : بل هما حجران تحتا ومثلا بمن
ذكرنا وسميا بأسمائهما ؛ فبعث الله على جرهم الرعاف والنمل وغير ذلك من الآفات
فهلك كثير منهم ، وكثر ولد إسماعيل وصاروا ذوى قوة ومنعة ، فغلبوا على أخوالهم
جرهم ، وأخرجوهم من مكة ، فاحتقوا بجهينة فأتاهم في بعض الليالى السيل فذهب
بهم ، وكان الموضع يعرف بإضم ، وقد ذكر ذلك أمية بن أبى الصلت الثقفي في
شعر له فقال : —

وجرهم دمشوا تهماة في الد هر فسالت بجمعهم إضم

إساف ونائلة
صنان

وفي ذلك يقول الحرث بن مضاض الأصغر الجرهمي : —

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيسٌ ، ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العوائر
وكنا لاسماعيل صهراً ووصلة ولما تدرُ فيها علينا الدوائر
وكنا ولاية البيت من بعد نابت نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
فبسدُّنا ربيَّ بها دارَ غربة بها الذئب يعوى والعدو المحاصر

وفيما ذكرنا من أخبارهم يقول عمرو بن الحرث بن مضاض الأصغر الجرهمي : —

وكنا ولاية البيت والقاطن الذي إليه يُودَى نذرُه كُلُّ محرم
سكنَّا بها قبل الظباء وراثة لها عن بني هَيَّ بن نبت بن جرهم

وفي ذلك يقول : —

كَهَفْنَا جرهم وأَيَّةُ كَهَفٍ وَوَلَاةٌ لبيته والحجاب
فَسَقُوا في الحرام بعد تقاهم واستعاضوا العقاب بعد الثواب

ثم صارت ولاية البيت في ولد إياد بن نزار بن معد ، وكانت حروب كثيرة

بين مضرو إياد ، وكانت لمضر على إياد ، فأنجلوا عن مكة إلى العراق

وسنورد بعد هذا جملاً من أخبار مكة وولد نزار وخزاعة وغيرهم

قال السعودي : وقد أتينا على جمل من الأخبار في هذا الباب من أخبار

جرهم وغيرها ، ووجدت في وجه آخر من الروايات أن أول ملك من ملوك جرهم
ملك بمكة مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هَيَّ بن نبت بن جرهم بن
قحطان مائة سنة ، ثم ملك بعده ابنه عمرو بن مضاض مائة وعشرين سنة ، ثم
ملك بعده الحرث بن عمرو مائتي سنة ، وقيل دون ذلك ، ثم ملك بعده عمرو
ابن الحرث مائتي سنة ، وقيل دون ذلك ، ثم ملك مضاض بن عمرو الأصغر بن
الحرث بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هَيَّ بن نبت بن جرهم بن قحطان
أربعين سنة

رواية أخرى
في الولاية بمكة

وانقرضت العرب العاربة من عاد وثمود وعيتيد وطسم وجديس والعماليق
وإياد وجهرهم ، ولم يبق من العرب إلا من كان من عدنان وقحطان ، ودخل
من بقي ممن ذكرنا من العرب البائدة في عدد قحطان وعدنان ؛ فانمحت أنسابهم ،
وزالت آثارهم

العماليق وقد كانت العماليق بغت في الأرض ؛ فسلط الله عليهم ملوك الأرض فأفنتها ،
وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا للروم وأنسابها من لحق بولد
عملاق وغيرهم : فممن ذكرنا ولد عيص بن إسحق بن إبراهيم عليهما السلام ،
وأن علماء العرب تنسبهم إلى غير هذا النسب ، وهو الأشهر في الناس ، وقد رثتهم
الشعراء : فقال بعض من رثاهم : —

مضى آل عملاق فلم يبق منهم خطير ، ولا ذو نخوة متشاوس
عتوا فادّال الله منهم وحكمه على الناس هذا وعده وهو سائس

وأما طسم وجديس فتفانت في نحو من سبعين سنة في البراري ؛ بما كان
بينهم من الشحناء ، وطلب الرياسة ، فدثروا ، ولم يبق لهم باقية ، فضربت بهم
العرب المثل ، وضربت بهم الشعراء المقال ؛ فمن ذلك ما قاله بعض الشعراء ممن
رثاهم في قوله : —

فويلي من جوى همّ رسيس من اللاؤ والطسم أوجديس
بنو عم تقانوا بالمذاكي وباليوم الأحم العيطموس

وأما الرس وأصحابه فقد قدمنا ذكرهم فيما سلف من كتبنا ، وهم قوم حنظلة أصحاب الرس
ابن صفوان العبسي ، بعثه الله إليهم ، فكذبوه ، وقد ذكرنا من خبره لمعا ، وقد
قيل في أصحاب الرس أوجه كثيرة غير ما ذكرنا في هذا الكتاب ، وقد ذكرت
هذه القبائل في التوراة ، وكل يرجع إلى ولد سام بن نوح : من بني إرم بن سام
ومن ولده عوص بن إرم ، ومن ولده عابر بن إرم ، ومن ولده ماش بن إرم

فولد عوص عاد بن عوص ، وولد عابر ثمود بن عابر ، وولد ماش بن إرم
 نبيط بن ماش ؛ فصار النبط وملوكها ترجع في أنسابها إلى نبيط بن ماش
 فحلَّ عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وولده الأحقاف من بلاد
 حضرموت ، وحلَّ ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح وولده أكناف الحجاز ،
 وحلَّ جدیس بن عابر بلاد جَوِّ ، وهی بلاد الیمامة مابین البحرین والحجاز ، وهذا
 البلد فی هذا الوقت - وهو سنة اثنتین وثلاثین وثلاثمائة - بیدولد الأخیضر العلوئی ،
 وهو من ولد الحسن بن علی بن أبی طالب رضی الله عنه ، وهو مجاور للبحرین ،
 ومن فیها إلى هذا الوقت ، وحلَّ طسم بن لوذ بن سام بن نوح وولده الیمامة مع
 بنی جدیس ، وحلَّ عملوق بن أد بن سام بن نوح الحجاز ، وقد ذکرنا ولد
 عیلام فیما سلف من هذا الكتاب أنهم حلوا الأهواز وفارس ، وهو عیلام بن
 سام بن نوح ، وحلَّ نبيط بن ماش بن إرم بن سام بن نوح بابل ، فغلبوا علی
 العراق ، وهم النبط ، ومنهم ملوک بابل الذین قدمنا ذکرهم ، وأنهم الملوک الذین
 عمروا الأرض ، ومهدوا البلاد ، وكانوا أشر ملوک الأرض ، فأدال منهم
 الدهر ، وسلبهم الملك والعز ، فصاروا علی ما هم علیه من النذل فی هذا الوقت
 بالعراق وغيرها

وقد زعم جماعة من المتكلمين - منهم ضرار بن عمرو بن ثمامة بن الأشرس
 وعمر بن بحر الجاحظ - أن النبط خير من العرب ؛ لأن من جعل الله تبارك
 وتعالى النبي صلى الله عليه وسلم منهم لم يدع أكثر شرف في الدنيا إلا وقد أعراهم
 منه وسلبهم إياه ، ولا نعمة على من جعل الله تعالى النبي عليه السلام منهم أكبر
 من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا بلوى على من لم يجعل الله عز وجل النبي صلى
 الله عليه وسلم منهم أكبر من خروج النبي صلى الله عليه وسلم عنهم ، إلا أنهم
 مع هذا كله لهم عند الله فضل ما بين النعمة والبلاء

دعوى
 الشعبية والرد
 عليهم

قال المسعودی : ولما لم یبال من قدمنا ذکره من تشریف النبط وتفضيلهم

على ولد قحطان وعدنان وفيهم الفضل والشرف من النبوة والملك والعزة قال لهم المحتج عن قحطان ونزار : إذا كان النبط قد صاروا أفضل من العرب لما امتحن الله به النبط من سلبه النبوة منهم وأنعم على العرب بكون النبي صلى الله عليه وسلم منهم فللعرب أيضا التعلق بهذه العلة التي اعتل بها النبط ، فتقول : قد صرنا بعد أفضل من النبط ؛ لما امتحننا به من سلب ما جعل الله للنبط من الفضل في شدة امتحانهم بسلب النبي صلى الله عليه وسلم عنهم ، والنبط أيضا قد صاروا دون العرب ؛ إذ للعرب من فضل النبي صلى الله عليه وسلم مما جعله الله لهم بتعريتهم من فضل النبط على شدة امتحانهم بتعرية الله إياهم من النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس للنبط ، فتصير العرب أيضا خيرا من النبط ، وهذا لا يصح لهم إلا كما يصح عليهم ، والكلام متوجه عليهم فيما قالوه ، ومكافئ لعلمهم فيما أوردوه : من تفضيل النبط على العرب ، وقد ذكرنا تنازع الناس في الأنساب والفضل بها وبالأعمال دون الأنساب ، ومن قال إن العمل دون النسب ، وما قالته الشعوبية وغيرها في كتابنا « المقالات في أصول الديانات » .

وقد ذكر أبو الحسن أحمد بن يحيى في كتابه في الرد على الشعوبية عللا كثيرة ، وذكر أن من اختصه الله تعالى من عباده ، واصطفاه من خلقه ، إذ ذاك على طريق الثواب أم على طريق التفضيل ، قال : فإن زعم زاعم أن ذلك ثواب خرج من معقول كلام العرب ومفهوم خطابها ؛ لأنه لا يقال لمن أعطى الأجير أجرته ووفى العامل ثوابه : قد اختص فلان فلانا بعطيته ، وإنما يقال ذلك إذا تطوع عليه بالعطية بغير عمل ومنعها غيره بغير جرم ، وإن زعموا أنه تفضل قلنا لهم : فإذا جاز أن يصرف الله عز وجل رحمته إلى بعض خلقه بغير عمل استحقوها به فلم لا يجوز أن يشرفهم بأنسابهم وإن لم تكن الأنساب من أعمالهم ؟! فإن قالوا : ليس من العدل أن يشرفهم بغير أعمالهم ، قلنا لهم : رأيتم إن عارضكم معارض فزعم أنه ليس من العدل أن يمن عليهم برحمته دون غيرهم بغير عمل كان منهم ، وبغير

معصية كانت من غيرهم ، ماذا يكون الفضل بينكم معاشر الشعوبية وبينه وقد أخبر الله عن اصطفاه من خلقه فقال : (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) ؟ والواجب على ذي النسب الشريف ، والمجد الرفيع ، أن لا يجعل ذلك سائلا إلى التراخي عن الأعمال الموافقة لنسبه ، والاتكال على آباءه ، فإن شرف الأنساب يحض على شرف الأعمال ، والشريف بهذا أولى ؛ إذ كان الشرف يدعو إلى الشرف ، ولا يثبط عنه ، كما أن الحسن يدعو إلى الحسن ، ويحرك عليه ، وأكثر المدوحين إنما مدحوا بأعمالهم دون أنسابهم ، وهذا كثير في أشعار الناس ومثور كلامهم ، وقد قال الشاعر في هاشم بن عبد مناف وهو إمام ذوى الأنساب :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مُسْنِتُونَ عِجَافٌ
فمدحه بعمله ، ولم يذكر نسبه ، وإن كان شريفا رفيعا ، وإنما ينبغى لذوى الأنساب أن يكونوا كما قال أخوهم وشريكهم فى النسب : —

وإني وإن كنتُ ابنَ سيدِ عامر وفي السرِّ منها والصريحِ المَهْدَبِ
فما سَوَّدَتْنِي عامر عن وراثَةِ أبى الله أن أسْمُو بأُم ولا أب
ولكنني أحى حماها ، وأتقى أذاها ، وأرمى من رماها بمقنب
وكما قال الآخر : —

لَسْنَا وإن كَرَّمْتَ أوائلنا يوما على الأحساب نتكل
بنى كما كانت أوائلنا تبني وتُفعل كالذى فعلوا

قال المسعودى : ولما خرج عمرو بن عامر وولده من مأرب انخرع بنو خزاعة تلى أمر البيت ربيعة ، فنزلوا تهامة ، فسموا خزاعة لانخراعتهم ، ولما ثارت الحرب بين إياد ومضر ابني نزار وكانت على إياد قلعَت الحِجر الأسود ودفنته فى بعض المواضع ، فرأت ذلك امرأة من خزاعة ، فأخبرت قومها ، فاشتطوا على مضر أنهم إن ردوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم ، فَوَقَّوْا لهم بذلك ، ووليت خزاعة أمر البيت ، وكان أول من وليه منهم عمرو بن لُحَيٍّ ، واسم لُحَيٍّ حارثة بن عامر ، فغير دين

إبراهيم وبدله ، وبعث العرب على عبادة التماثيل ، لخبر قد ذكرناه في هذا عمرو بن لحي
الكتاب وغيره ، حين خرج إلى الشام ورأى قوما يعبدون الأصنام ، فأعطوه
أول من عبد
الأصنام
منها صنما فنصبه على الكعبة ، وقويت خزاعة ، وعم الناس ظلم عمرو بن لحي ،
وفي ذلك يقول رجل من جرهم كان على دين الحنيفة : -

يا عمرو لا تظلم بمكة إنها بلد حرام
سائل بعادٍ أين هم وكذاك تحترم الأنام
و بنى العاليق الذين لهم بها كان السوام

ولما أكثر عمرو بن لحي من نصب الأصنام حول الكعبة وغلب على العرب
عبادتها وانمحت الحنيفة منهم إلا لما قال في ذلك سحنة بن خلف الجرهمي :-

يا عمرو ، إنك قد أحدثت آلهة شتى بمكة حول البيت أنصبا
وكان للبيت ربٌّ واحد أبدا فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مهل سيصطفى دونكم للبيت حجابا
وعمر عمرو بن لحي ثلثمائة سنة وخمسا وأربعين سنة

وكانت ولاية البيت في خزاعة وفي مصر ثلاث خصال : الإجازة بالناس من
عرفة ، والافاضة بالناس غداة النحر إلى منى ، فانهى ذلك منهم إلى أبي سيارة ،
فدفع أبو سيارة من مزدلفة إلى منى أربعين سنة على حمار له ، ولم يعتل في ذلك ،
حتى أدركه الاسلام فكانت العرب تتمثل به فتقول « أصح من غير أبي سيارة »
وفي أبي سيارة يقول قائلهم :

نحن دفعنا عن أبي سيارة حتى أفاض مُحْرِمًا حماره

مستقبل القبلة يدعوا جاره

والنساء للشهور الحرم ، وكانت النساء في بني مالك بن كنانة ، وكان أولهم
القلمس^(١) حذيفة بن عبد ، ثم ولده عباد بن حذيفة ، وورد الاسلام وآخرهم أبو ثمامة

النساء

(١) في الأصول « القلمس » وفيها « ولده فيولع » والصواب ما ذكرنا عن
ابن إسحاق والوالى بعد عباد ابنه « قلع بن عباد » فالذى في الأصل تحريف عنه .

وذلك أن العرب كانت إذا فرغت من الحج وأرادت الصَّدَرَ اجتمعت إليه ، فيقوم فيهم ، فيقول : اللهم إني قد أحللت أحد الصَّفَرَيْن الصفر الأول ، وأنسأت الآخر للعام المقبل ، وظهر الإسلام وقد عادت الشهور الحرم إلى بدئها على ما كانت عليه في أصلها ، وذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » وما ذكر عليه السلام في هذا الحديث إلى آخره ، فأخبر الله عز وجل عنهم بذلك بقوله تعالى : (إنما النسيء زيادة في الكفر - الآية) وقد فخر بذلك عمرو بن قيس الفراسي فقال : —

أَلَسْنَا النَّاسِيَيْنَ عَلَى مَعَدٍّ شُهُورَ الْحَلِّ نَجْعَلُهَا حَرَامًا

وقد كان قصي بن كلاب بن مرة تزوج ابنة مليك ، ومليك هو آخر من ولي البيت من خزاعة ، وقد كان عمرو بن لحي حين عمر ما ذكرنا من السنين مات وله من الولد وولد الولد ألف ، ولما حضرت مليكا الوفاة - وهو آخر من ولي البيت من خزاعة - وقد كان عمرو على ما ذكرنا جعل ولاية البيت إلى ابنته زوج قصي ابن كلاب ، فقال : إنها لا تقوم بفتح الباب وغلقه ، فجعل ولاية البيت إليها وفتح الباب وغلقه إلى رجل من خزاعة يعرف بأبي غُبْشَانَ الخَزَاعِي ، فباعه أبو غُبْشَانَ ببيعير وزق خمر ، فأرسلت العرب ذلك مثلاً ، فقالت : « أخسر من صفقة أبي غُبْشَانَ » في بيعه لولاية البيت ببيعير وزق من الخمر ونقله ولاية البيت من قومه من خزاعة إلى قصي بن كلاب ، وفي ذلك يقول الشاعر : —

أَبُو غُبْشَانَ أَظْلَمَ مِنْ قَصِي وَأَظْلَمَ مِنْ بَنِي فَهْرٍ خَزَاعُهُ
فَلَا تَلْحَوْا قَصِيًّا فِي شِرَاهٍ وَلَوْ مَوَا شَيْخَكُمْ إِذْ كَانَ بَاعَهُ

وقال في ذلك آخر : —

إِذَا افْتَخَرْتَ خِرَاعَةً فِي قَدِيمٍ وَجَدْنَا فَخْرَهَا شَرْبَ الْخَمُورِ
وَبَاعْتَ كَعْبَةَ الرَّحْمَنِ جَهْرًا بَرْقٍ ، بِئْسَ مَفْتَخَرُ الْإِنْعُورِ

وقد كانت ولاية البيت في خزاعة ثلثمائة سنة ، واستقام أمر قصي ، وعشر

على من دخل مكة من غير قريش ، وبنى الكعبة ، ورتب قريشا على منازلها
في النسب بمكة ، وبنو الأبطح من قريش ، وهم الأباطح ، وجعل الظاهري ظاهرا
وقريش البطاح : هي قبائل بنى عبد مناف ، وبنى عبد الدار ، وبنى عبد
العزى ، ابني قصي ، وزهرة ، ومخزوم ، وتيم بن مرة ، وجمح ، وسهم ، وعدى ،
وهم لعقة الدم ، وبنو عتيك بن عامر بن لؤى

قريش
البطاح

قريش
الظواهر

وقريش الظواهر : بنو محارب والحارث بن فهر ، وبنو الأدرم بن غالب بن
فهر ، وبنو هصيص بن عامر بن لؤى ، وفي ذلك يقول ذكوان مولى عبد الدار
للضحاك بن قيس الفهري :

تطاوت للضحاك حتى رَدَدَتْهُ إلى نسب في قومه مُتَقَاصِر
فلو شاهدتني من قريش عصابةً قريش بطاح لا قريش الظواهر
ولكنهم غابوا وأصبحت شاهدا فقبَّحْتَ من حامى ذمار وناصر
فريقان منهم ساكن بطن يثرب ومنهم فريق ساكن بالمشاعر

والأحلاف من قريش : بنو عبد الدار بن قصي ، وسهم ، وجمح ، وعدى ،
ومخزوم

والمطيبيون : بنو عبد مناف ، وبنو أسد بن عبد العزى ، وزهرة ، وتيم ،
وبنو الحارث بن لؤى

وفي ذلك يقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي في امرأة : —

ولها في المطيبيين جدود ثم نالت ذوائب الأحلاف
إنها بين عامر بن لؤى حين تدعى وبين عبد مناف

وأخذت قريش الايلاف من الملوك ، وتفسير ذلك الأمن ، وتقرَّشَتْ ،
والتقريش : الجمع ، ومنه قول ابن حَلَزَةَ اليشكري : —

الايلاف
والتقريش

إخوة قرَّشُوا الذنوب علينا في حديث من دهرنا وقديم

ورحلت قريش حين أخذ لها الايلاف من الملوك إلى الشام والحبشة واليمن
والعراق ، وفي ذلك يقول مطرف الخزاعي : -

يا أيها الرجل المحول رحلته هكلاً نزلت بآل عبد مناف
الآخذين العهد من آنافا والراحين برحلة الايلاف

ولقريش أخبار كثيرة ، وكذلك لجرهم وخزاعة وغيرهما من معد ، قد أتينا
على جميعها فيما سلف من كتبنا ، وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعا نذبه بها على
ما سلف ، وسنورد عند ذكرنا تفرق الناس من بابل جملاً من أخبار مكة
وعبد المطلب والحبشة وغير ذلك مما لحق بهذا المعنى ، إن شاء الله .

ذكر جوامع الأخبار ووصف الأرض والبلدان

وحنين النفوس للأوطان

ذكر ذووالدراية أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه - حين فتح الله البلاد
على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك من الأرض - كتب إلى حكيم
من حكماء العصر : إنا أناس عرب ، وقد فتح الله علينا البلاد ، ونريد أن نتبوا
الأرض ، ونسكن البلاد والأمصار ؛ فصِفْ لى المدن وأهويتها ومساكنها ،
وما تؤثره التربة والأهوية في سكانها

كتاب عمر
ابن الخطاب
يستوصف
البلاد

فكتب إليه ذلك الحكيم : اعلم يا أمير المؤمنين أن الله تعالى قد قسم
الأرض أقساماً : شرقاً ، وغرباً ، وشمالاً ، وجنوباً ؛ فما تنهى في التشريق فهو
مكروه لاحتراقه وناريتة وحدته وإحراقه لمن دخل فيه ، وما تنهى مغرباً أيضاً
أضرَّ سكانه لموازاته ما أوغل في التشريق ، وهكذا ما تنهى في الشمال أضرَّ ببرده
وقرّه وثلوجه وآفاته الأجسام فأورثها الآلام ، وما اتصل بالجنوب وأوغل فيه
أحرق بناريتة ما اتصل به من الحيوان ، ولذلك صار المسكون من الأرض جزءاً
يسيراً : ناسب الاعتدال ، وأخذ بحظه من حسن القسمة ، وسأصف لك -

الجواب على
كتاب عمر
بن الخطاب

يأمر المؤمنين - القطع المسكونة من الأرض ؛

أما الشام فسحب وآكام ، وريح وغمام ، وغدق ركام ، ترطب الأجسام ، وصف بلاد الشام
وتبذل الأحلام ، وتصفي الألوان ، لاسيا أرض حصص فانها تحسن الجسم ، وتصفي اللون ، وتبذل الفهم ، وتنزع غوره ، وتجفي الطبع ، وتذهب بماء القريحة ، وتنصب العقول ؛ والشام - يأمر المؤمنين - وإن كانت على ما وصفت لك فهي مسرحة خصب ، ووابل سكب ؛ كثرت أشجاره ، واطردت أنهاره ، وغمرت أعشاره وبه منازل الأنبياء ، والقدس المجتبي ، وفيه جلل أشرف خلق الله تعالى من الصالحين والمتعبدين ، وجباله مساكن المجتهدين والمنفردين

وأما أرض مصر فأرض قوراء غوراء ، ديار الفراعنة ، ومنازل الجبابرة ، وصف أرض مصر
تحمد بفضل نيلها ، وذمها أكثر من حمدها ، هواؤها راكد ، وحرها زائد ، وشرها وارد ، تكدر الألوان ، وتخبئ الفطن ، وتكثر الإحن ، وهي معدن الذهب والجوهر والزمرد والأموال ، ومغارس الغلات ، غير أنها تسمن الأبدان ، وتسود الأبشار ، وتنمو فيها الأعمار ، وفي أهلها مكر ورياء ، وخبث ودهاء ، وخديعة ؛ إلا أنها بلد مكسب لابلد مسكن ؛ لترادف فتنها ، واتصال شرورها

وأما اليمن فيضعف الأجسام ، ويذهب الأحلام ، ويذهب بالرطوبة ، في وصف بلاد اليمن
أهله همم كبار ، ولهم أحساب وأخطار ، ومغايضة خصة ، وأطرافه جذبة ، وفي هوائه انقلاب ، وفي سكانه اغتيال ، وبهم قطعة من الحسن ، وشعبة من الترفه ، وفقرة من الفصاحة

وأما الحجاز فحاجز بين الشام واليمن والتهاشم ، هواؤه حرور ، وليله سهور ، وصف بلاد الحجاز
ينحف الأجسام ، وينحف الأدمغة ، ويشجع القلوب ، ويسيطر الهمم ، ويبعث على الإحن ، وهو بلد محل قحط جذب صنك

وأما المغرب فيقتسى القلب ، ويوحش الطبع ، ويطيش اللب ، ويذهب بالرحمة ، ويكسب الشجاعة ، ويقشع الضراعة ، وفي أهله غدر ، ولهم خب ومكر

ديارهم مختلفة ، وهمهم غير مؤتلفة ، وليدiazهم في آخر الزمان نبأ عظيم ، وخطب
جسيم : من أمر يظهر ، وأحوال تبهر

وصف بلاد
العراق

وأما العراق فَمَنَارُ الشرق ، وسُرَّةُ الأرض ، وقلبها إليه تحادرت المياه ،
وبه اتصلت النضارة ، وعنده وقف الاعتدال ؛ فصفت أمزجة أهله ، ولطُفت
أذهانهم ، واحتدَّت خواطرهم ، واتصلت مسرَّاتهم ؛ فظهر منهم الدهاء ، وقويت
عقولهم ، وثبتت بصائرهم ، وقلب الأرض العراق ، وهو المُجْتَبَى من قديم
الزمان ، وهو مفتاح الشرق ، ومسلك النور ، ومسرح العينين ، ومدنه المدائن
وما والاها ، ولأهله أعدل الألوان ، وأتقى الروائح ، وأفضل الأمزجة ، وأطوع
القرايح ، وفيهم جوامع الفضائل ، وفوائد المبررات ، وفضائل كثيرة ؛ لصفاء
جوهره ، وطيب نسيمه ، واعتدال ثرْبته ، وإغداق الماء عليه ، ورفاهية
العيش به

وأما الجبال فتحشن الأجسام وتغلظها ، وتبلد الأفهام وتقطعها ، وتنفسد
الأحلام ، وتميت الهمم ، لما هي عليه من غِلَظ التربة ، ومتانة الهواء ، وتكاثفه ،
واختلاف مهابة ، وسوء متصرفاته

وصف سكنى
الجبال

والأخلاق والصور - يأمر المؤمنين - تناسب البلد وتحاذيه ، وتقارنه وتوازيه ،
وتوافقه وتضاهيه ، وكل بلد اعتدل هواؤه ، وخف ماؤه ، ولطف غذاؤه ، كانت
صور أهله وخلاتهم تناسب البلد وتحاذيه ، وتشاكل ما عليه أركانه ، وما أسس
عليه بنيانه ، وكل بلد يزول عن الاعتدال انتسب أهله إلى سوء الحال

تأثير البيئة
الطبيعية

وأما خراسان فتكبر الهام ، وتعظم الأجسام ، وتلطف الأحلام ، ولأهلها
عقول وهمم طامحة ، وفيهم غَوْص وتفكير ، ورأى وتقدير

وصف بلاد
خراسان

وأما بلد فارس فخصب الفضاء ، رقيق الهواء ، متراكم الماء ، معتمر
بالأشجار ، كثير الثمار ، وفي أهله شُحٌّ ، ولهم خب ، وغرائزهم سيئة ، وهمهم
دنيئة ، وفيهم مكر وخداع

فارس

وأما بلد خوزستان فهي كدرة الأهواء ، تفسد الأحلام ، وتبلى الأفهام ،
وتخبث الهمم ، وتستأصل الكرم ، تساق أهله سوق الأنعام ، وهم
الهمج الطغام

وأما أرض الجزيرة فتناسب البر بالهواء اللطيف ، وفيها خصب وسرح ، أرض الجزيرة
ولأهلها بأس ومراس

والبر - يا أمير المؤمنين - أفضل قطع الأرض وأسناها ، وأشرفها وأعلاها ،
نحو الأنجاد والتهاثم ، لحماية الهواء الأقداء عن سكانه ، ودفعه الآفات عن قطانه ،
وسماحة المشوى ، وتهذيب الماء ، وصحة المتئسم ، وارتفاع الأكدار ،
وذهاب الأضرار

واعلم - يا أمير المؤمنين - أن الله تبارك وتعالى قسم الأرض أقساما فضل
بعضها على بعض ، فأفضل أقسامها العراق ، فهو سيد الآفاق ، وقد سكنه أجيال
وأُم ذوو كمال

وأما الهند والصين وبلاد الروم فلا حاجة بي إلى وصفها لك ؛ لأنها منازل
شاسعة ، وبلدان نائية كافرة طاغية .

وفي الذي ذكرته لك ما أشقى بك إلى ما شمرت إلى علمه ، وكل ما وصفته
في هذه البلدان فهو الأعم من أمور أهلها ، والأغلب على أحوالهم ؛ فان وجد فيهم
أحد بخلاف ذلك فهو النادر يا أمير المؤمنين ، والحكم للأغلب .

قال السعدي : وذكر جماعة من أهل العلم بالسير والأخبار أن عمر بن
الخطاب رضی الله تعالى عنه لما أراد الشخوص إلى العراق - حين بلغه ما عليه
الأعاجم من الجمع ببلادهم - سأل كعب الأخبار عن العراق ، فقال : يا أمير المؤمنين
إن الله لما خلق الأشياء ألحق كل شيء بشيء ، فقال العقل : أنا لاحق بالعراق ،
فقال العلم : وأنا معك ، فقال المال : وأنا لاحق بالشام ، فقالت الفتن : وأنا
معك ، فقال الخصب : وأنا لاحق بمصر ، فقال الذل : وأنا معك ، فقال الفقر :

سؤال عمر
لكعب الأخبار
عن العراق
وجواب كعب

وأنا لاحق بالحجاز ، فقاتت القناعة : وأنا معك ، فقال الشقاء : وأنا لاحق بالبوادي ، فقالت الصحة : وأنا معك .

قال المسعودي : وأوسط الأقاليم الإقليم الذي وُلِدْنَا به ، وإن كانت الأيام أنأت بيننا وبينه ، وساحت مسافتنا عنه ، وولدت في قلوبنا الحنين إليه ، إذ كان وطننا ومسقطنا ، وهو إقليم بابل ، وقد كان هذا الإقليم عند ملوك الفرس جليلا وقدره عظيما ، وكانت عنايتهم إليه مصروفة ، وكانوا يشتون بالعراق ، وأكثرهم يصيفون بالجبال ، وينتقلون في الفصول إلى الصرود من الأرض والحرور ، وقد كان أهل المروآت في الإسلام كأبي دُلف القاسم بن علي العجلي وغيره يشتون في الحرور ، وهو العراق ، ويصيفون في الصرود ، وهي الجبال ، وفي ذلك يقول أبو دلف :

وإني امرؤ كسروىُّ الفعّال أصيفُ الجبال وأشتو العراقا

ولما خص به هذا الإقليم من كثرة مراققه ، واعتدال أرضه ، وغضارة عيشه ، ومادة الوافدين إليه ، وهما دجلة والفرات ، وعموم الأمن فيه ، وبُعد الخوف عنه ، وتوسطه الأقاليم السبعة - كانت الأوائل تشبهه من العالم بالقلب من الجسد ، لأن أرضه من إقليم بابل الذي تشعبت الآراء عن أهله بحكمة الأمور كما يقع ذلك عن القلب ، وبذلك اعتدلت ألوان أهله وأجسامهم ، فسلموا من شقرة الروم والصقالبة ، وسواد الحبشة ، وغلاظ البربر ومن جفا من الأمم ، واجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار ، وكما اعتدلوا في الجبلة ، كذلك لطفوا في الفطنة ، والتمسك بمحاسن الأمور ، وأشرف هذا الإقليم مدينة السلام ، ويعز على ما أصارتني إليه الأقدار من فراق هذا المصبر الذي عن بقعته فصلنا ، وفي قاعته تجمعنا ، لكنه الزمن الذي من شيمته التشتيت ، والدهر الذي من شروطه الإبانة ، ولقد أحسن أبو دلف العجلي حيث يقول : -

أيَا نَكْبَةِ الدهر التي طَوَّحَتْ بنا أيادي سبَا في شَرْقِهَا والمغرب

وصف المؤلف
لموطنه إقليم
بابل

قفي بالتي نهوى فقد طرت بالتي إليها تناهت راجعات المصائب
وقد ذكر الحكماء - فيما خرجنا إليه من هذا المعنى - أن من علامة وفاء المرء
ودوام عهده ، حنينه إلى إخوانه ، وشوقه إلى أوطانه ، وبكائه على ما مضى من
زمانه ، وأن من علامة الرشد أن تكون النفوس إلى مولدها مشتاقة ، وإلى مسقط
رأسها تواقّة ، وللإلف والعادة قطع الرجل نفسه لصلّة وطنه

وقال ابن الزبير : ليس الناس بشيء من أقسامهم أفنّع منهم بأوطانهم ،
وقال بعض حكماء العرب : عمّر الله البلدان بحب الأوطان ، وقالت الهند : حرمة
بلدك عليك كحرمة والديك ، لأنّ غذاءك منهما ، وغذاءها منك ، وقال آخر :
أولى البلدان بصيانتك بلد رضعت ماءه ، وطعمت غذاءه ، وقال آخر : ميلك إلى
موضع مولدك من كرم محدّك ، وقال بقراط : يداوى كل عليل بعقاقير أرضه ،
فإن الطبيعة تتطلع إلى هواها ، وتنزع إلى غذائها ، وقال أفلاطون : غذاء الطبيعة
من أنفع أدويتها ، وقال جالينوس : يتروّح العليل بنسيم أرضه ، كما تنبت الحبة
ببلل الأرض .

والنفوس في علة حنينها إلى الأوطان كلام ليس هذا موضعه ، وقد ذكرناه
في كتابنا المترجم بـ « سر الحياة » وفي كتاب « طب النفوس »

ولولا تقييد العلماء خواطرم على الدّهر لبطل أول العلم ، وضاع آخره ؛ إذ
كان كل علم من الأخبار يُستخرج ، وكل حكمة منها تستنبط ، والفقه منها
يستشار ، والفصاحة منها تستفاد ، وأصحاب القياس عليها يبنون ، وأهل المقالات
بها يحتجون ، ومعرفة الناس منها تؤخذ ، وأمثال الحكماء فيها توجد ، ومكارم
الأخلاق ومعاليها منها تقتبس ، وآداب سياسة الملك والحزم منها تلتبس ، وكل
غريبة منها تعرف ، وكل عجيبة منها تستطرف ، وهو علم يستمتع بسماعه العالم
والجاهل ، ويستعذب موقعه الأحق والعقل ، ويأنس بمكانه وينزع إليه الخاصي
والعامي ، ويميل إلى رواياته العربي والعجمي ،

الحنين إلى
الأوطان

منزلة علم
الأخبار
وفوائده
الكتب

وبعد ؛ فإنه يوصل به كل كلام ، ويتزين به في كل مقام ، ويتجمل به في كل مشهد ، ويحتاج إليه في كل محفل ، فضيلة علم الأخبار بينة على كل علم ، وشرف منزلته صحيح في كل فهم ، فلا يصبر على فهمه وتيقن مافيه وإيراده وإصداره إلا إنسان قد تجرد له ، وفهم معناه ، وذاق ثمرته ، واستسفر من غرره ونال من سروره ، وقد قالت الحكماء : الكتاب نعم المجلس ، ونعم الذخر : إن شئت ألهتك نوادره ، وأضحكتك بوادره ، وإن شئت أشجكت مواعظه ، وإن شئت تعجبت من غرائب فوائده ، وهو يجمع لك الأول والآخر ، والغائب والحاضر ، والناقص والوافر ، والبادي والحاضر ، والشكل وخلافه ، والحسن وضده ، وهو ميت ينطق عن الموتى ، ويترجم عن الأحياء ، وهو مؤنس ينشط بنشاطك ، وينام بنومك ، ولا ينطق معك إلا بما تهوى ، ولا نعلم جارا أبرّ ، ولا خليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا معالما أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية ، وأقل خيانة ، ولا أبدى نفعاً ، ولا أحمد أخلاقاً ، ولا أدوم سروراً ، ولا أسكت غيبة ، ولا أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافاة ، ولا أخف مؤنة ؛ منه : إن نظرت إليه أطال إمتاعك ، وشحذ طبعك ، وأيد فهمك ، وأكثر علمك ، وتعرف منه في شهر ، مالا تأخذه من أفواه الرجال في دهر ، ويغنيك عن كد الطلب ، وعن الخضوع لمن أنت أثبت منه أصلاً ، وأسمح فرعاً ، وهو المعلم الذي لا يحفوك ، وإن قطعت عنه المائدة لم يقطع عنك الفائدة ، وهو الذي يطيعك بالليل طاعته لك بالنهار ، ويطيعك في السفر كطاعته لك في الحضر ، وقد قال الله تبارك وتعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) كإخباره عن نفسه بالكرم ، وفي ذلك يقول بعض أهل الأدب : —

لما علمت بأنني لسب أعجزهم فوثاً ولا هراً باقمت أحتجب

فصرت بالبيت مسروراً به جذلاً حاوى البراءة لا شكوى ولا شغب
فرداً يحدثنى حقاً وينطق لى عن علم ما غاب عنى منهم الكتب
المؤمنون هم اللائى عنيت بهم فليس لى فى جليس غيرهم أرب
لله در جليسى لاجليسهم فذا عشيرهم للسوء يرتقب

وقد كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يجالس
الناس ، ويزاول مقبرة ، وكان لا يرى إلا وفى يده كتاب يقرؤه ، فسئل عن
ذلك ، فقال : لم أر واعظاً أوعظ من قبر ، ولا ممتعاً أمتع من كتاب ، ولا شيئاً
أسلم من الوحدة ، فقليل له : قد جاء فى الوحدة ما جاء ؛ فقال : ما أفسدها للجاهل ،
وقد قال بعض الشعراء فيمن يجمع الكتب ولا يعلم ما فيها :

زَوَامِلُ لِلْأَسْفَارِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ بِجَيِّدِهَا إِلَّا كَعِلْمِ الْأَبَاعِرِ (١)
لِعَمْرُكَ مَا يَدْرِى الْبَعِيرُ إِذَا غَدَا بِأَحْمَالِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِى الْغَرَائِرِ

(١) حفظى « زوامل للأسفار » وسياق المؤلف يؤكده ما أثبتناه فى الأصل

ذكر تنازع الناس

في المعنى الذى من أجله سمي اليمن يمنا والعراق عراقا

والشام شاما والحجاز حجازا

تنازع الناس في اليمن وتسميته ؛ فمنهم من زعم أنه إنما سمي يمنا لأنه عن
يمين الكعبة ، وسمى الشام شاما لأنه عن شمال الكعبة وسمى الحجاز حجازا
لأنه حاجز بين اليمن والشام ؛ نحو ما أخبر الله عز وجل عن الفرق الذى بين بحر
القيزم وبحر الروم بقوله عز وجل : (وجعل بين البحرين حاجزا) وإنما سمي العراق
عراقا لمصب المياه إليه كالدجلة والفرات وغيرها من الأنهار ، وأظنه مأخوذا من
عراقى الدلو وعراقى القرية

ومنهم من زعم أن اليمن إنما سمي يمنا ليمنه ، والشام شاما لشؤمه ، وهذا
قول يعزى إلى قطرب النحوى فى آخرين من الناس

ومنهم من رأى أنه إنما سمي يمنا لأن الناس حين تفرقت لغاتهم ببابل
تيامن بعضهم يمين الشمس وهو اليمن ، وبعضهم تشاءم فوسم له هذا الاسم ،
وسندكر تفرق هذه القبائل من أرض بابل بعد هذا الموضع ، وبعض ما قالوه
فى ذلك من الشعر ، عند سيرهم فى الأرض واختيارهم البقاع

وقيل : إنما سمي الشام شاما لشامات فى أرضه بيض وسود ، وذلك فى
الترب والبقاع وأنواع النبات والأشجار ، وهذا قول الكلبي

وقال الشرقى بن القطامى : إنما سمي الشام شاما لسام بن نوح لأنه أول من
نزله وقطن فيه ، فلما سكنته العرب تطيرت من أن تقول سام ، فقالت شام
وقيل : إن سامر إنما سميت بذلك إضافة إلى سام

وقيل : إن أول من سكنها من خلفاء بني العباس سمّاها بهذا الاسم ،
وإنها سرور لمن رآها
وقد ذكر في أسماء هذه المعقل والبقاع والأمصار وجوه غير ما ذكرنا قد
أتينا عليها فيما سلف من كتبنا

ذكر اليمن وأنسابها وما قاله الناس في ذلك

اختلاف الناس في أنساب قحطان ؛ فحكى هشام بن الكلبي عن أبيه
والشرقي بن القطامي أنهما كانا يذهبان إلى أن قحطان بن الهميسع بن نبت -
وهو نابت - بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، ويحتجان لذلك بوجوه من الأخبار :
منها ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ما رواه هشام عن أبيه عن ابن
عباس ، ورواه الهيثم عن الكلبي عن أبي صالح أن النبي صلى الله عليه وسلم مر
على فتية من الأنصار يتناصرون ، فقال : « ارموا يا بني إسماعيل فان أباكم كان
راميا ، ارموا وأنا مع ابن الأدرع » رجل من خزاعة ، فرمى القوم نباهم ،
وقالوا : يا رسول الله ، من كنت معه فقد نضل !! فقال « ارموا وأنا معكم جميعا »
قال المسعودي : وسائر ولد قحطان من حمير وكهلان يأبى هذا القول وينكره ،
وقد ثبت أن قحطان هو يقطن ، وإنما عرب فقل له قحطان

وحكى ابن الكلبي أن اسم يقطن في التوراة الجبار بن عابر بن شالخ بن
إرفخشذ بن سام بن نوح ، والواضح من أنساب اليمن ، وما تدين به كهلان
وحمير ابنا قحطان إلى هذا الوقت قولاً وعملاً ، وينقله الباقي عن الماضي والصغير
عن الكبير ، والذي وجدت عليه التواريخ القديمة للعرب وغيرها من الأمم ،
وعليه وجدت الأكثر من شيوخ ولد قحطان من حمير وكهلان بأرض اليمن والتهائم
والأنجاد وبلاد حضرموت والشحر والأحقاف وبلاد عمان وغيرها من الأمصار ؛
أن الصحيح في نسب قحطان أنه قحطان بن عابر بن شالخ - وهو قينان - بن
إرفخشذ بن سام بن نوح ، وقد كان لعابر ثلاثة أولاد : فالغ ، وقحطان ، وملكان ،

والخضر عليه السلام من ولد ملكان في قول كثير من الناس ، وولد لقحطان أحد
وثلاثون ذكراً وأمهم حتى بنت روق بن فزارة بن سعد بن سويد بن عوص بن
إرم بن سام بن نوح ؛ فولد قحطان يعرب بن قحطان ، وولد يعرب يشجب ،
وولد يشجب ولدين : أحدهما عبد شمس - وهو سبأ بن يشجب - وإنما سمي
سبأ لسببه السبايا ، فولد سبأ حمير وكهلان ابني سبأ ، والثاني لم يعقب ، وإنما
العقب من ولد هذين - وهما حمير وكهلان - فهذا المتفق عليه عند أهل الخبرة
بهما ، والمتيقن لديهم

لغة إسماعيل
ابن إبراهيم

وكان الهيثم بن عدى الطائي يقول : إسماعيل تكلم بلغة جرهم ؛ لأن إسماعيل
كان سرياني اللسان على لغة أبيه خليل الرحمن حين أسكنه هو وأمه هاجر بمكة
على ما ذكرنا ، فصاهر جرهم ، ونشأ على لغتها ، ونطق بكلامها .

ونزار تأبى أن يكون إسماعيل نشأ على لغة جرهم ، ويقولون : إن الله عز
وجل أعطاه هذه اللغة ، وذلك أن إبراهيم خلفه هو وأمه هاجر ، وإسماعيل ابن
ست عشرة سنة ، وقيل : ابن أربع عشرة سنة ، في واد غير ذي زرع ، ولا
أنيس ، فحفظهما الله تعالى ، وأنبع لهما زمزم ، وعلم إسماعيل هذه اللغة العربية .

قالوا : ولغة جرهم غير هذه اللغة ، ووجدنا لغة ولد قحطان بخلاف لغة ولد
نزار بن معد ، فهذا يقتضي بإبطال قول من قال : إن إسماعيل أعرف بلغة جرهم ،
ولو وجب أن يكون إسماعيل عربى اللسان لأجل جرهم لوجب أن تكون لغته موافقة
للغة جرهم ، أو لغيرها من نزل مكة ، وقد وجدنا قحطان سرياني اللسان ، وولده
يعرب بخلاف لسانه ، وليس منزلة يعرب عند الله أعلى من منزلة إسماعيل ، ولا
منزلة قحطان أعلى من منزلة إبراهيم ، فأعطاه فضيلة اللسان العربي التي أعطىها
يعرب بن قحطان .

ولولد نزار وولد قحطان خطب طويل ومناظرات كثيرة لا يأتي عليها كتابنا
هذا ، في التنازع والتفاخر بالأنبياء والملوك ، وغير ذلك مما قد أتينا على ذكر جل

من حجاجهم وما أدلى به كل فريق منهم ممن سلف وخلف ، وكذلك مناظرات
السودان والبيضان والعرب والعجم ومناظرات الشعوبية في كتابنا «أخبار الزمان»
وزعم الهيثم بن عدى أن جرهم بن عابر بن سبأ بن يقطن هو قحطان ، وتأول
الهيثم قول النبي صلى الله عليه وسلم حين قال للرملة من الأنصار «ارموا يابني إسماعيل»
أنه عليه السلام نسبهم إلى إسماعيل من جهة الأمهات ، وما نالهم من الولايات من
ولد إسماعيل ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يزيل نسبا قد ثبت ، ولا يثبت
نسب قوم إلى غير آبائهم ، وقد نقلوا ذلك قولاً وعملاً ، وقد روى عنه صلى الله
عليه وسلم أن سائلاً سأله من مراد عن سبأ : أرجلا كان أو امرأة أو وادياً أو
جبلًا ، فقال له : « كان رجلاً ، ولد له عشرة فتشاءم أربعة وتيامن ستة ، فالذين
تشاءموا لحم وجذام وعاملة وغسان ، والذين تيامنوا حمير والأزد ومدحج وكنانة
والأشعريون وأمار الذين هم بجيلة وخثعم » وقال ابن المنذر : هو أمار بن إياس
ابن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ .

جرهم هو
قحطان عند
الهيثم بن عدى

نسب أمار

قال المسعودي : وقد تنوزع في نسب أمار ؛ فذهب الأكثر إلى أن أماراً
وإياداً وربيعة ومضر بنو نزار بن معد بن عدنان ، وإنما دخلوا في اليمن فأضيفوا
إليه ، وما ذكرناه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيمن تيامن وتشاءم فمن أخبار
الآحاد ، وليس بجيئه محيى الاستفاضة التي يقطع بها العدد ويثبت بها الحكم .
وللناس في هؤلاء كلام كثير ، وقد ذكر هشام عن أبيه السكبي قال : كان
يقال لسائر ولد سبأ السبئيون ، ولم يكن لهم قبائل تجمعهم دون سبأ .

وسند كرفيما يرد من هذا الكتاب خبر عمرو بن عامر مزيقيا ، وخبر طريفة
الكاھنة ، وخبر عمران السكاھن ، وهو أخو عمرو بن عامر ، وأخبار العریم
والسيل ، وما كان من كھانتھما في أمر السد وسيل العرم ، وتفرق القبائل
من مأرب ، ومن لحق بعمان وشنوءة والسراة والشام وغير ذلك من بقاع الأرض .

قد تم بحمد الله تعالى وحسن توفيقه مراجعة الجزء الأول من
كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » للمسعودي . ويليه
- إن شاء الله تعالى - الجزء الثاني مفتتحاً بـ « ذكر اليمن وملوكها ،
ومقدار سنيها » ، نسأل الله أن يمن بأكمله ، إنه على ذلك قدير

